السجل العلمي
لمؤتمر مؤتمر ظاهرة التكفير
المحور الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحور الثاني

الجذور الفكرية لظاهرة التكفير عند المسلمين

د. أبو بكر محمد زكريا

الأستاذ المساعد، ورئيس قسم الفقه

الجامعة الإسلامية (الحكومية)

كوشتيا، بنغلاديش

الجذور الفكرية لظاهرة التكفير عند المسلمين

المقدمــة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[1].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[2].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[3].. أما بعد:

فإن من أهم مسائل الاعتقاد التي يعنى بالبحث عنها في كل فكر أو مذهب من المذاهب المعاصرة مصادره في التلقي وجذوره الفكرية، إذ فيهما يعرف صحة المذهب من بطلانه، وأصل ذلك الفكر ومستقاه، فبقدر قرب المذاهب من القرآن الكريم والسنة النبوية يحكم بصحتها وقربها من الصواب، وبقدر بُعدها عنهما يحكم ببطلانها وبعدها عن الصواب، ولا يخلو فكر أو مذهب من المذاهب من أصل يرجع إليه ومصدر يُستَنَدُ إليه في مسائله، ومما ابتليت به هذه الأمة فئة "أصحاب التكفير" التي تحمل الأفكار المخالفة لما عليه الكتاب والسنة وسلف هذه الأمة في أمور الدين، فقد كثر

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧٠–٧١.

الشر والفساد من أجلهم في البلاد والعباد، ومن هنا استدعى الأمر البحث عن أهم الجذور التي تستمد منها هذه الفئة أفكارها وعقائدها في مثل هذا الاعتقاد، حتى يتبين الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

أهمية البحث:

إن للبحث في الجذور الفكرية لظاهرة التكفير أهمية كبيرة:

أولها: أن هذه الفتنة العظيمة – فتنة التكفير – التي مزقت جسد الأمة الإسلامية هي أول البدع والفتن ظهوراً في الإسلام، أي أنها منبع لكثير من الانحرافات العقدية والسلوكية والخلقية والنفسية التي عانت منها الأمة المسلمة على مدى أربعة عشر قرناً. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:: "أول البدع ظهوراً في الإسلام، أظهرها ذماً في السنة والآثار: بدعة الحرورية المارقة، فإن أولهم قال للنبي ﷺ في وجهه: (اعدل يا محمد! فإنك لم تعدل[١])، ... والأحاديث عن النبي ﷺ مستفيضة في وصفهم وذمهم. وقال أحمد بن حنبل: "صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه. قال النبي ﷺ: (يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية[٢]).."[٣].

ثم إن الرسول ﷺ حين حذر من السبل والأهواء لم يسم طائفة ويفصل فيها وفي أوصافها إلى آخر الزمان سوى الخوارج وأمثالهم من (.. حدثاء

---

(١) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، مطبعة إحياء الكتب العربية، د.ت. برقم (١٧٢)؛ والإمام أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، بيروت، د.ت. (٣٥٤/٣).

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، دار المعرفة، بيروت، لبنان، المطبوع مع فتح الباري، بمراجعة الشيخ عبد العزيز بن باز، وترقيم فؤاد عبد الباقي، وتصحيح قصي محي الدين الخطيب. برقم (٣٦١٠).

(٣) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد وابنه محمد، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤١٦ هـ. (٧١/١٩–٧٢).

الأسنان سفهاء الأحلام..)[1] و(يقتلون أهل الإسلام و يدعون أهل الأوثان)[2] إلى آخر ما ذكر من وصفهم، مع أنهم مسلمون ذوو صفات عالية في التدين، فهم (يقولون من خير قول البرية)[3]، (تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم)[4]، وهم أصحاب غيرة وحرقة على الدين، دافعهم إنكار المنكر، والجهاد في سبيل الله، لكن الغلو مهلك، حين تجاوزوا السنة، فلم يأخذوا بوصايا النبي ﷺ ونهج السلف الصالح في مواجهة المفاسد وعلاج الأخطاء والتعامل مع الولاة والأحداث.

ثانيها: أن ظاهر تمسكهم بالدين يوهم عموم الناس، ومن لا فقه له بأنهم أحق الناس بالدين، وبالإسلام، وهم في الحقيقة على غير ذلك. ولذلك فهم يشتبهون على كثير من الناس. ولما سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: "أكفارٌ هم ؟ قال من الكفر فروا. فقيل: فمنافقون هم ؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، وهم يذكرون الله بكرة وأصيلاً. قيل: من هم ؟ قال: قوم أصابتهم فتنة فعموا وصموا"[5]. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: "هم شرار الخلق"، وقال: "إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين"[6].

ثالثها: أنهم فارقوا جماعة المسلمين وأئمتهم وذلك بخروجهم عن السنة،

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٣٦١١).
(٢) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٣٣٤٤).
(٣) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٣٦١١).
(٤) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٥٠٥٨).
(٥) عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ (١٠/١٥٠)، برقم (١٨٦٥٦).
(٦) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب اسْتِتَابَةِ الْمُرْتَدِّينَ...، باب قَتْلِ الْخَوَارِجِ وَالْمُلْحِدِينَ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ؛ البغوي، شرح السنة (٥/٢٣٧

وجعلهم ما ليس بسيئة سيئة أو ما ليس بحسنة حسنة، وهذا هو الذي أظهروه في وجه النبي ﷺ حيث قال له ذو الخويصرة التميمي: "اعدل فإنك لم تعدل"، حتى قال له المصطفى عليه الصلاة والسلام (ويلك ! ومن يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أعدل)[1]. فقوله: "فإنك لم تعدل" جَعْلٌ منه لفعل النبي ﷺ سفهاً وترك عدل، وقوله: "اعدل" أمر له لما اعتقده هو حسنة من القسمة التي لا تصلح، وهذا الوصف تشترك فيه البدع المخالفة للسنة، فقائلها لابد أن يثبت ما نفته السنة، أو ينفي ما أثبتته السنة، ويحسن ما قبحته السنة، أو يقبح ما حسنت السنة... والخوارج جوزوا على الرسول نفسه أن يجور ويضل في سنته، ولم يوجبوا طاعته ومتابعته، وإنما صدقوه فيما بلغه من القرآن دون ما شرعه من السنة التي تخالف – بزعمهم – ظاهر القرآن"[2].

رابعها: "أنهم يكفرون بالذنوب والسيئات غير المكفرة، ويترتب على تكفيرهم بالذنوب استحلال دماء المسلمين وأموالهم، وأن دار الإسلام دار حرب، ودارهم هي دار الإيمان، ... فهذا أصل البدع التي ثبت بنص سنة رسول الله ﷺ وإجماع السلف أنها بدعة، وهو جعل العفو سيئة، وجعل السيئة كفراً... وتولد عنها بغض المسلمين وذمهم ولعنهم واستحلال دمائهم وأموالهم... ومن كفر المسلمين بما رآه ذنباً سواء كان ديناً أو لم يكن ديناً وعاملهم معاملة الكفار فهو مفارق للجماعة..."[3].

خامسها: استفحال وانتشار هذه الظاهرة وتسللها إلى مجتمعنا بفئاته وشرائحه المختلفة يحتم علينا أن تكون لنا وقفة إسهام، بكتابة مثل هذه البحوث

(١) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج: الصحيح، ترقيم: فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأول، ١٤١٢هـ. برقم (١٠٦٤).
(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٩/٧٢-٧٣).
(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٩/٧٣-٧٤).

التي تعالج مثل هذه القضايا الخطيرة، وتوضح لكل مسلم أنه يجب عليه ألا يتعجل في إطلاق التكفير والتفسيق على المعينين أو الجماعات، حتى يتأكد من وجود جميع أسباب الحكم عليه بالكفر وانتفاء جميع موانع التكفير في حقه، وهذا يجعل مسألة التكفير من المسائل التي لا يحكم فيها على شخص أو جماعة إلا العلماء الراسخون، لأن الحكم على المسلم بالكفر وهو لا يستحقه ذنب عظيم، لأنه حكم عليه بالخروج من ملة الإسلام، وأنه حلال الدم والمال، وحكم عليه بالخلود في النار إن مات على ذلك، ولذلك ورد الوعيد الشديد في شأن من يحكم على مسلم بالكفر، وهو ليس كذلك، وقد قال النبي ﷺ: (لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك)[1].

خطة البحث:

مقدمة

الفصل الأول: التكفير، حكمه، وشروطه، وموانعه، فيه مقدمة ومباحث:

مقدمة في حرمة المسلمين على ضوء القرآن والسنة.

المبحث الأول: معنى الكفر والتكفير.

المبحث الثاني: حكم التكفير.

المبحث الثالث: شروط التكفير وموانعه .

المبحث الرابع: مذهب أهل السنة والجماعة في قضية التكفير.

المبحث الخامس: مظاهر التكفير عند المسلمين في العصر الحاضر.

الفصل الثاني: الجذور الفكرية لظاهرة التكفير عند المسلمين، وفيه

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٦٠٤٥).

مبحثان:

المبحث الأول: الجذور الفكرية القديمة.

المطلب الأول: أفكار الخوارج .

المطلب الثاني: أفكار المعتزلة .

المطلب الثالث: أفكار الرافضة.

المبحث الثاني: الجذور الفكرية الحديثة.

المطلب الأول: الأفكار المؤدية إلى التكفير لدى بعض الجماعات والأحزاب المعاصرة.

المطلب الثاني: الجماعات والأحزاب المكفرة.

الخاتمة.

التعريف بعنوان البحث:

كلمة الجذور جمع جذر، وهو أصل كل شيء[1]، وكلمة "الفكرية"، نسبة إلى الفكر، وتعني أفكار الطوائف التي تعتنقها مبتكرة لها أو مقلدة[2]، وكلمة "الظاهرة" من ظهر الشيء ظهوراً، وتعني: الأمر الذي نشأ وظهر واستحق الاهتمام. والتكفير نسبة إلى الكفر، فعنوان البحث يعني إلقاء نظرة تأريخية على التكفير منذ أن ظهر في المجتمع الإسلامي حتى أصبح ظاهرة تنوعت طرقها ومذاهبها، مما يدل على أن فكر الإنسان الناقص والخطاء له حظ وافر من هذا الخطأ الجسيم، وهذا بطبيعة الحال يرشدنا إلى الطريق الصحيح "الوحي الإلهي" المعصوم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

---

(١) إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مصر، الطبعة الثانية. ص(١١٢) مادة جذر.

(٢) د. غالب بن علي عواجي: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وموقف الإسلام منه، دار لينة، مصر. (٤١/١).

الفصل الأول

التكفير، حكمه وشروطه، وموانعه

وتحته مباحث:

المبحث الأول

معنى الكفر والتكفير

الكفر لغةً:

بمعنى التغطية والستر والظلام، وكل شيء غطى شيئاً فقد كفره، يقال لمن غطى درعه بالثوب: قد كفر درعه ويقال للمزارع: "كافرٌ" لأنه يغطي البذر بالتراب، ومنه سمي الكفر الذي هو ضد الإيمان "كفراً"؛ لأن فيه تغطية للحق بجحد أو غيره، وقيل: سمي الكافر "كافراً"؛ لأنه قد غطى قلبه بالكفر(١)، والكفر: ضد الإيمان، ويطلق الكفر على جحود النعمة وهو ضد الشكر(٢).

فالكفر: هو الستر وجحود الحق وإنكاره، والكافر: ضدّ المسلم، والمرتد: هو الذي كفر بعد إسلامه، بقول، أو فعل، أو اعتقاد، أو شكّ(٣).

الكفر شرعاً:

تنوعت عبارات العلماء في تعريف الكفر، منها:

(١) ابن منظور، لسان العرب، نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه: علي شيري، طبعة جديدة محققة، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ، دار احياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان. مادة "كفر".

(٢) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٠٧هـ. ص٦٠٥؛ الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، د.ت، ص٣٦٤؛ الجرجاني، التعريفات، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ ص ١٨٥.

(٣) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، إرشاد أولي البصائر والألباب لنيل الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب، الرياض: أضواء السلف، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ، ص١٩١.

١- كل اعتقاد أو قول أو فعل حَكَمَ الشرع بأنه كفر مخرج من الملة، وهو "نقيض الإيمان"[١] كجحد الربوبية، أو النبوة، أو "جحد ما جاء به النبي ﷺ أو جحد بعضه"[٢]، ومنه الشرك الأكبر. والإعراض عن الدين بالكلية. وجحد شيء مما ثبت في النصوص[٣]، أو معلوم من الدين بالضرورة[٤].

٢- اعتقادات وأقوال وأفعال جاء في الشرع ما يدل أن من وقع فيها ليس من المسلمين، وقد حكى جمع من أهل العلم إجماع العلماء على أن الكفر يكون بمجرد القول أو الفعل[٥].

٣- ولعل حدّ الكفر الجامع لجميع أجناسه وأنواعه وأفراده: هو جحد ما جاء به الرسول ﷺ، أو جحد بعضه، كما أن الإيمان: اعتقاد ما جاء به الرسول ﷺ والتزامه والعمل به جملة وتفصيلاً[٦].

وليعلم أن الكفر كفران[٧]:

أ - كفر يخرج من الملة، وهو (الكفر الأكبر) الموجب للخلود في النار.

(١) الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق عدة من المحققين، طبع مطابع سجل العرب بالقاهرة، طبع الجزء الأول منه في دار القومية العربية للطباعة، ٣١٦٢/٤.

(٢) السعدي: الإرشاد إلى معرفة الأحكام، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٠هـ، ص ٢٠٣، ٢٠٤.

(٣) ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢/٧٨-٧٩).

(٤) ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (١/١٠٦)، و(١٠/٤٣٤-٤٣٥).

(٥) ينظر: الدكتور عبد العزيز آل عبد اللطيف، نواقض الإيمان القولية والعملية، الرياض: دار الوط، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ص(٣٩).

(٦) السعدي، إرشاد أولي البصائر والألباب، لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب، اعتنى به ونسقه وعلق عليه: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ، ص١٩١.

(٧) يراجع: ابن القيم، مدارج السالكين، مراجعة لجنة من العلماء، دار الحديث، القاهرة، (١/٣٦٤)؛ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، أنواع التوحيد، من مجموعة التوحيد لشيخي الإسلام، أحمد بن تيمية، ومحمد بن عبد الوهاب ونخبة من العلماء المسلمين الأفاضل، تحقيق: محمد بشير عيون، مراجعة: عبد القادر الأرناؤوط، دمشق: مكتبة دار البيان، ١٤٠٧هـ، ص٩-١٠.

ب – كفر لا يخرج من الملة، وهو (الكفر الأصغر) أو كفر دون كفر، وهو الموجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود. وعندما تطلق كلمة "الكفر" فإنها غالباً يقصد بها الكفر الأكبر، وأما إن كان المقصود منها غيره، فهذا يفهم من السياق.

معنى التكفير:

وإذا كان الكفر هو: الخروج عن ملّة الإسلام، الموجب للخلود في النار، فإن التكفير هو: إخراج الإنسان عن ملّة الإسلام. فإن كان بحق فهو تكفير ممدوح، وإن كان بغير حق فهو تكفير مذموم.

والتكفير إذا أطلق –كما في هذا البحث– غالباً يقصد به التكفير المذموم[1]، وجرى اصطلاح العلماء والباحثين على هذا، وقد يوصف أصحابه بالتكفيريين، كما يسمى الذين ضلوا في باب القدر (القدرية) ولا مشاحة في الاصطلاح.

(١) فإن هناك تكفيراً شرعياً تحدث العلماء عنه في كتبهم مفصلاً في مباحث الردة.

المبحث الثاني
حكم التكفير وخطورته

حكم التكفير: إن التكفير حق الله ورسوله:

وعلى هذا: فالحكم على أحد بكفر لا يكون إلا بمن حكم الله ورسوله عليه بالكفر، كما أن أي فعل أو قول أو اعتقاد لا يحكم عليه بكفر إلا بنص من الكتاب أو السنة. فمن قال: من فعل كذا فهو كافر أو كفر! قلنا له: أين قول الله ورسوله في ذلك؟ وإلا صار ممن ينازع الله في حقه والرسول في حقه، أو اتهم النبي ﷺ بأنه قصر في تبليغ الرسالة!.

فالكافر من كفره الله ورسوله والأصل في المسلم الإسلام ما لم تقم بينة أوضح من شمس النهار على كفره. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:: "الكفر حكم شرعي متلقىً عن صاحب الشريعة، والعقل قد يُعلم به صواب القول وخطؤه، وليس كل ما كان خطأ في العقل يكون كفرا في الشرع كما أنه ليس كل ما كان صوابا في العقل تجب في الشرع معرفته"[1]. وقال أيضاً: "فلهذا كان أهل العلم والسنة لا يكفرون من خالفهم وإن كان ذلك المخالف يكفرهم؛ لأن الكفر حكم شرعي، فليس للإنسان أن يعاقب بمثله؛...التكفير حق لله فلا يكفر إلا من كفره الله و رسوله[2].

خطورة التكفير:

إن التكفير خطره عظيم وشره جسيم، يعرف ذلك من تحذير النبي ﷺ

(١) ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: د.محمد رشاد سالم، من مطبوعات جامعة الإمام، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ، (١/ ٢٤٢، ٢٤١).

(٢) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني أبو العباس: الرد على البكري (تلخيص كتاب الاستغاثة)، تحقيق: محمد علي عجال، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، (٢/ ٤٩٢).

من إطلاق لفظ الكفر على أي مسلم، و بيّن عاقبة هذا التكفير فقال: (إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما) [1]. وقال: (ومن دعا رجلاً بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه) [2]. وقال: (ومن رمى مؤمناً بكفر فهو كقتله) [3].

فالحكم على الإنسان بالكفر أمر خطير، لا يجوز للإنسان أن يقدم عليه إلا ببرهان واضح، ودليل ساطع، كما جاء في الحديث: (إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان) [4]. فهذه الأحاديث وغيرها فيها التحذير الشديد من الوقوع في التكفير، فكيف يقدم الإنسان على التكفير بالشبهة أو بالمعصية أو بمخالفة الرأي أو غيرها من الأسباب التي لا يستحق صاحبها التكفير؟ إن هذا لمن المصائب العظيمة.

ثم إن التكفير فيه ورطة عظيمة، وله آثار خطيرة تترتب عليه، منها:

- وجوب محاكمته لتنفيذ حكم الردّة عليه بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة والاستتابة.
- تحريم زوجته عليه، وعدم بقائها معه، أو بقاء أبنائه تحت سلطانه.
- إذا مات على ذلك حبط عمله باتفاق العلماء إن كان الحكم عليه صحيحاً.

(١) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب من كفر أخاه من غير تأويل فهو كما قال (١٢٦/٤) برقم (٦١٠٣)؛ مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر (٧٩/١) برقم (٦٠).

(٢) مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم (٧٩/١) برقم (٦١).

(٣) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب من كفر أخاه من غير تأويل فهو كما قال (١٢٧/٤) برقم (٦١٠٥).

(٤) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: سترون بعدي أموراً تنكرونها (٤٢٣/٤) برقم (٧٠٥٦)؛ مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية (١٤٧٠/٣) برقم (١٧٠٩).

- لا تجري عليه أحكام المسلمين، فلا يرث ولا يورث، وإذا مات فلا يغسل ولا يكفن ولا يُصلّى عليه، ولا يُدفن في مدافن المسلمين.
- إذا مات على الكفر وجبت عليه لعنة الله والخلود الأبدي في النار.
- الكافر المرتد أسوأ حالاً من الكافر الأصلي.
- وجوب قتاله حتى يرجع إلى الإسلام.

وهذا كله يدل على أن الحكم بالكفر على إنسانٍ مّا حكم خطير، لما يترتب عليه من آثار، هي في غاية الخطر[1]، ومن هنا جاء احتياط الشرع في مسألة التكفير ومبالغته في ذلك، حيث أوجب التحقق من وجود شروط التكفير وانتفاء موانعه.

---

(١) ينظر في ذلك: د. يوسف القرضاوي، ظاهرة الغلو في التكفير، دار الجهاد ودار الاعتصام، د.ت. ص(٢٣).

المبحث الثالث

شروط التكفير وموانعه

شروط التكفير

إذا كان الكفر حكمًا شرعياً مرده إلى الله ورسوله، فما دل الكتاب والسنة على أنه كفر فهو كفر، وما دل الكتاب والسنة على أنه ليس بكفر فليس بكفر، فليس على أحد بل ولا له أن يكفر أحداً حتى يقوم الدليل من الكتاب والسنة على كفره.

وإذا كان من المعلوم أنه لا يملك أحد أن يحلل ما حرم الله، أو يحرم ما أحل الله، أو يوجب ما لم يوجبه الله تعالى إما في الكتاب أو السنة، فلا يملك أحد أن يكفر من لم يكفره الله في كتابه ولا رسوله في سنته، ولابد في التكفير من شروط أربعة[1]:

- الأول: ثبوت أن هذا القول، أو الفعل، أو الترك كفر بمقتضى دلالة الكتاب أو السنة.
- الثاني: ثبوت قيامه بالمكلف.
- الثالث: بلوغ الحجة.
- الرابع: انتفاء مانع التكفير في حقه.

فإذا لم يثبت أن هذا القول، أو الفعل، أو الترك كفر بمقتضى دلالة الكتاب والسنة، فإنه لا يحل لأحد أن يحكم بأنه كفر، لأن ذلك من القول على الله بلا علم. وإذا لم يثبت قيامه بالمكلف فإنه لا يحل أن يرمى به بمجرد

(١) يراجع: د. عبد الله بن محمد القرني: ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

الظن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[1]. الآية ولأنه يؤدي إلى استحلال دم المعصوم بلا حق. وإذا لم تبلغه الحجة فإنه لا يحكم بكفره لقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[3]. وإذا تمت هذه الشروط الثلاثة، أعني ثبوت أن هذا القول أو الفعل أو الترك كفر بمقتضى دلالة الكتاب والسنة، وأنه قام بالمكلف، وأن المكلف قد بلغته الحجة، ولكن وجد مانع التكفير في حقه فإنه لا يكفر؛ لوجود المانع[4].

موانع التكفير[5]:

١- الجهل: وهو خلو النفس من العلم، فيقول قولاً أو يعتقد اعتقاداً غير عالم بحرمته، كمن يعتقد أن الصلاة غير واجبة عليه، أو أن الله غير قادر على حشر الأجساد إذا تفرقت، والسبب وراء ذلك جهله بوجوب الصلاة وقدرة الله جلّ وعلا. ومن أشهر الأدلة على العذر بالجهل حديث الرجل من بني إسرائيل الذي أمر أهله بإحراقه، حيث قال لبنيه: (إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا، فلما مات فُعِلَ به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية:١٩.

(٣) سورة القصص، الآية: ٥٩.

(٤) العثيمين، محمد بن صالح: مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر السليمان، دار الوطن ودار الثريا، ١٤١٣هـ، (٥٢/٣-٥٤).

(٥) ينظر: د. محمد بن عبد الله بن علي الوهيبي: نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ، دار المسلم، الرياض.، ص (٢٣٥/١-٣٥/٢).

ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك، فغفر له)[1]. "فهذا الرجل ظن أن الله لا يقدر عليه إذا تفرق هذا التفرق... وكل واحد من إنكار قدرة الله تعالى وإنكار معاد الأبدان إن تفرقت كفرٌ، لكنه كان مع إيمانه بالله وإيمانه بأمره وخشيته منه جاهلاً بذلك ضالاً في هذا الظن، فغفر الله له ذلك"[2].

ولكن يجب أن يعلم أن العذر بالجهل إنما يقبل في حقّ من كان في محلٍّ أو حالٍ هو مظنّة أن يجهل فيه هذه الأحكام كمن نشأ في بادية بعيدة، أو كان حديث عهد بكفر، أما من عاش بين المسلمين، يحضر صلواتهم ويسمع خطبهم، ثم يجهل شيئاً من أصول الدين أو أمراً معلوماً منه بالضرورة فلا يعذر بجهله، لأنه متسبب في وجود جهله وعدم إزالته[3].

٢- الخطأ: وهو أن يقصد بفعله شيئاً فيصادف فعله غيرَ ما قصد، كمن يريد رمي غزالٍ فيصيب إنساناً، أو كمن يريد رمي كتاب كفر فيرمي كتاب الله جلَّ وعلا، والأدلة على العذر بالخطأ كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾[4] وقوله ﷺ: (إن اللهُ وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه)[5]. ومثله ما جاء في حديث آخر: (لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح:

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٣٤٨١)؛ ومسلم في الصحيح، برقم (٢٧٥٦).
(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٤٠٩/١١).
(٣) ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٤٠٧/١١).
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥.
(٥) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، مطبعة إحياء الكتب العربية، د.ت. كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي (٦٥٩/١) برقم (٢٠٤٣).

اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح)[1].

٣- الإكراه: وهو إلزام الغير بما لا يريد، ففي هذه الحالة يكون المكرَه في حلٍّ مما يفعله أو يقوله تلبية لرغبة المكرِه دفعا للأذى عن نفسه أو أهله، قال تعالى: ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾[2] وهذا من رحمة الله عز وجل بعباده ولطفه بهم حيث لم يكلفهم ما يشق عليهم، والشروط التي يتحقّق بها وجود وصف الإكراه المعتبر شرعاً هي:

أ- أن يكون التهديد بما يؤذي عادة كالقتل والقطع والحبس والضرب ونحو ذلك.

ب- أن يكون المكرِه قادراً على تحقيق ما هدّد به، والمكرَه عاجزاً عن الذّب عن نفسه بالهرب أو بالاستغاثة أو المقاومة ونحو ذلك.

ج- أن يغلب على ظن المكرَه وقوع الوعيد، إن لم يفعل ما يطلب منه[3].

٤- التأويل: المتأول حكمه من حيث العموم هو حكم الجاهل، إلا أن المتأول جاهل مركب، وهو مع جهله بالحق يدعي أن ما هو عليه هو الحق، ولذلك يكفي في الجاهل مجرد بلوغ الحجة، أما المتأول فلا يكفي ذلك بل لابد مع ذلك من إزالة شبهته. ويستدل على هذا بقصة الرجل من بني إسرائيل، قال ابن الوزير: "وهذا أرجى حديث لأهل الخطأ في التأويل"[4]،

---

(١) مسلم، الصحيح، برقم (٢٧٤٧). وينظر الاستدلال به عند الشيخ محمد بن صالح العثيمين، مجموع فتاوى ورسائل، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الوطن ودار الثريا، طبعة ١٤١٣ هـ، (١٢٦/٢، ١٣٥-١٣٦).

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

(٣) ينظر: الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، المهذب في الفقه، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت. (٤/٣)، ابن قدامة المقدسي، موفق الدين عبد الله بن أحمد: الكافي في فقه الإمام أحمد، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، (١١٢/٣).

(٤) ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي، إيثار الحق على الخلق، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٩٨٧ هـ، ص(٣٩٤).

ويقول شيخ الإسلام: "فهذا الرجل شك في قدرة الله... لكن كان جاهلاً لا يعلم ذلك، وكان مؤمناً يخاف الله أن يعاقبه، فغفر له بذلك، والمتأول من أهل الاجتهاد الحريص على متابعة الرسول ﷺ أولى بالمغفرة من مثل هذا"(١). وليعلم أن التأويل المعتبر في هذا المقام هو ما كان له وجه في الشرع واللغة العربية، أما إن كان لا يعتمد على شيء من القرائن الشرعية أو اللغوية فهو غير معتبر شرعاً كتأويلات الباطنية والفلاسفة ونحوهم(٢).

تلك هي موانع التكفير، وهي تدلنا على مبلغ حرص الشرع على وجوب التحقق من وقوع الكفر من فاعله، حتى لا يسفك دم معصوم بالتهمة والشك، وفي ذكر هذه الموانع درس للذين يُكَفِّرون دون اعتبار لتوافر شروط التكفير وانتفاء موانعه، لأنه من تأكد دخوله في الإسلام لا يجوز إخراجه منه إلا ببينة توجب ذلك، وهذا ليس لعامة الناس، بل هو من شأن العلماء الراسخين في العلم والقضاة وولي الأمر، فهم الذين يحكمون على الأشخاص، لمعرفتهم بالشروط والموانع ونحو ذلك.

والواجب على المسلم إذا رأى أحداً من إخوانه المسلمين قد وقع في عمل مكفر، أن يبين له أن عمله هذا كفرٌ، وينصحه بتركه بالأسلوب الحسن، فإذا لم يترك عمله الذي أوجب كفره أجريت عليه أحكام الكفار، وهو متوعدٌ بما توعد الله به من مات على كفره من الكفار بالخلود في النار(٣).

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٣/٢٣١).

(٢) ينظر: ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي، العواصم والقواصم، العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٥ هـ، (٤/١٧٦).

(٣) انظر: فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، الرياض: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، (٢/١٣٩).

المبحث الرابع
مذهب أهل السنة والجماعة في قضية التكفير

افترق الناس في قضية التكفير، فذهب المرجئة وبعض المتفقهة وبعض المتصوفة إلى أن من تلفظ بالشهادتين لا يمكن تكفيره بحال، بل قالوا: إنه لا يجوز تكفير شخص بعينه، وإنما إطلاق وصف الكفر يكون على الأعمال، وعندهم أن سلطة الحكم على الأشخاص بالكفر ليست للأفراد، بل للحاكم والقاضي المسلم. وهذا غاية التفريط[1].

وذهب الوعيدية – الخوارج والمعتزلة والقدرية ونحوهم – إلى التكفير بالكبيرة، أو عدم الحكم بإسلام من نطق بالشهادتين، وصلى وصام وأدى فرائض الإسلام، ما لم يتحققوا من إسلامه بشروط حدّدوها، لم ترد في الكتاب ولا في السنة. وهذا غاية الإفراط[2]. وبين هؤلاء وهؤلاء اتجاهات متباينة.

وأما أهل السنة والجماعة فقد هداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه، لالتزامهم بالدليل الشرعي في وصف الفعل وفي حكم الفاعل، فالتزموا بالنصوص الشرعية في تحديد حكم الفعل، وتحديد ما هو كفر وما ليس بكفر. والتزموا بها في تحديد شروط وموانع تكفير المعين. فلم يقولوا بالتكفير بالعموم دون النظر في تحقيق شروط التكفير وانتفاء موانعه في حق المعين، ولم يتوقفوا عن إثبات وصف الإسلام لمن ظهر منه إرادة الدخول في الإسلام، أو كان الظاهر منه التزامه به. بل التزموا بالحق في ذلك كله. ولم

(١) ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٢/٤٦٦–٥٠١).
(٢) ينظر: المصدر نفسه، وينظر أيضاً: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص(٣١٨–٣٢٢).

يضربوا النصوص بعضها ببعض كما هو شأن مخالفيهم. ثم إن أهل السنة والجماعة لا يكفرون أهل البدع على العموم، فإن الحكم على أهل البدع بالتكفير على قسمين:

القسم الأول: الحكم العام:

وهو الحكم على المقالة أو على الفرقة بالكفر، فيقال: فرقة كذا كافرة، ومن قال كذا فهو كافر. هذا الأمر لابد أن يكون مضبوطا بالكتاب والسنة؛ لأن الكفر كما قدمنا حكم شرعي لا يكون إلا من الكتاب والسنة. وقد حكم العلماء على مقالات أنها كفر وعلى فرق أنها فرق كفر. مثل:

١ – من قال القرآن مخلوق فهو كافر، قال سفيان: من قال القرآن مخلوق فهو كافر[١].

٢ – تكفير الجهمية: فقد ورد عن كثير من السلف القول بتكفير الجهمية لما أحدثوه من أقوال في حقيقتها كفر محض[٢]. هذا وقد كان سلف الأمة وسادات الأئمة يرون كفر الجهمية أعظم من كفر اليهود[٣].

القسم الثاني: الحكم على معين في هذه الفرق:

مع أن العلماء قد حكموا على الجهمية بالكفر وعلى من قال مقالتهم بالكفر؛ لم يحكموا على معين بالكفر، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:: "والعلماء قد تنازعوا في تكفير أهل البدع والأهواء وتخليدهم في النار...

(١) الحكمي: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، من مطبوعات دار الإفتاء بالرياض. (١/٢٧٣).

(٢) ابن القيم: اجتماع الجيوش الإسلامية، تحقيق: عواد عبد الله المعتق، الطبعة الثالثة: ١٤٠٩هـ، مكتبة الرشد، الرياض، ص(١٤٤).

(٣) د. محمد خليل هراس: شرح القصيدة النونية، الفاروق الحديثية للطباعة والنشر، مصر، لصاحبها عصام الدين سعد سالم، د.ت. (١/١٤٧).

والتحقيق في هذا أن القول قد يكون كفرا كمقالات الجهمية الذين قالوا: إن الله لا يتكلم، ولا يرى في الآخرة. ولكن قد يخفى على بعض الناس أنه كفر، فيطلق القول بتكفير القائل؛... ولا يكفر الشخص المعين حتى تقوم عليه الحجة..." [(١)].

وقال أيضا: "ليس لأحد أن يكفر أحدا من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة وتبين له المحجة، ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة" [(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/٦١٨، ٦١٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٥٠٠).

المبحث الرابع
مظاهر التكفير عند المسلمين في العصر الحاضر

من مظاهر التكفير عند المسلمين في العصر الحاضر:

١- التكفير بالمعصية.
٢- تكفير الحاكم بغير ما أنزل الله بإطلاق.
٣- تكفير الأتباع المحكومين بغير ما أنزل الله بإطلاق.
٤- تكفير الخارج عن الجماعة.
٥- تكفير المقيم - الذي لم يهاجر - في المجتمعات المسلمة المعاصرة.
٦- تكفير المعين دون اعتبار للضوابط الشرعية.
٧- تكفير من لم يكفروهم، فكفروا الناس ظلماً، ثم كفروا من لم يكفرهم.
٨- تكفير المجتمعات الإسلامية بحجة الجاهلية.
٩- تكفير من مات وليس في عنقه بيعة - بيعة أمير جماعة - كما يزعمون.
١٠- تكفير الناس في مسألة الولاء والبراء بحجة العلاقات مع غير المسلمين.

هذه بعض مظاهر التكفير عند بعض المسلمين في العصر الحاضر.

الفصل الثاني

الجذور الفكرية لظاهرة التكفير

وفيه مبحثان:

المبحث الأول

الجذور الفكرية القديمة

المطلب الأول

أفكار الخوارج

لا شك أن أصل هذه الظاهرة – ظاهرة التكفير – ومنشأها أساساً هم الخوارج؛ وهم السابقون في هذا الأمر، ولكي تتضح أفكارهم في التكفير لابد من التعريف بهم وبنشأتهم وببعض أصولهم المكفرة.

أولاً: التعريف بهم

الخوارج يقال لهم: (الحرورية) نسبة إلى قرية خرجوا منها يقال لها: حروراء، والخوارج في اللغة: جمع خارج، وخارجي اسم مشتق من الخروج، وقد أطلق علماء اللغة كلمة الخوارج في آخر تعريفاتهم اللغوية في مادة (خرج) على هذه الطائفة من الناس؛ معللين ذلك بخروجهم عن الدين أو على الإمام علي رضي الله عنه، أو لخروجهم على الناس[1].

---

(١) ينظر: الأزهري، تهذيب اللغة، (٥٠/٧)؛ ابن منظور، لسان العرب، (٨٠٨/١)؛ الفيروزآبادي، القاموس المحيط (١٩٢/١)؛ الزبيدي، تاج العروس (٣٠/٢)، وينظر أيضاً الشهرستاني، عبد الكريم: الملل والنحل، تحقيق: الأستاذ أحمد فهمي محمد أبو الخير، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١١٤/١).

ويقول ابن حجر: الخوارج: جمع خارجة؛ أي طائفة، وهم قوم مبتدعون سموا بذلك لخروجهم عن الدين وخروجهم على خيار المسلمين[1].

أما في الاصطلاح: فقد اختلف العلماء في التعريف الاصطلاحي للخوارج، وحاصل ذلك: منهم من عرفهم تعريفاً سياسياً عاماً، اعتبر الخروج على الإمام المتفق على إمامته الشرعية خروجاً في أي زمن كان.

قال الشهرستاني: "كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين لهم بإحسان، والأئمة في كل زمان"[2].

ومنهم من خصهم بالطائفة الذين خرجوا على الإمام علي رضي الله عنه. قال الأشعري: "والسبب الذي سُمّوا له خوارج؛ خروجهم على علي بن أبي طالب"[3].

ومنهم من يقول: أن اسم الخارجي يلحق كل من أشبه الخارجين على الإمام عليّ أو شاركهم في آرائهم في أي زمن، يقول ابن حزم: ومن وافق الخوارج في إنكار التحكيم وتكفير أصحاب الكبائر والقول بالخروج على أئمة الجور، وأن أصحاب الكبائر مخلدون في النار، وأن الإمامة جائزة في غير قريش فهو خارجي[4]. والتعريف الأول من أشمل التعاريف، وهو يربط بين أفكار الماضين منهم واللاحقين.

والمقصود: أن الخوارج هم الفئة التي خرجت على علي بن أبي طالب رضي

(١) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (١٢/٢٨٣).
(٢) الشهرستاني، الملل والنحل (١/١١٤)، وذكر جميع الفرق بالتفصيل لمذهب كل فرقة.
(٣) الأشعري، أبو الحسن: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية: ١٣٨٩هـ، بدون ذكر المطبعة، (١/٢٠٧).
(٤) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، بيروت: دار الجيل، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ، (٢/٢٧٠)

الله عنه بعد أن كانت تحارب معه، ويغلب على هذه الفرقة الانفعال والتطرف في السلوك، والتزّمت في الدين والتحجّر في الفكر، تكونت بعد معركة صفين، بسبب رفضها لنتيجة التحكيم، وأصبحت العبارة التي صاغها أحدهم (لا حكم إلا لله) شعار هذه الطائفة، وكان تأسيسها في منتصف القرن الأول الهجري بعد وقعة صفين[1]، "وهم الخوارج الأولون، المحكمة الحرورية، وتشمل هذه الكلمة كل من تفرع عنهم من الأزارقة والصفرية والنجدات، (وقد انقرضت)، والإباضية، (وهم الباقون إلى اليوم)، كما يشمل اسم الخوارج كل من أخذ بأصولهم وسلك سبيلهم، كجماعات التكفير والهجرة ونحوهم، وعلى هذا فهم قد يخرجون في كل زمان"[2].

ثانيا: أسباب ظهور الخوارج[3]:

إن عرض أسباب ظهور فرقة الخوارج في صدر الإسلام يقربنا من معرفة الأسباب الحقيقية التي أدت إلى ظهور امتداد هذه الفرقة متمثلة في جماعات التكفير الحديثة والفئات المكفرة الأخرى، وأهم هذه الأسباب:

١- الجهل بحقيقة الدين، والأحكام الشرعية:

إن أهم الأسباب التي أوقعت الخوارج في التكفير وما إلى ذلك من الأمور المنكرة الشنيعة، جهلهم بأحكام الشريعة، وهم يظنون أنهم يفهمون، ونتيجة لذلك وقعوا في عدة محاذير، منها:

- التشدد والتنطع في الأحكام الشرعية، فمن وجد لديه أي نوع من

(١) د/ غالب بن علي عواجي، الخوارج تأريخهم وآراؤهم الاعتقادية، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى، ص(٢٨).

(٢) د/ ناصر بن عبد الكريم العقل، الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، الرياض: دار إشبيليا، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ص٢٢. بتصرف يسير.

(٣) ينظر ما ذكره الدكتور غالب بن علي عواجي، فرق معاصرة، (١/٧٤-٧٥). حيث ذكر بعض هذه الأسباب.

القصور كفروه.

- اتباع المتشابه وترك المحكم والقول بالتأويل الفاسد
- التسرع في إصدار الأحكام، وتغليب الهوى على الشرع
- الخلل في فهم نصوص الوعد ونصوص الوعيد
- الخلل في عقيدة الولاء والبراء.

وهذه كلها نتيجة الجهل بالأحكام الشرعية.

٢ـ الحماس الديني أو العاطفة الدينية غير المقيدة بحدود الشرع:

إن الخوارج حين انفصلوا عن علي رضي الله عنه، يظنون أنهم يحسنون صنعاً، وأن غيرهم تركوا كثيراً من أمور الدين، وأنه لابد من إرجاعهم إلى الحق ولو بالعنف واستخدام القوة، وهم في كل ذلك يمشون مع عاطفتهم وهواهم دون تقيد بما حدده الشرع المنيف من الشروط والموانع، ودون مراعاة للمصالح المعتبرة في الشرع.

٣ـ عدم الاستفادة من علوم علماء الأمة، واتباع الجهال، واكتفاؤهم بما عندهم من المفاهيم:

إن الخوارج مع كون فرصة التعليم سانحة لديهم، لم يتنوروا ولم يستفيدوا من علوم علماء الأمة، بل كانوا يكتفون بمفاهيمهم، مع أن الصحابة كانوا موجودين، وأعلم الصحابة في ذلك الزمان علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وغيرهم رضي الله عنهم. ولكن الخوارج اتبعوا رؤوساً جهالاً، وتركوا الاستفادة من أهل العلم من الصحابة وغيرهم.

٤ـ زعمهم أن الاكتفاء بظاهر القرآن كافٍ من غير رجوع إلى سنة الرسول والخلفاء من بعده:

إن تمسك الخوارج الشديد بالقرآن دون الرجوع إلى السنة النبوية وآثار الخلفاء الراشدين من بعده، لمعرفة تفاسير الآيات القرآنية أدى بهم إلى الخروج

على المجتمع، حيث ظنوا جواز الخطأ على الرسول ﷺ وأنه لابد من النضال لإنزال الناس على مفاهيمهم التي يظنونها حقاً، ومعلوم أن الظن لا يغني من الحق شيئاً.

٥ـ حب الدنيا والطمع في الرياسة:

إن للخوارج نظرة خاصة معقدة في الإمام، والحكام القائمون في نظرهم لا يستحقون الخلافة، لعدم توافر شروطهم فيهم، إضافة إلى أنهم فسروا الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما بأنه نزاع حول الخلافة. ومن هنا استسهلوا الخروج على عليّ ومعاوية رضي الله عنهما من بعده. إضافة إلى ذلك، كان لدى بعضهم حب الدنيا، مثل ما كان من تعامل ذي الخويصرة مع الرسول ﷺ.

٦ـ القول بلازم القول:

وذلك أنهم تعاملوا مع على بن أبي طالب رضي الله عنه بلازم القول، حيث قالوا: محا عن نفسه أمير المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين. وتعاملوا مع الآخرين أيضاً بالأسلوب نفسه.

٧ـ قضية التحكيم:

يقول بعض العلماء: إن قضية التحكيم هي التي سببت خروج الخوارج، ولاشك أن خروجهم في كان إثرها، ولكن المعروف أنهم هم الذين أجبروا علياً رضي الله عنه على قبول التحكيم، وحينما تم ذلك طلبوا منه أن يرجع عنه بل ويعلن إسلامه، فرد عليهم علي رضي الله عنه رداً عنيفاً، وبين خطأهم في مسلكهم. وظهر من هذا أيضاً أن الجهل وسوء التصرف مع نصوص الشرع وسفاهة عقولهم هي التي سببت الخروج عقب قضية التحكيم.

٨ـ جور الحكام وظهور المنكرات:

هكذا كان الخوارج يرددون في خطبهم ومقالاتهم، أن الحكام ظلمة والمنكرات فاشية، والواقع أنهم حينما خرجوا فعلوا أضعاف ما كان موجودا

من المظالم والمنكرات، حينما رأوا أن قتال المخالفين لهم قربة إلى الله تعالى، وأن إقامة العدل والنهي عن المنكرات لا يتم بغير تلك الطريقة التي ساروا عليها في استحلال دماء مخالفيهم حكاماً ومحكومين.

ولاشك أن بعض هذه الأسباب وجدت لدى التكفيريين من هذه الأمة في الآونة الأخيرة.

ثالثاً: ملخص عقائد الخوارج المتعلقة بالتكفير:

١ – "يعتبر الخوارج أنفسهم الممثلين الحقيقيين للأمة الإسلامية، فهم "أهل العدل" ومنهاجهم "منهاج أهل العدل"، وأئمتهم "أئمة العدل" خلفاء رسول الله ﷺ في تطبيق قواعد الإسلام ومبادئه"[١].

٢ – اعتماد الخوارج على القرآن وترك السنة، وفهم القرآن على حسب أهوائهم وعقولهم[٢] ولذلك قال عنهم النبي ﷺ: (يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ)[٣].
أي: أنهم لم يفهموه كما فهمه النبي ﷺ وأصحابه.

٣ – حد الإسلام عند الخوارج: القول والعمل والاعتقاد، فمن أخل بشيء من ذلك فهو الكافر.

٤ – أجمعوا على كفر أمير المؤمنين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

٥ – أجمعوا على تكفير مرتكب الكبيرة[٤].

٦ – أجمعوا على أن عذاب أصحاب الكبائر عذاب دائم[٥].

٧ – ومنهم من كفر صاحب الصغيرة ومنهم من كفر تارك الأمر

---

(١) د.فاروق عمر، التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ط مكتبة النهضة ـ بغداد

(٢) ينظر في ذلك، ما ذكره ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٩/٧٣–٧٤).

(٣) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٣٦١٠).

(٤) الشهرستاني، الملل والنحل (١/١١٥).

(٥) أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، أصول الدين ص(٣٣٢).

بالمعروف والنهي عن المنكر.

٨ – من لم يعتنق مذهبهم فهو كافر، ويباح دمه وماله وأهله[١].

٩ – القول بالقياس في العقائد، "ومن أمثلة ذلك عندهم: أن إبليس كان عارفا بالله، ولما عصى صار كافرا. فكذلك الإنسان إذا عرف الله وعصاه يصير كافرا، لا مؤمنا عاصيا كما يقول أهل السنة[٢].

١٠ – استحلوا دماء المسلمين وأموالهم وسبي نسائهم ويكفرون من خالفهم ويستحلون منه لارتداده عندهم ما لا يستحلونه من الكافر الأصلي[٣].

١١– يرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقّاً واجباً[٤].

رابعاً: بعض شبه الخوارج المتعلقة بالتكفير

لاشك أن الخوارج بجهلهم وسفاهاتهم قد سفكوا الكثير من دماء المسلمين، وخرجوا على حكام المسلمين كلما قويت لهم شوكة، فقد مر بهم عبد الله بن خباب بن الأرت، ومعه أمة له وهي حامل، فقتلوه وبقروا بطن أمته فأخرجوا ولده. وخرجوا على الحكام بين الحين والحين، فأسفر ذلك عن مزيد من إراقة الدماء وإضعاف قوة الإسلام أمام الأعداء وكسر شوكتهم[٥].

وقد ذكر العلماء أن الخوارج تمسكوا ببعض النصوص الشرعية المتعلقة بالكفر والشرك، حسب زعمهم، وفسروها حسب أهوائهم، فمن ذلك قولهم: إن المُصِرَّ على كبيرة من زنا، أو شرب خمر، أو ربا، كافر مرتدّ خارج من الدين بالكلية، لا يُصلّى عليه، ولا يُدفن في مقابر المسلمين ولو أقرّ لله تعالى

(١) الشوكاني، نيل الأوطار (٣٠٤/٧).
(٢) د. أحمد حجازي السقا، الخوارج الحروريون. ط مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة.
(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٣٣٥/٣).
(٤) الشهرستاني، الملل والنحل (١١٥/١).
(٥) ينظر في معرفة تفاصيل أخبارهم، ما ذكره ناصر بن عبد الله السعوي، الخوارج، فقد ذكر أمثلة على ذلك.

بالتوحيد وللرسول ﷺ بالبلاغ، ولو صلى وصام، وزكّى، وحجّ، وجاهد، وهو مخلد في النار أبداً مع إبليس، وجنوده، ومع فرعون وهامان، وقارون[1].

وفسروا الآيات القرآنية بما يؤيد قولهم في تكفير من يرتكب الكبائر مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالايمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾[3]. قالوا: ليس في الآية إلا ذكر الكفر والإيمان، ومن كفر وحبط عمله فهو مشرك، والإيمان رأس الأعمال، وأول الفرائض... ومن ترك ما أمره الله به فقد حبط عمله وإيمانه، ومن حبط عمله فهو بلا إيمان، والذي لا إيمان له مشرك كافر[4]. ومما تمسّك به الخوارج قوله ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[5].

مناقشة أفكار الخوارج:

ولاشك أن ما تمسَّك به الخوارج من التشبث بنصوص الكفر والفسوق الأصغر، واستدلالهم به على الأكبر هو مما جنته أفهامهم الفاسدة، وأذهانهم البعيدة، وقلوبهم الغلف، فضربوا نصوص الوحي بعضها ببعض، واتّبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وفيما يلي بيان لبعض أخطائهم:

١- من أخطاء الخوارج عدم التفرقة بين الكبائر والصغائر من الأفعال، وقد فرق الله تعالى بينهما بقوله: ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ

(١) الحكمي، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد (٤٢٠/٢).
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥.
(٣) سورة التغابن، الآية: ٢.
(٤) د. مصطفى حلمي: الخوارج، الأصول التاريخية لمسألة تكفير المسلم، دار الأبصار، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ ص٣٠.
(٥) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٢٤٧٥)؛ مسلم، الصحيح برقم (٥٧).

عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً ﴾[1]. فالخوارج إذن إن حاولوا حجة في تكفير الأمة لم يجدوا، وإن جعلوا الذنوب كلها كبائر، لم يجدوا إلى الحجة سبيلاً من عقل ولا سماع[2]. ولا بد أن يفرق بين الكبائر والصغائر.

٢- قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ تُوبُواْ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾[3] ونداء الله سبحانه وتعالى إلى التوبة النصوح يدل على أن مرتكب الكبيرة بعد التوبة يرجى له العفو والغفران.

٣- يردّ على الخوارج ومن وافقهم من الذين يسلبون عن أهل الكبائر الإيمان، قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[4] فلم يخرج تبارك وتعالى القاتل من الذين آمنوا، وجعله أخاً لولي القصاص، والمراد أخوّة الدين بلا ريب.

٤- أما تفسير الحديث (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[5]، فقال النووي:: القول الصحيح الذي قاله المحققون أن معناه لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله... كما يقال: لا علم إلا ما نفع ولا مال إلا الإبل، ولا عيش إلا عيش الآخرة[6].

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.
(٢) د. مصطفى حلمي، الخوارج والأصول التاريخية لمسألة تكفير لمسلم ص٣١.
(٣) سورة التحريم، الآية: ٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.
(٥) مسلم، الصحيح، برقم (٥٧).
(٦) النووي، (المنهاج) شرح مسلم، دار الحديث، القاهرة، د.ت.٤١/١.

ونـصوص الكتـاب والـسنة والإجمـاع تـدل علـى أن الزانـي، والـسارق، والقاذف، لا يقتل، بل يقام عليه الحدّ، فدلّ على أنه ليس بمرتد[1].

أما الرد على الخوارج ومن وافقهم في قولهم بتخليد أهل الكبائر في النار فإن الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[2] وإن شاء عذبهم في النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يبعثهم إلى الجنة[3]. وقال ﷺ: (من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، قالوا وإن سرق وإن زنى؟ قال: وإن سرق وإن زنى)[4]، وقد تواترت بذلك الأحاديث.. قال ﷺ: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)[5].

(١) ابن أبي العز الحنفي، علي بن علي بن محمد: شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرناؤوط، الطبعة الثانية: ١٤٠٨هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت. ص٣٦١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨ و١١٦.

(٣) ابن أبي العز، شرح الطحاوية ص٤١٦.

(٤) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (١٢٣٧).

(٥) أحمد في المسند (٢١٣/٣).

المطلب الثاني
أفكار المعتزلة

أولاً: نشأة المعتزلة:

أسس المعتزلة واصل بن عطاء الغزال (المتوفى ١٣١هـ) وعمرو بن عبيد البصري (المتوفى ١٤٤ هـ) (١).

وسبب التسمية بالمعتزلة " أنه دخل رجل على الحسن البصري فسأل عن مرتكب الكبيرة، فتفكر الحسن في ذلك، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر. ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فسمي هو وأصحابه معتزلة"(٢).

ثانياً: أفكارهم المؤدية إلى التكفير:

هناك أفكار عدة لدى المعتزلة أدت بهم إلى تكفير المسلمين، منها:

١- مسألة مرتكب الكبيرة، حيث إنه يتفق مذهبهم مع مذهب الخوارج في حكم العصاة في الآخرة، وهو القول بخلود العصاة في النار، أما في الدنيا فلا يستحلون شيئاً من دماء وأموال الفسقة – كما تفعل الخوارج – لكنهم اتفقوا مع الخوارج في إخراجهم من الإيمان، واختلفوا معهم في دخولهم في الكفر، فقالت المعتزلة: خرجوا من الإيمان ولم يدخلوا في الكفر فهم في

---

(١) ينظر الشهرستاني، الملل والنحل ص(٣٩)؛ والبغدادي، الفرق بين الفرق، ص(٢٠، ٢١)؛ وأيضاً: عواد ابن عبد الله المعتق، المعتزلة وأصولهم الخمسة، وموقف أهل السنة منها، الرياض: مكتبة الرشد، الطبعة الثانية، ١٤١هـ، ص(١٤-١٥).

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل ص(٤٨).

منزلة بين المنزلتين. أما الخوارج فيخرجون الفساق من الإيمان ويدخلونهم في الكفر بمجرد الكبيرة[1] أما المعتزلة فيقولون: العصاة ليسوا مؤمنين ولا كافرين، ولكن نسميهم فاسقين، فجعلوا الفسق منزلة بين المنزلتين[2] ولكنهم لم يحكموا للفاسق بمنزلة في الآخرة بين المنزلتين بل قضوا بتخليده في النار أبداً كالخوارج، فوافقوا الخوارج مآلاً وخالفوهم مقالاً، وكان الكلّ مخطئين ضلالاً[3]. فالمعتزلة قرروا أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين في الدنيا، ومخلد في النار يوم القيامة ما لم يتب[4].

٢- التشدد فيما يسمونه بـ"الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" حسب أهوائهم، ومن هنا كانوا يتنطعون في الدين ويتشددون على الذين لا يقومون بهذا الأمر – على زعمهم – ويرون القتل والقتال في الذين لا يقومون بهذا الأمر[5]. كما أنهم كانوا يشددون على من يخالفهم في مسألة خلق القرآن، وتنكيلهم بمخالفيهم معروف مشهور.

ومن أدلّة المعتزلة على أنّ مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[6]. فلا يجوز عندهم أن يكون الرسول ﷺ رؤوفاً رحيماً بمن

---

(١) الجطيلي، الأجوبة المفيدة على أسئلة العقيدة، مكتبة الحرمين، الرياض. ص٥٩؛ وابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية ص٣٥٦.

(٢) مختصراً مما ذكره الدكتور عواد عبدالله المعتق، المعتزلة وأصولهم الخمسة، ص ٣٠–٥٠. تحت عنوان: عوامل ظهور المعتزلة وانتشار أفكارهم.

(٣) الحكمي، معارج القبول بشرح سلم الوصول في التوحيد ٤٢١/٢.

(٤) أبو لبابة حسين، موقف المعتزلة من السنة النبوية ومواطن انحرافهم عنها، دار اللواء للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ص١٤٠.

(٥) ينظر: الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ملتزم الطبع، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، ١٣٦٩هـ، (٢٧٨/١).

(٦) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

يقيم عليه الحدّ من أهل الكبائر وبمن يلعنه.

وكذلك يحتجّ المعتزلة... بجملة من الأحاديث منها قوله ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[1]، وقوله ﷺ: (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له)[2].

أمّا أدلّة المعتزلة فيما ذهبوا إليه من تأبيد العقاب في النار لأصحاب المعاصي فمنها قول الرسول ﷺ: (من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم، خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن شرب سمّاً فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم، خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردّى من جبل فقتل نفسه فهو يتردّى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً)[3]، وقوله ﷺ: (يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، كل خالد فيما هو فيه)[4].

مناقشة أفكار المعتزلة:

قد تصدّى العلماء للردّ على ضلالات المعتزلة، مستندين إلى ما صحّ في السنة النبوية من الأحاديث، فقد قال النبي ﷺ: (يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقول الله تعالى أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحيا أو الحياة – شك مالك – فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية)[5].

---

(١) مسلم، الصحيح، برقم (٥٧).

(٢) الإمام أحمد، المسند (١٣٥/٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، بيروت، لبنان. (١٢٣/٦)، برقم ٧٠٥٦.

(٣) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٥٧٧٨)؛ ومسلم، الصحيح، برقم (١٠٩).

(٤) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٤٧٣٠)، ومسلم، الصحيح، برقم (٢٨٤٩).

(٥) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٢٢).

وإذا اعتبرت إقامة الحد كفارة لصاحب الكبيرة عن إعلان التوبة، فإن غفران ذنب من لم يقم عليه حدّ ولم يتب يبقى تحت مشيئة الله، مصداقاً لقوله ﷺ في عصابة من صحابته: (تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا بهتاناً تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا، فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً، فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه). قال الراوي فبايعناه على ذلك. رواه البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه[1]، والمعتزلة القدرية بتشددهم في تخليد مرتكب الذنب في النار ما لم يتب، ينطبق عليهم المثل السائر – ولله المثل الأعلى – (السيد يعطي والعبد يمنع)، لأن الله تعالى يصرح بالمغفرة للمصرّ على الكبائر إن شاء، وهم يدفعون هذا التصريح، ويحيلون المغفرة بناء على قاعدة الأصلح والصلاح التي هي بالفساد أجدر وأحق[2].

أما الرّدّ على المعتزلة في قولهم بأن صاحب الكبائر يكون في المنزلة بين المنزلتين فهو كالتالي:

١- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾[3] فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا بل جعله أخاً لولي القصاص، والمراد أُخوّة الدين بلا ريب.

٢- قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنْ

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٣٨٩٢).
(٢) أبو لبابة حسين، موقف المعتزلة من السنة النبوية ومواطن انحرافهم عنها ص١٤٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.

بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُواْ الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُواْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾[1].

٣- وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾[2]. وهذا ردّ على المعتزلة فإن الفاسق يدخل في اسم الإيمان.

ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدلّ على أن الزاني، والقاذف، والسارق، لا يقتل بل يقام عليه الحدّ، فدلّ على أنه ليس بمرتد[3] وقد تقدمت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة – في مناقشة مذهب الخوارج – على أن أصحاب الكبائر من أهل القبلة لا تخرجهم هذه الكبائر من الإسلام إن لم يستحلوها، فإن تابوا قبل الموت تاب الله عليهم، وإن ماتوا بإصرارهم على هذه الكبائر فأمرهم إلى الله إن شاء أدخلهم الجنة من أول وهلة، وإن شاء عذبهم، ثم يخرجهم برحمته ثم بشفاعة الشافعين من أهل طاعته.

(١) سورة الحجرات، الآيتان: ٩، ١٠.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢.
(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٦١.

المطلب الثالث

الرافضة وأفكارهم

أولا: التعريف بالشيعة الروافض:

اختلفت عبارات العلماء في التعريف بالشيعة، وذلك لكثرة فرقهم وتشعب أفكارهم، ولعل أحسن ما قيل في تعريفهم، أنهم: الذين شايعوا عليّاً رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا: إنّ عليّاً أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأحقّهم بالإمامة وولده من بعده[1]، وقالوا: بإمامته وخلافته، نصّاً ووصاية، واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده، وقالوا: وليست الإمامة قضية مصلحية، تناط باختيار العامّة وينتصب الإمام بنصبهم بل هي قضية أصولية، هي ركن الدين لا يجوز للرسول عليه السلام إغفالها وإهمالها، ولا تفويضها إلى العامة... ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص، وثبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكبائر، والصغائر، والقول بالتولي، والتبرؤ قولاً، وفعلاً، وعقداً، إلا في حالة التقية...[2].

وكان مبدأ مذهب الشيعة على يد زعيمهم – الضال – عبد الله بن سبأ اليهودي المتظاهر بالإسلام، وهو منافق حاقد، حيث كان أول من أظهر الطعن في أبي بكر، وعمر، وعثمان أصهار رسول الله ﷺ، ومن ذلك اليوم إلى يومنا هذا والشيعة بهذه العقيدة وتمسكوا بها، والتفوا حولها، فالذي لا يبغض خلفاء

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/١١٣، الشهرستاني، الملل والنحل ١/١٤٦.
(٢) الشهرستاني، الملل والنحل ١/١٤٦.

رسول الله ﷺ الثلاثة ليس عندهم بشيعي. أي لا يحب علياً عندهم[1].

والشيعة من الفرق الكبيرة المنتسبة إلى الإسلام، وهي الفرقة الوحيدة التي كثرت فيها الفرق المارقة من الدين، أمثال النصيرية، والفاطمية العبيدية، واليزيدية، والدروز، وأخيرا الروافض أو الإمامية الإثنا عشرية. وسيكون الكلام على الروافض باعتبارهم فرقة كبيرة معاصرة تنصب العداء لأهل السنة.

ثانيا: جوانب التكفير عند الشيعة الإمامية، (الروافض):

يتبين من عقائد الشيعة الإمامية أنهم على دين خلاف لدين المسلمين الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، ومن أجل ذلك كفروا كل من خالفهم في عقائدهم، وكل من يكون قوله مخالفاً لعقيدتهم من الصحابة والتابعين. ومن ذلك:

١ – تكفيرهم لأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما:

"وقال علامتهم الشيعي نعمة الله الجزائري: إن أبا بكر كان يصلي خلف رسول الله ﷺ والصنم معلق في عنقه وسجوده له"[2].

ويقول المجلسي: "والأخبار الدالة على كفر أبي بكر وعمر وأضرابهما وثواب لعنهما والبراءة منهما وما يتضمن بدعهما أكثر من أن يذكر في هذا المجلد، أو مجلدات شتى"[3].

٢– تكفيرهم عثمان أيضاً رضي الله عنه:

حيث بوّب علامتهم وخاتمة المجتهدين عند الشيعة محمد باقر المجلسي في

(١) إحسان إلهي ظهير، الشيعة والسنة، ، إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان، الطبعة الرابعة والعشرون، ١٤٠٤هـ ص(١٧–٣٢).

(٢) نعمة الله الجزائري، "الأنوار النعمانية ج١/ب١/ص٥٣، نقلاً عن: عبد الله الموصلي، حتى لا ننخدع: حقيقة الشيعة، مصر: مكتبة الإمام البخاري، الطبعة العشرون، ص١٠٨.

(٣) بحار الأنوار ج٣٠ ص٢٣٠.

كتابه بابا سماه "باب كفر الثلاثة ونفاقهم وفضائح عمالهم وقبائح وآثار، وفضل التبرئ منهم ولعنهم"(١). والمقصود بالثلاثة هم أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين.

وروى الكليني عن أبي عبد الله في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً ﴾(٢)، قال: "نزلت في فلان وفلان.. آمنوا بالنبي ﷺ في أول الأمر وكفروا حيث عرضت عليهم الولاية. حين قال النبي ﷺ: (من كنت مولاه فعليٌّ مولاه)، ثم آمنوا بالبيعة لأمير المؤمنين عليه السلام، ثم كفروا حيث قضى رسول الله ﷺ فلم يقرّوا بالبيعة، ثم ازدادوا كفراً بأخذهم من بايعه بالبيعة لهم، فهؤلاء لم يبق فيهم من الإيمان شيء!" وبيّن صاحب الوافي في شرح الكافي أن "المراد من فلان وفلان...أبو بكر، وعمر، وعثمان"(٣)– وكذبوا قاتلهم الله!–.

٣– تكفيرهم جميع الصحابة عدا قليل منهم:

إن الروافض (الشيعة الإمامية) كفروا بقية أصحاب النبي ﷺ وأزواجه أمهات المؤمنين. فلم يكتف الشيعة بالطعن والتعريض في رحماء رسول الله ﷺ بل تطرقوا إلى تكفير الصحابة وتطرقوا لهتك أعراض آل النبي ورفقته الكبار، وخاصة الذين هاجروا في سبيل الله وجاهدوا في الله حقّ جهاده، ونشروا دينه الذي ارتضى لهم، ناقمين، وحاسدين جهودهم المشكورة. فهاهم يسبونهم حتى عمَّ النبي ﷺ العباس... وابنه عبد الله بن العباس، حبر الأمة، وترجمان القرآن... وطعنوا في سيف الله خالد بن الوليد، وطعنوا في عبد الله بن عمر، ومحمد بن

(١) المجلسي: بحار الأنوار، طبعة ذوي القربى.ج٣٠ ص٧٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٧.
(٣) نقلاً عن: عبد الله الموصلي، حتى لا ننخدع، ص (١٠٤–١٠٥).

مسلمة رضي الله عنهم (أجمعين) وطعنوا كذلك في طلحة والزبير، وهما من العشرة المبشرين بالجنة. وقد قال النبي ﷺ: (أَوْجَبَ طلحة)[1]، يعني الجنة. وقال ﷺ في الزبير: (إن لكل نبي حوارياً وحواريَّ الزبير)[2]. وطعنوا في أنس بن مالك والبراء بن عازب رضي الله عنهم. وطعنوا في أزواج النبي ﷺ وخاصة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهي المبرأة من فوق سبع سماوات، وأخيراً كفَّروا جميع الصحابة عامة. هذه هي عقيدة القوم من أولهم إلى آخرهم كما رسمها اليهود لهم، حتى صار دينهم الذي يدينون به دين الشتائم والسباب، ولكنهم لم يكتفوا بالسباب والشتائم على عدد كبير من أصحاب رسول الله ﷺ بل هوت بهم الهاوية حتى كفَّروا جميع أصحاب رسول الله ﷺ إلا النادر منهم، فهذا هو الكشي أحد صناديدهم يروي عن أبي جعفر أنه قال: كان الناس أهل ردّة بعد النبي ﷺ إلا ثلاثة، فقلت ومن الثلاثة؟ فقال: المقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي. وذلك قول الله عز وجل: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ ﴾[3]، ويروي عن أبي جعفر أيضاً أنه قال: (المهاجرون والأنصار ذهبوا إلا وأشار بيده إلا ثلاثة)[4].

٤- تكفير غير الشيعة:

إن أكثر الروافض يكفرون من خالف قولهم ويسمون أنفسهم المؤمنين، ومن خالفهم كفاراً، ويجعلون مدائن الإسلام التي لا تظهر فيها أقوالهم دار ردّة أسوأ حالاً من مدائن المشركين والنصارى، ولهذا يوالون اليهود والنصارى والمشركين على بعض جمهور المسلمين... ومنهم ظهرت أمهات الزندقة

(١) الإمام أحمد، المسند (١/١٦٥)، والترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة: الجامع الصحيح، تحقيق وترقيم: أحمد شاكر وآخرون، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.، برقم (١٦٩٢).

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، (٢٨٤٦)؛ مسلم، الصحيح، (٢٤١٥).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

(٤) إحسان إلهي ظهير، الشيعة والسنة، ص٢٩-٥٠ بتصرف.

والنفاق، كزندقة القرامطة الباطنية وأمثالهم، ولا ريب أنهم أبعد طوائف المبتدعة عن الكتاب والسنة، ولهذا كانوا هم المشهورين عند العامة بالمخالفة للسنة، فجمهور العامة لا تعرف ضدّ السني إلا الرافضي، فإذا قال أحدهم: أنا سني، فإنما معناه لست رافضياً"[1].

مناقشة أفكار الشيعة:

تعالى الله عما يقول هؤلاء الشيعة الروافض علواً كبيراً ومما افتراه عليه الظالمون من تحريف لآياته والاستدلال بها على تكفير أوليائه، لقد قال الشيعة في أصحاب رسول الله ﷺ ما لم ينزل الله به من سلطان، بل قد جاء في فضائل صحابة رسول الله ﷺ ما يدحر ويخزي هؤلاء الذين قالوا على الله بغير علم، فهم في قولهم هذا خالفوا الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة ومن بعدهم. فصحابة رسول الله ﷺ قد مدحهم الله في كتابه الكريم وأثنى عليهم في مواضع كثيرة ومن ذلك:

١- قد شهد الله لأصحاب نبيه ﷺ ومن تبعهم بإحسان بالإيمان، فعلم قطعاً أنهم المراد بالآية الكريمة: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[2].

٢- شهد لهم بالرضا، حيث قال تعالى عن الصحابة في موضع آخر: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْ ﴾

٣- وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[3].

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣/٣٥٦.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٧٤.

٤- وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾(١).

٥- وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾(٢)، فقد تقرر أن من اتبع غير سبيلهم ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم(٣).

وورد في فضائل الصحابة ما لا يحصى من الآثار والأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، ومن ذلك:

١- قوله صلّى ﷺ: (النجوم أمنة السماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أنا أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون)(٤).

٢- وقوله ﷺ: (لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه)(٥).

٣- وقوله ﷺ: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي قوم من بعد ذلك تسبق أيمانهم شهاداتهم، وشهاداتهم أيمانهم)(٦).

٤- وقوله ﷺ: (لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر ولكن أخي وصاحبي)(٧).

٥- وسئل ﷺ أي الناس أحب إليك؟ قال: (عائشة). قلت: من الرجال؟ قال:

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٨.
(٢) سورة النساء، الآية: ١١٥.
(٣) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١/٤ و٢.
(٤) مسلم، الصحيح، برقم (٢٥٣١).
(٥) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٣٦٧٣)؛ مسلم، الصحيح، برقم (٢٥٤٠).
(٦) الترمذي، السنن، برقم (٣٨٥٩).
(٧) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٣٦٥٦).

(أبوها). قلت: ثم من؟ قال: (ثم عمر بن الخطاب). فعدّ رجالاً[1].

٦- وقال عليه الصلاة والسلام: (إن عبد الله رجل صالح)[2]، يعني عبد الله بن عمر.

فهؤلاء الصحابة وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين مدحهم الله في كتابه، ومدحهم ودعا لهم بالمغفرة رسول الله ﷺ الناطق بالوحي، واحداً واحداً، وجماعة جماعة، ويمدحهم ويثني عليهم كل من سلك مسلكه، واتبع سبيله من المؤمنين غير المنافقين من أبناء اليهود، والمجوس، الذين أكلت قلوبهم البغضاء والشحناء، والحسد عليهم لأعمالهم الجبَّارة في سبيل الله وفي سبيل نشر هذا الدين الميمون المبارك، وكان هذا هو السبب الحقيقي لحنق الكفرة على هؤلاء المجاهدين، العاملين بالكتاب والسنة، وخاصة على أبي بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم، الذين قادوا جيوش الظفر وجهزوا عساكر النصر، وكان سبب احتراق اليهود على المسلمين خاصة أنهم هدموا أساسهم وقطعوا جذورهم، واستأصلوهم استئصالاً، تحت راية النبي ﷺ، حين كان أسلافهم من بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، يقطنون المدينة، ومن بعد النبي الكريم عليه الصلاة والسلام في زمن عمر الفاروق رضي الله عنه حيث نفذ فيهم إرادة رسول الله ﷺ: (لأخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً)[3]، وطهر جزيرة

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٣٦٦٢).

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٣٧٤٠).

(٣) مسلم، الصحيح، برقم: (١٧٦٧). وليكن معلوماً بأن الذين يجيزون قتل الكفار الذين جاؤوا إلى جزيرة العرب بعهد وأمان هم من الجهال والمتعالمين، فإن قتل هؤلاء الذين دخلوا بلاد المسلمين بعهد وأمان منا يعتبر غدراً وخيانة، ولا يجوز هذا ولو كانوا في جزيرة العرب، بل يجوز إدخالهم جزيرة العرب لمصالح المسلمين إما سفراء وإما تجاراً وإما عُمَّالاً يقومون بأعمال لا يتقنها غيرهم، وإنما الممنوع الاستيطان وبناء الكنائس. أما ترى أن الرسول ﷺ سمح لهم أن يأتوه، فكانوا يأتونه ويراسلونه ويتكلمون معه، حيث جاء في حديث: (إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد) [أبو داود :٢٧٥٨] أي: الرسل، فدل على أن رسل الكفار يأتون إليه ويتفاوض معهم ويرجعون، =

العرب من نجاستهم ودسائسهم ولم يترك أحداً من اليهود في الجزيرة طبقاً لأمر رسول الله ﷺ[1].

أما تكفيرهم لمخالفيهم فهذا أيضاً بلا دليل ولا برهان، ولا يستبعد هذا من قوم تركوا كتاب الله وسنة رسوله في مدح الصحابة والثناء عليهم، فكفروا خيار الناس في الدنيا والآخرة، فتكفيرهم لغيرهم ممن يحب الصحابة رضي الله عنهم من الأمور الهينة لديهم. نسأل الله السلامة والعافية.

= فيخصص هذا من قوله ﷺ: (لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب) على أن المراد بذلك الاستيطان فقط، وأما دخولهم لغرض من الأغراض ثم يرجعون إلى بلادهم فهذا لا بأس به، والواجب على المسلم وطالب العلم أنه يجمع بين الأدلة ويخصص العام بالخاص، ويقيد المطلق بالمقيد، والناسخ بالمنسوخ، ويتبصر بالأدلة، فلا يأخذ طرفاً ويترك الطرف الآخر، فليس معنى الحديث أنه لا يأتي منهم تجار، ولا يأتي منهم خبراء، ولا يأتي منهم مندوبون للتفاوض مع المسلمين، أو يأتي منهم ناس للاستطلاع عن الإسلام للتفاوض مع المسلمين، أو يأتي منهم ناس للاستطلاع عن الإسلام، قال تعالى: {وإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّه} التوبة: ٦ فالمعنى أنهم لا يتركون يستقرون استقراراً دائماً ويسكنون سكنى مستقرة. ثم إن الرسول ﷺ قال: (لأخرجن) ولم يقل: (اقتلوهم)، وهؤلاء المخربون يقتلونهم، وهذا خيانة للرسول ﷺ، لأن الرسول ﷺ عصم دماء المعاهدين والمستأمنين، وهؤلاء يقتلونهم، فهم في جانب وسنة الرسول ﷺ في جانب آخر، بل هؤلاء شاقوا الله ورسوله

(١) السنة والشيعة ص٥١–٥٥ ببعض التصرف.

المبحث الثاني
الجذور الفكرية الحديثة

المطلب الأول
الأفكار المؤدية إلى التكفير لبعض الجماعات والأحزاب المعاصرة

الفرع الأول: بعض أفكار الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية:

الأستاذ أبو الأعلى المودودي(1) ودوره في الغلو في التكفير:

ولد المودودي في ٢٥ أيلول (سبتمبر) عام ١٩٠٣م في أورنك آباد بمدينة حيدر آباد (الدكن) في الهند، وهو ينتمي إلى أسرة تمتد جذورها إلى شبه جزيرة العرب، وكان أبوه سيد أحمد حسن مودود واحداً من طلاب جامعة عليكرة، أما ابنه أبو الأعلى فقد كان مثقفاً بثقافة عصره، وكان يتولى الصحافة في عصره، ويكتب مقالات في جريدة ترجمان القرآن.

ومن خلال مطالعة كتبه، يظهر للباحثين أن الرجل أراد أن يقوم بالمسلمين قومة كبيرة، ولا يكون هذا إلا من خلال تأسيس منهج عملي على أساس عقدي، ولكنه كثيراً ما طغى عليه السياسة، ففسر كثيراً من المصطلحات الشرعية كما فهمه هو من خلال دراساته الذاتية للنصوص الشرعية، ولكن لم يحالفه الصواب في كثير من آرائه.

لقد كتب الشيخ أبو الأعلى كتابات شتى أصّل فيها لمنهج العقيدة عنده على حسب ما فهم من الأصول الشرعية وتأثر بالأحوال السياسية المحيطة به،

---

(1) ينظر ترجمته في الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف: د. مانع بن حماد الجهني، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، (١/٢١٠-٢١١).

فصاغ بعض مسائل العقيدة، من ضمن هذه الكتب كتاب "المصطلحات الأربعة في القرآن"، وفي هذا الكتاب يشرح مصطلح: الإله، والرب، والعبادة، والدين. وهذه الرسالة هي المنهج الذي قامت عليه الجماعة الإسلامية في الهند وباكستان.

يحاول أبو الأعلى في هذا الكتاب أن يقرر أن الدين والرب والإله والعبادة تدور في فلك السلطة والحكم والتشريع، لذلك نجد في الكتاب تكراراً لمصطلحات سياسية منها: كلمة السلطة، وكلمة الحاكمية، وكلمة الحكم، وكلمة السياسة، وكلمة القانون وتوابعها، وكلمة النظام وتوابعها مرات وكرات.

هذه ألفاظ في كتاب يتكلم صاحبه فيه عن أهم قضايا الاعتقاد وهي الربوبية والألوهية والعبادة والدين، وهذا مؤشر على أن الإسلام كله نظام سياسي وسلطة وحكم، حتى علاقة الإنسان بربه في هذه المصطلحات لابد من أن تكون تحت شعار الحاكمية، وهذا نفس المنطلق الذي انطلقت منه الخوارج على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ولكن مع فارق الغلو عند الخوارج، وإن كان نفس الطريق الذي سلكه أبو الأعلى أدى في النهاية إلى فكر جديد للخوارج يتمثل في جماعات التكفير والتوقف والتبين، والشوقيون، والقطبيون، وجماعات أخرى مماثلة في كثير من الديار.

الكلام في مصطلح: الرب:

قال أبو الأعلى: " إن مادة كلمة (الرب): الراء والباء المضعَّفة، ومعناها الأصلي الأساسي: التربية، ثم تتشعب عنه معاني التصرف والتعهد والاستصلاح والإتمام والتكميل، ومن ذلك كله تنشأ في الكلمة معاني العلو والرئاسة والتملك والسيادة"[1].

---

(١) المودودي: المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم، طبعة دار القلم، الكويت، ١٣٨٩هـ. ص٣٤.

وقال: " إن كلمة (الرب) مشتملة على جميع ما يأتي بيانه من المعاني:... إلى أن قال:... السيد الرئيس الذي يكون في قومه كالقطب يجتمعون حوله. السيد المطاع، والرئيس وصاحب السلطة النافذ الحكم، والمعترف له بالعلاء والسيادة، والمالك لصلاحيات التصرف. الملك والسيد"(1).

والصحيح أن معنى الرب في اللغة: السيد والملك والمربي والمنشئ والقيّم والمنعم(2) ولا يذكر مطلقا إلا على الله، ويطلق على غير الله مضافا: فيقال: رب الدابة، ورب البيت، وهكذا. فليس في كلام العرب ولا في لغة القرآن أن الرب بمعنى الحاكم.

ومعنى الرب في الشرع: هو إفراد الله عز وجل بالخلق والرزق والنفع والضر وتدبير أمر العبادة، أي توحيد الله بأفعاله.

فلم يرد عن السلف أن الرب بمعنى الحاكم، ولم يقل أحد من السلف أن توحيد الربوبية هو إفراد الله بالحاكمية، بل هو من تفسير الخوارج. بل إن الحاكمية عند السلف من مقتضيات توحيد الربوبية، وليست معنى حقيقياً له.

الكلام في مصطلح "الإله":

فسر أبو الأعلى المودودي (الإله) بتفسيره (للرب) نفسه وسار على المنهج نفسه، فبعد أن ذكر المعنى اللغوي وأخذ يفسر معناها الاصطلاحي، جمع كل معاني الألوهية في السلطة فقال: فخلاصة القول أن أصل الألوهية وجوهرها هو السلطة – هكذا قال –.

ولاشك أن هذا خطأ كبير وفادح، فإن كلمة "الإله" ليس من معناها:

---

(1) المودودي، المصطلحات الأربعة ص٣٧.
(2) ينظر مثلاً، الرازي، مختار الصحاح" ص٩٦؛ وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث" (٢/١٧٩)، وابن منظور، لسان العرب (١/٣٩٩).

السلطة، بل الإله هو المألوه أو المعبود، وهو المعنى المراد في اللغة[1] والشرع، يقول ابن عباس رضي الله عنه، الإله "هو الذي يألهه كل شيء ويعبده كل خلق، والله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين"[2]. وهذا المعنى هو الذي ذكره علماء السلف أجمعين[3].

الكلام في مصطلح "الدين ":

قال أبو الأعلى: "إن كلمة (الدين) في القرآن تقوم مقام نظام بأكمله، يتركب من أجزاء أربعة هي:

١- الحاكمية والسلطة العليا.

٢- الإطاعة والإذعان لتلك الحاكمية والسلطة.

٣- النظام الفكري والعملي المتكون تحت سلطان تلك الحاكمية.

٤- المكافأة التي تكافئها السلطة العليا على اتباع ذلك النظام والإخلاص له أو على التمرد عليه والعصيان له[4].

---

(١) ينظر على سبيل المثال، ما ذكره الأزهري في تهذيب اللغة (٤٢٢/٦-٤٢٤)؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (١٢٧/١)؛ مجمل اللغة (١٠١/١)؛ الجوهري: الصحاح، (تاج اللغة وصحاح العربية)، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، طبعة دار العلم للملايين، بيروت. (٢٢٢٣/٦-٢٢٢٤)؛ الراغب الإصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، طبعة ١٣٨١هـ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ص(٢١، ٢٢)؛ ابن منظور في لسان العرب (١٨٨/١-١٩١)؛ الفيروزآبادي في القاموس (٢٨٢/٤)؛ الزبيدي: تاج العروس في شرح القاموس، دار ليبيا، بنغازي، ليبيا. (٣٧٤/٩-٣٨٥).

(٢) الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، طبعة دار الريان للتراث، دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٧هـ، (٥٤/١).

(٣) ينظر على سبيل المثال، ما ذكره الطبري في تفسيره (٤٢/١)؛ ٤٥الزجاجي، اشتقاق أسماء الله الحسنى، تحقيق: د. عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ. ص(٢٤)؛ ابن تيمية: مجموع الفتاوى (٢٤٩/١٠)؛ و(٢٠١/١٣، ٢٢/١، ٢٠٢/١٣، ٦/٢، ٢٨٤/١٠)؛ وابن القيم: مدارج السالكين، (٤٦٠/٣)؛ ابن رجب، كلمة الإخلاص وتحقيق معناها، تحقيق وتخريج: عماد طه فرة، الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ، دار الصحابة للنشر والتحقيق والتوزيع، مصر. (٢٣، ٢٤).

(٤) المودودي، المصطلحات الأربعة ص١٢٦، ١٢٧.

خلاصة القول في منهج أبي الأعلى:

١ - بنى أبو الأعلى تصورا ما حول فكرة النظام الإسلامي من خلال الأحداث التي مر بها.

٢ - بدأ يبحث عن الأصول التي أصّلها لفكرته في كتب اللغة.

٣ - نظر في القرآن ما يؤيد فكرته من خلال سياق الآيات، ووضع آيات في غير موضعها.

٤- لم يراع أبو الأعلى فهم السلف لما أصل له، ولم يلتفت لذلك.

٥ - هذا المنهج في الاستدلال هو منهج أهل البدع، أن يعتقد الشيء أولا ثم يبحث عما يخدم اعتقاده من الأدلة الشرعية.

وبهذا المنهج تأثر سيد قطب ونقل الكثير منه في كتابه "الظلال"، وزاد فيه وأطلق عبارات ومصطلحات كانت وبالاً على الأمة بعد ذلك في إنشاء فرق جديدة على منوال الفرق الأولى.

إلا أن بعض أفكار المودودي وإن أنشأ جيلا جديدا على الغلو في التكفير، فهذا لا يعني أن الرجل كان يقول بذلك، لأنه تبرأ من ذلك؛ لكن المنهج الخاطئ مثل ذلك المنهج لا شك أنه يقود أتباعه إلى هذه الهوة.

الفرع الثاني: **بعض أفكار جماعة "الإخوان المسلمون"** :

مثل بعض أفكار "سيد قطب[1]" ودوره في الغلو في التكفير:

ولد سيد قطب في قرية من قرى الصعيد اسمها (موشه) سنة (١٩٠٦م)، وهي تتبع محافظة أسيوط لأبوين متوسطي الحال، نشأ على الأدب والقراءة في كتب الأدب الغربي خاصة، وتأثر بها حتى صار ذا مكانة وسط القوم. وعندما اتجه إلى

(١) ينظر في ترجمة سيد قطب ما ذكره صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١١ هـ.

الإسلام لم يكن مؤصلا في دراسة العقيدة ومصادر التلقي؛ شأنه شأن المثقفين الآخرين الذين يتجهون إلى الدين، ومن ثم تأثر بكتابات أبي الأعلى المودودي تأثيراً بالغا، ونقل كثيرا من كلامه في كتبه خاصة الظلال. فكانت عند سيد قطب جمل عقدية مخالفة لعقيدة السلف، وكان سببا لنشوء جماعة جديدة على غرار الخوارج في السابق[1]، منها:

١- **تفسيره شهادة لا إله إلا الله بالحاكمية**، حيث قال: "لا اله إلا الله" كما كان يدركها العربي العارف بمدلولات لغته: لا حاكمية إلا لله، ولا شريعة إلا من الله، ولا سلطان لأحد على أحد، لأن السلطان كله لله[2].

ومن المعلوم عند السلف أن معنى كلمة التوحيد: لا إله إلا الله هو: لا معبود بحق إلا الله، وأن معناها: إفراد الله تعالى بالعبادة، ونفي المعبودات الباطلة. والعبادة تشمل الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة التي كلف الله بها عباده، وتشمل فعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات. ولكن سيد قطب خالف السلف في هذا المعنى فجعل معنى الشهادتين هو الحاكمية. ففسر الأصل بالمقتضى، فإن من مقتضيات لا إله إلا الله، الحكم بما أنزل الله. والحاكمية جزء من توحيد الألوهية وليست هي الألوهية.

وهذا افتراء على العرب ولغة العرب، ولو كان الأمر كما قال فقد عرضوا على النبي ﷺ أن يكون حاكمهم بل ملكهم، فلا يقطعون أمرا بدونه، وكذلك العربي فهم من قول لا إله إلا الله، هو عبادة إله واحد فقال تعالى على لسانهم: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[3].

(١) مثل جماعة التكفير والهجرة، وجماعات مكفرة في الساحة كمن ينتسب إلى تنظيم القاعدة ومن كان على شاكلتهم.
(٢) الظلال: الأنعام ١-٣
(٣) سورة ص، الآية: ٥.

وهـذا يـدل علـى أن سـيد قطـب لم تنـضبط عنـده بعـض المـصطلحات الشرعية؛ إنما هي فكرة نشأت في رأسه ثم أخذ يدلل عليها من القرآن.

وهي نفس الفكرة التي أصّل لها أبو الأعلى المودودي وتأثر بها سيد قطب. ولكن سيد قطب طور في الفكرة أكثر، حيث قال: "وشهادة أن لا إله إلا الله ليس لها مدلول إلا أن تكون الحاكمية العليا لله في حياة البشر، كما أن له الحاكمية في نظام الكون سواء"[1].

٢ ـ تفسير الدين بالحاكمية:

يقول:" إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله. فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين"[2].

٣ ـ معنى الإسلام بالحاكمية:

يقول: "يكفي لإثبات "الإسلام" أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله"[3].

٤ ـ تكفير المجتمعات واعتزال المساجد:

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: "في هذه المرحلة ظهرت كتب الشهيد سيد قطب، التي تمثل المرحلة الأخيرة من تفكيره، والتي تنضح بتكفير المجتمع، وتأجيل الدعوة إلى النظام الإسلامي بفكرة تجديد الفقه وتطويره، وإحياء الاجتهاد، وتدعو إلى العزلة الشعورية عن المجتمع، وقطع العلاقة مع الآخرين، وإعلان الجهاد الهجومي على الناس كافة، والإزراء بدعاة التسامح والمرونة، ورميهم بالسذاجة والهزيمة النفسية أمام الحضارة الغربية، ويتجلى ذلك أوضح ما يكون في تفسير "في ظلال القرآن" في طبعته الثانية، وفي "معالم

(١) نفس المصدر ص ١٢٥٦، ١٢٥٥.

(٢) نفس المصدر ص١٢١٧.

(٣) نفس المصدر ص ٦٩٧.

في الطريق"... وفي "الإسلام ومشكلات الحضارة"، وغيرها، وهذه الكتب كان لها فضلها وتأثيرها الإيجابي الكبير؛ كما كان لها تأثيرها السلبي"[1].

خلاصة عقيدة سيد قطب المؤدية إلى التكفير:

١ – ضياع منهج التلقي عنده مما أدى به إلى تفسير المصطلحات الإسلامية حسب ما فهم من كلام أبي الأعلى المودودي.

٢ – حصر معنى كلمة الدين والإسلام والشهادتين والألوهية في الحاكمية.

٣ – القول بتكفير المجتمعات الإسلامية.

٤ – تفسير الألوهية بمعنى الربوبية.

(١) د. يوسف القرضاوي: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، مؤسسة الرسالة، بيروت.ص١١٠.

المطلب الثاني

الجماعات والأحزاب المكفرة، مثل: جماعة التكفير والهجرة

بدأ الغلو في التكفير في العصر الحاضر من خلال بعض كتابات وأفكار أبي الأعلى المودودي، ثم تبلور هذا الأمر عند سيد قطب، فتأثر الرجل بها أيما تأثير. فكان يصف المجتمع بالجاهلية والخروج عن الإسلام، ثم بدأ يصدر أحكاما، يضع خططا لبناء مجتمع مسلم كما يتخيله الأديب لا كما يعرفه العالم. فكانت عباراته فتحاً لباب شر جديد على الأمة في ظاهرة الغلو في التكفير. فنشأت جماعات للغلو في التكفير منها: جماعة التكفير والهجرة، جماعة التوقف والتبين، والشوقيون، والجماعة القطبية، ومن أخذ منهم بعض معتقداتهم، مثل جماعة الجهاد، والجماعة الإسلامية في مصر قبل التخلي عن فكرهم وغيرهم كثير.

نشأة جماعة التكفير

"جماعة المسلمين كما سمت نفسها، أو جماعة التكفير والهجرة كما أطلق عليها إعلامياً، هي جماعة إسلامية غالية، نهجت نهج الخوارج في التكفير بالمعصية، نشأت في داخل السجون المصرية في بادئ الأمر، وبعد إطلاق سراح أفرادها، تبلورت أفكارها، وكثر أتباعها في صعيد مصر وبين طلبة الجامعات خاصة.

تبلورت أفكار ومبادئ هذه الجماعة في السجون المصرية وخاصة بعد اعتقالات سنة ١٩٦٥م التي أعدم إثرها سيد قطب وإخوانه بأوامر من جمال عبد الناصر حاكم مصر آنذاك. فقد رأى المتدينون المسلمون في داخل السجون من ألوان العذاب ما تقشعر من ذكره الأبدان، وفي هذا الجو الرهيب ولد الغلو ونبتت فكرة التكفير ووجدت الاستجابة لها. فقامت فئة قليلة من الشباب وأعلنت

كفر رئيس الدولة ونظامه، بل اعتبروا الذين أيدوا السلطة من إخوانهم مرتدين عن الإسلام، ومن لم يكفرهم فهو كافر، والمجتمع بأفراده كفار لأنهم موالون للحكام، فلا ينفعهم صوم ولا صلاة. وكان إمام هذه الفئة ومهندس أفكارهم الشيخ علي بن إسماعيل، ثم رجع عن منهجه وتاب منه، لكن الذي أخذ هذا المنهج وأصل له وقعد هو شكري بن مصطفى.

أهم معتقداتهم التكفيرية:

١- أن التكفير عنصر أساسي في أفكار ومعتقدات هذه الجماعة.

٢- يكفرون كل من ارتكب كبيرة وأصر عليها ولم يتب منها، وكذلك يكفرون الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله بإطلاق ودون تفصيل، ويكفرون المحكومين لأنهم رضوا بذلك وتابعوهم أيضاً بإطلاق ودون تفصيل، أما العلماء فيكفرونهم لأنهم لم يكفروا هؤلاء ولا أولئك، كما يكفرون كل من عرضوا عليه فكرهم فلم يقبله أو قبله ولم ينضم إلى جماعتهم ويبايع إمامهم. أما من انضم إلى جماعتهم ثم تركها فهو مرتد حلال الدم، وعلى ذلك فالجماعات الإسلامية إذا بلغتها دعوتهم ولم تبايع إمامهم فهي كافرة مارقة من الدين.

٣- وكل من أخذ بأقوال الأئمة بالإجماع ولو كان إجماع الصحابة أو بالقياس أو بالمصلحة المرسلة أو بالاستحسان ونحوها فهو في نظرهم مشرك كافر.

٤- والعصور الإسلامية بعد القرن الرابع الهجري كلها عصور كفر وجاهلية؛ لتقديسها لصنم التقليد المعبود من دون الله تعالى، فعلى المسلم أن يعرف الأحكام بأدلتها ولا يجوز لديهم التقليد في أي أمر من أمور الدين.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على النبي المبعوث بالرحمات، ففي ختام هذا البحث لابد أن أشير إلى جملة من الأمور التي توصلت إليها من خلال هذا البحث:

١- أن هذا الموضوع جدير بالعناية والاهتمام، لِمَا له من الأهمية الكبيرة التي لابد لكل طالب علم أن يعرفها ، حيث هناك من البشر من يكفر بعض أهل القبلة من المسلمين.

٢- أن القول بالتكفير خطير جدّاً على قائله فيما بينه وبين الله ، لِمَا فيه من القول على الله بغير علم، ومن الناحية الأخرى، الأحكام لابد أن تطبّق على من يُحكم بكفره (حكم المرتد). فلابد من التريث والتأني بل لا بد أن ينظر في الأمر مرات ومرات، حتى يتيقن المسلم يقيناً لا شك فيه ولا شبهة.

٣- أن التكفير حكم شرعي لا يجوز الإقدام عليه إلا بدليل من الكتاب والسنة ، فلا كافر إلا من كفّره الله ورسوله.

٤- أن هناك فرقاً بين تكفير المعين، وتكفير غير المعين.

٥- ينبغي أن يعلم أن هناك أصولاً في التكفير لابد من إتقانها ، ومعرفتها حتى يكون طالب العلم على بصيرة من أمره. وأن التكفير له موانع لابد من معرفتها والعلم بها ، وإنه لابد من مراعاة موانع التكفير قبل الإقدام عليه.

٦- إن الشريعة الإسلامية لا تحكم على أحد من أهل القبلة بالكفر إلا بعد أن يُبيَّن له ويوجه إلى الحق بالدليل وبالتبيين وإزالة الشبه العالقة بالأذهان الفاسدة ، فإذا أصرّ على ما هو عليه من الكفر والنفاق فعند ذلك لابد من العلاج النّاجع وهو ما ورد في الشريعة من أحكام المرتد ، يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافراً مرتداً.

٧- إن الخروج على أئمة المسلمين حرام بالكتاب والسنة.

٨- إن الجذور الفكرية لظاهرة التكفير عند المسلمين قديمة وحديثة، ففي القديم كانت أفكار الخوارج هي الجذور الأصيلة لظاهرة التكفير، وأضيف معها بعض أفكار المعتزلة والرافضة. وأما في الحديث، فقد كانت كتابات بعض المثقفين والمفكرين لها دورها في إثارة ظاهرة التكفير لدى بعض المسلمين.

٩- أن كل من خرج على الإمام الذي اتفقت عليه الجماعة المسلمة وكفَّر بالكبائر يسمى خارجيّاً، ويجب أن يطبق في حقّه الحكم الشرعي.

١٠- هناك بعض الجماعات والأحزاب تتبنى بعض الأفكار المخالفة للكتاب والسنة ومنهج سلف هذه الأمة، وهي بدورها أثرت في إنماء الفكر التكفيري لدى بعض شباب هذه الأمة.

١١- أن أهل السنة والجماعة وسط بين الفرق الأخرى سواء في قضية التكفير أم في غيرها.

١٢- أن أهل السنة والجماعة لا يقدمون على تكفير المخالف كما هو دأب الخوارج ومن نحا نحوهم، بل إن الفرق الأخرى المخالفة لأهل السنة والجماعة يختلفون بحسب أحوالهم ومقاصدهم، فمنهم من يكون كافرًا، ومنهم من يكون فاسقاً ظالماً، ضالاً، ومنهم من يكون مخطئاً وربما كان مغفوراً له.

هذا وأسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل عملي هذا متقبلاً خالصاً لوجهه الكريم، نافعاً، مباركاً، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مصر، الطبعة الثانية.
- ابن أبي العز الحنفي، علي بن علي بن محمد، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرناؤوط، الطبعة الثانية: ١٤٠٨هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، دار احياء الكتب العربية، فيصل بن عيسى البابي الحلبي.
- ابن القيم، الإمام أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، (النونية)، المتن مجرداً من التعليقات، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.
- ابن القيم، مدارج السالكين، تحقيق: محمد حامد الفقي، ١٤١٢ هـ، دار الفكر، بيروت.
- ابن القيم، مدارج السالكين، مراجعة لجنة من العلماء، دار الحديث، القاهرة. د.ت.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني أبو العباس: الرد على البكري (تلخيص كتاب الاستغاثة)، تحقيق: محمد علي عجال، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: د.محمد رشاد سالم، من مطبوعات جامعة الإمام، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد وابنه محمد، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤١٦ هـ.
- ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، الفصل في الملل والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، بيروت: دار الجيل، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ،.
- ابن رجب، كلمة الإخلاص وتحقيق معناها، تحقيق وتخريج: عماد طه فرة، الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ، دار الصحابة للنشر والتحقيق والتوزيع، مصر.
- ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من الأسانيد، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، مؤسسة قرطبه، د.ت.
- ابن عساكر، تبيين كذب المفتري، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٧٧ هـ.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩ هـ.
- ابن فارس، مجمل اللغة، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٠٤ هـ.
- ابن قيم الجوزية، اجتماع الجيوش الإسلامية، تحقيق: عواد عبد الله المعتق، الطبعة الثالثة: ١٤٠٩هـ، مكتبة الرشد، الرياض.
- ابن ماجه، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، مطبعة إحياء الكتب العربية، د.ت.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه: علي شيري، طبعة جديدة محققة، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ، دار احياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان.
- أبو المعالي عبد الملك الجويني، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تحقيق أسعد تيم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.
- أبو لبابة حسين، موقف المعتزلة من السنة النبوية ومواطن انحرافهم عنها، دار اللواء للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية.
- إحسان إلهي ظهير، الشيعة والسنة، إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان، الطبعة الرابعة والعشرون، ١٤٠٤هـ.
- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، بيروت، د.ت.

- أحمد حجازي السقا، الخوارج الحروريون، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة.
- الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق عدة من المحققين، طبع مطابع سجل العرب بالقاهرة، طبع الجزء الأول منه في دار القومية العربية للطباعة.
- الأشعري، أبو الحسن، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية: ١٣٨٩هـ، بدون ذكر المطبعة.
- الألباني، صحيح الترمذي، الطبعة الثالثة: ١٤١٥هـ، المكتب الإسلامي، بيروت، عمان ودمشق.
- الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير، الطبعة الرابعة، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- البخاري، الجامع الصحيح، دار المعرفة، بيروت، لبنان، المطبوع مع فتح الباري، بمراجعة الشيخ عبد العزيز بن باز، وترقيم فؤاد عبد الباقي، وتصحيح قصي محيي الدين الخطيب.
- البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر، أصول الدين، الطبعة الأولى: ١٣٤٦هـ، استانبول، مطبعة الدولة.
- البغوي، شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٠هـ.
- الترمذي: الجامع الصحيح، ترقيم وتحقيق: الشيخ أحمد شاكر وآخرون، دار الكتب العلمية.
- الجطيلي، عبد الرحمن بن حمد: الأجوبة المفيدة على أسئلة العقيدة، مكتبة الحرمين، الرياض.
- الجوهري: الصحاح، (تاج اللغة وصحاح العربية)، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، طبعة دار العلم للملايين، بيروت.
- الحرجاني، التعريفات، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ
- الحكمي: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، من مطبوعات دار الإفتاء بالرياض.
- د. بكر بن عبد الله أبو زيد: معجم المناهي اللفظية، الرياض: دار العاصمة

للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ.

- د. عبد العزيز آل عبد اللطيف، نواقض الإيمان القولية والعملية، الرياض: دار الوطن، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ
- د. عبد الله بن محمد القرني: ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- د. عواد بن عبد الله المعتق: المعتزلة وأصولهم الخمسة، الطبعة الثانية: ١٤١٦هـ، مكتبة الرشد، الرياض.
- د. غالب بن علي عواجي: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وموقف الإسلام منه، دار لينة، مصر.
- د. غالب بن علي عواجي، الخوارج تأريخهم وآراؤهم الاعتقادية، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى.
- د. فاروق عمر: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، طبعة مكتبة النهضة، بغداد.
- د. محمد بن عبد الله بن علي الوهيبي: نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ، دار المسلم، الرياض.
- د. محمد خليل هراس: شرح القصيدة النونية، الفاروق الحديثية للطباعة والنشر، مصر، لصاحبها عصام الدين سعد سالم، د.ت.
- د. مصطفى حلمي: الخوارج، الأصول التاريخية لمسألة تكفير المسلم، دار الأبصار، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ.
- د. ناصر بن عبد الكريم العقل، الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، الرياض: دار إشبيليا، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ
- د. يوسف القرضاوي: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، الطبعة السابعة، ١٤١٠هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- الراغب الإصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، طبعة ١٣٨١هـ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، بمصر.

- الزبيدي: تاج العروس في شرح القاموس، دار ليبيا، بنغازي، ليبيا.
- الزجاجي، اشتقاق أسماء الله الحسنى، تحقيق: د. عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
- السعدي، إرشاد أولي البصائر والألباب، لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب، اعتنى به ونسقه وعلق عليه: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ
- السعدي، الإرشاد إلى معرفة الأحكام، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٠هـ.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، بيروت، الطبعة الحادية العشرة، ١٤٠٥هـ.
- الشاطبي: الاعتصام، تحقيق: أحمد حيدر عبد الشافي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ.
- الشهرستاني، عبد الكريم: الملل والنحل، تحقيق: الأستاذ أحمد فهمي محمد أبو الخير، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الشوكاني، محمد بن علي: نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، دار الحديث، القاهرة، د.ت.
- صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١١ هـ.
- الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، طبعة دار الريان للتراث، دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٧هـ.
- عبد الرزاق بن همام الصنعاني: المصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ.
- عبد الله الموصلي، حتى لا ننخدع: حقيقة الشيعة، مصر: مكتبة الإمام البخاري، الطبعة العشرون.
- عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: الفصول النافعة في المكفرات الواقعة، ضمن الدرر السنية في الأجوبة النجدية، دراسة وتحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم.
- العثيمين، محمد بن صالح: مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن صالح

العثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر السليمان، دار الوطن ودار الثريا، ١٤١٣هـ.

- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٠٧هـ.
- القرافي، الفروق، دار عالم الكتب، بيروت، د.ت.
- المجلسي: بحار الأنوار، طبعة ذوي القربى.
- مجموعة التوحيد لشيخي الإسلام، أحمد بن تيمية، ومحمد بن عبد الوهاب ونخبة من العلماء المسلمين الأفاضل، المكتبة السلفية، المدينة المنورة.
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج: الصحيح، ترقيم: فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأول، ١٤١٢هـ.
- المودودي، أبو الأعلى، المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم، طبعة دار القلم، الكويت، ١٣٨٩هـ.
- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف: د. مانع بن حماد الجهني، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع.
- ناصر بن عبد الله السعوي، الخوارج: دراسة ونقد لمذهبهم، دار المعراج الدولية، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
- النووي، (المنهاج) شرح مسلم، دار الحديث، القاهرة، د.ت.
- الهيتمي، أحمد بن حجر المكي، الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، مكتبة القاهرة، الطبعة الثالث، ١٣٨٥هـ.

ظاهرة التكفير .. الأسباب والعلاج والآثار

جذور ظاهرة التكفير في الأديان الكتابية

دراسة عقدية وتاريخية

د.سعيد محمد حسين معلوي

الأستاذ المشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

بكلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الملك خالد

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة وهادياً للعالمين، وبعد:

فإن ظاهرة التكفير هي أكثر شيوعاً عند أهل الكتاب من غيرهم، وهي سِمَةٌ ظاهرة في أبجديات الديانتين اليهودية، والنصرانية على حد سواء. ومن هنا كان طرح هذا الموضوع المهم، وبالأخص في هذا العصر الذي وُصِفَ فيه المسلمون بالإرهاب والغلو في التكفير، وكان من حمل لواء هذه الفرية هي الجماعات النصرانية المتصهينة، والتي لها نفوذها الكبير في أماكن صنع القرار في بعض الدول الغربية، كما أن لها سيطرتها شبه الكاملة على وسائل الإعلام في تلك الدول، فبيان أن ظاهرة الغلو في التكفير ليست خاصة ببعض من ينتسبون إلى الدين الإسلامي؛ بل إن غيرهم من مخالفيهم لهم النصيب الأوفى من هذه الظاهرة، له من الأهمية مكان في هذا العصر.

وهذا البحث يختص ببيان ظاهرة التكفير عند اليهود والنصارى من جانبين: جانب عقدي، وجانب تاريخي. فأما من الجانب العقدي: فقد ذكر الباحث ما ورد في كتبهم من نصوص، وما ورد على لسان علمائهم من أقوال تفيد تغلغل ظاهرة التكفير عندهم. وأما من الجانب التاريخي: فقد سعى الباحث إلى أن يشمل بحثه المدة الزمنية من ظهور هاتين الديانتين إلى وقتنا هذا، بحسب توفر المصادر والمراجع، وبما يتلاءم مع شروط البحث التي وضعها القائمون على المؤتمر وفقهم الله. أيضاً– وبحسب الاستطاعة– كان الاعتماد على مصادر ومراجع من تأليف أبناء هاتين الملتين؛ ترجمت إلى اللغة العربية في السنوات الأخيرة، ولباحثين عرب من يهود ونصارى. والله أسأل التوفيق والسداد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه، واقتفى أثره إلى يوم الدين.

التمهيد

المطلب الأول

المراد بالكفر لغة واصطلاحاً

حقيقة الكفر:

الكفر في اللغة: معنى الكفر في اللغة يدور على الستر والتغطية، ومن ذلك سمي الكافر كافراً لأنه ستر نعم الله عز وجل[1].

الكفر في الاصطلاح: نقيض الإيمان وهذا عند كل الطوائف[2]. قال ابن تيمية: (الكفر عدم الإيمان، باتفاق المسلمين، سواء اعتقد نقيضه وتكلم به، أو لم يعتقد شيئاً ولم يتكلم. وقرر أن هذا قول أهل السنة والجماعة، وسائر الطوائف من أهل الكلام ومن غيرهم)[3]. قال – رحمه الله –: (الكفر عدم الإيمان بالله ورسله، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب؛ بل شك وريب. أو إعراض عن هذا كله حسداً، أو كبراً، أو اتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة)[4].

(١) انظر: لسان العرب: ١٤٤/٥. تاج العروس: ٤٥٠/٧.
(٢) كشاف اصطلاحات الفنون: ١٢٥١/٢.
(٣) مجموع الفتاوى: ٨٦/٢٠.
(٤) مجموع الفتاوى: ٣٣٥/١٢.

المطلب الثاني
المراد بالأديان الكتابية

المقصود بالأديان الكتابية: اليهودية، والنصرانية، وسموا بهذا الاسم؛ لأن كلاً من هاتين الديانتين لها كتاب منزل: فاليهودية أنزل الله عليها التوراة، وأنزل – تعالى – على النصرانية الإنجيل[1]. قال الراغب: (وحيثما ذكر الله – تعالى – أهل الكتاب، فإنما أراد بالكتاب: التوراة، والإنجيل، أو إياهما جميعاً)[2]. والمراد باليهودية: الديانة التي تتعبد بالتوراة، ويسمى اتباعها: يهود، واليهود: هم الذين يزعمون أنهم أتباع موسى عليه السلام، وقد وردت تسميتهم في القرآن بـ"اليهود" و"قوم موسى" و"بني إسرائيل" نسبة إلى نبي الله يعقوب عليه السلام. والملاحظ أن تسميتهم باليهود تأتي في القرآن في مواطن الذم، وهذا يدل على أنهم تلقَّبوا بهذا اللقب بعد أن فسد حالهم، وانحرفوا عن دين الله؛ في حين أن تسميتهم "ببني إسرائيل" كان في ابتداء نشأتهم وهم مسلمون؛ فلما حرَّفوا وبدلوا أطلق الله عليهم: اليهود[3]. وأما النصرانية: فهي الديانة التي يتعبد بها النصارى، وقد ورد تسميتهم في القرآن بالنصارى؛ الذين يزعمون أنهم أتباع المسيح عليه السلام. وتسمى النصرانية بالمسيحية، وهذه التسمية فيها نظر؛ وذلك أنها لم ترد في القرآن الكريم، وهي تسمية حادثة لا

(١) ينظر مادة "أهل الكتاب" في التعريفات، للجرجاني، : ص٩٨، ومعجم لغة الفقهاء: ص٩٥.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٧٠١.

(٣) ينظر الإصلاح والتعديل لما وقع في اسم اليهود والنصارى من التبديل، للشيخ عبدالله بن زيد آل محمود: ٣/٥٧٥–٥٩٠، ومعجم المناهي اللفظية، للشيخ بكر أبو زيد: ص٩٣، ودراسات في الأديان: اليهودية والنصرانية، أ.د.سعود بن عبدالعزيز الخلف: ص٣٦.

وجود لها في التاريخ، كما أن النصارى بدلوا دين المسيح وحرفوه[1].

ومن المعلوم ضرورة أن التوراة والإنجيل قد حُرِّفا وبدِّلا، كما بينه تعالى في محكم التنزيل، وكما ثبت في صحاح الأحاديث، يقول القرآن عن تحريف اليهود: ﴿ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ [النساء:٤٦]، وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة:١٣].

ويقول عن تحريف النصارى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٧٣]، وقال تعالى: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة:٧٥]، ولما سأله – سبحانه – وهو أعلم: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة:١١٦]، فأجاب عليه السلام: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة:١١٧]. كما أن الله – تعالى – وصف اليهود بأنهم مغضوب عليهم، ووصف النصارى بالضلال، فقال تعالى: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة:٧]. وعن عدي بن حاتم[2] رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلالا»[3]. فـ (الأمةُ الغَضَبِيَّة هم اليهودُ بنصِّ القرآن، وأُمَّةُ الضلال هم النصارى الْمُثَلِّثَة عُبَّادُ

(١) ينظر الإصلاح والتعديل لما وقع في اسم اليهود والنصارى من التبديل: ٣/٦١٦–٦٢٠، ومعجم المناهي اللفظية: ص٩٣، ودراسات في الأديان: اليهودية والنصرانية: ص١٢١.

(٢) عدي بن حاتم بن عبدالله الطائي، وفد على النبي ﷺ في وسط سنة سبع من الهجرة. له أحاديث عدة. نزل الكوفة مدة، وقاتل مع علي رضي الله عنه في الجمل وصفين هو وقومه، عمّر طويلاً، وتوفي سنة (٦٧هـ). [الإصابة: ٧/١٢٢].

(3) رواه الترمذي: كتاب التفسير، رقم (٢٩٥٤)، ص٦٦١، وصححه الألباني في الموضع نفسه.

الصلبان)[1].

والقارىء للتوراة والإنجيل اللذين في أيدي الناس اليوم، يجد في مواطن عديدة منها نقيض ما جاء به الأنبياء والرسل من الإيمان والتوحيد والعمل الصالح، والدعوة إلى محاسن الأخلاق والفضائل، فالتوراة وقع فيها التحريف بعد وفاة موسى عليه السلام ، ثم زاد تحريفها عندما كتبت بأيدي كهنة رهبان اليهود وعلى رأسهم عزرا[2]، بعد السبي البابلي عام (٥٩٩ق.م) بأكثر من قرن ونصف، وتحديداً عام (٤٤٤ق.م)[3]. يقول جارودي[4]: (ليس هناك عالم من علماء التفسير لا يقر أن أقدم نصوص التوراة قد ألفت على الأكثر في عهد سليمان– في منتصف القرن العاشر قبل الميلاد– وهي عبارة عن تجميع لروايات شفهية شتى، فإذا ما التزمنا بمعايير الموضوعية التاريخية؛ كان علينا الإقرار بأن هذه الروايات التي تتحدث عن ملاحم مرت عليها قرون، ليست أكثر

(١) أحكام أهل الذمة، لابن القيم: ٤٨٤/١.

(٢) هو كاهن ابن سرايا، لُقِب بالكاتب لكتابته التوراة؛ ولأنه كان دارساً مجتهداً، ومفسراً عميقاً لها. كان موظفاً في بلاط امبراطور الفرس، ومستشاراً له في شؤون الطائفة اليهودية، التي كانت تقيم في ما بين النهرين منذ أيام السبي. وقد استطاع عزرا أن يعيد اليهود إلى القدس بعد موافقة الامبراطور الفارسي ما بين سنة (٤٥٧–٣٩٨ ق.م)، يعتبره اليهود زعيماً لهم بعد موسى عليه السلام الذي أخرجهم من مصر. [ينظر قاموس الكتاب المقدس:ص٦٢١].

(٣) ينظر شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني: ص٣١، وإفحام اليهود، السموأل بن يحيى المغربي "الحبر شموائيل بن يهوذا بن آبوان" قبل إسلامه: ص١٤٠، وقصة الحضارة، ول ديورانت: ٣٦٦/٢، وما بعدها. والتلمود، آ.كوهن: ص١٦–١٧.

(4) روجيه جان شارل جارودي، من مواليد مارسيليا بفرنسا، في ١٩١٣/٧/١٧م فيلسوف فرنسي معاصر، أشهر إسلامه في: ١٤٠٢/٩/١١هـ الموافق: ١٩٨٢/٧/٢م. تبنى بعد إسلامه فلسفة تلفيقية ذات صبغة شمولية تشمل الأديان الإبراهيمية الثلاثة، والرجل ينكر أي دور تشريعي للسنة النبوية، ويؤول العبادات الشرعية تأويلاً باطنياً، والحلال والحرام أمور نسبية تختلف بحسب الظروف، والحدود في نظر جارودي نوع من الهمجية ينبغي منعه، فضلاً عن إنكاره للقدر وتأويله للبعث.. وهكذا [ينظر: فكر جارودي بين المادية والإسلام، عادل التل. ومجلة الأمة، العدد (٢٩) جمادى الأولى ١٤٠٣هـ، فبراير ١٩٨٣م: ص٦٥–٧٣].

تاريخية– بالمعنى الدقيق للكلمة– من الإلياذة)[١].

فأدخل فيها هؤلاء الكهنة ما ليس من عند الله تعالى من تراث الأمم الوثنية السابقة؛ حتى إنَّ شريعة موسى عليه السلام لم يبق منها إلا القليل، وما عدا ذلك فقد اندثر وضاع، ولم يبق له أثر[٢].

ولهذا نجد في التوراة المحرفة التي بأيدي اليهود سوء الأدب مع الباري سبحانه، ووصفه تعالى عن ذلك بصفات النقص والخداع والندم، بل تارة بالجهل والنسيان، وعدم العلم، ومصارعة البشر، ولطم الوجه، إلى غير ذلك من القبائح. أما ما نسبته التوراة المحرفة إلى أنبياء الله فكثير: من الزنا، والكذب والاحتيال، وطلب الدنيا، وكتمان ما أنزل الله ومختلف كبائر الذنوب. فضلاً عن الاستهزاء بذواتهم واتخاذهم مجالاً للسخرية[٣].

أما الإنجيل الذي في أيدي النصارى اليوم، فليس ما أوحاه الله إلى عيسى عليه السلام؛ بل ضاع منهم، والتحريف في الإنجيل الموجود اليوم ظاهر وجلي. وكانت كتابته بعد رفع المسيح عليه السلام بمئات السنين، والأخبار التي فيه

(١) دراسة للصهيونية السياسية، روجيه جارودي: ص٩٤–٩٥. وينظر الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية لجارودي: ص٤٣. والإلياذة: ملحمة شعرية أسطورية من الأدب الإغريقي، نسبة إلى مدينة إليون اليونانية عاصمة بلاد الطرواد، وتحكي هذه الملحمة حروب طروادة، وما كان فيها من أحداث. والإلياذة من تأليف رجل يدعى: هوميروس، يقال إنه كان أعمى، ومن سكان آسيا الصغرى (والمراد بها حالياً: أجزاء من اليونان وتركيا وبعض الدول المجاورة لها)، ينظر: مقدمة مترجم الإلياذة: سليمان البستاني: ١/٩–٣٦.

(٢) ينظر قصة الحضارة: ٣٧١/٢، وفجر الضمير، جيمس هنري بريستيد، الفصل السابع عشر: مصادر إرثنا الخلقي: ص٣٦١–٤١٤، والأسطورة والحقيقة في التوراة، زنون كوسيدوفسكي: ص٣٧٢، وما بعدها، والتوراة كتاب مقدس أم جمع أساطير، ليو تاكسل: ص٥٢٤–٥٢٥، والمدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، د.محمد علي البار: ص١٢٨ ومابعدها، ١٤٣–١٥٥.

(٣) ينظر الحسام الممدود في الرد على اليهود، عبدالحق الإسلامي المغربي (من أحبار اليهود الذين أسلموا): ص١٧٥–١٨٧، وشفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، والمدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، : ص١٥٥–١٥٨.

فيها كذب وافتراء على الله ونبيه عيسى عليه السلام: كأخبار صلب المسيح، وقد بين القرآن الكريم أن ذلك لم يقع بيقين: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء:١٥٧]. وعقيدة التثليث: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٧٣]، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[المائدة:٧٢]. وقولهم إن الله اتخذ ولدا، وهو ما نفاه القرآن عنه تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون:٩١]. إلى غير ذلك من التحريف والتبديل الموجود في الإنجيل المتداول بين أيدي الناس اليوم.

المبحث الأول
جذور ظاهرة التكفير عند اليهود

المطلب الأول
عقيدة الشعب المختار وأثرها في ظاهرة التكفير عند اليهود

يزعم اليهود بأنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وما سواهم فهم أميون يجوز أن يفعلوا بهم ما شاؤوا، ويجوز خداعهم، واستباحة أموالهم وأعراضهم؛ بل وقتلهم متى قدروا عليهم، وأن بقية الأمم خدم لهم مسخرون لأجلهم.

وَزَعْمُ اليهودِ أنهم مصطفون لجنسهم من دون الناس، وأنهم أحباء الله وحده دون سائر الخلق، ذكره الله عنهم في القرآن الكريم، فقال – تعالى –: ﴿ وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [المائدة:١٨]. وحكم اليهود بالجنة لمن كان منهم– وتبعهم النصارى في ذلك– وحرَّموا الجنة على غيرهم، يقول الله – جل وعلا –: ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[البقرة:١١١]، وفي ضوء هذه الخصوصية لليهود؛ فإنهم غير مؤاخذين ولا محاسبين فيما يفعلونه في الأميين من استباحة أموالهم، وسرقتهم، قال – تعالى – حاكياً عنهم: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران:٧٥]، والمراد

بأهل الكتاب هنا: هم اليهود كما ذكره أهل التفسير(١).

ودلالة اصطفاء الله لليهود، هي فيما نسب إليه – تعالى – في التوراة في قوله: (وَقَدْ أَفْرَزْتُكُمْ مِنْ بَيْنِ الشُّعُوبِ لِتَكُونُوا خَاصَّتِي)(٢). وهذا الاصطفاء لبني إسرائيل هو ما خصهم الله به من إرسال الأنبياء إليهم، وإنزال الكتب عليهم، كما بينه – تعالى – في القرآن الكريم في قوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الجاثية:١٦]، لكنهم لما خالفوا وبدلوا، وخانوا الأمانة التي اؤتمنوا عليها، زال عنهم هذا الاصطفاء، ووصفهم الله – تعالى – بالكذب والظلم : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة:٥] ، ولعنهم الله على لسان أنبيائه عليهم السلام، فقال – جل جلاله –: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ، تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ، وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [المائدة:٧٨–٨١]، وخص الله – عز وجل – أمة محمد ﷺ – أمة الإجابة– من عرب وعجم، ومن سود وبيض بالاصطفاء، فقال –سبحانه–: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠]، وربط هذا الاصطفاء: بالإيمان به سبحانه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: ٦٠/٢.

(٢) التوراة، سفر اللاويين: الإصحاح ٢٠ : ٢٦.

أيضاً فإن الذين اصطفاهم الله – تعالى – هم بنو إسرائيل، وليس اليهود، وقد سبق أن ذكرنا أن تسميتهم باليهود تأتي في القرآن في مواطن الذم، وهذا يدل على أنهم تلقَّبوا بهذا اللقب بعد أن فسد حالهم، وانحرفوا عن دين الله، في حين أن تسميتهم "ببني إسرائيل" كان في ابتداء نشأتهم وهم مسلمون؛ فلما حرَّفوا وبدلوا أطلق الله عليهم: اليهود. فاليهود قد انفصلوا بكفرهم عن بني إسرائيل زمن بني إسرائيل، كانفصال إبراهيم الخليل عليه السلام عن أبيه آزر، وكما في قصة نوح عليه السلام مع ابنه، والكفر يقطع الموالاة بين المسلمين والكافرين؛ ولهذا فإن الفضائل التي كانت لبني إسرائيل ليس ليهود منها شيء؛ فإطلاق اسم بني إسرائيل على اليهود يكسبهم فضائل، ويحجب عنهم رذائل، فيزول التميز بين بني إسرائيل الذين اصطفاهم الله، وبين اليهود المغضوب عليهم، الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة[1].

واليهود الذين حرَّفوا وبدلوا قد ظنوا أن اصطفاء الله لهم، هو اصطفاء جنس لا اصطفاء عمل، وأن الله – تعالى – لهم وحدهم، وإلاههم من دون سائر العالمين، كما جاء في التوراة: (وَأَتَّخِذُكُمْ لِي شَعْباً وَأَكُونُ لَكُمْ إِلَهاً)[2]. وفيها – أيضاً –: (لأَنَّكُ أنت شَعْبٌ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ إِلَهِك. إِيَّاكَ قَدِ اخْتَارَ الرَّبُّ إِلَهُك لِتَكُون شَعْباً أخصَّ مِنْ جَمِيعِ الشُعُوبِ الذين على وجه الأَرْضِ)[3].

كما أن التوراة تصف اليهود بالشرك والكفر والخروج على شريعة الرب، مما يؤكد أن هذا الاصطفاء بزعمهم كان لجنسهم لا لإيمانهم: (وَفعل بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ وَعَبَدُوا الْبَعْلِيمَ، وَتركوا الرَّبَّ إِلَهَ

---

(١) ينظر الإصلاح والتعديل لما وقع في اسم اليهود والنصارى من التبديل: ٣/٥٧٤–٦٢٤، ومعجم المناهي اللفظية: ص٩٣.

(٢) التوراة، سفر الخروج: الإصحاح ٦، الفقرة (٧).

(٣) التوراة، سفر التثنية، الإصحاح ٧: (٦–٧).

آبَائِهِم الَّذِي أَخْرَجَهُمْ مِنْ أرض مِصْرَ، وَساروْا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى مِنْ آلهة الشُّعُوبِ الذين حولهم، وَسَجَدُوا لَهَا، وَأَغَاظُوا الرَّبَّ. تَرَكُوا الرَّبَّ وَعَبَدُوا الْبَعْلَ وَعَشْتَارُوثَ)[1].

فاليهود بزعمهم هم الذين اصطفاهم الله من دون سائر الخلق، بل هم (جزء من الله)[2] كما يفترون؛ فمن أجلهم يقاتل، ولأجلهم يعاقب، ويندم على ما يفعله بهم، ويعتذر إن أخطأ في حقهم، تعالى الله وتنزه عن افتراء اليهود وإلحادهم في حقه جل وعلا. ويذكرون في التوراة ندم الله – تعالى – على ما فعله ببني إسرائيل – تعالى – عن قولهم وبهتانهم، حيث يخاطب موسى عليه السلام الله – تعالى – فيقول: (ارجع عن حمو غضبك، واندم على الشر بشعبك)[3]، فيجيبه الرب: (الرب ندم على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه)[4].

وجاء في التلمود: (أن الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة، فإذا ضرب أميٌّ إسرائيليًا فكأنه ضرب العزة الإلهية)[5]. وفيه – أيضاً –: (أنه إذا ضرب أميّ إسرائيليًا فالأمي يستحق الموت، وأنه لو لم يخلق اليهود لانعدمت البركة من الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس، ولما أمكن باقي المخلوقات أن تعيش، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق الموجود بين اليهود وباقي الشعوب)[6]. وفي التلمود – أيضاً – أن (الشعب المختار – أي: اليهود– فقط يستحق الحياة الأبدية)[7]، وفيه: (تتميز أرواح اليهود عن باقي

(١) التوراة، سفر القضاة: الإصحاح ٢: (١١–١٣).
(٢) الكنز المرصود في فضائح التلمود، أوجست روهلنج: ص١٨٧.
(٣) الكتاب المقدس: سفر الخروج: الإصحاح ٣٢: ١٢.
(٤) الكتاب المقدس: سفر الخروج: الإصحاح ٣٢: ١٤.
(٥) الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص١٨٧.
(٦) المصدر السابق: ص١٨٧.
(٧) المصدر السابق: ص١٨٩.

الأرواح بأنها جزء من الله، كما أن الابن جزء من والده، ومن ثم كانت أرواح اليهود عزيزة عند الله بالنسبة لباقي الأرواح؛ لأن الأرواح غير اليهودية هي أرواح شيطانية، وشبيهة بأرواح الحيوانات)[١].

واليهودية– في نظر اليهود– تساوي الإنسانية؛ ولا يكون المرء إنساناً إلا إذا كان يهودياً، أما غيره من البشر فليس من الإنسانية في شيء[٢].

لقد تحولت عقيدة الشعب المختار عند اليهود إلى صنم يعبد من دون الله، وأصبحت هذه العقيدة ركيزة أساسية من ركائز الصهيونية في العصر الحديث، يقول اليهودي مارتن بوبر[٣]: (لقد كنا نأمل في إنقاذ النزعة القومية اليهودية من الخطأ المتمثل في تحويل الشعب إلى صنم معبود؛ ولكننا فشلنا)[٤]. بل وصل الأمر بهم إلى القول بأنه (مادامت الدولة لغير اليهود؛ فإن الله خامل الذكر عن الأمم، وأنه مطعون في ملكه، مشكوك في قدرته)[٥].

وقد نتج عن عقيدة الشعب المختار عند اليهود: أن استثنوا أنفسهم من الوقوع في الكفر مها بلغ الاختلاف بينهم مبلغه. فاليهود مع أنهم فرق شتى، ومذاهب متباينة في اعتقاداتها؛ ومع وجود اختلافات جوهرية وعميقة تمتد إلى العقائد والأصول بين فرق اليهود، فإن مفهوم الاختلاف والتباين في العقيدة في اليهودية لا يعطي الدلالة نفسها التي تحملها في الإسلام أو النصرانية. (فلا

---

(١) المصدر السابق: ص١٧٨.

(٢) ينظر محاكمة الصهيونية الإسرائيلية، روجيه غارودي: ص٤٠.

(٣) مارتن بوبر (١٨٧٨–١٩٦٥م) مفكر يهودي صهيوني، ومن أبرز مفسري العهد القديم، انضم إلى الحركة الصهيونية؛ ثم اعتزل الحياة العامة، وتفرغ للبحث في فلسفة الدين، وهاجر إلى فلسطين عام ١٩٣٨م، واستقر فيها حتى وفاته. انقلاً عن حاشية مترجم كتاب روجيه جارودي: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية: ص٢٩، وينظر: الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، إسرائيل شاحاك: ص٥٦–٥٧.

(٤) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية: ص٣٢، وينظر: الكتاب نفسه: ص٣٢–٣٦.

(٥) إفحام اليهود: ص١٢٨.

يمكن – على سبيل المثال – تصوُّر مسلم يرفض النطق بالشهادتين ويُعترَف به مسلماً، أو مسيحي يرفض الإيمان بحادثة الصلب والقيام ويُعترَف به مسيحياً. أما داخل اليهودية، فيمكن ألا يؤمن اليهودي بالإله ولا بالغيب ولا باليوم الآخر ويُعتبر مع هذا يهودياً حتى من منظور اليهودية نفسها. وهذا يرجع إلى طبيعة اليهودية بوصفها تركيباً يضم عناصر عديدة متناقضة متعايشة دون تمازج أو انصهار. ولذا؛ تجد كل فرقة جديدة داخل هذا التركيب من الآراء والحجج والسوابق ما يضفي شرعية على موقفها مهما يكن تطرفه)[1].

وغالبية اليهود اليوم لا يؤمنون بإله على الإطلاق، فهم يتجاوزون عقيدتهم اليهودية لا إلى عقيدة أخرى؛ بل إلى ما يعرف بالعبادة القلبية، أو العبادة العقلية المجردة، ولا يمارسون أية طقوس، ولكنهم مع هذا يسمون أنفسهم يهوداً؛ لأنهم ولدوا لأم يهودية![2]، بل إن بعض فرق اليهود يعتقدون أنه لا توجد سوى الحياة الدنيا، وينكرون كل ما يتعلق بالروح واليوم الآخر، وينكرون والبعث والثواب العقاب. وبرغم رؤيتهم المادية الإلحادية هذه، فإنهم كانوا يُعتبَرون يهوداً؛ بل كانوا يشكلون أهم شريحة في النخبة الدينية القائدة، وقد اعترفت بيهوديتهم سائر فرق اليهود[3]، (فالشريعة اليهودية– على أية حال– تُعرِّف اليهودي بأنه من يؤمن بالعقيدة اليهودية أو يولد لأم يهودية)[4]. فمتى تحقق أحد هذين الشرطين فهو يهودي، حتى ولو كان غارقاً في الإلحاد.

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د.عبدالوهاب المسيري: ٣١٧/٥.
(٢) ينظر موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: ٣١٨/٥.
(٣) ينظر موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: ٣٢٤/٥، والفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، د.حسن ظاظا: ص٢٠١–٢٧٣.
(٤) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د.عبدالوهاب المسيري: ٣١٧/٥.

المطلب الثاني
ظاهرة التكفير في شريعة التلمود

التلمود:

التلمود: لفظة عبرية تعني التعاليم أو الشريعة الشفوية، وهو من كتب اليهود المقدسة، ويفضلونه على التوراة، ويحيطونه بسرية تامة، وهو عبارة عن شروح للتوراة لحاخاماتهم في كل عصر ومن كل مصر جمعت بناء على التعاليم الشفوية التي ظلت متوارثة على مدى ستة عشر قرناً، منذ وفاة موسى عليه السلام في القرن (١٤ق.م)، إلى أن بدأت كتابة التلمود في القرن الثاني الميلادي، وأول تدوين له كان سنة (١٨٩م) على الأرجح، ولا تزال الشروح تضاف إلى التلمود حتى مطلع العصر الحديث، حتى طبع مؤخراً بلغتين: إنجليزية، وعبرية في خمسة وثلاثين مجلداً، ووزع على أحبار اليهود فقط[1].

والتلمود يحتوي على آراء متناقضة من أمثال وحكم وأقضية. وهو يبيح الربا، وتقديم الأطفال قرباناً للإله، كما يبيح الغش، ويعلم أتباعه كراهية الأجانب، والسعي إلى سرقتهم وأذيتهم[2]، ولا يبعد عن الحقيقة القول بإن (بعض أقوال التلمود مغال فيه، وبعضها كريه، وبعضها الآخر كفر؛ ولكنها تشكل في صورتها البسيطة أثراً غير عادي للجهد الإنساني، وللعقل الإنساني، وللحماقة الإنسانية)[3].

---

(١) ينظر: التلمود، آ.كوهن: ص١٥–٤٥، وكنيس في الكنيسة، ميشيل منير: ص٧، الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، إسرائيل شاحاك: ص٧٤، وما بعدها، وإسرائيل والتلمود، إبراهيم خليل أحمد: ص١٢–١٣، والمسيح المنتظر وتعاليم التلمود، د.محمد علي البار: ص٢٣–٨٤.

(٢) ينظر المسيحية المتهودة، عيسى اليازجي: ص٢٥–٢٦.

(٣) المسيحية المتهودة: ص٢٦.

وتصل أهمية التلمود عند اليهود– لدرجة زعمهم (أن الله في الليل يدرس التلمود)[1]، تعالى الله جل جلاله عما يقوله اليهود علواً كبيراً. وشريعة التلمود هي الشريعة المقدمة، والتي ينبغي أن تسود على كل الشرائع[2]، فهو المصدر الرئيس لكل الممارسات اليهودية[3]، ونص التلمود، والمعنى الحرفي له ملزم بخلاف نص التوراة فهو غير ملزم، والتلمود أفضل من كلام الأنبياء بزعم اليهود، ومن احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت، أما من احتقر أقوال التوراة فلا يستحق عقاباً، وأن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها، ولا تغييرها ولو بأمر الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً[4].

ومما جاء في التلمود[5]:

- تنبثق نفوس اليهود من جوهر الله مباشرة، كما ينبثق جوهر الولد من أبيه.
- نفوس اليهود أكثر قبولاً، وأعظم شأناً عند الله من نفوس سائر شعوب الأرض؛ لأن هؤلاء تشتق نفوسهم من الشيطان، وهي مشابهة لنفوس الحيوانات والجماد.
- اليهود أحب إلى الله من الملائكة.
- من يصفع اليهودي كمن يصفع الله.
- إذا ضرب أميّ إسرائيليا يستحق الموت وليس العكس.

---

(1) همجية التعاليم الصهيونية، بولس حنا مسعد: ص٣١.

(2) ينظر محاكمة الصهيونية الإسرائيلية، روجيه غارودي: ص٢٣٦.

(3) ينظر الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، إسرائيل شاحاك: ص٧٤.

(4) ينظر الكنز المرصود في فضائح التلمود، أوجست روهلنج: ص١٥٩–١٦٢. الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، إسرائيل شاحاك: ص٧٩.

(5) هذه النصوص منقولة بتصرف من كتاب: الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص١٨٧–١٩٢. ومن كتاب همجية التعاليم الصهيونية، بولس حنا مسعد: ص٥٠. وللمزيد ينظر:: التلمود عرض شامل، آ.كوهين: ص١١٣–١٢٢، وكتاب: فضح التلمود، الأب: آي. بي. براناتيس.

- ولو لم يخلق الله اليهود لانعدمت البركة من الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس، ولما أمكن باقي المخلوقات أن تعيش.
- الفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو الفرق بين اليهود وبين باقي الأمميين.
- إن النطفة المخلوق منها باقي الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية هي نطفة حصان.
- إن الكلب أفضل من الأجنبي؛ لأنه مصرح لليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب وليس له أن يطعم الأجنبي أو يعطيه لحماً؛ بل يعطيه للكلب.
- الشعب اليهودي فقط هو الذي يستحق فقط الحياة الأبدية، وأما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير.
- إن الخارجين عن دين اليهود خنازير نجسة، وإذا كان الأجنبي غير اليهودي قد خلق على هيئة الإنسان فما ذلك إلا ليكون لائقاً لخدمة اليهود الذين خلق لأجلهم. ويرى الحاخام اليهودي ابن ميمون[1] أن هناك بشر غير قادرين على عبادة الله، إنهم نوع البشر الذين ليس لديهم أي معتقد... فهم مثل حيوانات غير ناطقة، وليسوا في مستوى البشر؛ إذ إنهم من بين الكائنات الحية صنف أدنى من البشر، وأعلى من القرود[2].

(١) أبو عمران موسى بن ميمون: طبيب وفيلسوف وحاخام يهودي، ولد في قرطبة سنة (٥٢٩هـ) ترك قرطبة بعد أن استولى عليها الموحدون، وهاجر إلى فاس متظاهراً بالإسلام أو مكرهاً عليه، ثم انتقل إلى فلسطين فمصر فعاد إلى يهوديته واستقر بالفسطاط قرب القاهرة إلى أن مات سنة (٦٠١هـ). عمل طبيباً لصلاح الدين وابنه من بعده، وانتخب رئيساً لمجلس الحاخاميين في مصر، وهذا المجلس هو محكمة الملة اليهودية. ومما يذكر عنه أنه بعث إلى أتباعه اليهود في أنحاء مصر واليمن رسائل يدعوهم فيها للاستيطان في فلسطين بعد هزيمة الصليبيين على يد صلاح الدين. ينظر معجم الفلاسفة: ص٣٤.

(٢) ينظر دلالة الحائرين، لموسى بن ميمون: ٧١٥/٣.

المطلب الثالث

تكفير اليهود للأنبياء والرسل

نسب اليهود إلى موسى وهارون – عليهما السلام – أنهما لم يؤمنا بالله عز وجل، تعالى الله وأنبياؤه عن قولهم، فقد ورد في التوراة العبرية، ما ترجمته: (وقال الله لموسى وهارون: كما أنكما لم تؤمنا بي، ولم تقدساني فيما بين بني إسرائيل، لا تدخلا مع هذا الشعب الأرض التي وعدتهم بها) يعنون: أن بلاد الشام عظيمة؛ لذلك لم يدفنا فيها؛ بل دفنا في التيه مع العصاة[1].

كما زعم اليهود أن الذي صنع العجل لبني إسرائيل ليعبدوه هو هارون عليه السلام عليه السلام – حاشاه ذلك، فقد جاء في التوراة العبرية ما نصه: (وغضب الله على بني إسرائيل لما عبدوا العجل الذي صنعه هارون)[2]. وجاء في سفر الخروج: (ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا؛ لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم و أتوا بها إلى هرون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر)[3].

وتذكر التوراة عن سليمان أنه ترك عبادة الله وعبد آلهة أخرى، فجاء في سفر الملوك: (وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان

(١) الحسام الممدود في الرد على اليهود: ص١٨٣–١٨٥.
(٢) المصدر السابق: ص١٨٦–١٨٧.
(٣) الكتاب المقدس، سفر الخروج، الإصحاح ٣٢: ١–٤.

وراء عشتروث الآهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه... فغضب الرب على سليمان؛ لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين. وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب. فقال الرب لسليمان من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقا)[1].

كما يذكر الإنجيل ظلم اليهود، وتكفيرهم وقتلهم لمن آمن بالمسيح، بل وتكفيرهم للمسيح عليه السلام؛ فبعد أن سأل المسيح عليه السلام اليهود: لماذا يسعون في رجمه؟: (أجابه اليهود قائلين: لسنا نرجمك لأجل عمل حسن؛ بل لأجل تجديف[2]. فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً)[3]. (فَشَقَّ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ ثِيَابَهُ وَصَرَخَ: قَدْ جَدَّفَ! ما حَاجَتنا بَعْدُ إِلَى شُهُودٍ. هَا قَدْ سَمِعْتُمْ تَجْدِيفَهُ. ماذا ترون؟ فأَجَابُوا وقالوا: إنه مستوجب الْمَوْتِ! حينئذ بَصَقُوا فِي وَجْهِهِ، ولكموه، وآخرون لَطَمُوهُ قَائِلِينَ: تَنَبَّأْ لَنَا، أَيُّهَا الْمَسِيحُ، مَنْ ضَرَبَك)[4]. ويحكم التلمود على عيسى عليه السلام بأنه– حاشاه ذلك– في (لجات الجحيم بين الزفت والقطران والنار)[5]، وأن (المسيح ارتد عن دين اليهود وعبد الأوثان)[6]، كما زعم اليهود أن المسيح ساحر، وأنه تعلم ما كان يقوله للناس من حبر مطرود من الكنيس اليهودي لكفره. كما زعموا أن حواري عيسى ملحدون وكفرة[7].

---

(١) الكتاب المقدس، سفر الملوك الأول، الإصحاح ١١: ٤–١٢.
(٢) التجديف في اللغة: هو الكفر بالنعم.ينظر: تاج العروس: ١١٠/١٢. وأما المراد بها عند أهل الكتاب، فهو: كلام غير لائق في شأن الله وصفاته. ينظر: قاموس الكتاب المقدس ص٢٥٣.
(٣) إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٠: ٣٣.
(٤) إنجيل متى، الإصحاح ٢٥: ٦٥–٦٨.
(٥) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: ص١١٧.
(٦) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: ص١١٧.
(٧) ينظر المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: ص١١٨–١١٩.

فاليهود كذَّبوا المسيح عليه السلام، وأنكروا نبوته، والنصارى كذَبوا عليه بزعمهم أنه إله. قال – تعالى –: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الصف:٦]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢].

ويحكم اليهود على نبي الله عيسى عليه السلام بأنه كافر مضلل، أفسد شعب اليهود: (ضلّل يسوع، وأفسد إسرائيل وهدمها)، وبأنه– حاشاه ذلك– مدفون في جهنم: (إن يسوع مات كبهيمة، ودفن في كومة قذر... حيث تطرح الكلاب والحمير النافقة)(١). كما يصف اليهود ما أتى به عيسى من عند الله بالكذب والابتداع(٢).

ولم يسلم نبينا محمد ﷺ من تكفير اليهود: ففي قول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:٨٩]، ذكر المفسرون أن اليهود، كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه. فلما بعثه الله من العرب كفر اليهود به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه(٣). وروى الإمام أحمد في حديث طويل أن أناساً من يهود المدينة كانوا ينتظرون مبعث نبي، فلما بعث من العرب؛ كفرو به بغياً، وحسداً(٤).

(١) هذه النصوص منقولة من كتاب: فضح التلمود، الأب: آي. بي. براناتيس: ص٦٦.
(٢) ينظر: فضح التلمود: ص٧٣.
(٣) تفسير ابن كثير: ٣٣٠/١.
(٤) في المسند، حديث رقم (١٥٨٤١) ١٦٤/٢٥، وحسَّن إسناده محقق المسند.

المطلب الرابع
تكفير اليهود للأمم الأخرى

أطلق اليهود التكفير على كل الأمم، حتى ولو كانوا متبعين لرسل أرسلهم الله، ونظروا لهذه الأمم على أنها شعوب ضالة لا تستحق الإيمان، وإنما هي مسخرة لخدمة شعب الله المختار، وقسم اليهودُ الشعوبَ إلى قسمين لا ثالث لهما: القسم الأول: هم اليهود، والقسم الثاني: سائر الأمم من غير اليهود[1]. وقد سبق الحديث عن اليهود وزعمهم أنهم الشعب الذي اختاره الله من بين سائر الشعوب، والحديث سيكون عن نظرة اليهود للأمم الأخرى، وإطلاق اليهود الكفر والضلال على بقية الشعوب من غير اليهود.

جاء في التوراة: (أَلَسْتَ أَنْتَ إِلَهَنَا الَّذِي طَرَدْتَ سكان هَذِهِ الأَرْضِ مِنْ أَمَامِ شَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ، وأعطيتها لِنَسْلِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِكَ إِلَى الأَبَدِ)[2]. (وكانت هَيْبَةُ الرَّبِّ عَلَى كُلِّ مَمَالِكِ الأَرَاضِي حين سَمِعُوا أَنَّ الرَّبَّ حَارَبَ أَعْدَاءَ إِسْرَائِيلَ)[3]. (أُعَادِي أعداءَك وأُضَايِقُ مضايقك)[4]، وفيها – أيضاً –: (هللويا غنوا للرب ترنيمة جديدة تسبيحته في جماعة الأتقياء. ليفرح إسرائيل بخالقه، ليبتهج بنو صهيون بملكهم. ليسبحوا اسمه برقص بدف وعود ليرنموا له؛ لأن الرب راض عن شعبه يجمل الودعاء بالخلاص. ليبتهج الأتقياء بمجد ليرنموا على مضاجعهم. تنويهات الله في أفواههم، وسيف ذو حدين في يدهم. ليصنعوا نقمة في الأمم وتأديبات في الشعوب. لأسر ملوكهم بقيود وشرفائهم بكبول من

(١) ينظر: التلمود، آ. كوهن: ص١١٣–١٢٢.
(٢) الكتاب المقدس، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٢٠: ٧.
(٣) الكتاب المقدس: سفر أخبار الأيام الثاني: الإصحاح ٢٠: ٢٩.
(٤) الكتاب المقدس: سفر الخروج: الإصحاح ٢٣: ٢٢.

حديد. ليجروا بهم الحكم المكتوب كرامة هذا لجميع أتقيائه هللويا)[١].

ويعتبر التلمود الأجانب كلاباً، وأن (الكلب أفضل من الأجانب؛ لأنه مصرح لليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب، وليس له أن يطعم الأجانب، وغير مصرح له أيضًا أن يعطيهم لحمًا، بل يعطيه للكلب؛ لأنه أفضل منهم. والأمم الخارجة عن دين اليهود ليست فقط كلابًا، بل حميرا أيضًا)[٢].

وفي التلمود لا صلة مطلقاً بين الأمم الخارجة وبين دين اليهود؛ لأنهم أشبه بالحمير، ويعتبر اليهود بيوت باقي الأمم نظير زرائب للحيوانات: (أيها اليهود، إنكم من بني البشر؛ لأن أرواحكم مصدرها روح الله، وأما باقي الأمم فليست كذلك؛ لأن أرواحهم مصدرها الروح النجسة)[٣]؛ بل إن الخارجين عن دين اليهود هم (خنازير نجسة تسكن الغابات، ويلزم المرأة أن تعيد غسلها إذا رأت عند خروجها من الحمام شيئًا نجسًا، ككلب، أو حمار، أو مجنون، أو أميٍّ، أو جمل، أو خنزير، أو حصان، أو مجذوم. والخارج عن دين اليهود حيوان على العموم: فسمّه كلبًا، أو حمارًا، أو خنزيرًا، والنطفة التي هو منها هي نطفة حيوان)[٤]. كما أن (المرأة الغير اليهودية هي من الحيوانات، وخلق الله الأجنبي على هيئة الإنسان ليكون لائقًا لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا لأجلهم؛ لأنه لا يناسب لأمير أن يخدمه ليلاً ونهارًا حيوان، وهو على صورته الحيوانية! كلا ثم كلا، فإن ذلك منابذ للذوق والإنسانية كل المنابذة، فإذا مات خادم ليهودي أو خادمة، وكانا من المسيحيين، فلا يلزمك أن تقدم له التعازي بصفة كونه فقد إنسانًا، ولكن بصفة كونه فقد حيوانًا من

(١) الكتاب المقدس: سفر المزامير: المزمور ١٤٩. وينظر المزمور ٨٣.
(٢) الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص١٨٩.
(٣) المصدر السابق: ص١٩٠.
(٤) المصدر السابق: ص١٩٠–١٩١.

الحيوانات المسخرة له)[1]، كما أن على اليهودي أن لا يبالغ في مدح الخارجين عن دين اليهودية، ولا يصفهم بالحسن والجمال؛ إلا إذا قصد أن يمدحهم كما يمدح الإنسان حيوانات؛ لأن الخارج عن دين اليهود يشبه الحيوان[2].

بل إن التلمود يعتبر أن الخطأ في حق الله – تعالى – أهون من الخطأ في حق اليهودي: ولذلك فإنه (يُصفح عن الأميّ إذا جدّف على الله تعالى، أو قتل غير إسرائيلي، أو زنى بامرأة غير يهودية ثم تهوّد؛ لكنه لا يصفح عنه إذا قتل يهوديًا، أو زنى بامرأة يهودية ثم صار يهوديًا)[3].

وبالتالي فإن جميع الأمم والشعوب الأخرى من غير اليهود في نظر اليهود هم كفرة لا يستحقون العطف والشفقة، ولو ادعوا أنهم أصحاب رسالة ودين مثل النصارى والمسلمين؛ فحكموا على غيرهم من مخالفيهم بالكفر حتى وإن كانوا على حق؛ بل إن الذي ليس يهودياً هو عدو لله وعدو لليهود، مهما كان دينه، كما أن كل خارج عن مذهب اليهود فليس بإنسان، ولا يجوز أن تستعمل معه الرأفة، كما يعتقد اليهود أن غضب الله موجه إلى كل خارج عن اليهودية، ولا يلزم أن تأخذ اليهود شفقة به؛ إذ ليس من العدل– بزعم اليهود– أن يشفق الإنسان على أعدائه ويرحمهم[4]. كما يحكم اليهود على مخالفيهم بالكفر والخلود في النار: (وحيث أبناء ايسو (المسيحيون)، وأبناء إسماعيل (الأتراك) بالإضافة إلى المسيح ومحمد... كالكلاب النافقة... هؤلاء

(١) المصدر السابق: ص١٩١.

(٢) ينظر الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص١٩١.

(٣) الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص٢٠٥، وفي هذا الموضع نقص استدركته من طبعة دار القلم: ص٩٢.

(٤) ينظر الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص١٩١–١٩٢، وينظر الكتاب نفسه: ص٢٠٣–٢٠٧، والحسام الممدود في الرد على اليهود: ص١٨٧–١٩٢.

جميعاً مدفونون معاً)[1].

وجائز لبني إسرائيل على حسب تعاليم التلمود أن يغشوا الكفار؛ لأنه يقول: (يلزم أن تكون طاهراً مع الطاهرين، ودنساً مع الدنسين)[2]. ومحظور على اليهود أن يحيوا الكفار بالسلام ما لم يخشوا ضررهم وعدوانهم؛ ولهذا فإن النفاق جائز، وإن اليهودي يمكنه أن يكون مؤدباً مع الكافر ويدعي محبته كاذباً إذا خاف وصول الأذى منه إليه. فيجوز عند اليهود استعمال النفاق مع الكفار، وهؤلاء الكفار هم كل الخارجين عن الدين اليهودي[3].

وقتل غير اليهودي لا يعد جريمة عند اليهود؛ بل فعلاً يرضي الله[4]. ولو وجد اليهوديُّ كافراً في حفرة فلا يخرجه منها[5]. ومن العدل عند اليهود (أن يقتل اليهودي بيده كل كافر؛ لأن من يسفك دم الكفار يقرب قرباناً لله)[6]. ومن المفروض على اليهود قتلُ كل الخارجين عن دينهم؛ لأن قتلهم من الأفعال التي يكافئ الله عليها بزعمهم؛ فإذا لم يتمكن اليهودي من قتلهم، فمفروض عليه أن يتسبب في هلاكهم[7].

ونلمس هذا المفهوم إلى حد ما في التوراة، ففيها: (ويقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حرَّاثيكم وكرَّاميكم. أما أنتم فتدعون كهنة الرب تُسمون خدام إلهنا. تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتأمرون)[8]، (قومي

---

(١) فضح التلمود: ص٦٧. والمقصود بالأتراك هم جميع المسلمين؛ لأن الأتراك في عصر المؤلف هم أشهر المسلمين.

(٢) الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص١٩٢.

(٣) ينظر الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص١٩٢.

(٤) ينظر المصدر السابق: ص٢٠٣.

(٥) ينظر المصدر السابق: ص٢٠٤.

(٦) الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص٢٠٥.

(٧) ينظر الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص٢٠٥.

(٨) الكتاب المقدس: سفر أشعياء: الإصحاح ٦١: ٥–٦.

ودوسـي يـا بنـت صـهيون لأنـي أجعـل قرنـك حديـداً وأظلافـك أجعلـها نحاسـاً فتسحقين شـعوبا كـثيرين)[1]. (متـى أتـى بـك الـرب إلهـك إلى الأرض الـتي أنـت داخـل إليهـا لتملكهـا وطـرد شـعوبًا كـثيرة مـن أمامـك الحثـيين والجرجاشـيين والأموريين والكنعـانيين والفـرزيين والحـويين واليبوسـيين، سـبع شـعوب أكـثر وأعظم منك. ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنـك تحـرمهم، لا تقطـع لهـم عهدًا ولا تشفق عليهم ولا تصاهـرهم، بنتك لا تعط لابنه، وبنته لا تأخذ لابنـك؛ لأنـه يـرد ابنـك مـن ورائـي فيعبـد آلهـة أخـرى فيحمـى غـضب الـرب علـيكم ويهلكـكم سريعًا، ولكـن هـكذا تفعلون بهم: تهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم، وتحرقون تماثيلهم بالنـار)[2]. فلـم يستثن مـن هـذه الأمـم مـن آمـن بمـا آمنـت بـه اليهـود، بـل العقوبـة تـشمل هـؤلاء الأقـوام جميعـاً، فلابد من قتلهم، ولا يقبل اليهود منهم عهداً، ولا ذمة.

يقـول إسـرائيل شـاحاك[3]: (إن مجتمعنـا الاسـتبدادي اعتمـد ولقـرون مـن الـزمن عـادات بربريـة وغـير إنسانية، موجهـة ضـد كـل كـائن مـن الكائنـات البـشرية. لنقـل مـثلا إن يهوديـاً مـن الأتقيـاء وصـل للمـرة الأولى إلى أسـتراليا وصـادف مـروره بـالقرب مـن مـدفن خـاص بالـسكان الأصـليين، فعلـى هـذا اليهودي وكفعل عبادة الله، أن يلعن أمهات الأموات المدفونين فيه)[4].

(١) الكتاب المقدس: سفر ميخا: الإصحاح ٤: ١٢.

(٢) التوراة، سفر التثنية: الإصحاح ٧: (١-٥).

(٣) يهـودي معاصـر، ولـد في بولنـدا، وكـان أحـد النـاجين مـن معـسكرات الاعتقـال النازيـة، جـاء إلى فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية، وخدم في الجيش الخدمة الإجبارية، كان أستاذاً لمادة الكيمياء في الجامعة العبرية بالقدس إلى أن تقاعد. ينظر مقدمة إدوارد سعيد لكتاب شـاحاك "الديانـة اليهودية وتاريخ اليهود" ص٥-١١.

(٤) الديانة اليهودية وتاريخ اليهود: ص٥١.

المبحث الثاني

جذور ظاهرة التكفير عند النصارى

المطلب الأول

الاختلاف في طبيعة المسيح ودوره في تأصيل ظاهرة التكفير عند النصارى

لعل أصل التكفير عند النصارى مبني على افتراقهم واختلافهم في طبيعة نبي الله عيسى عليه السلام: أهو إله يعبد كما يعبد الله تعالى؟ أم هو بشر مخلوق، ونبي أرسله الله إلى الخلق بشيراً ونذيراً؟ فنتج عن هذا الاختلاف افتراقهم إلى طوائف وشيع يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، وبسبب هذا الاختلاف عقدت المجامع النصرانية المشهورة المعروفة باسم: (المجامع المسكونية) قررت فيها عقائد جديدة ما أنزل الله بها من سلطان فزادتهم تفرقاً واختلافاً فوق اختلافهم وفرقتهم.

ولقد افترقت النصرانية إلى فرق كثيرة، أشهرها ثلاث فرق، هي: الكاثوليك، والأرثوذوكس، والبروتستنت، لكل فرقة منها اعتقادها الخاص بها، وكل أمة منها تلعن أختها، ويكفر بعضهم بعضاً[(1)].

ولعل من أهم الاختلافات بين النصارى: اختلافهم في طبيعة المسيح عليه السلام، فالنصارى الكاثوليك– والمراد بالكاثوليك: أي المذهب العام، وعلى هذا المذهب أغلب النصارى– يعتقدون بأن للمسيح عليه السلام بعد التجسد طبيعتان: إحداهما لاهوتية، والأخرى ناسوتية. وأنه قبل التجسد لم يكن له إلا الناسوتية منهما، وهي التي حملت بها مريم عليها السلام، ثم بعد ولادته

---

(١) بل وصل الأمر إلى وقوع مذابح عدة بين طوائف النصارى، ينظر: الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، هيلين إيليربي: ص٨١–٨٩.

من مريم حلت طبيعته الناسوته مع الطبيعة اللاهوتية. وأن الصلب وقع على الناسوت فقط دون اللاهوت، وأن اللاهوت فارق الناسوت ساعة الصلب، وأن الناسوت عاد كما كان قبل حلول اللاهوت فيه. وأن الناسوت –الذي وقع عليه الصلب– قام من الأموات ليصعد إلى اللاهوت في الملكوت(1).

وأما الأرثوذكس فيؤمنون بأن للمسيح طبيعة واحدة فقط جامعة بين اللاهوت والناسوت، وأن الذي ولد من مريم هو الإله، وأن اللاهوت لم يفارق الناسوت لحظة واحدة، وأن مريم حملت بهما جميعًا، وأن الصلب قد وقع على اللاهوت والناسوت معًا، وأن اللاهوت نفسه هو الذي قام من الأموات ليصعد إلى الملكوت(2). تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

أما سبب نشأة الكنيسة الإنجيلية البروتستانتية فيعود إلى مظاهر الفساد التي كانت تعيشها الكنيسة الكاثوليكية وقسسها، والتي من أبرزها اعتقادهم بعصمة البابا، وحصر فهم الكتاب المقدس وتأويله على البابا وأتباعه من القساوسة دون غيرهم من أتباع النصرانية، فضلاً عن بيعهم لصكوك الغفران لمن شاءوا بلا توبة. ومحاربتهم للعلم والعلماء، وحرق بعضهم وقتل آخرين؛ كل هذه الأمور مجتمعة وغيرها أدت إلى نقمة عوام الناس ومفكريهم على الكنيسة الكاثوليكية، مما أدى إلى خروج عدة دعوات إصلاحية في القرن السادس عشر، وكان أهمها ظهور حركة إصلاحية دينية على يد قسيس يقال له: "مارتن لوثر"(3) الذي لم يخرج عن اعتقاد الكاثوليك

---

(1) ينظر: الفرق والمذاهب المسيحية، سعد رستم: ص٦٤–٧٤. والمسيحية، د.عبدالمنعم فؤاد: ص٢٧٢.

(2) ينظر: الفرق والمذاهب المسيحية: ص٦٤–٧٤، والمسيحية: ص٢٧٢.

(3) مارتن لوثر (١٤٨٣–١٥٤٦م)، ولد وتوفي في ألمانيا، رسم كاهناً عام (١٥٠٧م)، وفي عام (١٥٢٠م) أصدر البابا حرماناً بحق لوثر بسبب معتقداته المخالفة للكنيسة الكاثوليكية؛ لكن لوثر لم يأبه لذلك بل استمر في مقاومة سلطة البابا حتى وفاته، فتمخض الإصلاح الذي دعا إليه إلى انشقاق كبير في الكنيسة نتج عنه المذهب البروتستانتي. [ينظر معجم الإيمان المسيحي: ص٤١٧]

حول طبيعة المسيح عليه السلام.

لقد وقع بين مارتن لوثر وبين الكنيسة صدام فكري عنيف كان من نتائجه حدوث الانقسام، وظهور ما يعرف بالحركة البروتستانتية على الساحة الأوربية. كما حارب لوثر رجال الكنيسة الكاثوليكية في زعمهم تفردهم بفهم الإنجيل، ودعا أتباعه وكل النصارى إلى قراءة الإنجيل وفهمه وتفسيره دون الرجوع إلى رجال الكنيسة، فسمي أتباعه باسم (الأصوليون) و(الإنجيليون)، وسميت الكنائس التابعة له بـ(الكنائس الإنجيلية)، والتي أطلق عليها اسم (البروتستانت)، والتي تعني: المحتجون. ولقد انتشرت الديانة البروتستنتية النصرانية في ألمانيا وشمال أوربا، وبريطانيا، ومنها انتقلت إلى أمريكا[1].

وطبيعة عيسى عليه السلام في الإسلام: أنه بشر خلق من غير أب، كما خلق – تعالى – آدم عليه السلام من غير أب وأم، قال – تعالى –:﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٥٩]، وأن عيسى ﷺ نبي من أنبياء الله تعالى، بعثه الله – جل وعلا – رسولاً إلى بني إسرائيل، قال تعالى:﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمْ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[المائدة:٧٥]، وأنه عليه السلام مجدد لشريعة موسى عليه السلام ومكمل لها، قال تعالى:﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:٤٦].

وعيسى عليه السلام لم يدع الألوهية أو الربوبية؛ بل أقر بعبوديته لله رب

(١) ينظر: تاريخ الكنيسة، جون لوريمر: ٤/٩٠–١٩٥، والهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر: ص١٨٧، والفرق والمذاهب المسيحية: ص١٢١، والمسيحية: ص٢٩٥.

العالمين، قال جل جلاله: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

المطلب الثاني

أهم مصطلحات التكفير ومرادفاته عند النصارى

يعرِّف النصارى الكفر بأنه: لا مبالاة بالله وبشريعته، والسعي وراء سعادة فورية على حساب القريب[1].

وتندرج تحت كلمة الكفر مصطلحات أخرى عند النصارى، منها:

صاحب البدعة: وهو من يرفض عمداً قضية، أو بعض قضايا الإيمان، ويدعو لهذا الضلال[2].

ومنها: التجديف، والمراد به: شتيمة ونميمة. ويقصد بها في الكتاب المقدس كلام غير لائق في شأن الله وصفاته[3].

ومنها: الهرطقة، والهرطقة (heresy) كلمة أغريقية الأصل مرادفة للفظ الكفر، معناها: الخروج على مجموعة الأفكار الدينية التي يؤمن بها السواد الأعظم من الناس في مجتمع ما وزمن ما. وقد أطلق هذا اللفظ– في الغالب– على الخارجين عن الكنيسة الكاثوليكية (والأرثوذكسية بدرجة أقل)، ولا يختص بالأفراد؛ بل أطلق على الحركات الدينية المعارضة، ففي عام (١٥٥م) اتهم أسقف روما الكنائس الشرقية بالهرطقة، وفي مستهل عصر النهضة الأوربي كانت البروتستنتينية هرطقة بالنسبة للكاثوليكية (ولا تزال). كما أطلقت الكنيسة على بعض العلماء: هراطقة، أمثال: الإيطالي غاليليو[4]،

---

(١) معجم الإيمان المسيحي، الأب: صبحي حموي اليسوعي، والأب: جان كوربون: ص٣٩٨.

(٢) معجم الإيمان المسيحي: ص٢٩٤. وينظر: الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر: ص١٥.

(٣) قاموس الكتاب المقدس: ص ٢٥٣.

(٤) عالم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي (١٥٦٤–١٦٤٢م)، ولد ومات في إيطاليا، قام باكتشافات عدة لم ترض الكنيسة عن بعضها، فسجنته؛ ثم أجبرته على المكوث في بيته حتى مات. [ينظر معجم الفلاسفة: ص٤٣٢].

وعلى من قاوم السلطة الطاغية للكنيسة أمثال: مارتن لورثر، وتطلق بالمعنى الدقيق على الذين قالوا بالوحدانية، وببشرية المسيح عليه السلام[1].

والنصارى ملزمون في الحياة بالانفصال عن المجدِّفين: فكل من خالف تعاليم المسيح، ونفى أنه ابن الله بزعمهم؛ وأنه إله ابن إله فهو مجدِّف[2]. جاء في الكتاب المقدس: (كل من تعدى ولم يثبت في تعليم المسيح؛ فليس له الله. ومن يثبت في تعليم المسيح؛ فهذا له الآب والابن جميعاً. إن أحد يأتيكم ولا يجيء بهذا التعليم فلا تقبلوه في البيت، ولا تقولوا له سلام؛ لأن من يسلم عليه يشترك في أعماله الشريرة)[3]. وفيه: (من جدف على روح القدس فليس له مغفرة إلى الأبد؛ بل هو مستوجب دينونة أبدية)[4].

---

(١) ينظر: الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر: ص١٧–٤٣. والهرطقة في الغرب، د.رمسيس عوض. والجانب المظلم في التاريخ المسيحي، هيلين إيليربي: ص٤٥.

(٢) ينظر كنيس في الكنيسة العلاقات المسيحية اليهودية عبر التاريخ: ص١٩٧.

(٣) الكتاب المقدس، رسالة يوحنا الثانية: ٩–١٠.

(٤) الكتاب المقدس، إنجيل مرقس، الإصحاح ٣: ٩.

المطلب الثالث

الجذور التاريخية للتكفير عند النصارى

لقد بدأت الكنيسة مبكرًا في إطلاق لفظ الكفر ومرادفاته على كل من خالف أمرها، مما مكنها من التدخل في شؤون الدولة الرومانية. وأصبحت تخلع وتنصب من تشاء من قياصرة روما، وتأمرهم أن يدخل رعاياهم المسيحية قصراً، تحت تهديد التعذيب والموت، ولا تزال الكنيسة إلى اليوم تعتبر حرية الأديان ضد تعاليمها وأقرب لتعاليم الوثنية[(1)].

وتطور الأمر إلى السعي في تنفيذ أحكام الردة على كل من استحق الكفر في نظر قادة الكنيسة، ففي عام ٣٠٤م ظهرت الفرقة بين النصارى بعد موت البابا، واستمر عرش البابوية خالياً لمدة أربعة أعوام لانشغال النصارى بقضية جزاء المرتدين عن الكنيسة ثم عادوا إليها: هل يدفعون غرامة أم جزية أم لا؟[(2)].

وأصبح لفظ الكفر يطلق على من لم يطع البابا طاعة عمياء؛ بل وصل الأمر إلى أن كفَّرَ بعضُ من تبوأ منصب البابوية كلَّ من خالفه، سواء كان ذلك المخالف قسيساً أو ملكاً أو من عامة الشعب، وكفر القساوسة والرهبان بعضهم بعضاً[(3)].

يقول البابا اينوسنس الثالث[(4)]: (كل رجال الدين ينبغي لهم أن يطيعوا

---

(١) ينظر: تاريخ الكنيسة، جون لوريمر: ٤/٢٧-٣١، والهرطقة في المسيحية: ص١٠٨. والتاريخ الأسود للكنيسة، القس دي روزا: ص٣٩. والجانب المظلم في التاريخ المسيحي: ص٧٧-٧٩.

(٢) ينظر: التاريخ الأسود للكنيسة: ص٣٩-٤٠.

(٣) ينظر: تاريخ الكنيسة، جون لوريمر: ٤/٢٩، والتاريخ الأسود للكنيسة: ص٥٣-٨٢.

(٤) اعتلى كرسي الباباوية من عام ١١٩٦م حتى عام ١٢١٦م تقريباً، يعتبر من أكثر باباوات =

البابا حتى لو أمرهم بالشر، إذ لا يوجد من يستطيع الحكم على البابا وتقييمه)[1].

وقال البابا ليو الثالث عشر[2]: (حتى إن طالبتك الكنيسة أن تقول: اثنين واثنين هو ستة)[3].

ويقول البابا بونيفاس الثامن[4]: (إن صدر راعي الكنيسة الرومانية هو منبع كل القوانين؛ لذلك وجبت الطاعة العمياء له، حتى تستقر الأمور)[5].

وبلغ بالقساوسة الإسراف في التكفير لدرجة أن أصبح لفظ الكفر يطلق على من خالف البابا في توافه الأمور؛ فرغم (أن العديد من آباء الكنيسة قد أدانوا كثيراً من الأشخاص بتهمة الردة عن الدين؛ إلا أن البابا بولس الرابع[6] غلب الجميع في توصيف الردة؛ فقد كانت أقرب شيء إلى قلبه، وأسهل قولة على لسانه، فهو مثلاً أدان بها مثَّالاً صنع تمثالاً للمسيح مصلوباً لم يعجبه، واعتبر رداءة صنعه إهانة للمسيح، كما حكم بالموت على كل من لم يقم

= الكنيسة بذخاً لدرجة أن لباسه كان مرصعاً بالجواهر، ويركب حصاناً مرصعاً بالجواهر أيضاً. في سنة ١٢١٣م استأنف الدعوة إلى حملة صليبية إلى الشرق تقرر القيام بها عام ١٢١٧م؛ لكن شاء الله أن تكون وفاة هذا الصليبي الحاقد عام ١٢١٦م قبل إنفاذ الحملة. [ينظر التاريخ الأسود للكنيسة: ص٥٧، وتاريخ الحروب الصليبية: ٣/٢٥٩].

(1) التاريخ الأسود للكنيسة: ص٦٠.

(2) اعتلى كرسي البابوية من عام ١٨٧٨م حتى عام ١٩٠٣م، ترأس الكنيسة الكاثوليكيّة لمدّة ربع قرن، وتوفي عن عمر يناهز ٩٣ عاماً. [ينظر التاريخ الأسود للكنيسة: ص١٦٥].

(3) المرجع السابق: ص١٦٥.

(4) اعتلى كرسي البابوية من عام ١٢٩٤م حتى عام ١٣٠٣م. اصطدم بفيليب الرابع ملك فرنسا. [ينظر معجم الإيمان المسيحي: ص١٢٢].

(5) التاريخ الأسود للكنيسة: ص٦٣.

(6) كان هذا البابا حاد الطباع سليط اللسان، في عهده وبسببه تحولت الكنيسة الكاثوليكية في انكلترا إلى المذهب البروتستنتي، وانفصلت عن روما. كانت وفاته سنة ١٥٥٩م، وعندما توفي نزعت الجماهير تمثاله من مجلس الشيوخ الروماني، وألقوه في النهر. [التاريخ الأسود للكنيسة: ص٩٣].

بأيام الصيام ، وهكذا)[1].

وكان البابا بيوس الخامس[2] ينذر طباخه بتهمة الردة عن الدين إذا هو لم يلتزم بأطعمة الصيام[3]. ووصل الأمر بانحدار الكنيسة في التكفير في عصور لاحقة إلى أن قال أحد الكاثوليك: (إنني أعتقد أنه من الأفضل أن يكون الإنسان وثنياً عن أن يؤمن بدين محاكم التفتيش)[4]، وقال آخر: (إن المسيح نفسه كان سيعتبر مشعوذاً؛ لو كان حياً في عصر محاكم التفتيش)[5].

وهناك آباء آخرون أفتوا بأن كل مولود يتوفى قبل تعميده؛ فمصيره إلى جهنم رأساً، ويعاني من شتى أنواع العذاب[6]. وأفتى جمع من آباء الكنيسة بكفر من لم يؤمن بعصمة البابا من الخطأ[7].

ولعل أول تكفير صدر من النصرانية كان موجه إلى الموحدين منهم، الذين آمنوا بالله رباً، وإلهاً لا شريك له في عبوديته، وبعيسى عليه السلام نبياً، وأنه خلق من خلق الله. مما يجعل الكنيسة النصرانية تحكم بكفرهم بداعي الهرطقة.

(١) المرجع السابق: ص٩٤.

(٢) اعتلى كرسي البابوية من عام ١٥٦٦م حتى عام ١٥٧٢م، أصدر حرماناً في حق ملكة انكلترا إليزبيث الأولى، كوَّن تحالفاً صليبياً من أسبانيا والبندقية ضد الدولة العثمانية في البحر المتوسط. [ينظر معجم الإيمان المسيحي: ص١٢٨].

(٣) ينظر: التاريخ الأسود للكنيسة: ص٩٤، والأمثلة على ذلك كثيرة، انظر الكتاب نفسه: ص١١٦–١١٨، ١٤١–١٤٢، ١٤٨–١٤٩.

(٤) التاريخ الأسود للكنيسة، القس دي روزا: ص١٢٤.

(٥) المرجع السابق: ص١٢٤.

(٦) ينظر: التاريخ الأسود للكنيسة: ص١٤٠، ٢٠٣.

(٧) ينظر: التاريخ الأسود للكنيسة: ص١٥٥–١٥٦، ١٥٨–١٦١.

المطلب الرابع
صور من تكفير النصارى لمخالفيهم

تاريخ النصارى مليء بأمثلة كثيرة على غلو النصارى في التكفير، ومن الأمثلة على تكفير النصرانية لمخالفيها حتى وإن كانوا على الاعتقاد الصحيح ما يلي:

- **الإبيونية**:

لعل أولى الهرطقات الكبرى في نظر الكنيسة هي ما اعتقدته الإبيونية: وهي من طوائف اليهود، وعاشت بشرق الأردن في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، ثم اختفت أواخر القرن الرابع. تنسب إلى رجل اسمه (إبيون) كان قد ألَّف إنجيلاً من تلك الأناجيل التي حرمت بعد ذلك، ومنع تداولها. تعتقد أن المسيح المخلِّص أو المهدي اليهودي المنتظر، وبالتالي فهو محض نبي كالأنبياء، ورسول قد خلت من قبله الرسل. وحافظت على الشرائع اليهودية التقليدية، كالختان وكراهة الخمر وتقديس أورشليم. وقد عدت الكنيسة هذه المعتقدات هرطقة؛ لأنها تخالف اعتقادها في المسيح، من أنه إله وابن إله[1].

- **بولس السُّمَيْساطي**:

من بلدة سُمَيْساط الواقعة على نهر الفرات. عاش في شمال الشام في القرن الثالث الميلادي. ارتقى في خدمة الكنيسة حتى أصبح أسقفاً لانطاكية سنة (٢٦٠م)، وظل في منصبه حتى خُلع عنه بقرار من الكنيسة سنة (٢٦٨م) وذلك بسبب نفيه لألوهية المسيح عليه السلام واعتقاده ببشريته وأنه خلق من خلق

(١) ينظر: اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، يوسف زيدان: ص١٠٨–١١٠، وموسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية، د.عبدالمنعم الحفني: ص٤٨. والهرطقة في الغرب، د.رمسيس عوض: ص١٩.

الله، وأنه نبي من أنبياء الله[1]. بين يوسابيوس القيصري سبب خلع بولس السُّمَيْسَاطي من الكنيسة لاعتقاده ببشرية المسيح، فيقول: (ولأنه كان يعتقد اعتقادات وضيعة في المسيح، مخالفة لتعاليم الكنيسة، أي أنه كان في طبيعته إنساناً عادياً)[2].

قال ابن حزم[3]: (ومنهم أصحاب بولس الشمشاطي، وكان بطريركياً بأنطاكية قبل ظهور النصرانية. وكان قوله: التوحيد المجرد الصحيح، وإن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام، خلقه الله – تعالى – في بطن مريم من غير ذكر، وأنه إنسان لا آلهية فيه ألبتة، وكان يقول: لا أدري ما الكلمة؟ ولا روح القدس؟)[4].

- **لوقيانوس**:

كان كاهناً لكنيسة انطاكية، وتوفي في زمن الاضطهاد سنة ٣١٢م. اتهم بالهرطقة لقوله بأن الله واحد لا مساوي له. وأن كل ما هو خارج عنه – تعالى – فهو مخلوق. ومن ثم فإن الكلمة (اللوجوس) مخلوق، فعيسى عليه السلام بشر وليس إلهاً. ودلالة بشريته: جوعه وعطشه واختفاؤه من أعدائه[5].

---

(١) ينظر: تاريخ الكنيسة، جون لوريمر: ١٠١/٢، وكنيسة مدينة الله انطاكية، أسد رستم: ١٢٠/١–١٣٠.

(٢) تاريخ الكنيسة، يوسابيوس القيصري: ص٣٧٩، ٢٨١، والهرطقة في المسيحية: ص٧١، والهرطقة في الغرب: ص٦١.

(٣) أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، الإمام الحافظ ولد سنة (٣٨٤هـ) بقرطبة انصرف لطلب العلم وترك ما كان عليه من الوزارة التي كانت له ولأبيه من قبله، تبع مذهب داود الظاهري؛ فنبذه علماء عصره، توفي سنة (٤٥٦هـ). [جذوة المقتبس: ٤٨٩/٢].

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم: ١٠٩/١.

(٥) ينظر: كنيسة مدينة الله انطاكية: ١٤٣/١–١٤٧، وتاريخ الفكر المسيحي، القس حنا الخضري: ٦١٠/١.

- **آريوس:**

ولد بين عامي (٢٥٦–٢٧٠م) وتوفي سنة (٣٣٦م) كان يرى بشرية المسيح، وأنه مخلوق من خلق الله، خلقه الله من عدم، مثله مثل سائر المخلوقات، مستنداً إلى أناجيل لم يطلها التحريف تؤكد أن المسيح ابن الإنسان وليس ابناً لله. فغضبت عليه الكنيسة واتهمته بالهرطقة، وعقد له مجمع نيقية[1] سنة ٣٢٥م بحضور ٣١٨ أسقفاً، حُرم فيه آريوس، وأقر عزله من الكنيسة، ونفي بعيداً إلى دير في أسبانيا[2].

قال ابن حزم: (والنصارى فرق منهم أصحاب أريوس، وكان قسيساً بالإسكندرية، ومن قوله: التوحيد المجرد، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق، وأنه كلمة الله تعالى التي بها خلق السموات والأرض)[3].

- **مكدونيوس:**

عاش هذا القسيس في زمن الامبراطور الروماني قسطنطين، ويقال إنه كان بطريرك العاصمة الرومانية: القسطنطينية، كان ينزه الله عن الشريك والمثيل والند، سواء كان ابناً أو روح قدس، وقال بأن عيسى عليه السلام مخلوق كسائر المخلوقات، وقد ناقشه المجمع، وحرمه، وأسقطه من رتبة الأسقفية وطرد من الكنيسة بسبب اعتقاده التوحيد، وحكم عليه

---

(١) المجمع عند النصارى: هو مجلس يُدعى إليه جميع أساقفة الكنائس، ويرأسه المقدم بين البطاركة، وعندما انقسمت الكنيسة إلى قسمين: أصبح بطريرك القسطنطينية هو الذي يرأس المجمع الأرثوذكسي، والبابا يرأس المجمع الكاثوليكي في روما. وما يتخذ في هذه المجامع من قرارات هي ملزمة لجميع الكنائس التي تتبعها، وتتفق معظم الكنائس على المجامع الأربعة الأولى من بين أكثر من عشرين مجمعاً. أما نيقيا: في مدينة من مدن آسيا الصغرى- ضمن تركيا حالياً. لمعجم الإيمان المسيحي:ص٤٣٦–٤٣٨، ٤٥٧–٤٥٨، ٥٢٠].

(٢) ينظر: تاريخ الكنيسة، جون لوريمر: ٣/٤٠–٤٥، وكنيسة مدينة الله انطاكية: ١/٣٢٣–٣٦٠. وتاريخ الفكر المسيحي:١/٦١٧، ٢/١٨. الهرطقة في المسيحية: ص٧٦. والهرطقة في الغرب: ص٧١.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ١/١٠٩، وينظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/٢٢٣، ٢٢٧.

بالكفر[1].

قال ابن حزم: (وكان منهم أصحاب مقدونيوس وكان بطريركاً في القسطنطينية، بعد ظهور النصرانية أيام قسطنطين بن قسطنطين، باني القسطنطينية. وكان هذا الملك أريوسياً كأبيه، وكان من قول "مقدونيوس" هذا: التوحيد المجرد، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق، إنسان نبي، رسول الله كسائر الأنبياء عليهم السلام، وأن عيسى هو روح القدس، وكلمة الله عز و جل، وأن روح القدس والكلمة مخلوقان، خلق الله كل ذلك)[2].

يقول صاحب تاريخ الأقباط عن مجمع القسطنطينية[3] سنة ٣٨١م: (كان الغرض من عقد هذا المجمع: محاكمة أصحاب البدع، ومنهم "مقدونيوس"، وكان أسقفاً أقامه الأريوسيون على القسطنطينية سنة ٣٦٠م، ثم عزل سنة ٣٦٠م؛ لمناداته ببدعة جديدة هي: إنكار لاهوت الروح القدس...) [4].

- **نسطور:**

نسطور– والذي تنسب إليه طائفة النسطورية– بطريك القسطنطينية الذي قال إن مريم العذراء لم تلد إلهاً؛ بل ولدت إنساناً، ثم اتحد ذلك الإنسان بعد ولادته بالأقنوم الثاني، وهذا الاتحاد اتحاد مجازي، وليس حقيقياً؛ لأن الإله منح عيسى عليه السلام المحبة، ووهبه النعمة، فصار بمنزلة الابن. فنفى أن يوجد في المسيح عنصر إلهي كما تزعم بقية الطوائف النصرانية. وقد عقد له

---

(١) ينظر: معجم الإيمان المسيحي: ص٤٧٦، وتاريخ الكنيسة القبطية، القس منسى يوحنا: ص٢٠١–٢٠٢، ٢١١–٢١٢.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ١/١١٠.

(٣) سبق بيان معنى "المجمع"، والقسطنطينية هي مدينة: "إسلامبول" في تركيا، و"مجمع القسطنطينية" المراد هنا: هو المجمع الثاني، الذي وضع حداً للمناظرات الأريوسية، وكفر من ينكر ألوهية روح القدس. لينظر معجم الإيمان المسيحي: ص٣٧٩].

(٤) النصرانية من التوحيد إلى التثليث، د.محمد أحمد الحاج: ص١٨٣، عن تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/١٧٦.

مجمع مسكوني في بلدة إفسوس سنة ٤٣١م لمحاكمته، ومطالبته بالإيمان بأن المسيح إله ابن إله، فرفض، وقال: لن أدعو طفلاً عمره شهران أو ثلاثة: الله[١].

- **ميشال سرفيه**:

هاجم عقيدة التثليث سنة ١٥٣١م في كتابه الموسوم "مغالط الثالوث"، ثم كرر مهاجمته لهذه العقيدة الوثنية في كتابه الآخر: "العودة بالمسيحية إلى جذورها الأولى" الذي ألفه سنة ١٥٤١م، ثم صدر مطبوعاً عام ١٥٥٣م. وقرر فيه أن المسيح عليه السلام ليس سوى إنسان مبارك، وليس إلهاً كما تزعم النصارى. فما كان من الكنيسة إلا أن حكمت بكفره وهرطقته، وحاكمته، وحكمت بموته حرقاً عام ١٥٥٣م[٢]. والأمثلة كثيرة جداً على تكفير الكنيسة لمخالفيها، مما لا مجال لبسطه هنا[٣].

---

(١) ينظر: معجم الإيمان المسيحي: ص٥١٠، وتاريخ الكنيسة السريانية الشرقية، الأب ألبير أبونا: ١/٦٠-٦١، وتاريخ الكنيسة، جون لوريمر: ٣/٢١٥-٢٢١، وتاريخ الفكر المسيحي:٢/١٦٩، والهرطقة في المسيحية: ص٩١.

(٢) ينظر: الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر: ص١٩٨. وتاريخ الحضارات العام، بإشراف موريس كروزيه: ٤/١٠٣.

(٣) ولمزيد من الأمثلة ينظر: كتاب تاريخ وعقائد الكتاب المقدس، د.يوسف الكلام: ص٢٨٥-٣٠٧.

المطلب الخامس
آثار التكفير عند النصارى

كان لإسراف باباوات النصارى وقسيسيهم وبطارقتهم في التكفير، أثره الكبير في العقيدة النصرانية، مما ولَّد لدى عامة النصارى كراهية الآخر، والسعي إلى القضاء عليه، مستندين في حروبهم التي لم تعرف الرحمة إلى نصوص في الإنجيل المحرف، منها ما جاء على لسان المسيح عليه السلام: (لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلقيَ سَلاماً عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلقيَ سَلاَماً؛ بَلْ سَيْفاً. فَإِنِّي جِئْتُ لأُفرِّق الإِنْسَانَ ضد أَبِيهِ، وَالابنة ضدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضدَّ حَمَاتِهَا. وَأَعْدَاءُ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ!)[1]. مناقضين العبارة المشتهرة عن المسيح: (مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ، فَاعْرِضْ لَهُ الآخَرَ أَيْضاً. وَمَنِ انْتَزَعَ رِدَاءَكَ، فَلاَ تَمْنَعْهُ ثَوْبَكَ أَيْضاً)[2].

أولا: الحروب الصليبية:

تعتبر الحروب الصليبية ثمرة من ثمرات عقيدة التكفير عند النصارى، إذ من يتأمل ما فعله النصارى في حروبهم الصليبية، لا يشك في أن قتلهم لمخالفيهم ناتج عن نظرة مسبقة بأن هؤلاء المخالفين كفرة ملاحدة لا يستحقون الحياة، بل لم يسلم مخالفوهم من النصارى من القتل، ففتك الصليبيون بنصارى القسطنطينية قبل أن ينتقلوا إلى القدس، ويحرقوا اليهود أحياء في معابدهم، ويُسيلوا دماء المسلمين في الشوارع[3].

يحكي شاهد معاصر، هو القسيس الفرنسي فوشيه دو شارتر[4] الذي

(١) الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح العاشر: ٣٤–٣٦.
(٢) الكتاب المقدس، إنجيل لوقا، الإصحاح السادس: ٢٩.
(٣) ينظر محاكمة الصهيونية الإسرائيلية، روجيه غارودي: ص٤٠.
(٤) قسيس فرنسي ولد حوالي عام (١٠٥٨م) في فرنسا، شارك في الحملة الصليبية الأولى التي =

رافق الحملة الصليبية التي احتلت القدس، ما سمعه لحظة سقوط المدينة بأيدي الصليبيين: (في الحال دخل الفرنجة المدينة بجلال في ظهر اليوم الذي يسمى اليوم المهيب، اليوم الذي فدى فيه المسيح العالم بأسره على الصليب. وخلال عزف الأبواق والضجيج والجلبة، شنوا هجومهم ببسالة صارخين: "رب أعطنا العون".. فدب الرعب في قلوب الكفار.. وعندما رأوا ذلك هبوا وهم في قمة الابتهاج داخلين المدينة بأسرع ما في قدرتهم، وانضموا إلى رفاقهم يلاحقون ويذبحون أعدائهم الأشرار بلا توقف.. وقد قطعت رؤوس ما يقرب من عشرة آلاف شخص في هذا الهيكل، ولو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى. ماذا أقول؟ لم يبق منهم أحد، ولم يرحموا امرأة ولا طفلاً)(1).

ويصف صاحب كتاب تاريخ الحروب الصليبية ما حدث في القدس يوم دخلها الصليبيون فقال: (لم ينج من المسلمين بحياتهم إلا هذه الفئة القليلة (يقصد الوالي الفاطمي وحرسه). إذ إن الصليبيين – وقد زاد في جنونهم ما أحرزوه من نصر كبير بعد شقاء وعناء شديد – انطلقوا في شوارع المدينة، وإلى الدور والمساجد، يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز. استمرت المذبحة طوال مساء ذلك اليوم، وطوال الليل. ولم يكن علَمُ تانكرد(2) عاصماً للاجئين إلى المسجد الأقصى من القتل. ففي الصباح الباكر من اليوم التالي، اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين، فأجهزت على

= انتهت باحتلال القدس، ثم قضى بقية حياته في القدس، حيث كتب تاريخه هذا؛ إلى أن انقطع عن الكتابة عام (١١٢٧م)، وربما توفي في ذلك العام عن عمر يناهز (٦٨) عاماً. [مقدمة محقق كتاب فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس: ص١٠].

(١) تاريخ الحملة إلى القدس، فوشيه الشارتري: ص٧٤–٧٥.

(٢) تانكرد أحد القادة الصليبين الذين دخلوا القدس، وكان قد اتفق مع المعتصمين في المسجد الأقصى على أن يستسلموا له وأن يؤمنهم على حياتهم بأن يضع علمه على المسجد حتى لا يتعرضوا لأذى. ينظر: تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان: ٤٢٥/١.

جميع اللاجئين. وحينما توجه "ريموند اجيل" في الضحى لزيارة ساحة المعبد، أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه. وفر يهود بيت المقدس جميعاً إلى معبدهم الكبير، غير أنه تقرر إلقاء القبض عليهم؛ بحجة أنهم ساعدوا المسلمين، فلم تأخذهم بهم الرحمة والرأفة، فأشعلوا النار في المعبد، ولقي اليهود بداخله مصرعهم محترقين. وتركت مذبحة بيت المقدس أثراً عميقاً في جميع العالم. ليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود؛ بل إن كثيراً من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث)[1].

ويصف غوستاف لوبون[2] مجازر الصليبيين حين دخلوا القدس، فيقول: (كان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غيرَ سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون. قال كاهن مدينة لوبوي، ريموند داجيل[3]: "حدث ما هو عجيب بين العرب، عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقد قطعت رؤوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم. وبقرت بطون بعضهم. فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم في النار فكان ذلك بعد عذاب طويل. وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا"، وقال واصفاً مذبحة مسجد عمر: "لقد أفرط

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان: ٤٢٦/١-٤٢٧.
(٢) عالم نفس واجتماع فرنسي، ولد سنة (١٨٤١م) ألف كتباً في علم النفس الاجتماعي، وفي حضارات الأمم منها حضارة العرب الذي نشر سنة (١٨٨٤م) وترجم إلى العربية عام (١٩٤٥م) وكان فيه منصفاً إلى حد كبير. بعثته الحكومة الفرنسية إلى الهند، ثم عاد وأخرج كتابه حضارة الهند عام (١٨٨٧م). توفي سنة (١٩٣١م). [الموسوعة العربية الميسرة: ١٥٦٩/٢. المنجد: ص٤٩٥].
(٣) لم أجد ترجمته.

قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها، فإذا اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها... ولم يكتفِ الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك، فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين، واليهود، وخوارج النصارى، الذين كان عددهم ستين ألفاً، فأفنوهم على بكرة أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستبقوا منهم امرأة و لا ولداً و لا شيخاً)(1).

ثانياً : محاكم التفتيش:

محاكم التفتيش: هي محاكم كاثوليكية هدفها محاربة الهرطقة في كل أنحاء العالم المسيحي. تأسست من مجالس كنسية من الأساقفة ورؤساء الأساقفة، وقد أنشئت في أوائل القرن الثالث عشر بقرار من البابا جرينوار(جريجوريوس) التاسع(2) وذلك عام ١٢٣٢م تقريباً، واستمرت حتى مستهل القرن التاسع عشر الميلادي(3).

نشطت محاكم التفتيش في القرنين الخامس عشر والسادس عشر على وجه التحديد، وكانت مهمتها اكتشاف مخالفي الكنيسة ومعاقبتهم من خلال محاكمات إكليريكية تقيمها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لقمع أو مكافحة الهرطقة(4).

وقد لجأت محاكم التفتيش إلى شتى فنون التعذيب التي لا يقوى على

---

(1) حضارة العرب، غوستاف لوبون: ص٣٢٦-٣٢٧. وينظر: الجانب المظلم في التاريخ المسيحي: ص٧٩.

(2) تولي كرسي البابوية وقد بلغ الثمانين من العمر؛ كان رجلاً قاسي القلب؛ ومن مخازيه: محاكم التفتيش التي أوجدها، فكانت وبالاً على البشرية جمعاء، توفي هذا الطاغية سنة (١٢٤١م). ينظر قصة الحضارة: ١٥/٢٩٣، ١٦/٦٥.

(3) ينظر: مذابح وجرائم محاكم التفتيش، محمد علي قطب: ص٧٥.

(4) ينظر: محاكم التفتيش في أسبانيا والبرتغال وغيرها، د.علي مظهر: ص٥١.

احتمالها بشر في حق من كان يُظن أنه من الهراطقة من قطع أوصال وحرق الناس أحياء، ومن إملاء البطن بالماء حتى الاختناق، وسحق العظام بآلات ضاغطة، وربط يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ورفعه وخفضه معلقا سواء بمفرده أو مع أثقال تربط به، والأسياخ المحمية على النار، وتمزيق الأرجل، وفسخ الفك. وكثيراً ما كانت تصدر أحكام إعدام حرقاً، وكانت احتفالات الحرق جماعية، تبلغ في بعض الأحيان عشرات الأفراد، وكان لهم توابيت مغلقة بها مسامير حديدية ضخمة تنغرس في جسم المعذب تدريجيا، وأيضا أحواض يقيّد فيها الرجل ثم يسقط عليه الماء قطرة قطرة حتى يملأ الحوض ويموت. كانوا – أيضا – يقومون بدفنهم أحياء، ويجلدونهم بسياط من حديد شائك، وكانوا يقطعون اللسان بآلات خاصة. وكان دستور محاكم التفتيش يجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم عليهم كالأحياء. فتصادر أموالهم وتنبش قبورهم. كما يتم حرمان أقاربهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة[1].

وكان أي انحراف بسيط عن العقيدة النصرانية المحرفة، أو عودة إلى الحق والدين الصحيح هو هرطقة في نظر القائمين على محاكم التفتيش، وتم قتل كثير من الأبرياء وحرقهم بالنار لأدنى شبهة. وتصدر رجال الدين في كافة الأمصار النصرانية للتصدي لمثل هذه الانحرافات. وكان كل واحد منهم مسؤولاً عن ملاحقة المشبوهين في ابرشيته. وله الحق المطلق في اعتقاله بسبب وشاية وإن كانت من خصومه، أو يعتقله لأتفه سبب. ومن يتم اعتقاله فلابد له أن يعترف حتى وإن كان بريئاً، ومن رفض: فإنه ينهار ويعترف تحت

---

(١) ينظر: محاكم التفتيش، غي تستاس– جان تستاس: ص٤٢–٥٣، ٩٢–٩٧. ومذابح وجرائم محاكم التفتيش: ص٧٧، وما بعدها، ١١٧–١١٨، ومحاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها، د.عبدالرحمن الحجي: ص٣٤–٣٦.

تهديد التعذيب، وأما من يقاوم محاكم التفتيش ويرفض التراجع عن ما يعتقده فإن مصيره الحرق بالنار لهرطقته[1].

ولعل من أشهر الذين ماتوا حرقا المصلح التشيكي المشهور يان هوس، المولود سنة (١٣٦٩م)، رسم كاهناً عام (١٤٠٠م)، وعين عميداً لجامعة براغ عام (١٤٠٢م)، أنكر على بعض أتباع الكنيسة من القساوسة والمطارنة عدم اتباعهم لتعاليم المسيح الحقة، وانحرافهم عن ما كان يأمر به المسيح، واستغلالهم البشع لبسطاء الناس، وأخذ أموالهم بغير حق، كما احتج على البابا عندما لجأ الأخير إلى بيع صكوك للغفران عام (١٤١١م)، فالتف حوله ناس كثيرون أحسّوا بصدقه وإخلاصه. عندئذ سعت الكنيسة للقبض عليه؛ فأعطته الأمان بعد أن استدعته للمحاكمة إلاّ أن البابا وأتباعه غدروا به، فاعتقلوه وجردوه من ثوبه الكهنوتي، وحاكموه بتهمة الزندقة، ومخالفة تعاليمها، وأصدروا أمرهم بكفره وهرطقته، وأسلم للجلاد ليحرقنه علناً بصفته مهرطقاً، وذلك في ٦ تموز من عام (١٤١٥م)[2].

وممن حوكم أمام محاكم التفتيش الفيلسوف الإيطالي جيوردانو برينو الذي عمل راهباً أول أمره، ثم آمن بالنظرية التي تقرر دوران الأرض حول الشمس، المدانة من قبل البابا، فسعوا في طلبه، لكنه هرب وعاش متنقلاً بين دول أوربا. وكان يشتغل أستاذاً في جامعات هذه البلدان التي يمر بها. وبعد فترة طويلة من الزمن عاد إلى إيطاليا بعد أن استدرجه أحد التجار الأغنياء من البندقية. وطلب منه العودة؛ لتعليم أولاده والعيش بأمان في بلاده إيطاليا، ولكنه سرعان ما غدر به، وسلمه إلى محاكم التفتيش في الفاتيكان.

---

(١) ينظر: مذابح وجرائم محاكم التفتيش: ص٨٩–١١٠.

(٢) ينظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي: ص٧١١.

فقطعوا لسانه واحرقوه[1].

وفي إيطاليا – أيضاً – كادت محاكم التفتيش أن تلحق العالم الشهير جاليليو بسابقيه، حيث كان مهددا بالموت لولا أنه تدارك نفسه، فقادته ملاحظاته ونظرياته، إلى إثبات أن الأرض كوكب صغير يدور حول الشمس مع غيره من الكواكب، فأرغمته الكنيسة على أن يقرر علانية أن الأرض لاتتحرك على الإطلاق وأنها ثابتة كما يقول علماء عصره، وألزمته بالتراجع عن نظريته. فسلم من الموت، ولم ينفذوا فيه حكم الإعدام. لكنه وضع في إقامة جبرية تحت مراقبة الكنيسة المباشرة إلى أن مات سنة ١٦٤٢م[2].

وكانت محاكم التفتيش وسيلة ملوك أسبانيا الصليبيين لتطهير أسبانيا من الهراطقة وجميع من يعتقد بغير الكاثوليكية من المدجنين والموريسيكيون[3] واليهود. وذلك برغم العهود والمواثيق وما كتب لهم من صكوك أمان؛ فعندما سقطت غرناطة آخر قلاع المسلمين في إسبانيا، سنة (٨٩٨هـ–١٤٩٢م). لم تسلم المدينة إلا بشروط ومعاهدة بين أبي عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر[4] وبين الملكين الكاثوليكيين، من هذه الشروط: تأمين حياة المسلمين، وكفل الحرية لهم في دينهم ومعاملاتهم وأمورهم الخاصة، وعدم انتهاك حرماتهم أو التعدي عليهم، والمحافظة على

---

(١) ينظر: أبرز ضحايا محاكم التفتيش، د.رمسيس عوض: ص٢٩٩–٣٨٤.

(٢) ينظر: أبرز ضحايا محاكم التفتيش: ص٩–١٥٨.

(٣) المدجنون هم المسلمون الذين يعيشون في أرض يحكمها النصارى. والموريسيكيون هم المسلمون الذين يكتمون إيمانهم، ويظهرون أنهم نصارى. وهذه الألفاظ برزت بعد سقوط الأندلس في أيدي النصارى. ينظر: تاريخ مسلمي الأندلس، أنطونيو دومينقير هورتز، وبرنارد بنثت: ص٢٠.

(٤) أبو عبد الله محمد بن علي بن سعد من بني الأحمر، آخر ملوك المسلمين في الأندلس، استعان بالأسبان فخلع عمه وحل محله؛ فقلب النصارى له ظهر المجن وقاتلوه، وانتقض صلحه معهم، حتى سلم لهم مفاتيح غرناطة عام (٨٩٧هـ) ثم عبر البحر إلى المغرب واستقر بفاس، توفي سنة (٩٤٠هـ). [الأعلام: ٦/٢٩٠].

أموالهم ودورهم ومساجدهم..."[1].

لكن تم نقض المعاهدة كلياً، بل والعمل بنقيضها. وتم حظر اللغة العربية، وهدمت المساجد، ومنع المسلمون من الصلاة والصيام، وتم إجبار المسلمين على التنصُّر. وحظر على المسلمين الختان، والاغتسال يوم الجمعة وأيام الأعياد، ومنعوا من اقتناء المصاحف، أو تملك الكتب الإسلامية. ومنعوا من ارتداء اللباس الإسلامي. وأجبروا على أكل لحم الخنزير، وعلى شرب الخمر. فإذا فعل المسلمون محظوراً، أو نقضوا ما أمرهم به النصارى فإن مصيرهم الموت. وإن شكوا في أحد أنه مسلم كشفوا عن عورته؛ فإذا وجدوه مختونًا أو كان أحد عائلته كذلك فإن الحكم بالموت مصيره وأسرته جميعاً. ولو سلموا من هذا كله؛ لم يسلموا من انتهاب أموالهم، وسرقتهم عنوة وبسلطة الكنيسة، وذلك عن طريق الضرائب الثقيلة التي فرضت عليهم حتى أصبحوا أشبه بالرقيق والعبيد[2].

وتم إجبار كل المسلمين في قشتالة على التنصر في عام ١٥٠٢م، ثم تم إجبار المسلمين في أراغون على التنصر عام ١٥٢٦م.

ومع هذا: فقد استهدفت محاكم التفتيش من تم إجبارهم على اعتناق المسيحية من المسلمين– والذين تمت تسميتهم بالموريسكيين– للبحث عن الهراطقة من بينهم. ولذا فإن معظم محاكم التفتيش الأسبانية (التابعة للملوك) قد أنشئت في مدن الأندلس الجنوبية حيث كان أغلب الموريسكيين،

(١) ينظر نص الاتفاقية في: نفح الطيب، للمقري: ٥٢٥/٤–٥٢٦، ونهاية الأندلس، محمد عبدالله عنان: ص٢٤٤–٢٥٢، والموريسكيون الأندلسيون، مرثيديس غارثيا أرينال: ص٣١–٣٨.

(٢) ينظر: تاريخ مسلمي الأندلس: ص٢٠–٤٠. والموريسكيون الأندلسيون، ٧٣، ١١٣–١٣٤، ١٥٥–١٦٦، ٢٠٧–٢١٦، ٢٢٩–٢٣٦. ومحاكم التفتيش والموريسكيون، مرثيديس غارثيا أرينال: ص٨٣–٨٩، ٩٥–١٢٣. ومحاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها: ص١٩–٢١، ٢٨–٤٢.

فتحكم بتعذيبهم وقتلهم إن لم يعودوا إلى كنف الكنيسة الكاثوليكية[١].

لاحقاً شملت محاكم التفتيش اليهود منذ نهاية القرن الرابع عشر، وقد كان اليهود يعيشون أجمل أيامهم في ظل الدولة الإسلامية في الأندلس؛ إلا أنه بعد استيلاء النصارى على الأندلس، وقعت لليهود مجازر مروعة، وكان الخيار الوحيد للسلامة من القتل هو الدخول في النصرانية[٢].

وفي القرن السادس عشر ظهر عدو جديد وهم البروتستانت حيث تم إحراقهم أحياء كهراطقة[٣].

يقول عالم الاجتماع الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب" حيث يقول عن محاكم التفتيش: (صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثير من المُعَمَّدين على أنهم نصارى، ولم تتم عملية التطهير بالنار إلا بالتدرج؛ لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة. ونصح كردينال طليطلة التقي! الذي كان رئيساً لمحاكم التفتيش، بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالاً ونساء، وشيوخاً وولداناً. ولم يرَ الراهب الدومنيكي: بليدا، الكفاية في ذلك، فأشار بضرب رقاب من تَنَصَّر من العرب، ومن بقي على دينه منهم، وحجته في ذلك أن من المستحيل معرفة صدق إيمان من تَنَصَّر من العرب، فمن المستحب إذاً قتل جميع العرب بحد السيف؛ لكي يحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى، ويُدْخِل النار من لم يكن صادقَ النصرانية منهم)[٤].

---

(١) ينظر: محاكم التفتيش في أسبانيا والبرتغال وغيرها: ص٢٦–٥٠. ومسلمو مملكة غرناطة، خوليو كارو باروخا.

(٢) ينظر: أسبانيا في تاريخها، أميركو كاسترو: ص٥٩٢–٦١٢، ومحاكم التفتيش، غي تستاس– جان تستاس: ص٦٤–٦٧، ٨١–٩٢، وشتات أهل الأندلس، مرثيديس غارثيا أرينال: ص٥١. ومحاكم التفتيش، جميس رستن: ص٣٣–٣٧، ٨٢–١٠٣، ٢٣١–٢٤٥، ٢٨٨–٣٠١.

(٣) ينظر: محاكم التفتيش في أسبانيا والبرتغال وغيرها، د.علي مظهر: ص٢٦–٥٠.

(٤) حضارة العرب، غوستاف لوبون: ص٢٧٠–٢٧١.

وكان الراهب بيلدا[1] قد قتل في قافلة واحدة للمهاجرين قرابة مئة ألف في كمائن نصبها مع أتباعه. يقول د. لوبون في كتابه السابق: (الراهب بليدا أبدى ارتياحه لقتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة مؤلفة من ١٤٠ ألف مهاجر مسلم، حينما كانت متجهة إلى إفريقية)[2].

ثالثاً: حرب الصليب في القارة الأمريكية:

عام ١٤٩٢م هي السنة التي سقطت فيها الأندلس بيد النصارى، وفيها اكتشفت أمريكا: بلاد الهنود الحمر، على يد القس كرستوفر كولمبوس[3]. وقدر عدد سكان أمريكا الجنوبية والكاريبي في عام ١٤٩٢م بحوالي مائة مليون نسمة. وكان الحافز الرئيس لهذا الاكتشاف هو إدخال هذه الشعوب في النصرانية، ومحاربة التمدد الإسلامي، يقول كولمبوس من خلال استهلال الإهداء لمفكرته في رحلته الأولى (الجمعة ٣ آب ١٤٩٢م): (إن سموكم- كاثوليكيين ومسيحيين وأمراء- أحبوا العقيدة المسيحية، ويتوقون لرؤيتها تتوسع. وكأعداء لملة محمد وكل الوثنيين والهراطقة، والذين أرتأوا أن من المناسب أن يرسلوني، أنا كرستفر كلمبس، إلى الأجزاء المسماة بالإنديز؛ للنظر في الطريقة الممكنة؛ لتحويلهم إلى عقيدتنا المقدسة)[4]. وفي العام التالي عاد كولمبوس وبرفقته أطياف من المستوطنين الأسبان على رأسهم: قساوسة ورهبان من أجل تلقين شعوب أمريكا مبادئ الإيمان الكاثوليكي، وفرض الكاثوليكية على هذه الشعوب الكفرة وتحويلهم

(١) لم أجد له ترجمة.

(٢) حضارة العرب، غوستاف لوبون: ص٢٧١.

(٣) كريستوفر كولومبس (١٤٥١-١٥٠٦م)، ولد في إيطاليا، وانتقل إلى لشبونة، ثم غادرها إلى أسبانيا، ومنها قام برحلته المشهورة التي اكتشف فيها أمريكا، ثم قام بعدها بثلاث رحلات، كان آخرها عام (١٥٠٢م) عاد بعدها إلى أسبانيا، ومات مغموراً. [الموسوعة العربية الميسرة: ٢٠٢٤/٤].

(٤) الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، الأب مايكل برير: ص٨١.

بقوة السيف إلى النصرانية. فبدأ هؤلاء الرهبان في استعباد بعض السكان الأصليين، وتسخيرهم للعمل، وأبادوا بقيتهم وأعملوا في رقابهم السيف ممن لم يؤمن بالمسيحية ولم يخضع للغزاة؛ باعتبارهم كفرة وملحدين، وأعداء للمسيح. وهذه الإبادة الجماعية ما كان لها أن تقع دون غطاء شرعي؛ فهم مؤيدون بفتوى كهنوتية تنص على أنه (يحق للمسيحين اللجوء إلى السلاح بهدف نشر دعوة الإنجيل)[1]؛ وتماشياً مع نظرية أرسطو القائلة إن البرابرة عبيد النزوع الطبيعي. فإن إخضاعهم للمسيحية أمر مسوغ؛ بل واجب، ومن هنا فإن الأسبان يمتلكون الحق الكامل في حكم برابرة العالم الجديد؛ لأنهم في مرتبة دنيا من نواحي الحكمة والذكاء والفضيلة والإنسانية عند مقارنتهم بالأسبان؛ بل إن رائحة البارود التي تشوي أجساد السكان الأصليين إنما هو رائحة بخور ترتفع إلى رب النصارى؛ حتى إنه لم يأت منتصف القرن السادس عشر إلا وتقلص عدد السكان الأصليين في أقل من قرن من مائة مليون إلى مابين عشرة إلى عشرين مليون نسمة، مما جعل الأسبان والبرتغال يعوضون هذا النقص بجلب الرقيق من أفريقيا، وقدر عدد الرقيق الذين تم جلبهم إلى الأمريكيتين على مدى القرون الأربعة بما يزيد على أحد عشر مليون إنسان[2].

وعندما زار البابا الهالك يوحنا بولس الثاني جمهورية البيرو تسلم رسالة مفتوحة من مختلف الحركات الوطنية المحلية، جاء فيها: (إلى يوحنا بولس الثاني، نحن – الأندنيين والهنود الأمريكين – عقدنا العزم على الاستفادة من زيارتكم؛ لكي نعيد لكم كتابكم المقدس؛ لأنه طوال خمسة قرون، لم

(١) الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني: ص٨٢.

(٢) ينظر: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني: ص٧٧–٨٢، ٩١–٩٧. وللمزيد ينظر: كتاب المسيحية والسيف وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية على أيدي المسيحيين الأسبان رواية شاهد عيان، للمطران برتولومي دي لاس كازاس، ترجمة: سميرة عزمي الزين. ومحاكم التفتيش، غي تستاس– جان تستاس: ص١٢٣–١٤٧، ومحاكم التفتيش، جميس رستن: ص٣٠٣–٣٥٠.

يقدم لنا الحب والسلام والعدل. نرجو أن تأخذوا كتابكم المقدس، وأن تعيدوه إلى مضطهدينا؛ لأنهم بحاجة إلى تعاليمه الخلقية أكثر مما نحتاج إليها نحن. فمنذ أن قدم كرستفر كلمبس فرض بالقوة ثقافة ولغة وديانة وقيم أوربا على أمريكا اللاتينية)[1].

(١) الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني: ص١٠١.

الخاتمة

وبعد:

فما تم ذكره عن ظاهرة التكفير عند اليهود والنصارى يفي بالمراد، والبحث فيه يطول، والمقام لا يتسع. وبنهاية هذا البحث يمكن ذكر أهم النتائج، وهي كما يلي:

١- أن الإنحراف في العقيدة، وتحريف الدين المنزل من الأسباب الرئيسة في ظاهرة التكفير عند أهل الكتاب.

٢- أن ظاهرة الغلو في التكفير عند أهل الكتاب مبنية على عقائد مدونة في كتبهم المحرفة.

٣- أن الغلو في التكفير له جذوره التاريخية والعقدية عند أهل الكتاب.

٤- أن الذي تبنى التكفير عند اليهود والنصارى هم قياداتهم الدينية، والسياسية تبع لهم.

٥- أن الغلو في التكفير ليست ظاهرة عند أهل الكتاب فحسب، بل هي عقيدة يؤمنون بها، ويقاتلون من أجلها.

٦- أن الغلو في التكفير عند اليهود، والنصارى على وجه مخصوص دفعهم إلى سفك دماء مخالفيهم بقسوة ووحشية، ليس لها مثيل في التاريخ البشري.

٧- لم يسلم شعب في الغالب من جرائم الكنيسة ومحاكم التفتيش، حتى في أوربا نفسها.

المصادر والمراجع

- أبـرز ضـحايا محـاكم التفتـيش، د.رمـسيس عـوض، الهيئـة المـصرية العامـة للكتاب، القاهرة: ٢٠٠٥م.
- أحكـام أهـل الذمـة، ابـن قـيم الجوزيـة، حققـه وعلـق عليـه: يوسـف أحمـد البكـري، شـاكر توفيـق العـاروري، رمـادي للنـشر–المؤتمن للتوزيـع، الطبعـة الأولى: ١٤١٨هـ–١٩٩٧م.
- الإرهـاب الغربـي، روجيـه غـارودي، ترجمـة: سـلمان حرفـوش، دار كنعـان، دمشق، الطبعة الأولى: ٢٠٠٧م.
- الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، روجيه جارودي، ترجمة: محمد هشام، تقديم: الأستاذ: محمد حسنين هيكل، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ–١٩٩٨م.
- إسرائيل والتلمود، إبراهيم خليل أحمد، دار المنار، القاهرة: ١٤١٠هـ–١٩٩٠م.
- الأسـطورة والحقيقـة في التـوراة، زنـون كوسيدوفـسكي، ترجمـة: د.محمـد مخلوف، الأهالي، دمشق، الطبعة الأولى: ١٩٩٦م.
- الإصـابة في تمييـز الـصحابة، الحـافظ: أحمـد بـن علـي بـن حجـر العـسقلاني، تحقيق: د.عبدالله التركي، يوزع على نفقة صاحب السمو الملكي: نايف بن عبدالعزيز آل سعود، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ–٢٠٠٨م.
- الإصلاح والتعديل لما وقع في اسم اليهود والنصارى من التبديل، للشيخ عبدالله بـن زيـد آل محمـود (ضـمن مجموعـة رسـائله)، العبيكـان، الريـاض، الطبعـة الأولى: ١٤٢٧هـ–٢٠٠٦م.
- الأعـلام، خير الـدين الزركلـي، دار العلم للملايـين، بيروت، الطبعـة الـسادسة: ١٩٨٤م.
- إفحام اليهود وقصة إسلام السموأل ورؤياه النبي ﷺ، للإمام المهتدي السموأل بن يحيى المغربي "الحبر شموائيل بن يهوذا بن آبوان"، تقديم وتحقيق وشرح: د.محمد

عبدالله الشرقاوي، دار الهداية، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م.
- الإليـاذة، هـوميروس، ترجمـة: سـليمان البـستاني، المجلـس الأعلـى للثقافـة، القاهرة: ٢٠٠٤م.
- التـاريخ الأسـود للكنيسة، القس دي روزا، ترجمـة مـن الألمانيـة: آسـر حطيبـة، الدار المصرية للنشر والتوزيع قبرص، نيقوسيا، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ–١٩٩٤م.
- تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، نقله إلى اللغة العربيـة: د.الـسيد البـاز العريني، الطبعة الثالثة: ١٤١٣هـ–١٩٩٣م.
- تـاريخ الحـضارات العـام، أندريـه ايمـار وآخـرون، بإشـراف مـوريس كـروزيـه، ترجمـة: فريـد م. داغـر وآخـرون، منـشورات عويـدات، بـيروت–بـاريس، الطبعـة الثالثة: ١٩٩٤م.
- تـاريخ الحملـة إلى القـدس، فوشـيه الـشارتري، ترجمـة: د.زيـاد العـسلي، دار الشروق، عَمان، الطبعة الأولى: ١٩٩٠م.
- تاريخ الفكـر المسيحي، الدكتور القس حنـا الخضري، دار الثقافة، القـاهرة، الطبعة الأولى.
- تاريخ الكنيسة القبطية، القس منسى يوحنا، مكتبة المحبة، القاهرة.
- تـاريخ الكنيسة، جـون لـوريمر، ترجمـة: عـزرا مرجـان، دار الثقافـة، القـاهرة، الطبعة الأولى.
- تاريخ الكنيسة، يوسابيوس القيصري، ترجمـة: القمـص مـرقص داود، مكتبـة المحبة، القاهرة، الطبعة الثانية: ١٩٧٩م.
- تـاريخ مـسلمي الأنـدلس الموريـسيكيون حيـاة ومأسـاة أقليـة، أنطونيـو دومينقير هـورتز، وبرنـارد بنثـت، ترجمـة: عبـدالعال صـالح طـه، تقـديم وتنقـيح: محمـد محي الدين الأصفر، دار الإشراق، الدوحة، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م.
- تـاريخ وعقائـد الكتـاب المقـدس بـين إشـكالية التقـنين والتقـديس، د.يوسـف الكلام، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، الإصدار الأول: ٢٠٠٩م.
- التعريفـات، علـي بـن محمـد الـشريف الجرجـاني، تحقيـق: محمـد عبـدالرحمن

المرعشلي، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، الإصدار الثاني، الطبعة الرابعة: ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
- التلمود: عرض شامل للتلمود وتعاليم الحاخاميين حول الأخلاق الآداب الدين التقاليد القضاء، آ. كوهين، ترجمة: جاك مارتي، نقله إلى العربية: سليم طنوس، دار الخيال، بيروت، الطبعة الأولى: ٢٠٠٥م.
- التوراة كتاب مقدس أم جمع أساطير، ليو تاكسل، ترجمة: د.حسان ميخائيل إسحاق، الجندي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى: ١٩٩٤م.
- الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، هيلين إيليربي، ترجمه وقدم له: أ.د.سهيل زكار، دار قتيبة، دمشق-بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، محمد بن أبي نصر الحميدي. تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري-القاهرة، دار الكتاب اللبناني-بيروت. الطبعة تاثانية:١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- الحسام الممدود في الرد على اليهود، عبدالحق الإسلامي المغربي (من أحبار اليهود بمدينة "سبتة" الذين من الله عليهم بالإسلام)، تحقيق وتعليق: د.عمر وفيق الداعوق، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- حضارة العرب، غوستاف لوبون، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، نشر عيسى البابي الحلبي وشركاه (دار إحياء الكتب العربية).
- دراسات في الأديان: اليهودية والنصرانية، أ.د.سعود بن عبدالعزيز الخلف، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- دراسة للصهيونية السياسية، روجيه جارودي، ترجمة: أ.د.مصطفى كامل فودة، دار الشروق، بيروت-القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- دلالة الحائرين، موسى بن ميمون القرطبي الأندلسي، عارضه بأصوله العربية والعبرية: د.حسين آتاي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

- الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، إسرائيل شاحاك، قدم له: إدوارد سعيد، ترجمة: رضى سلمان، مراجعة: مريم بري، شركة المطبوعات، بيروت، الطبعة الثالثة: ١٩٩٧م.
- شتات أهل الأندلس، مرثيديس غارثيا أرينال، ترجمة: محمود فكري عبدالسميع، مراجعة وتقديم: جمال عبدالرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى: ٢٠٠٦م.
- شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني، تحقيق وتعليق: د.أحمد حجازي السقا، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، الرياض: ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- فجر الضمير، جيمس هنري بريستيد، ترجمة: د.سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ٢٠٠٢م.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد بن حزم، تحقيق: د.محمد إبراهيم نصر- د.عبدالرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت: ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- فضح التلمود، الأب: آي. بي. برانايتس، إعداد زهدي الفاتح، دار النفائس، بيروت، الطبعة الرابعة: ١٤١٢هـ-١٩٩١م.
- الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، د.حسن ظاظا، دار القلم- دمشق، ودار العلوم والثقافة- بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- فكر جارودي بين المادية والإسلام، عادل التل، دار البينة، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- قاموس الكتاب المقدس، تأليف: نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين، هيئة التحرير: بطرس عبد الملك وآخرون، دار الثقافة، القاهرة، الطبعة الحادية عشر: ١٩٩٧م.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرون، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة، الطبعة الرابعة: ١٩٧٣م.
- الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، الأب مايكل برير، ترجمة: أحمد

الجمل– زياد المنى، دار قدمس، دمشق، الطبعة الثانية: ٢٠٠٣م.
- الكتاب المقدس: أي كتب العهد القديم والعهد الجديد، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.
- الكنز المرصود في فضائح التلمود، أوجست روهلنج، ترجمة: د.يوسف حنا نصرالله، شرح وتعليق د.محمد عبدالله الشرقاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٢هـ–٢٠٠١م. ونسخة أخرى: الكنز المرصود في قواعد التلمود، المترجم نفسه، قدم له: مصطفى أحمد الزرقا، والدكتور حسن ظاظا، دار القلم–دمشق، دارة العلوم–بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ–١٩٨٧م.
- كنيس في الكنيسة: العلاقات المسيحية اليهودية عبر التاريخ، ميشيل منير، دار جفرا للدراسات والنشر، دمشق–حمص، الطبعة الأولى: ٢٠٠١م.
- كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، د.أسد رستم، منشورات المكتبة البُولَسية، لبنان: ١٩٨٨م.
- اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، يوسف زيدان، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة: ٢٠١٠م.
- الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام في التوراة والعهد القديم، للدكتور: محمد علي البار، دار القلم، دمشق– الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ–١٩٩٠م.
- محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها، د.عبدالرحمن علي الحجي، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م.
- محاكم التفتيش والموريسكيون، مرثيديس غارثيا أرينال، ترجمة: خالد عباس، مراجعة وتقديم: جمال عبدالرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى: ٢٠٠٤م.
- محاكم التفتيش وسقوط الأندلس واكتشاف كلومبس لأمريكة، جميس رستن، ترجمة: مجير ماجد العمري، دار السيد للنشر، الرياض، الطبعة الأولى: ٢٠٠٩م.

- محاكم التفتيش، غي تستاس– جان تستاس، ترجمة: د.ميساء السيوفي، مراجعة: د.جمال شحيد، المؤسسة العربية للتحديث الفكري– الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى: ٢٠٠٥م.
- محاكمة الصهيونية الإسرائيلية، روجيه غارودي، ترجمة: حسين قبيسي، الهرست، بيروت، الطبعة الأولى:١٩٩٨م.
- المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم د. محمد علي البار، دار القلم، دمشق– الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ–١٩٩٠م.
- مذابح وجرائم محاكم التفتيش، محمد علي قطب، لا توجد بيانات نشر.
- المسند، للإمام أحمد بن حنبل، حقق بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٢٩هـ–٢٠٠٨م.
- المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، د.محمد علي البار، الدار السعودية، جدة، الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م.
- المسيحية المتهودة في خدمة الصهيونية العالمية، عيسى اليازجي، الدار الوطنية الجديدة، دمشق، الطبعة الأولى: ٢٠٠٤م.
- المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د.عبدالمنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ–٢٠٠٢م.
- المسيحية والسيف وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية على أيدي المسيحيين الأسبان رواية شاهد عيان، للمطران برتولومي دي لاس كازاس، ترجمة: سميرة عزمي الزين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ–١٩٩١م.
- معجم الإيمان المسيحي، الأب: صبحي حموي اليسوعي، والأب جان كوربون، دار المشرق، بيروت، بالتعاون مع مجلس كنائس الشرق الأوسط، الطبعة الأولى: ١٩٩٤م.
- معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، بيروت، الطبعة الثانية: ١٩٩٧م.

- معجم لغة الفقهاء. وضع: أ.د. محمد رواس قلعجي، د. حامد صادق قنيبي، دار النفائس بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داودي، دار القلم، دمشق– والدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى:١٤١٢هـ ١٩٩٢م.
- الملل والنحل، محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت: ١٤٠٢هـ–١٩٨٢م.
- الموريسكيون الأندلسيون، مرثيديس غارثيا أرينال، ترجمة وتقديم: جمال عبدالرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى: ٢٠٠٣م.
- الموسوعة العربية الميسرة، مجموعة من المختصين والأساتذة، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية: ٢٠٠١م.
- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د.عبدالوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٩٩٩م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت: ١٣٨٨هـ–١٩٦٨م.
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، محمد عبدالله عنان، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة: ١٣٨٦هـ–١٩٦٦.
- الهرطقة في الغرب، د.رمسيس عوض، سينا للنشر، القاهرة– الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٩٧م.
- الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر، تعريب جمال سالم، دار التنوير– دار الفارابي، بيروت: ٢٠٠٧م.
- همجية التعاليم الصهيونية، بولس حنا مسعد، منشورات المكتب الإسلامي، بيروت–دمشق.
- اليهودية والغيرية، ألبيرتو دانزول، ترجمة: د.ماري شهرستان، الأوائل، دمشق، الطبعة الأولى: ٢٠٠٤م.

ظاهرة التكفير .. الأسباب والعلاج والآثار

ظاهرة التكفير في الأمم الأخرى

تأريخ التكفير في الكنائس الغربية ومآلاته

د. عادل محمد أحمد سلمان

التكفير والهرطقة:

إن ظاهرة التكفير داخل الدين الواحد أو بين معتقدي الأديان الأخرى ليست جديدة إنما هي قديمة قدم الأديان ، فهي تعتمد أساسا على تأويل النصوص و المصطلحات الدينية لمصلحة وجهة نظر معينة. ولكن نجد أن الديانتين الرئيستين اللتين سبقتا الإسلام (اليهودية و المسيحية) لم يستعملا كلمة (تكفير) إنما كانت الكلمة المستعملة كلمة (تجديف) أو كلمة (الهرطقة) وهي في غالبية الحالات تؤدي نفس المعنى، باعتبار أن المهرطق صاحب مذهب منحرف خارج عن الطريق القويم، وعلى هذا الأساس يعتبر سيدنا عيسى عليه السلام عند بعض رجال الدين اليهود مجدفاً أو مهرطقاً.

إن كلمات مثل التكفير، البدعة أو الهرطقة تلتقي جميعها في نفس السياق.فالديانتان المسيحية واليهودية لم تتضمنا استعمال كلمة التكفير- بنفس المعنى الذي تبناه المتشددون الدينيون في الدين الإسلامي الحنيف.وكان الشائع فيها استعمال كلمة (هرطقة) والتي تعني البدعة في الدين، وهي كلمة إغريقية الأصل تعني اختيار رأي وتفضيله على غيره، ثم تطورت معاني أخرى للكلمة لتعني وتشير إلى مذهب من المذاهب الفلسفية أو مدرسة فكرية معينة، ثم أخذت الكلمة طريقها إلى الدين فأصبحت تطلق على الجماعات داخل الدين ذات الآراء المختلفة عن الاتجاه الرسمي للدين وصارت الكلمة مرادفة للزندقة والتي أصبحت تعني إدخال معتقدات جديدة إلى الدين أو إنكار جزء منه.

والآن ما الهرطقة في المسيحية ؟

شاع استعمال كلمات هرطقة، بدعة، زندقة، تجديف، وكفر المعاني التي استعملت بها في المسيحية – تقريباً – وفيما قبلها من العصور، ولكن كانت الهرطقة هي أشد أنواع المروق على الدين حدة وهي من الأمور التي لا

تتسامح معها الكنيسة عادة.

يحاول رجال الكنيسة تعريف الهرطقة تعريفا قانونيا وقد توصلت الكنيسة إلى التعريف التالي لمعنى كلمة (هرطقة) " إذا أنكر أحدهم بعد أن تلقى العماد وهو محتفظ بصفة مسيحي إذا أنكر بإصرار أحد الحقائق التي تتعلق بالإيمان الإلهي والكاثوليكي (الجامع) أو شك بها يكون مهرطقاً، فكل عقيدة تتناقض مع الإيمان الحقيقي تشكل كفرا أي غياب فضيلة الإيمان الموحي بها "، وبناء على هذا التعريف يعرف ج.ويتلر في كتابه الهرطقة في المسيحية، ثلاثة أنواع من الكفر:

١- الكفر السلبي الصرف: وهو كفر الوثنيين الذين لم يعرفوا المسيح و هو كفر ناجم عن الجهل ولهذا فهم غير مذنبين.

٢- الكفر السالب المتصف بالرفض للإيمان والالتحاق بالحقائق الموحي بها أو رفض فكرة الوحي أو عدم البحث بجدية في مفهوم وإمكانية الوحي.

٣- الكفر الايجابي: وهو يختلف عن سابقيه بأنه يأتي بعد تلقي فضيلة الإيمان بالوحي الإلهي، يأتي ليدمر هذه الفضيلة منطويا على الجحود أو إنكار الإيمان بصورة إرادية.وعليه لتكون مهرطقا بهذا المعنى يجب أن يكون المرء معمدا ثم بعد ذلك يختار أن يقع في الخطأ الذي يتعارض مع الوحي الإلهي بحسب ما تفترضه الكنيسة الكاثوليكية بواسطة أحد أعضائها المعصومين عن الخطأ.

نشأة المسيحية:

نشأت المسيحية كما هو معلوم وهي متهمة بالهرطقة، وإن سيدنا عيسى عليه السلام واجه عداء مفرطا من اليهود واتهموه بأنه جاء لينقض كل ما عرفته اليهودية من تراث وتعاليم دينية عن سيدنا موسى عليه السلام والأنبياء. واتهموه بأنه بأفعاله وكلماته يعمل على نقض ناموس موسى والأنبياء،

واتهموه أيضا بعدم تقديس السبت كما أمرهم سيدنا موسى عليه السلام، وهكذا واجه سيدنا عيسى الكثير، واتُّهم بالهرطقة، وتحت هذا الجو العدائي نشأت المسيحية الأولى وكهنة المعابد اليهودية كانوا لها بالمرصاد.

لقد بدأت المسيحية تنتشر وسط اضطهاد كبير واسع من الإمبراطورية الرومانية ومن قادة الكهنة اليهود، ولكن المسيحية في داخلها حملت الكثير من معاني التسامح وقبول الآخر كما بشر بها سيدنا عيسى عليه السلام بنفسه.فقد حمل الإنجيل بين طياته الكثير من الوصايا التي تدعو إلى التسامح وحث الإنسان في أن يكون مُرْضيا لكل خصومه وصافي النفس إضافة إلى محبة الأعداء وضرورة أن نغفر للآخرين زلاتهم وأنه يجب على المؤمن الحق ألا يدين الآخرين مهما كان السبب.

إن النظام الاجتماعي الذي أقامه الحواريون بعد رفع سيدنا عيسى عنهم والتزم به معهم المتنصرون الأوائل كان نظاما صارما وجوهريا وكانوا قلبا واحدا، وكانت ملكيتهم للأشياء جماعية، وكل الممتلكات مشاعة بينهم. واستمر هذا الوضع المتسامح والقابل للرأي الآخر فترة زمنية طويلة امتدت لأكثر من أربعمائة عام، ولكن بدأ الخلل يظهر بين التطبيق وبين ما هو موجود في الإنجيل وكان جميع مطلقي الهرطقات يحسون بهذا البعد الكبير بين المسيحية كما هي موجودة في الإنجيل وكما مارسها المؤمنون الأوائل وبين توجهات ورؤى وممارسات الكنيسة الحالية، في واقع الحياة اليومية من حياة مترفة وطقوس غريبة شملت الجميع حتى البابا نفسه. ومع مما ذكرناه من أن سيدنا عيسى عليه السلام كان جل تعاليمه عن المحبة والتسامح والغفران ، بل كان جل رسالته الدعوة لقبول الآخر، والتعامل معه بحب واحترام، وقد سار قادة المسيحية الأوائل هذا المسار في فترة الاضطهاد الديني في ظل الامبراطورية الرومانية، ولكن سرعان ما تبدل الحال وصارت القسوة

والغلظة والاتهامات الخطيرة بالمروق والهرطقة والزندقة هي نصيب كل من يكون له رأي يخالف به رأي الكنيسة الرسمي ، ومع انشقاق الكنيسة الآرثوذوكسية والكنيسة الإنجيلكية (الإنجيلية) وحركة الاحتجاج الديني (البروتستانت) إلا أن هذه الصفة ظلت ملازمة للتيار الرسمي المسيحي. وهنالك نشأ نوعان من الخلاف ، خلاف إرادي يسمى انشقاقا وخلاف عقدي يسمى هرطقة.

بداية استعمال مصطلح الهرطقة:

بعد اختفاء سيدنا عيسى المفاجئ غير المتوقع ارتبك الأعضاء الأوائل في المسيحية واتخذوا رؤى ومسارات مختلفة ومن ثم ظهرت آراء متباينة في العقيدة. وسرعان ما بدأت الخلافات حول:

- مفهوم الإيمان المسيحي والطقوس الدينية.
- مفهوم الثالوث الإلهي. (الأقانيم الثلاثة)
- طبيعة المسيح. (ناسوت، لاهوت)

إن البدعة الدينية في المسيحية تعبر عن رأي غير سليم أو غير متسق مع المبادئ الكهنوتية للكنيسة المعنية، ويعتبر انحرافا عن المبادئ المؤسسة لهذه السلطة وهذا الانحراف قد يتناول العقيدة وفي هذه الحالة تعتبر البدعة هرطقة يستحق مرتكبها أقسى ألوان العقاب، أما إذا كانت تشمل الطقوس أو النظام الكهنوتي فإنها تعتبر بدعة أو انشقاقا. وعليه لتكون هنالك هرطقة لابد أن يكون هناك مبدأ عقدي أساسي يستند على حقائق موحى بها من الله، وأن تكون هناك كنيسة تتبنى هذه العقائد و تأخذ بها وبذلك أصبحت هذه العقيدة سلطة رسمية. وتعرف الكنيسة الكاثوليكية الهرطقة بأنها أي رأي ديني لا يتفق مع الإيمان الكاثوليكي، أو أي خطأ إرادي تمسك به صاحبه مع أنه متعارض مع مبادئ إيمانية موحى بها وتم تعليمها في الكنيسة،

وعلى هذا الأساس تم اعتبار الروم الآرثوذوكس هراطقة؛ لأنهم خالفوا ما تم الاتفاق عليه في المجامع المسكونية السبعة الأولى. لذلك كان الخلاف بين الكاثوليك والآرثوذوكس هرطقة؛ لأنه قام على أكثر من عشر مسائل عقدية تتضمن عصمة البابا ونيابة المسيح على الأرض والاستحقاقات والغفرانات. لذا فإن الكنيسة الآرثوذوكسية تنظر إلى كنيسة روما على أساس أنها هرطقية. ويمكن حصر الخلاف بين الكاثوليك والآرثوذوكس في نقطتين رئيسيتين مع أنه أعمق من ذلك– فهو يشمل في الأساس عصمة البابا عند الكاثوليك واتهام الآرثوذوكس للكاثوليك بالفهم الأسطوري للمسيحية وإدخال الوثنية بها.وقد استعمل هذا المفهوم، مفهوم الهرطقة حتى في الكنيسة البروتستانتية والتي كانت في نشأتها الأولى تعتبر هرطقة في ذاتها، استعمله (كالفن) في إدانة (سيرفيه)، واتهم (لوثر) كل القائلين بتجديد العماد (التعميد وهو الاغتسال بالماء المقدس) أنهم هراطقة.كما سنرى لاحقا.

ومع أن المهرطق الفرد لم يكن يشكل خطرا على الكنيسة إلا إذا كون جماعة إلا أن الكنيسة الكاثوليكية قامت باتهام أفراد بالهرطقة وأحرقتهم بالنار مثل إتيان دوليه الذي أنكر خلود الروح وجاليلو الذي أنكر حركة الشمس ثم جان دارك التي عوقبت للهرطقة لأسباب سياسية، وكان أول من اتهم الهراطقة بتهديد وحدة الكنيسة أسقف أنطاكيا اغناطيوس في القرن الأول الميلادي. وقد تم إيقاع عقوبة المهرطق على المتدينين الذين شكلوا فرقة دينية وتطوروا حتى كونوا كنيسة بعينها مثل الآريوسيين والكالفينيين واللوثريين والأنجليكان.

وكانت المبادئ الإيمانية الأساسية في الكنيسة قد تم تلخيصها في كتابات قوانين الإيمان الذي يعتقد الباحثون أنه تم وضع بواسطة تلاميذ

سيدنا عيسى عليه السلام. وأدى نمو الهرطقات إلى التوسع في كتابات الإيمان والتفصيل فيها، وعقدت مجامع الكنيسة التي كانت لها سلطة عليا، فكان مجمع نيقية ٣٢٥م الذي قام بإكمال قانون إيمان الرسل وركز على عقيدة الثالوث، ثم توالت المجامع في الأساس للرد على الهراطقة والمارقين فكان مجمع أفسوس عام ٤٣١م الذي كان موجها لكشف هرطقة النساطرة، ومن بعده مجمع خلقيدونية في عام ٤٥١م. ولكن أثر هذه المجمعات لم يكن كافيا فكان نشوء ما يسمى بالقانون الكنسي الذي جاء بتأثير من الدولة الرومانية. ففي نهاية القرن الخامس الميلادي تم جمعت قرارات البابا والفتاوى البابوية في مجموعة واحدة، وتطورت تلك المحاولات حتى تم إصدار مجموعة رسمية تحمل اسم البراءات البابوية الرومانية إلى أن جاء البابا بونوا الخامس عشر حيث أصدر كتابا أوجز فيه القوانين المسيحية في عام ١٩١٥م، وهو الكتاب الذي تَحْرِم الكنيسةُ الكاثوليكية بموجبه ..." كلَّ من ينتسب إلى أية جمعية سرِّية تتآمر على الكنيسة وعلى السلطات الشرعية) ونص القانون أنه إذا أنكر أحدهم بعد أن يكون قد تلقى العماد وهو محتفظ بصفة مسيحي إذا أنكر بإصرار إحدى الحقائق التي تتعلق بالإيمان الإلهي والكاثوليكي أو شك بها يكون مهرطقاً.

اضطهاد الهراطقة:

جاء الاضطهاد الديني واتهامات الهرطقة ممثلا للجانب البشع للسلطة الدينية ثم التطرف المتصاعد لحملة لواء الدين المسيحي في طورها الأول، وأصبح مهرطقا كل من يرى الأساقفة أنهم خرجوا عن الدين الصحيح، وأن الواجب إعادتهم ولو بالقوة إلى الطريق القويم. وقد أدى تنامي هيمنة رجال الدين وسطوتهم (الأساقفة) إلى درجة أن منهم من نادى بالتخلص من شرور الحياة والجسد الذي يتملكها، والابتعاد عن شرور حياة الدنيا. وقد كونت

الكنيسة من مجموعة الأخوة الدومنيكان دواوين لاستئصال الهرطقة التي يعتبرها البعض البداية الحقيقية لمحاكم التفتيش الكهنوتية التي مثلت ذروة التعصب الديني وعدم التسامح والإرهاب ، وتم استخدمت وسائل قمع وتعذيب وحشية شملت التقييد بسلاسل الحديد ، وتعليقهم ووضع الثقال الحديدية على أرجلهم أو إجبارهم على المشي على جمر من نار ، أو نزع أظافر اليدين والرجلين، أو الموت غرقا أو تغطية وجه المهرطق بقطعة قماش وشدها على وجهه وصب الماء الساخن عليه حتى الموت أو إحراقهم أحياء. ويؤدي جرم الهرطقة إلى الحرمان الجزئي أو الكامل من الأسرار المقدسة والقداس الإلهي وصلوات الكنيسة أو حتى من الدفن في أرض مسيحية.

أصبح اضطهاد الهراطقة أكثر عمومية وأكثر شمولا بفضل دعم السلطة المدنية (السلطة الزمنية) وقد استمر هذا الدعم واستمرت الهرطقات، ولكن بعد بروز البروتستانتية قلت الهرطقات لدرجة كبيرة في الكنيسة الكاثوليكية؛ لأن البدع البروتستانتية استطاعت استيعاب كل المنشقين الذين يحملون رأيا مخالفا للرأي الرسمي.

انعقد أول مجمع مسكوني في نيقية في ٣٢٥م لتحديد ما يجب الإيمان به وما يجب رفضه واعتباره هرطقة. وكان في ذلك يواجه ايديولوجيات غريبة إذ كانت الثقافات الموجودة في تلك الأزمنة ثقافات دينية ذات طابع قبلي، وفي الوقت نفسه كانت فلسفة الرواقيين والأيقوريين سائدة، وعليه كان على الكنيسة أن تكون لديها عقيدة واضحة ودقيقة للحفاظ على إيمان المسيحيين الأوائل الذين طال انتظارهم للملكوت الذي وعدهم به الإنجيل وبأنه أوشك – والذي كان يعرف عندهم بعودة المسيح – فقد عاش كل المتنصرين الأوائل يترقبون هذا الحدث على وعد العودة السريع. وقد كانت الحقائق الدينية في تلك الفترة ضبابية للغاية، فقد كان يتم التفسير للحقائق الدينية وفق مشيئة

من الذين يتصدون للفهم الديني، وفي وسط تلك الخلافات وذلك الجدل ولد علم اللاهوت المسيحي حول شخصية المسيح وعلاقته بالله والإنسان، وكذلك علاقة المسيحية بناموس سيدنا موسى عليه السلام، وبالتحديد طقس الختان وإمكانية قبول الوثنيين المهتدين إلى المسيحية، ومدى الالتزام بشريعة سيدنا موسى عليه السلام. وكانت فرقة الابيونيين من أوائل الفرق التي تم اتهمت بالهرطقة؛ لأنهم كانوا مرتبطين بالشريعة الموسوية ويرفضون ألوهية المسيح، وكذلك الآريوسيون الذين كانوا ينادون بعدم مساواة المسيح بالله، وعدم اعتباره واسطة بين الله والإنسان ، ولكن آريوس مؤسس المذهب رغم إيمانه المسيحي القوي، أتُّهِمَ بالهرطقة و الكفر وطُرَد. وكان الغنوصيون الذين مزجوا الفلسفة بالدين المسيحي أيضا من أهم هراطقة هذه الفترة.

انعقد مجمع نيقية لحسم هذه القضايا ولمناقشة ما أثاره المهرطق آريوس والرد على هرطقته وأُدين. لكن ذلك حدا بالقائمين على أمر الدين المسيحي في زمن القديس اثاسيوس إلى كتابة قانون الإيمان المسيحي، ليصبح ملزما لكل الكنائس في ذلك الوقت. وعقد مجمع افسوس الثاني في العام ٤٤٩ م والذي كان من أبرز مقرراته الحكم بهرطقة النسطوريين وكذلك الحكم بهرطقة ممنون. ورفض البابا بعضا من مقرراته، ولكن في عام ٤٥١ م عقد مجمع خلقدونية لمراجعة ما اتفق عليه في مجمع افسوس، وكان من مقررات هذا المجمع الحكم بهرطقة أوطاخي ثم حرمانه. ومن أكبر معالم الهرطقة في تاريخ المسيحية اتهام نسطور بها، وكان أسقفا في القسطنطينية، بعد أن دعا نسطور إلى تسمية السيدة مريم أم المسيح بدلاً عن أم الله، وتم حرق كل كتبه وحرمانه في مؤتمر أفسوس عام ٤٣١م واتهامه بالهرطقة، وتم هذا الاتهام بالاتفاق بين البابا كيرلس الأول والإمبراطور ثيودسيوس الثاني، وتم عزل الأساقفة الذين أيدوا نسطور واجبار آخرين على إنكار النسطورية، وفي

مؤتمر خلقدونية عام ٤٥١م تم التأكيد على هرطقة نسطور. ولكن مع الحرمان استطاعت النسطورية أن تعيش، وما زالت تعمل تحت اسم الكنيسة الأشورية. وقد حاول القساوسة إغلاق ومنع الكنائس النسطورية والآريوسية وعندما فشلوا أحرقوها بالنار، وطُرِدَ الآلاف من القساوسة باعتبارهم مهرطقين وعذب السامريون ومعهم آخرون اتهموا بالهرطقة وبلغ عدد القتلى عشرين ألفا وهرب خمسون الفا.

واذا كان مفهوم الهرطقة لم يتغير بتغير الزمان في الكنيسة الرومانية ولكن على المستوى العملي فإن المهرطق في القرن التاسع عشر الميلادي لم يعد منبوذاً يجب الابتعاد عنه. أما في البروتستانتية فإنه لا يوجد تحديد نهائي ملموس للإيمان كما قال فان درلي وأصبح الوحي يعني عندهم عمل العناية الإلهية المستمر على النفوس الداخلية – أي أنه لم يعد الإبلاغ بكلام الله مرة واحدة وإلى الأبد، ولكن مع ذلك فإن مصطلح الهرطقة لازم المفكرين البروتستانت الأوائل؛ لأن التصورات الكاثوليكية لا تزال في عقولهم، ففي بداية الاختلافات الدينية نظر إلى الهرطقة من جانب البروتستانت على أنها جريمة يجب أن تتعرض للعقاب مِنْ السلطات المدنية وتم أحرق سيرفيه عام ١٥٥٣م بأمر مجلس المدينة بتوجيه من كالفن. مع إنكار لوثر أنه مهرطق؛ لأن صكوك الغفران التي انتقدها ليست ضرورية للخلاص، وإعلانه أنه لا يمكن مكافحة الهرطقة إلا بكلام الله؛ لأنه ينير القلوب، ولكن عندما اجتاحت ثورة الفلاحين وكادت تقتلع الدولة وافق لوثر على إعدام الهراطقة من الفلاحين. ثم إنه ألزم اليهود بالإيمان قسرا بيسوع. و بعد أن زال الخطر في الثورة بدأت الكنائس الألمانية أكثر احتراما للرأي الآخر والضمير الفردي الذي كان في الأساس هو سبب وجودها واتجاهها العقدي. إلا انه بمرور الزمن وبرسوخ مبدأ حقوق الإنسان الليبرالي في الغرب اختفى هذا المفهوم كما اختفت معه كلمة (بدعة).

ويعتمد الآرثوذوكس على عقاب الهراطقة على ما ورد في متى الإصحاح الثامن عشر ١٥—١٧، الذي يفسر القسوة على الهراطقة بأنها فعل محبة رحيم يهدف إلى حماية الآخرين من التأثر بالهرطقة، أي أنه يبدأ عقاب المهرطق بينك وبينه فإن لم يهتم لك ولم يستمع فليكن معك شاهد أو شاهدان وبعد ذلك إذا رفض الاستماع فيجب إبلاغ الكنيسة و إذا رفض الخضوع للكنيسة يكون مثله مثل الوثني.

التوبة من الهرطقة:

لقد قامت الكنيسة بوضع شروط وضوابط لعودة الخارجين عنها — الهراطقة — فإذا كان الشخص العائد أو التائب قد تلقى التعميد الرسمي وتهرطق بعد ذلك فإنه لكي يعود إلى الكنيسة عليه قصاص يعتمد على درجة الهرطقة، قد يكون طويلاً وصارماً، ولكن إذا كان المهرطق قد تعمد من كاهن مهرطق فإن بعض الكنائس تشترط عماداً جديداً، ولكن القديس أوغسطين فرض رؤيته في عماد الهراطقة إذا ما تم باسم الأب، الابن وروح القدس فإنه عماد مقبول إذا تم على الوجه الذي ترتضيه الكنيسة ويكفي عندئذ وضع اليدين على الرأس لتتم التوبة مع بقاء احتمال إعادة طقس العماد قائما، أما في الكنيسة الشرقية فإن التوبة للهراطقة اللاتينيين تتم عبر تجديد سر التثبيت وتلاوة صفة لإعلان الإيمان، بل إن الإنسان البروتستانتي العائد إلى الكنيسة الشرقية كان لابد من إعطائه سر التثبيت.

أما عند البروتستانت فلا مانع من استقبال الكاثوليك والمنشقين استنادا إلى مقطع من الرسالة إلى اهل افسس (هنالك رب واحد وإيمان واحد وعماد واحد ولله واحد وأب للجميع.....) وعليه فإن عماد الكاثوليك صحيح لدى البروتستانت مع تشويه معناه ولكن بعض الكنائس الانجليكانية تعيد العماد للمهرطق العائد.

أثر النظام الكهنوتي:

إن فكـرة الكنيـسة تقـوم علـي أن المحافظـة علـى العقيـدة الرسميـة المسيحية وتفسير محتويات الكتاب المقدس من اختصاص الكنيسة فقط وهذه الرؤية أسهمت لحد كبير في إطلاق لفظ الهرطقة على كل المناوئين وإنزال العقوبات القاسية عليهم. وتقوم العقيدة المسيحية على أن البابا هو خليفة المسيح على الأرض ووريث القديس بطرس في الغرب.[4]وقد يكون هذا النظام الكهنوتي الموجود في المسيحية ساعد علي إطلاق هذا الفهم على الآخرين؛ لأن وظيفة الكاهن في الأساس هي احتكار المعرفة الدينية وإعطاؤها للضالين والمنحرفين، وهذا يجعل من السهل على الكاهن اتهام من يشاء بالهرطقة. و بتطور الديانة المسيحية و انتشارها قوي هذا المفهوم، وأخذ سلطة مطلقة في القرون الوسطي، إذ أصبح الكهنوت في حد ذاته سلطة سياسية، والحكم الذي يصدره الكاهن علي أي فرد بالهرطقة قد يؤدي به إلى الطرد أو التعذيب أو السجن أو المطاردة أو حتى القتل. يقوم المجمع الكنسي عادة بتعيين الأساقفة الذين يقومون بتعيين البابا ، وأدى ذلك لنشوب خلافات وحروبات طاحنة حول منصب البابا الذي أصبح يمتلك السلطة الدينية والدنيوية في الألفية الأولى للمسيحية.وقد أدى احتكار المعرفة هذه من قبل الكنيسة إلى عنف وتطرف الكنيسة، وكانت الكنيسة في فترة نضجها ترفض الآخر إلى حد إلغائه، وربما تكون الكنيسة قد ورثت هذه السلطة المتطرفة من اليهودية، فنجد في اليهودية أن هنالك معمودية اختصها الرب بأمر الكهنة ورعاية المعبد والدين. وللعازر بن هرون الكاهن وكالة حراسة بيت المقدس. فسبط لأوي له كل الحق في خدمة الهيكل، وكل ما يترتب على فهم الشريعة الموسوية وتفسيرها.وقد اختصت عائلة هرون بالخدمة الداخلية للهيكل، وكان اللاويون متوسطين بين الكهنة والشعب وكانوا لا يعطون

من أرض الميعاد بسبب هذه المهام الكهنوتية وكان التعبير عن إرادة الرب يتم عبر الكاهن وحده. إن مثلث الكهنوت في المسيحية مثله تماماً مثلث اليهودية فهو مثلث متساوي الأضلاع ، يمثل الرب فيه رأس المثلث ثم يليه الكاهن والذبيحة ، الكاهن يختاره الرب والذبيحة يختارها الكاهن. وهنا تكمن خطورة مثل هذا النظام الذي يكون فيه الكاهن مختارا من قبل الرب وهو يعمل كحارس للنعمة وله سلطان لأنه مدافع عن الرب. ومع أن الرسول بولس قد جدد في رسالته الأولى إلى أهل تيموثاوس طريقة تنظيم الكنيسة واختيار القيادات إلا أن الكنيسة في بدايتها قد سارت بهذا المبدأ والسلطة المطلقة، خاصة عندما ارتبطت تلك السلطة بالسلطة الزمنية. واحتكار المعرفة الحقيقية من قبل الكنيسة وحدها أدى إلى العنف الأصولي الشديد ضد معارضيها فكانت أساليب الإرهاب والقمع والتعذيب البشعة شاهدا على ذلك، وعند امتزاج هذا الاحتكار بالسلطة ازدادت قوة الكنيسة وسلطتها وأصبحت الهرطقة جريمة شنعاء يعد من يمارسها أو يدعو إليها خارجا عن تعاليم الكنيسة، ومعاديا للملك ويمكن قبول أي اتهام أخلاقي ولكن لا يمكن قبول الاتهام بالهرطقة.

وقد قاد ذلك إلى محاكم التفتيش وملاحقة الهراطقة والحروب الصليبية الداخلية والخارجية، ولكن نجد الكثير ممن يوصفون بأنهم هراطقة يرون أنفسهم إصلاحيين أو مجددين أو أنهم يعملون على تنقية العقيدة وتخليصها من الشوائب، وأنهم أصبحوا يفهمون العقيدة بصورة أصلية، وأن الجماعة هي التي انحرفت عن العقيدة الأصلية.

التحالف بين الإمبراطور والبابا:

لم تكن المسيحية في بداياتها قاسية أو متعنتة على الآخرين بل كانت تقبل الرأي الآخر وتتسامح مع معارضيها. ولكن بعد أن تحالف البابا مع

الإمبراطـور قويـت سـلطة البابـا وأسـهم البـابوات في إصـدار مراسـيم مـن الإمبراطـور تمنـع الهرطقـة وكـان يتم في ذلـك الوقـت نفـي المهرطـق أو إدخالـه السجن. وقد كـان للتحـالف الـذي ينشـأ بـين الإمبراطـور و البابـا دور كـبير في اعتبار كل حركات الإصلاح هرطقة و كفرا ، فقد أصدر بعض الأباطرة مراسيم تحرم أي فكرة تجديدية وتدمغها وتصمها بالهرطقة، واعتبر الرهبان الذين يدلون بآراء مخالفة هراطقة، وبذلك تم كممت الأفواه ومنع أي قدر من التأويل و الاجتهاد في النصوص، مما أدى إلي تحويل العقيدة المسيحية إلى دكتاتورية يكون قرار التكفير فيها – من أي جهة كان – معرضا الشخص للقتل في ظل تحالف الدولة والكنيسة، الكنيسة سلطة تشريعية والدولة سلطة تنفيذية.

وبهذا التحالف تم إلغاء ما تبقى من حرية في تأويل النصوص الدينية، وبذلك تم تحويل كل النصوص الدينية وآراء رجال الكنيسة ثم تحويلها إلى نصوص مقدسة لا يحق لأي فرد مهما كان المساس بها أو معارضتها، مما أدى إلى تحويل الكنيسة إلى ديكتاتورية دينية، وأصبح قرار التكفير للكنيسة تطلقه على من تشاء في أي وقت تشاء معرضة حياته للموت. وقد نشأ عن ذلك تكريس للعنف اللاهوتي وبتوجيه من البابا أمر الإمبراطور بإغلاق الكنيسة الآريوسية التي أسسها الراهب آريوس ٢٥٦–٣٣٦م والذي كان قد قال بأن الكلمة ليست الله بل مولود من الله، فهو لا يشاركه طبيعته، وقد استطاع آريوس أن يجمع حوله عددا من الأساقفة ووافقوه على عقيدته ، وقام الأساقفة بعقد مجمع أفسوس الذين أدانوا فيه آريوس بسبب بدعته وجرموه. وعندما واصل آريوس دعوته عقدوا مجمعا آخر في الإسكندرية في عام ٣١٨م تمت فيه ادانته,واتهامه بالهرطقة رغم ورعه.وقد أحس الإمبراطورقسطنطين الكبير خطورة آريوس على السلام ودعا إلى مجمع نيقية عام ٣٢٥م (المجمع

المسكوني الأول) الذي أدان تعاليم آريوس، وساد الاعتقاد بأن آريوس مات مسموما.

كان للبابا سلطة قوية إبان القرن الرابع الميلادي، إذ إنه بعد غزو البرابرة ضعفت سلطة الأباطرة، وتنامى مفهوم سلطة البابا حتى زعموا أن سلطة البابا امتداد للسلطة الإلهية، وظلت العلاقة بين الإمبراطور والبابا سجالا حتى اعتلى منصب البابوية البابا غريغوريوس السابع (١٠٦٣-١٠٨٥م) فوطد سلطته العليا على الملوك والأباطرة، وكان باستطاعته إقالتهم إذا خرجوا عن طوعه كما فعل مع الإمبراطور هنري الرابع (١٠٦٥-١١٠٥م) إذ قام البابا بعقد مجمع في الفاتيكان فأصدر قرار حرمان الإمبراطور، وبذلك تم حرمانه دينيا وعزله وتحرير رعاياه من قسم التبعية الذي أقسموه له. وصلت السلطة البابوية أوجها في عصر البابا بونيفاسيوس الثامن ١٢٩٤-١٣٠٣م، الذي قال (إنه يجب وضع سلطة الملوك والجنود المادية في خدمة الكنيسة والانصياع لإشارة الكاهن). وبعد عصر البابا بونيفاسيوس الثامن مرّت البابوية بمراحل عصيبة. فمن عام ١٣٠٩ إلى ١٣٧٧م اضطر الباباوات إلى الإقامة في المنفى في أفينيون بفرنسا بعيداً عن روما، مما أدى إلى الانشقاق الغربي الكبير (١٣٧٨-١٤١٧) فشهدت الكنيسة تنافساً داخلياً بين الكرادلة حول منصب البابوية، ولم يحسم إلا في مجمع كونستانس عام ١٤١٧م. وخرجت البابوية من الأزمة ضعيفة معنوياً، فقام كثير من المفكرين ينقصون من سلطتها فتهيأ الجو للثورة. وفي عام ١٦٤٨م عقد جميع الأطراف صلحاً سُمي بصلح وستفالية Westphalia ثبتت بموجبه مساواة البروتستانت والكاثوليك في الحقوق.

ويرى المؤرخ دولينجر أن كل العقائد الهرطقية التي ظهرت في القرون الوسطى بصورة ضمنية كان لها طابع ثوري، ومن أشهر الهرطقات الثورية كانت هرطقة الفودية والذي وزع مؤسسها أملاكها على الفقراء، وكان

يقرأ المواعظ باللهجة العامية على عكس ما كان يعمل القساوسة، ودعا إلى رفض دفع العشور، واعتبار أن الناس جميعا متساوون. و كان هذا النمط يشبه إلى حد كبير النموذج الذي تبناه توماس مونزر في القرن الخامس عشر الميلادي، واعتبر أن المسيح نبي فقط ويجب إلغاء الطبقات، وإلغاء حقوق الأساقفة والإقطاعيين، وقد اعتبر هرطقيا كبيرا. وشهدت هذه الفترة حملات التنصير بالقوة وتمت معاقبة كل من يرتد إلى الوثنية أُعِدم الكثيرون ممن رفضوا التعميد القسري.

وقد يتساءل الإنسان عن الحق الديني الذي استند عليه الأساقفة والرهبان والباباوات في قتل المهرطق وعلى أي قاعدة نصوصية ؟ فالإنجيل كما ذكرنا سابقا يدعو في كثير من فقراته للتسامح وقبول الآخر. مع ذلك نستطيع تحديد ثلاثة مصادر ربما كانت هي الأداة القمعية التي استندوا عليها:

١ – مطالبة العهد القديم اليهودي بتفحص الآخر تفحصا دقيقا فإذا وجد ثلاثة شهود يشهدون عليه بعبادة آلهة أخرى يتم إخراجه من المدينة ورجمه بالحجارة حتى الموت.

٢– زعموا أن المسيح دعا أن يكونوا كالغصن في كرمته والذي لا ينبت فيه يطرح في الخارج كالغصن الجاف فيجمع ويطرح في النار حتى يحترق. (رغم الخلاف في فهم هذا النص).

٣ – كانت الحضارة اليونانية– التي ورثتها المسيحية– تقوم على التحالف بين الآلهة والدولة، لذلك كان كل من يرفض عبادة الآلهة أو يخالف المعتقدات السائدة كمن خالف الدولة – ويعاقب بالموت.

ويبدو أن هذا هو الأساس النظري الذي ارتكزت عليه محاكم التفتيش.

الهرطقة ومحاكم التفتيش:

استقر الأمر للكنيسة من المهرطقين وهرطقاتهم وخاصة الآريوسية والنسطورية بعد القرن الخامس الميلادي حيث تم ترسيخ العقيدة المسيحية باستعمال القوة وإرهاب المعارضين وحرقهم وحرمانهم، ولكن في القرنين الرابع عشر والخامس عشر تحولت الهرطقة إلى عملية إصلاح شامل للسلك الكهنوتي والكنيسة وللديكتاتورية المطلقة التي كانت تمارسها الكنيسة، حين كانت سلطة البابا الروحية ترتفع فوق سلطة الملك الزمنية، وكان الملوك والأمراء الذين يتعرضون لسلطة الكنيسة غالبا ما يتعرضون للحرمان أو الإذلال من قبل البابا، وفي المقابل عومل الهراطقة بقسوة غير مشهودة وكان ملك وملكة اسبانيا يحضران بصفة منتظمة إعدام المهرطقين بالحرق تعبيرا عن تضامن السلطتين.

وفي عام ١١٨٤م أوجب البابا لوسيوس الثالث من خلال الدستور الذي صاغه وأسماه دستور فيرونا، أوجب على كل المطارنة أن يقوموا باختيار أفراد مشهود لهم بالنزاهة والشرف الرفيع لكشف كل الهراطقة وأن يقسموا على ذلك، أي على أنهم سوف يكشفون كل من يشك في هرطقته، وكانت دواوين استئصال الهرطقة التي أسسها الإخوة الدومنيكان باعتبارهم حراس الرب (في زعمهم) وهي بداية محاكم التفتيش – سيئة السمعة، هي تؤكد على التعصب الديني والتطرف الأشد في الأصولية المسيحية. وقد نظم البابا غريغوريوس التاسع في عام ١٢٣١م محاكم التفتيش لتشمل كل العالم المسيحي وقام هذا البابا بإصدار عدة قرارات كان من أهمها تكليف الآباء الدومينكان عام ١٢٣٤م بالخوض في مسألة الإيمان ومكافحة الهرطقة، وأخذوا هذه المسألة على عاتقهم بكل قسوة وأشاعوها وسط الجمهور، فخرج الجمهور في بوفيه واقتحموا أبواب سجن المدينة وأحرقوا الهراطقة الذين

كانوا بالسجن، وكان اللاهوتيون أنفسهم يرون في مثل هذه الأعمال (الحماس العادل لشعب الرب)، مع وقوف عدد مقدر ضد هذه الأعمال البربرية بحق الهراطقة لاقتناعهم بأن الإيمان يتم بالإقناع وليس الاضطهاد، إلا أن مثل هذه الأعمال كانت تتسع كل يوم. وكان الملوك أشد قسوة لإيمانهم التام بأنهم يعملون وفق المشيئة الإلهية حين يعاملون الهراطقة بهذه الشدة، وقد كان الكاثاريون (الأطهار) هم أكثر الهراطقة تعرضا للحرق، وكذلك المانويون لأنهم يعتقدون بأن حرقهم يعطي هؤلاء الهراطقة الشعور الأول بنيران الجحيم، وبعد تصديق البابا غريغوريوس التاسع في١٢٣١م على محاكم التفتيش وحرق الزنادقة والهراطقة أصبح هذا الأمر مقدساً، لأن البابا كان معصوما في نظر المسيحيين. وكان قضاة محاكم التفتيش يلجؤون أحيانا للوشاة أو الجيران للحصول على المعلومات ليدينوا الشخص بأنه لايؤمن بالعقائد المسيحية كما يجب. وقد شملت بعض حالات المحاكمات والحرق بعض الذين ماتوا وحكموا بعد موتهم واتهموا بالهرطقة فَنُبِشَتْ القبور وأحرقوا وكانت عقوبة محاكم التفتيش تشمل:

- تقريع المذنب علنا ومطالبته بدفع فدية مالية.
- السجن مدى الحياة.
- الحرق حيا.

وأحرقت قرى طائفة الكاثاريين بعد اتهامهم بالهرطقة والزندقة حرقا شمل عدة قرى، وكفروهم جميعا وأعلنوا عليهم حربا صليبية تشبه تلك الحملات الصليبية التي تم توجيهها إلى الشرق الإسلامي، وهذا يشير إلى أن الحروب الصليبية كانت في بدايتها داخليا ثم انطلقت إلى الخارج.

ويورد بروفيسور أدوارد يورمان أن متعصب كاثوليكي يدعى روبير لوبوغز قام بتفتيش كل المدن والأرياف بجنوب فرنسا بين عام ١٢٥٠–١٢٥٧م

بحثا عن الزنادقة والكفار، وقام بحرق٢١ شخصا، وسجن حوالي ٢٤٠ شخصا مدى الحياة، وحكم على قرية كاملة بالمحرقة لاتهامها بإخفاء أحد الزنادقة الكبار، ويرى البروفيسور أدوارد أن أسوأ محاكم التفتيش كانت في أسبانيا الكاثوليكية المتعصبة في عام ١٤٨٠م على يد الملكة إيزابيلا وزوجها فرناندو الثاني، فقد استهدفت المحاكم في بداياتها معتنقي المسيحية الجدد من المسلمين و اليهود لمعرفة ما إذا كانوا قد اعتنقوا المسيحية خوفا أم إيمانا، وكان رئيس محاكم التفتيش هو الأصولي توماس نوركمادا وظل في هذا المنصب حتى عام ١٤٩٨م تم فيها حرق عشرة آلاف شخص بالنار في طليطلة وحدها، وأمر بذبح ستة آلاف، وتعذيب خمسة وستين ألفا في السجون حتى الموت، وكذلك شنق ١٢٣٠٠ شخص لاتهامهم بالزندقة أو الخروج عن الاستقامة المسيحية وهذا كله حدث في منطقة واحدة.

ولم تكتف محاكم التفتيش بقمع هذه المجموعات بل شملت المفكرين من كوبر نيكوس إلى جاليلو ثم ديكارت وظل الفلاسفة عرضة لها في أسبانيا والبرتغال حتى القرن التاسع عشر.

كان مجمع لاتيران الثاني في عام ١١٣٩م أول من بلور تشريعات بابوية ضد الزندقة وكان تصنيفها ضد فئة الألبيين والتي اعتبرت خارجة على الإجماع المسيحي وأنها فئة مهرطقة ونشبت عليها حربٌ سميت أيضا حربا صليبية.اتسمت حرب الاكليروس عليهم بالعنف الشديد والوحشية منقطعة النظير، ولذا كلف البابا – وكيل المسيح المحب – بالأمر بهذا، لدرجة أن الباقي من الشعب هرب إلى الجبال وإلى البلاد المجاورة دون معونة أو زاد، والمحاربون خلفهم يعملون بالسلب والنهب، وعندما وقعت في أيديهم معاقل الألبيين لم يرحموا امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً، وإنما أعملوا فيهم الإحراق والقتل والتنكيل، فدمروا المدن وأحرقوا البيوت. وسميت الحرب ضد الألبيين والكاثاريين جميعها حروبا صليبية.

وقد سار البابا والملك على هذا المنوال في الاتفاق وكانت هناك قوانين تسمى قوانين مؤسسة الملك القديس لويس وتنص على أنه يجب على السلطة الزمنية أن تساعد الكنيسة المقدسة. ففي حالات الهرطقة عندما تحكم الكنيسة على أحدهم بأنه مهرطق عليها أن تتركه للعدالة الزمنية لأنه لا ينبغي للعدالة الروحية تنفيذ حكم الإعدام بأحد من الناس. كان المحقق في محاكم التفتيش يصدر مرسوم إيمان، يكون بموجب هذا المرسوم على المؤمن أن يقوم بالإبلاغ عن أي مهرطق ويعطى مهلة بين ١٥ إلى ٣٠ يوما للمهرطق للرجوع عن هرطقته وإذا رفض يتم إصدار الحكم من خلال جمعية تسمى الموعظة العامة. أما إذا أعلن المهرطق توبته فيتوجب عليه تنفيذ بعض الصلوات والصيام والهبات والحج إلى روما ويقوم الكهنة بجلده، وأن يحمل لمدة من الزمن صليبا أحمر أو أصفر مما يعرضه للشتائم من العامة.

وقد شمل مصطلح استئصال الهرطقة في ذلك الوقت عدة مجموعات:

١ – كان أهمها تلك التي تنادي برؤى مخالفة للعقيدة الرسمية للكنيسة والتي تجعلها تحافظ على سلطتها.

٢ – الوثنيون والمسلمون في الأندلس تم تعميدهم قسرا وتنصيرهم بالقوة بمرسوم ملكي.

٣ – الفلاسفة – ولكن اضطهاد الفلاسفة بدأ في القرن الخامس الميلادي حين أصدر الإمبراطور قسطنطين أمراً بحرق كتب بعض الفلاسفة، من بينهم الفيلسوف فرقوريوس، لأن ما كتبه يغضب الرب ويؤذي نفوس المؤمنين مما جعل كلمة الفلسفة مرادفة لكلمة الكفر، كما كانت كلمة يوناني تعني وثنياً، وتم إغلاق مدرسة الفلاسفة بمدينة أثينا في القرن الخامس عشر حسب ما أورده طرابيش ومطاردة أساتذة الجامعات وقتل بعضهم.

الهرطقة والإصلاح الديني:

كل هذه العوامل الدينية والسياسية مهدت لولادة حركة الإصلاح الديني في نهاية العصور الوسطى والتي دعت إلي بناء كنائس مستقلة عن الكنيسة الكاثوليكية في روما والانفصال عن إمبراطورية العصور الوسطي. وقد أججت حركة الإصلاح الديني نار الحروب في أوروبا، ولكن في النهاية نتج عن ذلك الإصلاح حركات دينية تعترف بحرية العبادة وبحق الفرد في تفسير الكتاب المقدس وفي الوقت نفسه أدى كل ذلك لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية نفسها.

إن من أكثر النماذج قوة في الانشقاق والخروج عن الكنيسة الكاثوليكية المهرطق جون ويكلف (١٣٣٠–١٣٨٤) فقد تمكن من التبشير بهرطقته علنا وأدت آراؤه الهرطقية إلى نشوء حركتين هرطقيتين [٤] هي جماعة اللولارديين وأتباع هوس ، وكان اعتراض ويكلف الرئيس على تمتع البابوات في الكنيسة الكاثوليكية بالثراء العريض، وقد انتقد البابا في ثماني عشرة فقرة فأدانه البابا رسمياً، وأصر ويكلف على ضرورة أن يقوم الملك بإجراء الإصلاحات في الكنيسة.وقد هاجم بشدة سلطة الكنيسة ورفضها خلافا للمهرطقين الآخرين الذين كانوا يكتفون بانتقاد الكنيسة. ومن الأسباب الهامة التي اتهم ويكلف بسببها بالهرطقة عدم أحقية الكنيسة في ممارسة أي سلطان على الناس؛ لأن كنيسة الله الأصلية ليست هي التي يرأسها البابا، ولكن من يقع اختيار الله عليهم، وعليه يحق لهؤلاء الأفراد أداء طقوس التناول بدلا عن الكهنة ، ودعا ويكلف إلى الإيمان القائم على الإخلاص الذكي لا على الممارسات الشكلية. قام ويكلف بترجمة الإنجيل [٤] إلى اللغة الانجليزية ليفهمه عامة الناس بعد أن كان فهمه قاصراً على الرهبان وكان ويكلف يرمي إلى جعل المعرفة بالإنجيل ملكا لكل فرد وأن كل فرد

يمكنه أن يتصل مباشرة مع الله من دون وساطة الكهنة، ولهذا تمت ترجمة الكتاب المقدس.وهذه الترجمة للكتاب المقدس ساعدت الكثير من العوام على الانضمام لحركة اللولارديين التي كان هدفها الأول التركيز على مفاسد الكنيسة الكاثوليكية وسلب حق طرد المسيحيين الذي يتمتع به البابا؛ لأن هذا الحق هو ملك لله وحده والذي يحدث بعد البعث مما أثار رئيس الأساقفة فطالب بإصدار إدانة شاملة لتعاليم ويكلف وقمع حركة اللولارديين واتهامها بالهرطقة، وأمر رئيس الأساقفة بحرمان عدد من قادة الحركة ومصادرة كتبهم التي مصدرها ويكلف وأمر رئيس الأساقفة بإجراء تحقيق في جامعة أكسفورد وتطهيرها من الفكر الهرطقي الذي تبناه ويكلف ، والجدير بالذكر أن جامعة اكسفورد كانت تخضع لرئيس أساقفة كنتربري ، وفي عام ١٣٩٥م تم استثناؤها من هذه السلطة لكن سرعان ما رفض الملك ذلك وأعادهم إلى سلطة الكنيسة. ومع المساعدة الأكاديمية التي نالها من جامعة أكسفورد في البداية إلا أنها سرعان ما أدانته بسبب قوله بعدم تحول الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه بواسطة حلول روح القدس/ وهددوه بالطرد والحرمان، وقام أسقف كنتربري بمنعهم من الدعوة والتنصير وتم إحراق بعض مؤلفاته بواسطة بابا روما وبعد قرابة خمسة وعشرين عاما أعلنت الكنيسة الكاثوليكية أن جون ويكلف مهرطق من الدرجة الأولى. وفي عام ١٤٢٨م أمر مجمع آخر بإخراج جثته من القبر وإلقائها بعد حرقها في إحدى الترع المائية.

ونشأت في تلك الفترة فكرة الوعظ دون إذن وكان في تلك العظات يتم تدريس تعاليم ويكلف وقراءة مؤلفاته، ولكن الكنيسة تصدت لهؤلاء ومنعتهم كما منعت أيضا ترجمة الإنجيل دون إذن منها، والأسوأ من ذلك الأوامر التي أمر بها أحد الأساقفة والتي ترى ضرورة إجراء اختبارات شهرية

في الجامعة تشمل جميع الكليات وعمداءها والطلاب بقاعات الدرس بهدف الاكتشاف المبكر لظاهرة الهرطقة ، وكونت لجنة من اثني عشر عضوا لفحص مؤلفات ويكلف وتم فحصها وإرسال تقرير إلى رئيس الأساقفة وأشار التقرير إلى وجود أكثر من مائتي فكرة هرطقية، وأرسل هذا التقرير إلى البابا الذي أصدر قراراً بحظر كتابات ويكلف ، ويعتقد بعض الباحثين أن مؤلفات ويكلف تعرضت للحرق في أكسفورد.

ولكن كل هذا التعنت والكبت الفكري لم يمنع ظهور مهرطقين آخرين فجاء بيريف ثم تلاه ويليام تنويل الذي التحق بمارتن لوثر في ألمانيا ، وقد اتهم تنويل بالخيانة وقام الملك هنري الثامن بسجنه في القلعة التي أحرقت في ١٥٣٦م.ولكن جهود وكلف وتنويل قادت إلى الإصلاح الديني في انجلترا وصار الإنجيل متاحا باللغة الانجليزية وعلى اعتبار أن الجميع يقف أمام الرب دون الحاجة إلى رجال دين. ولكن عند اعتلاء الملكة ماري عرش إنجلترا والتي كانت كاثوليكية متعصبة قامت باعتقال الكثير وإحراق حوالي ثلاثمائة ممن أسمتهم بالهراطقة وقادتهم، فكان إعدام وليم سوتري حرقا ١٤٠١م لأنه عارض عبادة الصليب وكان هو من ضمن الذين علقوا ورقة في كنيسة القديس بولس تتضمن عشرة نقاط من أهمها الإشارة إلى ثروات رجال الكنيسة الهائلة، وعلى إنكار أن الخبز والخمر هما جسد ودم المسيح ، وإنكار عبادة الصور والتماثيل وعدم أهمية الاعتراف الشفوي وتضمنت مناشدة للملك بإصلاح الكنيسة، وضاعف هذا من الهجمة على اللولاردية وكان إعدام الأكاديمي وليم تيلر حرقا.[٤]

نلاحظ هنا أن ويكلف وحركته اللولاردية لم تكن في الأساس هرطقة أو كفرا، إنما تم استغلال هذه الكلمات من جانب الكنيسة إذ إن الحركة هدفت في الأساس إلى إصلاح ما بقي من الكنيسة والحفاظ عليها من الفساد

الروحي. ولم يرق لرجال الكنيسة هذا العمل الذي كان يجردهم من ثرواتهم وسلطانهم، فكانت مطالبتهم المتكررة للملوك بمعاقبة الهراطقة إلى أن استجاب لهم الملك هنري الرابع في حوالي ١٤٠١م، وسنّ قانونا للهرطقة يعاقب كل مهرطق أو حتى من يحتفظ بكتابات مهرطق أو من يرفض نبذ الهرطقة وتقوم الكنيسة بتسليم الهراطقة إلى السلطة التنفيذية ليتم حرقهم، وبذلك تبدل الحال وصارت الدولة هي التي تقوم باضطهاد الهراطقة وإحراقهم.

كانت المبادئ التي اعتمدها مارتن لوثر لإصلاح الكنيسة تتضمن إلغاء غفران القسيس للذنوب والذي يترتب عليه إلغاء صكوك الغفران لتكسب الكنيسة من الشعب ثم إنه طالب أيضا بإلغاء القداس الإلهي وغفران القسيس لذنوب الموتى واتفق مع ويكلف في إلغاء تحويل القسيس للخبز والخمر إلى دم وجسد المسيح، ثم إنه طالب بزواج الكهنة والقسس من أجل إيقاف الدعارة التي كانت تنتشر في الأديرة والكنائس. وهاجم لوثر مذهب الكنيسة المتبع فأصدر البابا لاون العاشر مرسوما بهرطقة لوثر ويحتوي على ٤١ قضية ثم انعقد مجمع فورمس في عام ١٥٢١م ونتيجة لذلك أحرقت كتبه ونفي. ولكن في عام ١٥٣٠م آتت حركت لوثر أكلها واعترفت بها بعض الكنائس الألمانية والإنجليزية.

وكان لوثر يعتبر أن البابا هو المسيح الدجال وأن واجبه هو الإطاحة به وأن الكنيسة أصبحت بيت دعارة، وقاد كل هذا إلى حرب الثلاثين عاما بين الكاثوليك والبروتستانت ١٦١٨–١٦٤٨م إلى أن تم صلح وستفاليا حيث اعترفت الكنيسة الكاثوليكية بالبروتستانت ونفت عنهم تهمة الهرطقة وساوتهم في الحقوق مع الكاثوليك.

لقد رفضت حركات البروتستانت البابوية والأسقفية بمعناها التقليدي وحاربت كل المفاسد التي كانت ترى البابوية ترزح تحتها ولكن الانجليز

(البروتستانت) حافظوا على الترتيب الأسقفي ولكنهم رفضوا هيمنة البابا على جميع الكنائس، مثلهم مثل الآرثوذوكس الذين آمنوا بانحراف البابا عن الإيمان العقدي السائد في الإنجيل.

بعد ذلك أحست الكنيسة الكاثوليكية بضرورة الإصلاح وأخذ انتقادات البروتستانت بجدية فنظمت الكنيسة الكاثوليكية في مجمع ترانت (١٥٣٥–١٥٦٣) ووُجدت بعض الإدارات لمساعدة البابا والتقليل من سلطة البابا المطلقة.[٣]

من هنا يتضح لنا أن تاريخ نشأة المسيحية وتوطيد سلطتها كان عملا عنيفا ودمويا وذلك لعدة أسباب نلخصها في الآتي:

١- التركيبة الدينية لرجال الكنيسة من حيث احتكارهم للمعرفة فقط.

٢- المواجهة الحادة التي واجهتها المسيحية من اليهود المتزمتين والوثنيين والفلاسفة الإغريق والمنطق اليوناني.

٣- رفض قبول الآخرين – لزعمهم أن سيدنا عيسى عليه السلام هو المخلص وهو الذي بيده خلاص الكون وعليه لا أحد قادر على حل مشكلة الإنسان دون الإيمان به.

٤- الرغبة الجامحة للبابا وكبار الأساقفة بالسلطة والثروة والصراع حول كرسي البابوية.

كل هذه العوامل أدت بالكنيسة إلى إرهاب وقمع خصومها واتهامهم بالهرطقة وحرقهم وذبحهم وأدت إلى نشوء حركة حراس الرب التي قادت إلى محاكم التفتيش وقادت أيضا إلى الحروب الصليبية في داخل المسيحية وفي خارجها.

الإصلاح الديني وأثره:

آثاره على الكنيسة الكاثوليكية:

بعد عملية الانشقاق الكبير داخل البيت المسيحي وبروز التيار البروتستانتي عبر كفاح طويل ومعاناة قاسية من قتل وحرق – عذب فيها الكثير لاتهامهم بالهرطقة – بعد هذا الانقسام كان لابد للكنيسة الكاثوليكية – الجامعة – أن تفكر في رؤيتها للهرطقة والمهرطقين ومحاولة إصلاح داخلية، وعليه كان نجاح هؤلاء المنشقين (المهرطقين في نظر الكنيسة الكاثوليكية) كان درسا قاسيا للكنيسة الكاثوليكية الرومانية، فقد قامت الكنيسة الرومانية بتحسين ممارسات كبار الأساقفة وبدأ المخلصون للحبر الأعظم في التوحد معا والالتفاف حوله مما أعطى الكنيسة الكاثوليكية المزيد من الوحدة وعالجت الكنيسة الكاثوليكية الهرطقات التي تلت الإصلاح الديني بكثير من الحكمة والصبر، وكانت من أهم تلك الهرطقات أو الانشقاقات:

- البدعة الصوفية.
- البدعة الاشراقية.
- البدعة الجانستية.
- البدعة التجديدية.

فالبدعة الصوفية تدعو إلى التحرر من سلطة الكنيسة والاندفاع المباشر نحو السماء مما قد يتيح رؤية معاكسة للعقيدة المسيحية ولكنهم مع ذلك لم يتعرضوا للإزعاج من الكنيسة في ما عدا الناسك الألماني بان تولر والمعلم يوهانس إيكارت مع تلقيه تعليماً كهنوتياً متميزاً إلا أنه اتهم بالهرطقة وأدين إلا أن الأمر بهرطقته وإدانته لم يصدر إلا بعد وفاته بعامين وذلك لقوله بوحدة الوجود.

ابتدع وايشويت بدعة الاشراقيين وسُجِنَ العديد من مؤسسي الحركة الإشراقية في ألمانيا على أنها بدعة وهرطقة. وكانت بدع أو هرطقات مولنيونس الذي نادى بالعيش في استسلام كامل للمشيئة الإلهية دون بذل جهد للقيام بأعمال الفضيلة أو الرزيلة، ودعا إلى تجاهل كل الوسائط الكهنوتية والطقوس الكنسية، وتمَ سجنه وعُذب إلى أن أنكر بعض آرائه إلا أنه لم يخرج من السجن إلى أن توفي فيه. وأيضا عُذب وسجن ماري بوفيه وزوجها غويون لنشرهما أفكاراً أثارت هلع الكنيسة، وقد دعيت البدع الجانستية كلها على أنها هرطقة وأدان البابا اينوسان العاشر كل ما قالته الجانسيتية على أنه هرطقة، واتخذ لويس الرابع عشر موقفا واضحا منها وأصدر أمرا بمنع جميع الأساقفة من تأييد عقيدة الجانستيين المدانة سواء بالمواعظ أو الكتابة عنها.

التجديدية:

إن التطورات المتتالية التي حدثت عند المهرطقين تمحورت في العصر الوسيط لروح نقدية تسببت في توسيع الفكر الديني، وكانت كلها مشبعة بالدين والرؤى الدينية، وتولدت عنها الكنيسة البروتستانتية التي – كما رأينا – لم تكن في بدايتها أقل تسلطاً من تلك التي سبقتها، ولكن بحلول القرن الثامن عشر كان هناك استغلال تام للتسامح الديني الذي نشأ بعد تلك الحركات النقدية، غير أن الاستغلال للتسامح اتخذ في بدايته طابعا ثقافيا دينيا عندما هاجم كل من فولتير و ديكارت وسبينوزا وديدرو وجان جاك روسو ومؤرخو بابل هاجموا المسيحية في حد ذاتها ، ومع أن فولتير تلقى تعليمه في الكنيسة اليسوعية إلا أنه هاجم المسيحية بشدة وخاصة سلطة البابا والإقطاع ورفض الاعتراف بسلطة الكنيسة وأدانته الكنيسة واتهمته بالإلحاد وإنكار الأعراف والتقاليد المسيحية، ونادى بأن يكون محور الدين الشفقة

والرحمة، وقد دافع بشدة عن التسامح الموجود في الدين الإسلامي، وبشريعة سيدنا محمد ﷺ. وتطور هذا النقد ليصبح نقدا علميا في القرن التاسع عشر، وشكل النقد العلمي تهديدا قويا للكنيسة فاق ذلك الذي أحدثته الهرطقة والمهرطقون مما اضطر البابا بيوس التاسع ١٨٦٤م. إلى إصدار فتوى تكفر الحرية وحرية الوعي والاعتقاد الديني فأدان بشدة فصل الدولة عن الكنيسة واعتبرها خروجا عن الأصول المسيحية، ووقف معه المسيحيون المتزمتون واتخذ البابا مواقف شديدة الانغلاق حيال أي تجديد. ولكن الأصوات لم تخفت حتى داخل الكنيسة نفسها إذ بدأ أن هنالك نقدا لشروحات العهد القديم وأصدر البابا ليون الثالث عشر رسالة بابوية يؤكد فيها أهمية ما توصل إليه مجمع ترانت من صيانة للنصوص المقدسة.

لائحة الأفكار المحظورة:

أرسل البابا بيا التاسع رسالة بابوية تضمنت ثمانين فكرة اعتبرها البابا خطيئة وضلالاً وعنونت الرسالة باسم كوانتا كورا– وأدى نشر هذه الرسالة إلى نقد لاذع لسلطة الكنسية الكاثوليكية ولسلطة البابا نفسه، هذا من جانب ومن جانب آخر شجعت هذه الرسالة الحركات الدينية المستنيرة وأعطتها وقودا جديدا وكان أشهر من انتقدها الكاتب جوزيف لوكير في العام ١٩٦٤م في كلية الدراسات المسيحية حيث أورد (لم يكن لأي وثيقة بابوية صدى مثل الذي كان للسيلابوس "اللائحة". فهذه المدونة للثمانين مقترحاً صدرت ملحقاً للرسالة الدائرية البابوية كوانتا كورا (بأي قدر) من طرف البابا بيا التاسع بتاريخ ٨ ديسمبر ١٨٦٤م، وبعد صدوره مباشراً أثار هذا السيلابوس في العالم بأسره، وفي كافة الأوساط – حتى الأوساط غير المؤمنة منها – ردود فعل قوية، وانتقادات رائعة، مازال صداها ممتدا إلى اليوم. فهذا اللفظ اللاتيني البسيط الذي يعني "فهرست" قد أضحى له الوقع السحري،

ومازال إلى اليوم يغذي فكر وفلسفة نقد السلطة الكنسية بين الناس حتى المسيحيين أنفسهم.

وقام البابا بيوس العاشر بتحريم مؤلفات الكاتب لوازي وطلب من مكتب القديسين الذي هو في الأصل تغيير لاسم محكمة التفتيش –الذي مازال موجودا– طلب منه مراجعة كتب لوازي في ١٩٠٧م فقام المكتب بإدانة ٦٥ بندا فيها، وفي الرسالة البابوية pascendi تمت الإشارة إلى التجديدية بأنها ملتقى كل الهرطقات وتقود إلى القضاء على كل دين، وتم إلقاء الجرم الأكبر على الكاتب لوازي واتهامه بالتجديدية. ودافع بعض الكهنة الذين كانوا يصفون أنفسهم بالكاثوليك التامين عن مناهضة التجديدية بحماس ولكن تم منع منشوراتهم في زمن البابا بيوس العاشر وبلانو الخامس عشر وأدان البابا غريغوريوس السادس العشر كتاب أصول العقيدة المسيحية–الكاثوليكية الذي صدر في ١٨٣٤م عن رجل الدين جورج هرمس وتمت إدانته بعد وفاته وأصدر البابا منشورا أكد فيه أن هورمس قد ضل السبيل.

في عام ١٩١٩م طالب اتحاد الاكليرووس الكاثوليكي في تشيكوسلوفاكيا من الفاتيكان بالسماح لهم بالاحتفال باللغة التشيكية في القداس وبإلغاء عزوبية الرهبان وخلق بطريركية مستقلة ولكن روما اعتبرت كل هذه هرطقة وتتعارض مع نص الرسالة البابوية pasendi بخصوص التجديدية.

وكان لاتفاقية لاتران في عام ١٩٢٩م أثرها في تسوية الخلاف بين البابا و الحكومة الإيطالية التي كانت قد استولت عليها إيطالية، وتم في هذه الاتفاقية تخصيص منطقة الفاتيكان مقرا للبابوية. وتراجعت سلطة البابا الزمنية إلا أن هذا التراجع ساعد في تقوية سلطته الروحية وأصبح صاحب سلطه عليا في الكنيسة. ولكن في بداية التسعينات بدأت حركة للتصالح

الديني وكان مجمع الفاتيكان ١٩٦٢–١٩٦٤م الذي دعا إلى توحيد المسيحية في كل أنحاء العالم ، وأنشئ مجلس الكنائس العالمي ومجلس كنائس الشرق الأوسط لتحقيق هذا الهدف. وبعد ذلك قللت الكنيسة الكاثوليكية من استعمال كلمة مهرطق أو هرطقة، وانفتحت على كل التطورات السياسية والفكرية والاجتماعية التي سادت القرن التاسع عشر، وقامت الكاثوليكية بالحوار مع الطوائف المسيحية الأخرى وكذلك مع الأديان الأخرى التي كانت إلى وقت قريب تعتبرها هرطقات يستحق أصحابها الحرق، وبدأ الحديث عن التسامح والتآخي بين المسيحيين وبقية الأديان خاصة في عهد البابا يوحنا بولس الثاني ١٩٧٨– ٢٠٠٩م الذي أعاد قبل سنوات فقط النظر بالنتائج التي توصّل إليها في محاكمة جاليليو وطلب من اليهود «الغفران» لما لاقوه من اضطهاد خلال قرون من الزمن.

البروتستانت ومحاربة المنشقين:

مع المعاملة القاسية التي واجهها المصلحون الأوائل الذين أسسوا المذهب البروتستانتي من قبل الكنيسة الكاثوليكية واتهام الكنيسة لهم بالهرطقة إلا أن الكنيسة البروتستانتية لم تسلم من البدع والهراطقة الذين انشقوا عنها. ففي أسبانيا لم تجد البروتستانتية مجالا لأن طرد كل عنصر دخيل على الكاثوليكية كان عنيفا للغاية وقضت عليهم محاكم التفتيش مع غيرهم، وفي فرنسا مع الاضطهادات صمدت البروتستانتية، ولكن هل كان يمكن للبروتستانت أن يعطوا مسألة الرأي الفردي الحرية.

قد قاد تومس مونزر المولود في عام ١٤٩٨م والذي كان أستاذا في علم اللاهوت قاد ثورة الفلاحين التي كانت اجتماعية، إلا أن بعض مطالبها دينية إذ طالبت بانتخاب أسقف الرعية وعزله وطالبت بتعديل الطقوس الدينية وسلطة الأساقفة سواء الكاثوليكية والبروتستانتية. مع أن دعوة لوثر كانت

ضد البابوات والأساقفة والكرادلة ذوي الثروات العالية إلا أنه وقف معارضاً لثورة الفلاحين وأمر بقتلهم وشبههم بالشياطين مع رفضه التام إعدام الهراطقة إلا أنه لم يمانع من إعدام حركة مجددي العماد الذين رفضوا طقوس الكنائس وسلطتها العقدية، واتهموا بالهرطقة من قبل البروتستانت والكاثوليك وحاول يوحنا اللايدني التبشير بمجتمع تسود فيه المساواة الإنجيلية، ومعه سافونا رولا ولكن تمتقضى عليهم لاعتبارهم هراطقة ، وأمر كالفن الذي كان إصلاحيا متميزا ومتسامحا أمر بحرق ميشال سيرفيه حيا لإنكاره مبدأ الثالوث الإيماني وأثار ذلك أيضا الأوساط البروتستانتية فأيدوا الحكم بإحراقه حيا. أما نيكولا انطوان الذي كان كاهنا فقد جرت إدانته من القساوسة وأساتذة اللاهوت البروتستانت بالهرطقة وإحراقه حيا[٤]. ولكن بعد ذلك توقفت هذه الممارسات في الكنيسة البروتستانتية وكان العقاب ينال بعض القسس الذين يتهمون بالانحراف العقدي.

بعد انشقاق الكنيسة الإنجليزية في زمن الملك هنري الثامن جمع أسقف كنتربري توقيعات رجال الأكليروس على بيان يؤكد أنه لا يوجد في الكتاب المقدس ما يفيد أن الحبر الأعظم تلقى من الرب سلطانا أكثر من الذي يتلقاه أي أسقف آخر، ولكن مع ذلك كتب الملك هنري بحثاً ضد اللوثرية إلا أنه أمر بحرق هراطقة كاثوليك وهراطقة بروتستانت بنفس الدرجة. وأول انقسام مهم أصاب الكنيسة الإنجيلية هو الكالفنية أو البرسبيتاريين وتعرضوا لاضطهاد شديد اضطرهم إلى الهجرة إلى أمريكا. لكنهم حصلوا على حق العبادة عام ١٦٨٩م، وتم أيضا اضطهاد جماعة الابرشانيين في انجلترا فاضطرهم ذلك للهجرة إلى أمريكا حيث أسهموا في صنع البروتستانتية الأمريكية ولكن مع الإصلاح الديني في انجلترا بقي الاكليروس غير متسامح.

ومن أشهر الجماعات الهرطقية بعد ذلك كانت جماعة الكويكرز التي أسسها فوكس عام ١٦٥٠م وأودع السجن بسبب قوله إن قيامة المسيح هي قيامة روحية فقط، وقد حكم عليه البرلمان بالتعذيب وثقب لسانه بالحديد المحمَى ونقش حرف B على جبينه بالنار، ثم بعد ذلك اقتيد على حصان وهو مقلوب الرأس وطافوا به من لندن إلى السجن حيث توفي بعد عام. واضطُهد الكويكرز وعذبوا حتى عام ١٦٨٩م حيث صدر قرار العفو ومساواتهم دينيا ومدنيا. وانتقل بعضهم للعيش في ولاية بنسلفانيا في أمريكا.

ثم كانت جماعة الموحدين في انجلترا الذين كانوا ينكرون الثالوث، وأدانتهم الكنيسة بقسوة وأصدر البرلمان قرارا بإعدام الموحدين فهاجروا بعد ذلك إلى بوسطن.

أمريكا والهرطقة:

كان الرواد الأوائل الذين وصلوا إلى أمريكا عام ١٦٢٠م من طائفة الابرشانيين أوالبرسبيتاريين وبعض الطوائف الأخرى التي هربت من الاضطهاد الديني، وذلك لتأسيس قاعدة دينية جديدة في المستعمرات الانجليزية، ولكن ما لبثت تلك الرؤى الإصلاحية التي آمن بها المهاجرون وهاجروا بسببها هربا من الاضطهاد أن واجهت واقع الحياة والثقافة الجديدة، حيث وصلت الطوائف المسيحية إلى ١٤٣ طائفة في عام ١٩٣٦م يتوزع عليها البروتستانت الأمريكيون. وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وصل إلى أمريكا مجموعة كبيرة من الجماعات الدينية التي تم اضطهادها في أوربا، فقد هاجر من إنجلترا في البداية ابرشانينون أو برسبتاريون أو رسوليون أو مثيوديون أو كويكرز، ومن ألمانيا وهولندا لوثريون أو معمادانيون، وهكذا، وظلت كل هذه الجماعات كجماعة مبتدعة في أقلية صغيرة بدأت تكسب أتباعا لها من الأمريكيين، ولكن نشأت بعد ذلك في أمريكا ثلاث بدع رئيسية شملت المورمونيين

والسبتيين والعلمويين.

فقد كانت جماعة المورمونيين تؤمن بأن قبائل إسرائيل العشر الضائعة سوف تتجمع في أمريكا الشمالية، ويدعى مؤسس هذه الجماعة الهرطقية جوزيف سميت، وقد جمع في عام ١٨٣٤م عددا كبيرا حول هذه الهرطقة وسموا أنفسهم قديسي الأيام الأخيرة، وقد قوبلوا بالرفض من بقية المستوطنين مما حدا بهم إلى النزوح إلى ولاية الينوي، وهناك نادى سمث بتعدد الزوجات واعتقلته السلطات، إلا أن الجماهير الفاضلة اتهمته بالهرطقة وهاجمت السجن وقتلته هو وشقيقه، وتولى أمر الجماعة بعدهما بريغام يانغ الذي قام بنقل بدعته إلى منطقة سلت ليك سيتي وأسس شبه دولة دينية تم القضاء عليها في ١٨٥٨م، وهم يرون أن الوحي مستمر ويؤمنون بالعماد الذي يمكن تكراره لغسل الخطيئة ويؤمنون بتعدد الزوجات للأغنياء وقد ضيقت عليهم السلطات في مسألة تعدد الزوجات.

ثم كانت بدعة السبتيين Adventist التي كانت تؤمن بعودة المسيح في أكتوبر من عام ١٨٤٤م وعندما لم يأت المسيح لم تخمد البدعة إلا أنها أصيبت بخيبة أمل ولم يتعرضوا لأي اضطهاد.

وأسست ماري بايكر ايدي في عام ١٨٢١م بدعة سميت العلم المسيحي، وادعت أنها تستطيع شفاء المرضى، وأصدرت كتاب العلم والصحة الذي يعتبره العلميون الشرح المعتمد للكتاب المقدس، ونمت حركتها وازدهرت إلا أنها اعتبرت مهرطقة؛ لأن من يريد الانضمام إليها عليه أن يترك عقيدته القديمة وأن يوافق على رسالة جديدة مستمدة من الإنجيل، وانتشرت هذه البدعة في أمريكا كما انتشرت في أوروبا أيضا.

وفي الستينات من القرن العشرين نذر الدكتور مون جزءا من حياته لتوحيد المسيحية العالمية، وقام بإنشاء جمعية روح القدس لتوحيد المسيحية

العالميـة، وكانـت الـرؤى الـتي تبناهـا تؤكـد أن المـسيح لم يـأت ليمـوت في الـصليب وأن الخـلاص الـذي تحقـق لم يكـن خلاصـا كـاملا وعليـه دعـا قـادة الكنـائس إلى إنـزال الـصليب مـن علـى كنائـسهم باعتبـار أن الـصليب لـيس علامة نصر وأن الخلاص الحقيقي يأتي بالعمل الجاد لتحرير النفس من سلطة الـشر. قاومـت الكنـائس جميعهـا تعـاليم الـدكتور مـون وكالـت لـه الاتهامـات وتم إيداعه السجن عدة مرات.

خلاصـــة

لقد نزل على سيدنا عيسى عليه السلام الإنجيل متضمناً لأسس من التسامح والمحبة والرحمة والرضا المتبادل لدرجة أن اليهود اتهموه بأنه جاء لنقض قوانين موسى، فقال لهم إنه جاء ليكمل هذه القوانين، واتهموه بناء على ذلك بالهرطقة. وحاول أتباعه تلمس الطريق نفسه والدعوة إلى التسامح والمحبة، ومع النجاح الذي حققوه في البداية سرعان ما تصدع كل هذا البنيان النظري وبدأت المسيحية في اضطهاد وإذلال لكل منكر لها، ولكل من يريد تقويم اعوجاجها واتهمته بالهرطقة، وذلك في الغالب يتم بالتحالف مع السلطة الزمنية. إن انعدام التسامح وسط المسيحية يقوم على أسس وركائز أساسية منها:

- الاعتماد التام على انتظار عودة المسيح التي وعد بها في زعمهم، وخاب أملهم في ذلك.
- الكبرياء والرغبة والسيطرة والغرور لدي رؤساء الكنيسة أو الجماعة مقارنة بما لدى المؤمنين المسيحيين البسطاء.
- استخدام الإكراه والعنف والقسوة أمر غير مستهجن للغاية لمن يظن أنه يعرف الحقيقة وحده، وأن أي رأي آخر هو الخطأ والضلال.

ويقدم لنا هذا السرد التاريخي دحضاً لمقولة التسامح والمحبة التي يقال إن المسيحية انتشرت بها، ويؤكد مبدأ العنف والإكراه الذي لازم تاريخ المسيحية منذ اعتراف الإمبراطور قسطنطين الكبير بها، إلى القرن التاسع عشر، حين أجبرت حركات حقوق الإنسان والمساواة – الأصولية المسيحية على التراجع و السماح للرأي الآخر.

إن البحث المحموم عن الحقيقة كان في غالبيته السمة الغالبة لكل ما ادعت الكنيسة أنه هرطقة، وهذا البحث قد يضل الطريق أحيانا ولكنه

يبقى في إطار أخلاقي بحثي توجب معاملته بالحكمة لأنه متجرد من المصلحة، ولكن بالنسبة لرجال الكنيسة كان هذا البحث عن الحقيقة يشكل خطرا داهما على سلطتهم الروحية التي تلاقحت مع السلطة الزمنية.

إن هرطقات القرون الوسطى التي تم قمعها بقسوة متناهية نتج عنها مع كل شيء حرية الرأي واحترام النزعة الفردية. لقد كانت ديكتاتورية الكنيسة والسلطة أمام خيارين: إما السلطة وإما الحرية، أو بمعنى آخر الالتزام بسلوك طريق مرسوم سلفا أو إمكانية اختيار المرء طريقة، وكان رأي السلطة الروحية التي نشأت في ذلك الوقت أن الاختيار على مستوى العقيدة هو التعرض لخطر السقوط في الهرطقة وعليه تقوم الكنيسة بتلك المهمة. واعتمد الهراطقة جميعهم على الإنجيل في إثبات ما يدعونه، وكان أكثر شيء تم الجدل فيه ومحاولة إثباته من الإنجيل نفسه هو شخصية سيدنا عيسى عليه السلام، هل هو إنسان أكثر مما هو إله أو إله أكثر مما هو إنسان، وأريقت الدماء بل ملاين الدماء في هذا السبيل.وكلما ظهرت جماعة هرطقية كانت تعقد المجامع ويتم إرسال الرسائل البابوية والإدانات البابوية ويتلو ذلك أداة التعذيب البابوية (المفتشون) والمحارق التي تشوي الهراطقة، ومع ذلك تعود القضية التي وصفت بأنها هرطقة تعود إلى الظهور مرة أخرى، ونجد هنا غياباً تاماً للشعب المسيحي في التكفير أو اتخاذ القرار فقد كان اللاهوتيون – الرسميون منهم أو المنشقون – هم الذين يتولون هذا الأمر.

وتأتي قضية أخرى تالية لقضية السلطة أو الحرية وهي قضية الوحدة والتنوع ، هل يمكن لجميع المسيحيين أن يوحدهم إيمان واحد أو إن الاختلاف يمكن أن يعتبر نوعاً من التنوع وليس نوعا من الهرطقة، فالكاثوليك (الكنيسة الجامعة) يرون ضرورة أن يكون الإيمان الجماعي واحداً ولكن البروتستانت يرون أنه يحسن أن يتمكن الفرد من تحمل مسؤوليته الدينية لوحده وبذلك يفتحون الطريق أمام قبول الآخر.

وهكذا يتضح لنا من تنظيم صفوف الكاثوليكية بُعْد حركات الإصلاح واتجاهاتها نحو الانضباط والوحدة في العقيدة إلى أن ألفت الهرطقة والمهرطقين، وحتى البدع التي كادت تؤدي بالكنيسة سابقا مثل الآريوسية والكاثارية والنسطورية ألفتها وتعايشت معها، ولكن الخطر الذي واجه الكاثوليكية بعد ذلك في اعتقادي أشد من خطر الهرطقة إذ كان الهراطقة مؤمنين ويبحثون عن إصلاح الكنيسة، أما المنشقون عن الكنيسة الكاثوليكية في العصر الحديث فغالبيتهم تتجه نحو الإلحاد أو عدم المبالاة تجاه الكنيسة والدين بصورة عامة، مما حدا بالبابا بيوس الحادي عشر إلى قوله في رسالته البابوية "نحن نواجه عالما سقط مجددا جزء كبير منه في الوثنية"، وهذا يقودنا إلى قضية هامة تواجه المسيحية، فالخطر الذي تواجهه ليس في البدع الانشقاقية أو الهرطقة أومعايير الكفر والإيمان، سواء كانت كاثوليكية أو بروتستانتية إنما قضية رفض الدين بكامله، الأمر الذي يهدد المسيحية بكاملها، لقد هاجم الفاتيكان الليبرالية وظن أنها أصل الإلحاد (ليون التاسع، ليون الثالث عشر، ليوس العاشر، وليوس الحادي عشر).

ولكن مع أن الليبرالية أعطت الحق للفرد في اعتناق ما يراه أفضل إلا أنها فتحت الباب أمام العلمانية وأصبحت العلمانية في حد ذاتها عقيدة دينية أو ديكتاتورية دينية تتبنى قضايا حقوق الإنسان على أسس علمانية بعيدا عن الكنيسة مما دفع الكنيسة إلى التوافق مع الوضع الجديد الذي هدد سلطانها بالزوال. ولكن مع قوة دفع العلمانية في أمريكا وأوروبا الغربية ونتيجة لظروف خارجية وخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي بدأت المسيحية تحاول الاستيقاظ والانتباه إلى نفسها.

ونجد من أبرز علامات ذلك الاتجاه النظرة العدائية ضد الإسلام، وخاصة في عهد الرئيس بوش ومسألة النقاب والمآذن فقد اتخذت هذه الصور مظاهر المسيحية الأصولية التي لا تقبل الآخر، ولأول مرة في الغرب الحديث

يبدأ صراع بين العلمانية الداعية للحقوق المتساوية والمسيحية الأصولية التي تحاول الحد من انتشار الرأي الآخر الذي يتمثل في الحرية المطلقة للإنسان التي يتبناها التيار العلماني.

وقد ادعت السلطة المدنية عبر العلمانية ادعت لنفسها حقوقا على الشعب كانت هذه السلطة إلى وقت قريب ملكاً للكنيسة وفي كثير من الحالات أظهرت سلطة العلمانية تشددا أكبر من سلطة الكنيسة، فقد ادعى موسليني أنه رجل العناية الإلهية، وكذلك في الصحف النازية كانت تردد أن الله أرسل لنا مخلصا هو الفوهر. وأصبح الكثير من المنظمات المدنية تدين بالعلمانية ولا تجرؤ الكنيسة على اتهامها بالكفر.

لقد كافحت الدولة الغربية في القرون الأخيرة لنصرة الليبرالية، فهل يمكن القول إن سلطة الليبرالية سوف تنتصر ؟؟!

لقد تبادل المسيحيون خلال القرون الماضية الكراهية بدلا عن التسامح والمحبة، تبادلوا الكراهية باسم الله وقد كتب احد مفكريهم جان جاك روسو قائلا "كنت أنظر إلى هذا التنوع في البدع التي تسود عالمنا وبتبادل الاتهام بالكذب والضلال، وكنت أسأل أيها هي الصالحة؟، وكان كل منهم يجيبني تلك الخاصة بي".

وفي ظل هذا الغلو والفجور في الخصام وما نتج عنه من إصلاح ثم تفكك للمسيحية ألا يمكن أن يفكر المسيحيون بتعقل في ماضيهم وينحازوا إلى محكمة الضمير التي تزن الأمور وتختار بحرية، وأحب أن أختم بقول جان دارك تلك التي أحرقتها نيران الهرطقة عندما سئلت هل كانت تظن أنها في نعمة، قالت (إذا لم أكن فيها فليجعلني الله فيها، وإن كنت فيها فليبقني الله فيها).

المراجع

- العهد الجديد–إنجيل متى الإصحاح ٢٦ ٦٥–٦٦.
- العهد الجديد–إنجيل متى الإصحاح التاسع ٣–٤.
- عبد الرحمن الخطيب– صحيفة الحياة السعودية 31–٣–٢٠١٠.
- ج.وتلر – الهرطقة في المسيحية، تاريخ البدع والفرق الدينية المسيحية – ترجمة جمال سالم – دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – ٢٠٠٧م.
- الهرطقة في الغرب د.رمسيس عوض–دار سينا للنشر– القاهرة ١٩٩٧م.
- إنجيل متى الإصحاح الخامس ١٧–١٨.
- إنجيل متى الإصحاح الخامس ٢٣–٢٥.
- إنجيل متى الإصحاح الخامس ٤٣–٤٥.
- أعمال الرسل– إصحاح ٦–٧.
- علم اللاهوت المقارن/ الهرطقات– تعالم الأنبا غريغورس أسقف عام الدراسات اللاهوتية والبحث العلمي– مطبوعات الكلية الاكليريكية للقبط الآرثوذوكس٢٠١٠م.
- الرسالة الدورية إلى الأساقفة– اناسبوس ١٨:٥.
- إنجيل متى الإصحاح ٢٨–٢٩.
- أسرار الكنيسة السبعة في الطقس القبطي– تأسيس سر الكهنوت– بطريركية الأقباط الاثودوكس– القاهرة.
- خلافاتنا مع الكنيسة الكاثوليكية– ارمبا المجتهد.
- أعمال الرسل– الرسالة إلى أهل أفسُس ٦٠.
- العهد القديم– سفر اللاويين الإصحاح ٢٤–١٦.
- العهد القديم– سفر الملوك– الإصحاح ٢١.
- الإلحاد في الغرب– رمسيس عوض ١٩٧٧– دار النشر العربي– بيروت.
- الرسالة الأولى إلى أهل (تيموثاوس)– الإصحاح الرابع ٦–٧.

- تاريخ كنيسة الغرب— جون هس تأليف د.يواقيم رزق مرتضى.
- الأصولية المسيحية في القرون الأولى– إبراهيم الحيدري.
- قصة الحضارة– ويل ديورانت م/٦/ك/١/ب/٢ ص ٧٦٤٢.
- St.Paul and Protestantism with an essay on Puritanism and the church of England–Arnold Mathew, Macmillan. New York, USA 1883
- Art3, Fredrick. The mind of the middle ages 200–1500. Historical survey clarendon press Chicago, USA 1945
- Cadman parkes: The three religious leaders of Oxford and their movement (John Wycliffe. John Wesley, John Henry Newman) Macmillan company, New York, USA 1916.
- Cragg, G:from Puritanism to the age of reason: A study of changes in religious thoughts within the church of England 1660–1700 – Cambridge, England 1950.
- Dickens ,A.G:The age of humanism and Reformation in Europe in the fourteenth and the sixteenth centurie, prenticetlall international inc.London, England 1977.
- Gibon,Edward:The decline and fall of the roman Empire ,London, UK 1994
- –Encyclopedia Britannica vol30 Robert, P.Gwinn
- قصة الحضارة– المكتبة الإسلامية الشاملة محاكم التفتيش في بداية عصرها٢/١٧ الهرطقة والإصلاح الديني ص ١٢.
- محاضرات في تاريخ الكنيسة الغربية– ٤٦ ، د.يواقيم رزق مرقص٢٠١٠م.
- مصادر الفلسفة بين المسيحية والإسلام– جورج طرابيش.
- الموسوعة العربية– المجلد الرابع– الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم العقائد– البابا والبابوية.
- شخصيات تاريخية – يوهانس ايكارت المعلم– – منتديات السومريين.
- فولتير وزمنه– ديني فايلوت– ترجمه سعاد خليل ٢٠٠٩م.

- عندما كانت أوربا لا تزال أصولية متزمتة– هاشم صالح– مجلة الشرق الأوسط العدد ٩٣٣٥، ٢٠٠٤م.
- الاستبداد الديني وكشف اللثام– د.محمد برينس– حفريات معرفية في أصول الفكر المسيحي– ٢٠٠٧م.
- جوزيف لوكلير– لائحة المقولات والأفكار المحظورة (السيلابوس). ١٩٦٤– مجلة دراسات المسيحية –ص ٧٣٥–٧٤٥.
- The Exposition of the Divine Principles–Dr. Sun Myung Moon 1974 HSAUWC press Washigton DC– 1974.
- العهد القديم– سفر التثنية ١٣:١٠.
- العهد الجديد – إنجيل يوحنا الإصحاح الخامس عشر : ٦.
- ج ج تيلورد– أسقفية روما– ترجمة جورج خوام ١٩٨٧م.
- ويكبيديا الموسوعة الحرة– مدينة أكسفورد– شهداء أكسفورد ٢٠١٠م.
- الموسوعة العربية– المجلد السابع– البروتستانتية.
- العهد الجديد – رؤيا يوحنا ٢٢:٢.

ظاهرة التكفير .. الأسباب والعلاج والآثار

الجذور الفكرية التاريخية لداء التكفير ودواؤه: خبرة صدر الإسلام

أ.د. السيد محمد السيد عمر

أستاذ العلوم السياسية بجامعتى حلوان

أستاذ ورئيس قسم العلوم السياسية بجامعة العلوم التطبيقية بالبحرين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد خاتم المرسلين والنبيين، وحجة الله على العالمين، والشاهد والمبشر والمنذر، والداعي إلى الله تعالى بإذنه إلى يوم الدين، والسراج المنير. سلاما طيبا مباركا عليه وعلى آله وصحبه الطيبيين الطاهرين أبد الآبدين.

ولما كان صدر الإسلام لحظة بالغة الخصوصية، بتنزل القرآن الكريم فيها، وبالبيان الأمين له على يد النبي – ﷺ – الذي كان قرآنا يمشي على الأرض بالسنة النبوية القولية والفعلية المطهرة، ثم مواصلة الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – السير على هديه بصفتهم خير القرون قاطبة، فإن من الأهمية بمكان أن نستدعي خبرة صدر الإسلام في تشخيص داء التكفير وفي علاجه. وهذا هو موضوع هذه الدراسة، التي تأتي في سلك فعاليات مؤتمر مهم يعقد في المدينة المنورة، برعاية بلد كان فيه مهبط الوحي، ومنه انتشر إلى كل بقاع المعمورة، ولا يزال حاضنا للحرمين، مضيفا للطائفين والعاكفين من كل بقاع الأرض، وساعيا في كل بقاع الأرض إلى النصيحة في الدين وتأسيس الوسطية، وإبراز عظمة الدين الإسلامي وسماحته، وتكريمه للإنسان.

وعلى مدى التأريخ الإسلامي كله، كان التكفير خيطا هامشيا فى نسيج أمتنا الإسلامية، مهما علا صوته وتعاظم بلاؤه. وفضلا عن سمة التشرذم الذاتى للواقعين فى هذا الداء، المغاير لوسطية الأمة، ووظيفتها بوصفها خير أمة أخرجت للناس، فإن مجموع المصابين به كان دائما أقلية ضئيلة، وهو بكل مقوماته دخيل على منظومة التوحيد الإسلامية، ومعبرعلى الدوام عن فكر لقيط ناتج عن رواسب تقليد الضالين والمغضوب عليهم من الأمم الأخرى، التى اندرس لديها الدين الإلهي - فى صفائه الذى تبلور على نحو مصدق ومهيمن على ما سواه فى القرآن الكريم.

وتكتسب خبرة نشأة تلك الظاهرة فى صدر الإسلام، أهمية خاصة، لاعتبارين أساسيين: **أولهما**: ارتباطها فى جانب منها من حيث النشأة بالسرعة

التى دخلت فيها جزيرة العرب فى دين الله أفواجا عقب الفتح الأكبر لمكة، وبالسرعة الهائلة للفتوح الإسلامية فى القرن الهجرى الأول عامة، وفى عهود الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول بخاصة، مما أفسح المجال لجدلية بالغة الزخم بين المعيارية الإسلامية من جهة، وبين ركامات هائلة من التكلسات الفكرية والتشوهات العقدية، المتعددة الأشكال والمشارب، فى المناطق المفتوحة.

أما الأمر الثانى: فهو حقيقة أن من عالجوا تلك الظاهرة هم خير القرون قاطبة، تعلموا على يد النبي، وعايشوا هديه، أو على أقل تقدير على يد خيرة الصحابة – رضوان الله عليهم – بالنسبة لكبار التابعين التابعين لهم بإحسان. وبالتالى، فإن الكيفية التى تعاملوا بها مع تلك الظاهرة تستحق أن يتم التدقيق فيها، لكونها كما سنبين على عجل فى هذه الدراسة، بمثابة نموذج معيارى، تحتاج الأمة إلى تنمية الوعى به واستلهامه، والنسج على منواله قدر الممكن، لتحصين نفسها ضد استشراء تلك الظاهرة فى الحاضر والمستقبل.

وإذا كانت تلك الظاهرة قد نشأت فيما يتعلق بأمتنا فى لحظة كان منبعها الرئيس فيه هو العصبية القبلية والشعوبية، فإن الناظم القومى والتشبيك المعولم الراهن يلعب الدور نفسه. وبما أن القومية والشبكية يستحيل أن تكون هي الداء وهي العلاج، فإن الفشل الذي منيت به الدول القومية المعاصرة دون استثناء فى مواجهة هذه الظاهرة فى ظل ما يسمى: الأمن القومي، يؤشر على أنه لا أمل فى المواجهة والتحصين إلا باستعادة الحل الإسلامي، الذى استوت معياريته على سوقها فى صدر الإسلام.

وفى ضوء هذ التصور تتبع هذه الدراسة المنهج الوصفى التحليلى، فى رصد تجليات تلك الظاهرة فى صدر الإسلام فى المبحث الأول، ثم تعرج على الدروس المستفادة من خلال بيان المفاصل الكبرى للكيفية التى عالج بها الصحابة وأمراؤهم من كبار التابعين تلك الظاهرة بمختلف أنماطها فى المبحث الثانى، وتنتهى بخاتمة تؤكد فيها على ذات ما بدأت به.

المبحث الأول

خريطة أنماط الظاهرة التكفيرية فى صدر الإسلام

تمثل الجذر الأول لهذه الظاهرة فى أواخر العهد النبوى، وعقب وفاة النبي – ﷺ –، فى ثلاثة أمور :الخلط بين بقاء الدين وبقاء النبي – ﷺ – على قيد الحياة، والخلط بين مفهومى الخلافة والخليفة، وكثافة الموروث من عهد ما قبل الإسلام لأقوام حديثى عهد بالإسلام. فلقد أدى الأمر الأول إلى ظاهرة الردة بكل أنماطها التى سنبينها لاحقا. وأسفر الثانى عن حصر السؤال الخاص بنظام الأمة فى شخص الخليفة، والاختلاف بشأن الأولى بهذا المنصب ليس من مدخل بيان خصاله، بل من مدخل حصره فى شخص بعينه، أو فى سلالة بعينها، وغياب البعد الأهم المتعلق بأنساق الأمة وأدوار كل منها، والمعايير الحاكمة لكل منها. وأدى الأمر الثالث إلى إسقاط مفاهيم على الإسلام، هى فى حقيقة أمرها، أغلال وضلالات جاء هو لتخليص البشرية منها، وتجسد ذلك فى الظاهرة التكفيرية . إجمال بحاجة إلى شئ من التفصيل:

أولا: أنماط الردة:فى مقابل ما أبداه الصحابة من حرص على بقاء نظام الأمة، إلى حد تقديم التوافق على خليفة، وتحقيق إجماع الأمة على رأس لها على دفن الرسول – ﷺ –، والتأكيد على فضل الجماعة ولزومها ونبذ الفرقة، بما أن الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد، وعلى ضرورة الإمارة حتى فى اللقاء العابر ومهما قل عدد أفراد الجماعة، وتفعيل مبدأ وحدة الأمة والخليفة، وتقديم المهاجرين، مع اعتبار حب الأنصار – رضوان الله عليهم –

علامة الصدق فى الإيمان[1]، رأى فريق من عامة المسلمين الجدد أن نظام الأمة انتهى بوفاة النبي – ﷺ –، ورأى آخرون أنه محصور فى آل البيت، ورأى فريق ثالث أنه عام فى الأمة. وفى سياق بناء تلك الرؤى على تأويلات ضالة، انتظمت كل تلك الفرق على اختلاف مدخلها فى سلك الظاهرة التكفيرية.

ولم تكن الردة كما يبدو للوهلة الأولى توجها واحدا، بل كانت لها أنماط، وتباينت فى مدى مفارقتها للإسلام. وسنميز بين تلك الأنماط بمعيارين: المحتوى العقيدى، ونمط المعارضة من حيث أدواتها: سلمية أم عنيفة، على التفصيل التالى:

١– أنماط الردة بمعيار المكون العقيدى:يمكن التميز بين ثلاثة أنماط للردة بهذا المؤشر:

أ– النابذون للإسلام كله: شهدت فترة أواخر حياة النبي ظهور عدد من مدعى النبوة من أمثال الأسود العنسى، ومسيلمة، وطليحة الأسدى. ومع وفاة النبي – ﷺ –، خلع البعض ربقة الإسلام من أعناقهم، بزعم أنه لو كان محمدا – ﷺ – نبيا ما مات. وكون هؤلاء كل فى محلته جماعة مسلحة ممتنعة، ، وطردوا عمال النبي – ﷺ –، ورفضوا الطاعة لخليفة المسلمين[2].

ب– دعاة سقوط فريضة الزكاة: أبى هذا الفريق دفع الزكاة إلى الخليفة، زاعمين أنها سقطت بوفاة النبي، متأولين قول الله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ

(١) محمد بن على الشوكانى،در السحابة فى مناقب القرابة والصحابة، مخطوط بدار الكتب المصرية،ميكروفيلم ٢١٣٨، ص ٤.

(٢) أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذرى، فتوح البلدان، ليدن: بيرت، ١٩٦٨.، ص٨٦–٨٨، ابن حبيش، الغزوات، تحقيق: د.أحمد غنيم، القاهرة: مطبعة حسان، ،ص٢١.

وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]، ظانين أنها كانت تدفع إليه مقابل دعائه لهم. وما دام قد مات، فقد سقطت عن الأمة . ومعنى هذا، أن هذا الفريق جحد ركن الزكاة المعروف من الدين بالضرورة، ولكنه بقى داخل دائرة الإسلام فى بقية التكاليف[2].

ج- دعاة سقوط حق الخليفة فى جمع الزكاة وصرفها: ذهب هذا الفريق إلى القول بأنه لا طاعة واجبة عليهم لأحد بعد النبي، ولكنهم أجمعوا على بقاء فريضة الزكاة. وانقسموا على أنفسهم إلى فريق رأى جمعها وتوزيعها فى كل محلة على حدة، وطردوا عمال النبي – ﷺ – على الصدقة، من أمثال الأقرع بن حابس. ووزع كل من دعاة ذلك الزكاة بين قومه. واستولى بعضهم على ما كان عمال الصدقة قد جمعوه. بل وصل الأشعث بن قيس إلى نفى الطاعة لأبى بكر عامة. ورأى فريق التريث، فلم يقر بتسليم الزكاة لعامل الخليفة عليها، ولم يعيد توزيعها على أقوامهم، إلى أن يتضح الموقف. وعرض صنف منهم الطاعة للخليفة، مقابل إعفائه هو وقومه من الزكاة. من هؤلاء قرة بن هبيرة الذى صارح عمرو بن العاص – رضى اللّه عنه –، بأنه يرى أن الزكاة إتاوة، وإنه إن لم يتخل أبو بكر – رضي اللّه عنه –، عنها ،فإن العرب لن يدينوا له بالطاعة[3].

٢- أنماط الردة على محك المسالمة والعنف: انقسم المرتدون فى صدر الإسلام على هذا المحك، إلى أناس شكلوا جماعة ممتنعة ذات شوكة

(١) التوبة:١٠٣
(٢) د. محمد عقة، التصنيفات، ص ٢٠٨- ٢٠٩.
(٣) الحكيم الترمذى، تحصيل نظائر القرآن، تحقيق: حسن نصر زيدان، القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٦٩م.

عسكرية، تدافع عن ردتها، أيا كان نمطها على المحك سالف الذكر، فى محلتها بالقوة، وحالات ردة فردية ابتداء، أو نتيجة اقتناع جماعة ممتنعة بالتفرق، والوقوف بمعارضتها للخلافة، عند حد الانحراف غير المسلح. وبلور الصحابة – رضوان الله عليهم – منظومة إرشادية من الإجراءات للتعامل مع الردة بكل صنوفها على هذين المحكين، كما سنبين فى المبحث الثانى.

ثانيا: الانحرافات التكفيرية: شهدت الساحة الإسلامية فى صدر الإسلام، إلى جانب ظاهرة الردة، انحراف فئات محدودة من المسلمين، لم يعلنوا المفاصلة كليا أو جزئيا مع الإسلام على شاكلة من وقعوا فى الردة، وإنما ظلوا فى ظاهرهم داخل حظيرة الإسلام، بل اعتقدوا أنهم هم المسلمون حقا، ورموا غيرهم بالكفر. ومنهم من أقحم فى الإسلام ما ليس منه، من ضلالات أمم سابقة.

وفى هذا السياق ظهر من خرجوا على ذى النورين – رضي الله عنه وأرضاه – وقتلوه والمصحف بين يديه، وأحدثوا أول فتنة فى الصف الإسلامى، ومن رحمهم خرجت كل الفرق الخارجة على الوسطية الإسلامية، المدعية أنها تمثل حقيقة الإسلام، المتهمة لغيرها بالمروق من الإسلام، حتى الآن. ويمكن التمييز فى هذا السياق بين أنماط هذه الظاهرة، وبيان المعالم الكبرى لمضمون انحراف كل نمط، على النحو التالى:

١– أنماط الانحرافات من حيث التوجه الفكرى: عرف صدر الإسلام نمطين من الانحراف وفق هذا المؤشر، هما :

أ– منتحلو التشيع: ضم هذا النمط فئة تدثرت بزعم الموالاة لعلي بن أبى طالب – رضوان الله عليه – خاصة، ولآل البيت بوجه عام، كتكئة للطعن فى الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول بخاصة، وفى الصحابة بوجه عام، على خلفية دعوى أحقية علي وآل البيت بالخلافة. وانقسم هؤلاء بدورهم إلى فرق

فرعية رسم الصحابة نوعية من المعالجة لكل منها تتوافق وطبيعة انحرافها عن إجماع الأمة، ومدى ذلك الانحراف. ومن رحم هذا النمط بشتى تجلياته نبتت ظاهرة الخوارج.

ب- الخوارج: حذر النبي - ﷺ - الأمة فيما ورد بالصحيحين من قوم يخرجون من الأمة الإسلامية فى آخر زمان الصحابة " أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية " وأوصى النبي - ﷺ - الأمة أن " إذا لقيتموتهم فاقتلوهم، فإن فى قتلهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة "(1). و يمكن التمييز بين أنماط ظاهرة الخوارج، وفق المؤشرين التاليين:

(١) الخروج غير المسلح : التأليب على عثمان بن عفان - رضى الله عنه - هو أول تجليات نشأة هذا النمط من ظاهرة الخوارج على يد فئة من حديثى العهد بالإسلام فى المناطق المفتوحة، وفى مقدمتها مصر والعراق، بزعم التشيع لآل البيت من جهة، وادعاء الصلاح ومناهضة الفساد فى مؤسسة الخلافة من جهة أخرى، والإرجاف فى الصف الإسلامى.

(٢) الخروج المسلح:أول تجليات هذا النمط هم أولئك المتمردون الذين حاصروا عثمان - رضوان الله عليه - وانتهكوا حرمة هذا الإمام المبشر بالجنة، ذى النورين، فى الشهر الحرام، بالحرم المدنى. وظلوا مجرد صورة مسلحة للنمط الأول، إلى أن قبل على - رضى الله عنه - التحكيم، فتحولوا إلى النمط الذى اشتهر بهذا المسمى، ليس من باب الخروج بزعم التشيع، بل بدعوى كفر على والصحابة - رضوان الله عليهم - لقبولهم للتحكيم من جهة، وتكفيرمن حاربوا عليا - رضى الله عنه - من جهة أخرى، وتخطى

---

(١) أبو محمد عبد الله بن قدامة، المغنى، تصحيح: د.محمد خليل هراس، القاهرة: مطبعة الإمام، ١٩٦٦، جـ٨ ص٥٢٣.

الحكم على غيرهم بالظاهر، إلى الحكم على النيات والسرائر.

ومرة أخرى، تضمن هدي الصحابة فى معالجة هذه الانحرافات تمييزا جليا بين حالات الانحراف الفردية، وحالات الانحراف التى مثلت جماعة مسلحة ممتنعة، ولكنها لا تقدم على استخدام القوة المسلحة ضد خصومها، والجماعة المسلحة التى تستخدم القوة بالفعل وتفسد فى الأرض.

٢- مضمون الانحرافات التكفيرية:سنقدم هنا إطلالة خاطفة على مضمون الانحرافات التكفيرية النابعة من انتحال صفة التشيع لآل البيت، وتلك النابعة من الخروج المسلح على الأمة بالمطلق، وموارد هذا المضمون التكفيرى:

أ- الانحراف التكفيرى المنتحل للتشيع: نود التنبيه بادئ ذى بدء إلى أمرين محوريين، أولهما: أنه كما أن الردة كانت لها أنواع متمايزة، فإن مفهوم الشيعة من المفاهيم التى أسئ فهمها وتوظيفها. ودفعا لتفصيل واستطراد لا يتسع له المقام، نكتفى هنا بالقول بأن الأمة مجمعة على مناصرة علي - رضى الله عنه - وموالاته وعلى الإقرار برشده. ولب مفهوم التشيع فى أصله، يعنى المناصرة والموالاة. و ينبغى حصر هذا الوصف فيمن وقفوا فى مخالفتهم لما أجمعت عليه الأمة من تقديم الشيخين وعثمان عند حد القول بتقديم على - رضوان الله عليهم أجمعين - مع تسليمهم بالطاعة لهم، والتزام بقية ما عليه الأمة من أساسيات الإسلام والعقيدة التوحيدية[1]. فهؤلاء آمنوا بأن الإمارة شورى بين الأمة، وسلموا بالقضاء والقدر، وتطلعوا لرجوع الدولة إلى آل البيت، وليس إلى رجعة أشخاص بعد الموت[2]. إلا أن هذا المفهوم انتحله قوم هم

(١) عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، بيروت: دار الكتاب اللبنانى، ١٩٨١، ج٣ص٢٦٤-٢٦٥.

(٢) أبو الحسن الأشعرى، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٠.

فى حقيقة أمرهم على الضد من كل ما كان عليه على وصالح آل البيت – رضوان الله عليهم – ومن بالغ الأسف أن مصادر نادرة بن أيديناهى التى تنبهت لوجوب نفى مسمى الشيعة من الأساس عن هؤلاء . أما الأمر الثانى: فهو أن الجانب الأعظم من المضمون الذى سنطل عليه هنا بات فى ذمة التاريخ، وتخطاه السواد الأعظم من المفكرين الشيعة المعاصرين، نتيجة مراجعات ومعالجات على مدى التاريخ أثبتت زيفه، وبعده عن صحيح الإسلام[١].

وفى ظل المحددين سالفي الذكر نشير إلى أن من انتحلوا التشيع فى صدر الإسلام، حشدوا ترسانة من المفاهيم المغلوطة النابعة من ضلالات ما قبل الإسلام، من قبيل: الزعم بالرجعة، وبأن عليا – رضى الله عنه – سيبعث قبل يوم القيامة. فهاهو عبد الله بن سبأ يقول عند تلقيه نبأ مقتل على – رضى الله عنه –:" لو أتيتمونا برأسه سبعين مرة ما صدقنا بموته. فهو لا يموت حتى يملأ الأرض عدلا ". وعلى منواله نسج القائلون برجعة ابنه محمد بن الحنفية، وبأن من بين أئمتهم من ينزل من بطن أمه يقرأ القرآن[٢]. وزعموا بتناسخ الأرواح، وأنه لا آخرة ولا جنة ولانار. كل ما فى الأمر أن النفس الخيرة تتناسخ فى جسد شخص خير لا يرهقها، وتلك هى جنتها، والعكس بالنسبة للنفس الشريرة. ونفوا أن يكون النبي محمد – ﷺ –، هو آخر الأنبياء. وأباحوا كل المحرمات فى الإسلام، زاعمين أنها مجرد رموز لأشخاص معينين ينبغى التدين بكراهيتهم.

ووصل بعضهم مثل منصور المستحيل فى الكذب إلى حد ادعاء النبوة

---

(١) انظر تفصيلات ذلك فى: د. السيد عمر: الأمن القومي العربي ومتطلبات إعادة ترتيب العلاقة مع الحركات الإسلامية، القاهرة:مركز الدراسات الإستراتيجية للقوات المسلحة، أكاديمية ناصر العسكرية، ٢٠٠٦.

(٢) نصير الدين الطوسى، تلخيص محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٢٣هـ، ج١، ص١٧٨.

لنفسه، والألوهية للأنبياء وللحسن والحسين. بل إنه دعا إلى قتل أتباعه وخصومه على السواء. أما قتل أنصاره فبدعوى التعجيل بدخولهم إلى الجنة، وأما قتل خصومه فمن أجل التعجيل بدخولهم النار، وخاضوا فى ذات الله تعالى بالتأويل الكاذب، وبذلوا كل ما بوسعهم لتأويل القرآن على نحو متهافت لتحقيق غرضين: تعطيل التكاليف الشرعية، والطعن فى الصحابة.وتدينوا بشهادة الزور لأتباعهم .

وتوج هؤلاء تلك الضلالات بالزعم بأن الصحابة كفروا بعدم استخلاف على بعد وفاة النبي. ورأى فريق منهم أن عليا نفسه كفر بتركه طلب الخلافة بعد وفاة النبي – ﷺ –. وقالوا بأن محمد بن الحنفية عوقب على التخلى عن الخلافة لعبد الملك بن مروان ومبايعته. وحددوا العقوبة بحبس الله له حيا فى سرب بجبال رضوى وادعوا أنه هو فيه حى وإمام غائب منتظر[1].

وخالف هؤلاء الهدى الإسلامى بالخوض في أمور غيبية فوق طاقة العقل وليس وراءها عمل، فخاضوا فى ذات الله وصفاته، وفى القضاء والقدر، ونفوا الآخرة، والجنة والنار. فالجنة برأيهم هنا فى الدنيا لأرواح فى أجساد لاينالها فيها سوء، والعكس بالنسبة للنار. وخاضوا فى مصير من يموت من الأطفال قبل بلوغ سن الرشد. ومنهم من ادعى النبوة، بل بلغ حد الزعم بأن للأئمة أن يغيروا الشريعة، ويبدلوها، وخاضوا فى إيمان الصحابة بما فيهم علي – رضوان الله عليهم –، وقالوا بكفرهم[2]. وادعوا أن عدد من ثبت على إسلامه من الصحابة – رضوان الله عليهم – بعد وفاة النبي – ﷺ –، لم يتجاوز

(١) أبو الحسن الأشعرى، مرجع سابق، ج١ ص ٨٦–١٢١.

(٢) فخر الدين الرازى، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء، القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٩٢٣، ص١٦١–١٨٠، عبد الكريم الشهرستانى، الملل والنحل، القاهرة: مكتبة السلام العالمية،د.ت، بغداد: مكتبة المثنى، د.ت.،ج١،ص١٥٣–١٥٧.

ثلاثة أو أربعة أشخاص[1].

ولخص ابن حزم، الانحرافات الفكرية لهؤلاء على نحو كاشف لجسامتها. فأثبت بحقهم أنهم فى معظمهم أدعياء إسلام، حاولوا محاربة الإسلام بالحيلة، وشككوا فى صالح المؤمنين وفى علماء الأمة، وادعوا أن ثمة رجل منتظر عنده صحيح الدين، وليس ثمة أهل فرية أشد سعيا فى إفساد الإسلام ممن نسبوا إلى الأنبياء عليهم السلام المعاصى، وأجازوا تبديل الدين وتحريفه، وأجازوا إمامة الحمل فى بطن أمه. وغالوا فى الأئمة غير الحق، فأخرجوهم من حدود الخليقة. وضاهوا النصارى فى تشبيه المخلوق بالخالق. وضاهوا اليهود فى تشبيه الخالق بالمخلوق. وتجاوزوا كل الحدود فى تكفير المسلمين، وفى الجزم بالنار لأشخاص بأعينهم. وانتهى إلى تقرير أن معظم بدعهم نابعة من أصول يهودية ومجوسية. ونبه الجوينى إلى سعيهم لتعطيل وظيفة الأمة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بحجة غيبة الإمام[2].

وجملة القول، أن سعى اليهود والنصارى إلى إفساد الإسلام بإدخال أفكارهم غير الصحيحة عليه، بترويجها بين أتباعه، كان هو الباب الأهم لنشأة ظاهرة انتحال التشيع التى أفرخت جل، إن لم يكن كل، الفرق الخارجة على إجماع الأمة. فلقد سعى راهب بالحيرة فى حديث مع كعب بن عدى إلى ترويج مقولة انتهاء أمر العرب، وعودة الغلبة إلى الروم بموت النبي – ﷺ –[3]. وحاول اليهود ترويج مفهوم الرجعة، والزعم بأن محمدا – ﷺ –

(١) انظر تفصيلات هذه الفرية والرد عليها فى: أبو الحسن الندوى، صورتان متناقضتان لنتائج جهود الرسول الأعظم بين أهل السنة والشيعة الإمامية، الهند: لكهنوء: المجمع الإسلامى العالمى، ١٩٨٥، ص ١٨–٣٠، ص ٦٧–٦٩.

(٢) أبو محمد على بن أحمد بن حزم، الفصل فى الملل والأهواء والنحل، وبهامشه: الشهرستانى، الملل والنحل، القاهرة: مكتبة السلام العالمية، د.ت، ج٤ ص٢٥، ص ٨٩.

(٣) أبو الفدا اسماعيل بن كثير، البداية والنهاية فى التاريخ، القاهرة: دار الفقه العربى، ١٩٣٣، ج٥ص ١٨.

سيعود.ووضعوا بذلك بذرة فكرة الإمام الغائب[١].

ب– مضامين الانحراف التكفيرى الخاص بالخوارج: جذر الانحراف الفكرى للخوارج مرتبط بصراع شعوبى النزعة على السلطة، زينته عناصر دخيلة على الإسلام على أناس حديثي عهد بالإسلام وكسته بحلة عقيدية زائفة.فهم قوم حاولوا زعزعة سلطة الخليفة، بالسعى إلى تحويله إلى رهينة بيد طائفة يسيرة من الأمة، وفرض رؤيتها على بقية الأمة بالقوة، يخيرونه بين أمرين الاستقالة أو القتل. أما أن ينظر فى الإصلاح، أو يحكم كتاب الله فى الخلاف بين الأمة، فهو برأيهم كافر وحقيق بالقتل. وبالتالى، فإن منبع انحرافهم هو إفساد وظيفةالخليفة المتمثلة فى كونه نظاما لأمر الأمة[٢].

ومن هذا الجذر السياسي المغلف بدعاوى دينية، تبنى هؤلاء دعوة قادتهم لهم إلى تكفير من خالفهم، أى السواد الأعظم من الأمة عبر العصور. ومن بين مظاهر انحرافاتهم: تجاوز الحكم على غيرهم من المسلمين حسب الظاهر، إلى الحكم على نواياهم وسرائرهم، وتحديد مصيرهم فى الآخرة على هواهم، والاعتداء على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ونسلهم وحرياتهم، تأسيسا على تلك العقيدة الفاسدة من أساسها.

ومن رحم هذه الظاهرة تولدت أضداد منحرفة على أطراف مواقف، بعيدة عن الوسطية التى هى السمة الكبرى للأمة الإسلامية بعد التوحيد. ومنهم ظهرت القدرية الذين قالوا بمسؤولية مطلقة للإنسان عن أفعاله ولا علاقة لها بالمشيئة الإلهية. ومنهم من قال بالقضاء، نافيا مسؤولية الإنسان عن عمله

(١) أبو جعفر محمد الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧،ج١ ص١٨٢–١٨٣.

(٢) أبو حامد الغزالى، التبر المسبوك فى نصيحة الملوك، دراسة وتحقيق: د.محمد أحمد دمج، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٧، ص١١٠نص١٤٥،ص٢٤٨–٢٤٩.

وتحميلها للمشيئة الإلهية، ونفى أى اختيار للإنسان. وأقحموا رؤاهم فى المصير الأخروى لمخالفيهم.وابتدعوا فرية تخليد فاعل الكبيرة فى النار، واعتبار أى خلاف بين الأمة مدعاة للتفسيق والرمى بالكفر(١).

واعتبر هؤلاء أنفسهم على صواب، ومن واجب بقية الأمة اتباعهم طوعا أو كرها. ورأوا أن الاحتكام إلى السلاح وإلزام خصومهم بالقوة، وليس بمقارعة الحجة بالحجة، هو الأصل فى مواجهة إجماع الأمة على رفض مقولاتهم. وانقسموا على أنفسهم إلى فرق كثيرة نتيجة كونهم أحداث أسنان سفهاء أحلام، متعجلون فى قراراتهم. فهم هددوا عليا – رضوان الله عليه –، على سبيل المثال، برميه بالكفر ومنابذته، إن هو لم يسارع إلى قبول التحكيم. ولما قبله رموه بالكفر، وقالوا له:حكمت الرجال فى كتاب الله ولا حكم إلا لله(٢).

وفى ضوء هذه الخريطة للظاهرة نأتي إلى السؤال الأهم: ما معالم هدى الصحابة – رضوان الله عليهم –، فى معالجتها بكل صورها، وما الدروس المستفادة منها فى واقعنا المعاصر ؟ هذا هو موضوع المبحث الثانى.

---

(١) أبو الحسن الأشعرى، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٠، ص٢٠، ص ٣٧.

(٢) أبو يعلى محمد بن الحسينى الفراء، الأحكام السلطانية، تصحيح: محمد حامد الفقى، القاهرة: مكتبة البابى الحلبى، ،ص ٢٣٥، الأشعرى، مقالات..، مرجع سابق، ج١ ص٣٦–٦٤، الشهرستانى، الملل.....، مرجع سابق،ج ١، ص ١٢٩.

المبحث الثانى

هدي الصحابة فى معالجة الظاهرة، والدروس المستفادة

لا يتسع المقام للتفصيل، رغم حاجة الأمة الملحة له، فيما نعتقد. ومن هنا فإننا سنرسم على عجل خطوطا عريضة كبرى لهدى الصحابة – رضوان الله عليهم –، فى معالجة الظاهرة. كيف حللوها ؟ وكيف رسموا أطرا متمايزة لكل نمط منها ؟ وما وصفتهم لأساسيات معالجتها على نحو يلتزم بالإسلام نصا وروحا؟.

أولا: تحديد الصحابة لعلة الداء وخريطة المعالجة الوقائية: لما كانت الوقاية خير من العلاج، فإن الصحابة أبدعوا فى استخلاص وصفة وقائية من داء التكفير تأسست على ركيزتين أساسيتين هما:

أ– تحديد منافذ الانحرافات الكامنة وسد منافذها: انطلاقا من الهدي النبوي حدد الصحابة – رضوان الله عليهم –، موارد الانحراف الكامنة فى الأمة بـ: كثرة المال والتحاسد فيه، والاقتتال لهذا السبب، وإن بالتعلل فى الظاهر بعلل أخرى، وانفتاح الكتاب للأمة، فيبتلى البعض بالسعى إلى تأويله على غير علم، ولا يفهمه على وجهه الصحيح الذى كان عليه النبي والصحابة، وتضييع العلم وعدم السؤال عنه، والقول بغير بينة.

وعلى ضوء هذا التحديد لموارد الداء، أوضح الصحابة – رضوان الله عليهم – الفرق بين الحفاظ على القرآن الكريم، والسنة النبوية الصحيحة من حيث النص، والافتئتات عليهما بالتأويل الخاطئ. وسعوا إلى ضبط المال بالشرع، وإلى تجفيف منابع التأويل غير الصحيح للنصوص الشرعية. ومن معالم هديهم هنا: جمعهم القرآن وجمع الأمة على المصحف الإمام، ، والحرص

على تجريد القرآن فى المناطق حديثة العهد بالإسلام، بمعنى إبعاده عن الاختلاط بالرأى، أو حتى بالحديث النبوى، والتشديد على تحفيز طلب العلم، وسؤال أهل الذكر، وتجنب القول بغير يقين، والتحذير من رواية الحديث النبوى بمعناه، خشية الوقوع فى الكذب الخفى على رسول الله، والتحوط فى قبول الخبر عن رسول الله، والإقلال من الرواية عن النبي، واستدعاء النصوص الشرعية فى مواجهة مواقف عملية تمر بها الأمة وليس فى مواجهة مواقف افتراضية متصورة، والتحذير من القصاص الذين لا يتحرون صحة السند، ولا يراعون حالة من يقصون عليهم، وقد يخوضوا فى الإسرائيليات، والأساطير، وعدم السماح لأحد منهم أن يقص إلا بإذن محدد بشروط واضحة وصارمة من الإمام[(١)].

ب- تحصين الأمة بصحيح الفكر: تمكن الصحابة بنشر الفكر الصحيح من تحصين بقية الأمة بالفكر الصحيح، ومن المساهمة فى إعادة جل من وقعوا فى أسر الفكر الإسلامى إلى رحاب الجماعة بالحسنى، وبمقارعة الحجة بالحجة. وفى هذا المقام بين الصحابة – رضي الله عنهم – وكبار التابعين لهم بإحسان، معالم الهدى النبوي فى تحذيرهم من ميل غريزي قد يصيب النفس البشرية، للحرص على الإمارة. فنعم المرضعة هي، مع كونها ندامة عليهم يوم القيامة، فبئس الفاطمة. وأن من هدى الإسلام أن تعطى الإمارة، وأن تمنع ممن يحرص عليها أويطلبها[(٢)].

ومن أهم ما ركزوا على تجذيره فى وعي الأمة فى هذا الصدد، بيان أن

---

(١) انظر على سبيل المثال: محمد أبو شهبة، دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٨٥، ص ٢٧–٣٠، جلال الدين السيوطى، تحذير الخواص من أكاذيب القصاص، القاهرة: مكتبة عبد الواحد، ١٣٥١هـ، ص ٣٢–٣٤.

(٢) جلال الدين السيوطى، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٥، ص ٢٣.

قرابة الدين فى الإسلام مقدمة على قرابة النسب[1]، وأن الأمة لا تجتمع على ضلالة، ويتساوى آخرها مع أولها فى الفضل، وتظل طائفة منها ظاهرة بالحق حتى تقوم الساعة، وأن من قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن قال بخلافه فقد خرج على جماعتهم[2].

وحرص الصحابة على تعميم الإلتزام بهدى النبي فى أن يحرص المسلم المبلغ عنه، على التبليغ على نحو يكفل له تنضيرالله له، بأن يسمع فيعي، ويؤدي كما سمع، فقد يصادف مبلغا أوعى منه، وقد يحمل فقها إلى من هو أفقه منه، مع مراعاة الشروط الثلاثة المترابطة بالضرورة، لهذا التبليغ عن النبي: إخلاص الوجه لله، وطاعة أولى الأمر، ولزوم جماعة المسلمين[3].

وحرص الصحابة – رضوان الله عليهم –، على بيان أن التدقيق فيما ينسب للنبى – ﷺ – واجب. فإمكانية الكذب الصريح والخفى على النبي – ﷺ – واردة. واعتبروا السنة المطهرة مفسرة لمجمل القرآن، ودعوا إلى رد متشابه القرآن الكريم إلى محكمه، والنظر إليه على أنه بمثابة الجملة الواحدة، بل الكلمة الواحدة، ومراعاة الجمع بين فقه النصوص وفقه الواقع، وتحاشي الخوض فى جدل نظري ليس وراءه عمل، وتوسيع دائرة فقه النصوص الشرعية والواقع، والاحتفاء البالغ بعدم الإكراه فى الدين[4].

---

(١) أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، دمشق: منشورات المكتب الإسلامى، د.ت.،ص ٦.

(٢) جلال الدين السيوطى، الأزهار المتناثرة فى الأحاديث المتواترة، القاهرة: دار التأليف والنشر، ١٣٧١هـ.،ص١١٦–١٢٥، محمد بن إدريس الشافعى، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة: البابى الحلبى، ١٣٠٩،ص ٤٧٥–٤٧٦.

(٣) عبد العزيز بن محمد الصديق الغمارى، إتحاف ذوى الفضائل بما وقع من الزيادة فى نظم المتناثر على الأزهار المتواترة، القاهرة: دار التأليف، ١٩٧١.،ص٥٢

(٤) أبو الطيب صديق بن حسن القنوجى البخارى، تفسير فتح البيان، القاهرة: المطبعة الكبرى ببولاق، ١٣٠١هـ.،ج٢ ص ٨،د. يوسف القرضاوى، حقيقة التوحيد، القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٧٩.

وبينوا أنه لا حلف فى الإسلام، أى عدم جواز شق وحدة الصف الإسلامى بالتحزب مع جماعة منهم ضد أخرى، ووجوب عدم الخوض فى أمور تفوق قدرة من تقال له، عملا بالهدى النبوى الداعى إلى تحديث الناس بما يعرفون، وترك ما ينكرون، والتحذير من أن مخالفة ذلك تفضى إلى الكذب على الله ورسوله، وأن من غاية الكذب أن يحدث المرء بكل ما يسمع، وبكل ما يعلم. ومن بين ما ركز الصحابة – رضوان الله عليهم – عليه أيضا ترسيخ مبادئ عدم مؤاخذة الناس إلا بظاهر سلوكهم، وعدم تتبع عوراتهم، والتمييز بين حكم الله وحكم الأمير المجتهد، والحرص على عدم التقدم بين يدى الله ورسوله، والاجتهاد الجماعى، وعدم القول بلا علم، فلا أدرى ثلث العلم[1].

وفى هذا السياق يأتى هدى الصحابة فى نبذ الغلو فى الدين ونبذ التفريط والإفراط فى الأمر كله. ومن نماذج ذلك قول الإمام على – رضى الله عنه –: " الطريق الوسطى هى الجادة، عليها باقى الكتاب، وآثار النبوة وإليها مصير العافية. وجوهرها هو التزام من لا يعلم الصمت، والتخفف، فهو سبيل لحوق الأولين، وأن يكون هم المرء ما بعد الموت، وأن يكون من يلى من أمر المؤمنين شيئا، قدوة لهم فى تقديم أمر الآخرة وتذكير رعيته به".

ومن هدي الصحابة – رضوان الله عليهم –، أيضا أن: "أوضع العلم ما وقف عند حد اللسان، وأرفعه ما يظهر فى الجوارح، والدعوة لتصديق القول بالعمل، والحرص على استقامة حاشية أولى الأمر، باعتبارالإمام كالسوق تروج فيه البضاعة التى تصل إليه، وتشجيع الرعية على النصيحة للأئمة، أوحتى على ما عبر عنه الفاروق عمر – رضوان الله عليه –، بقوله:" أحب

(١) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٩، صجا ص٥٢–٥٧، د.سليمان درويش، "مسار الحديث النبوى فى القرن الأول الهجرى"، حولية كلية الدعوة الإسلامية، جامعة الأزهر، ١٩٨٨.،ص ١٩٣.

الناس من رفع إلى عيوبى "، وتشجيع وساطة أهل الحل والعقد فى قضاء مصالح جماهير الأمة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[1].

ثانيا: هدى الصحابة فى معالجة الانحرافات التكفيرية الفعلية: قدم الصحابة بيانا ستظل الأمة بحاجة إلى الوعى به وتفعيله إلى قيام الساعة فى التعامل الرشيد مع ظاهرة التكفيربكل صروفها. وإذا كانت أحكام الجهاد فى مواجهة المعتدين من غير المسلمين قد تبينت قولا وفعلا فى العصر النبوى، فإن الفضل يرجع للصحابة فى البيان العلمى لأصول مجاهدة من ينحرفون داخل الصف الإسلامي. وبنظرة خاطفة للغاية لاعتبارات المساحة المتاحة لمثل هذه الدراسة تتبين لنا أساسيات المعالجة التالية:

١– الجهاد ضد الردة بريادة الصديق: ميز الصحابة – رضوان الله عليهم – فى معالجتهم لظاهرة الردة، حسب مدى جسامتها، على النحو الذى نوجزه فيما يلى:

أ– شرعية محاربة الجماعة المسلحة الجاحدة للإسلام كله ولفريضة الزكاة: اعتبر الصحابة – رضوان الله عليهم –، الجماعة الممتنعة بمثابة الرجل الواحد. وعاملوا الجماعة الممتنعة بدارها، المنكرة للإسلام كله، أو لكون الزكاة ركنا من أركان الإسلام، المدافعة عن موقفها هذا بالقوة المسلحة، معاملة أهل دار الحرب، مع استثناء واحد هو وضعهم أمام خيارين: العودة إلى الإسلام، أو الخروج من جزيرة العرب، لطابعها

(١) ابن قيم الجوزية، إعلام..، مرجع سابق، ج١ ص ٤٠، الإمام محمد عبده، رسالة التوحيد، دراسة وتحقيق: د.محمد عمارة، القاهرة: دار الهلال، ص ١٤٨–١٥٠، علي بن أبى طالب، نهج البلاغة، جمع: السيد الشريف الراضى، شرح: الإمام محمد عبده، بيروت: دار البلاغة، ١٩٨٥، ص ١٠٧–١١٢، ص ٥٣٧.، عبد الرحمن بن الجوزى، ، صفة الصفوة، الهند: حيدر أباد الدكن، ١٣٥٥هـ، ج١ ص ٣٢٤، جلال الدين السيوطى، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٥.

الخاص المتمثل فى عدم اجتماع دينين بها. فالردة الجماعية المصحوبة بالعسكرة والامتناع بالقوة موجبة للقتال.

ب- إمهال الردة الفردية غير المسلحة: عامل الصحابة الردة الفردية المصحوبة بالتفرق، وانتفاء العسكرة، على أنها ظاهرة تستوجب الإمهال، والمعالجة بأساليب غير عسكرية. فلم يحارب الصحابة العناصر المرتدة الفردية، ولا الجماعات التى بقيت على ردتها، ولكنها تخلت عن صفتها الجماعية، وعن الاحتكام لسلاحها[1]. ففى حين لم يتوقف أحد من الصحابة فى وجوب محاربة أمثال مسيلمة الكذاب، وطليحة الأسدى، فإنهم أمهلوا مدعية النبوة سجاح، إلى أن عادت إلى الإسلام فى عهد عمر - رضوان الله عليه- وحسن إسلامها[2].

ج- معاملة مانعي الزكاة بصفة أهل البغي:لم ينازع أحد من الصحابة فى ضرورة إلزام مانعى الزكاة بدفعها إلى الخليفة، ولكنهم اختلفوا فى البداية فحسب، فى الاختيار بين مراعاة الاعتبار الموقفى عقب وفاة النبي، بإمهالهم، أو مواجهتهم بحسم، والتقت الكلمة على الخيار الأخير.

إلا أن ما يهمني التأكيد عليه هنا أن دور القوة كان هامشيا فى مجاهدة الصحابة لظاهرة الخوارج فى حقيقة الأمر.فبفضل جهود التوعية التى قام بها بعض الصحابة من أمثال الجارود وسهيل بن عمرو وعثمان بن أبى العاص رضوان الله عليهم أجمعين، لم ترتد أقوامهم، من الأساس،

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الله الشيزرى، المنهج المسلوك فى سياسة الملوك، القاهرة: مطبعة الزهراء، ١٣٣٦هـ، ، ص ٦٤٢-٦٤٥.

(٢) ابن عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، بيروت: دار الكتاب اللبنانى، ١٩٨١، ج٢ ص٨٧٤.

وعادت أقوام بعضهم إلى الإسلام بفضل دعوتهم سلما[1].

ومن هدى الصديق – رضي الله عنه –، فى هذا الصدد: تعميم بيان يجلى حقية الموقف كاملة، ودعوة الأمة إلى قراءته فى كل مجمع لها، وإلزام القوات الإسلامية بالدعوة والبيان قبل الحرب، وتوجيه مبعوث من قبل الخليفة إلى كل قبيلة مرتدة على حدة، ليبين لها، ويسعى إلى حقن الدماء. والأهم مما سبق تلك التعليمات التى جعلها الصديق – رضي الله عنه –، دستورا لقواعد الحرب بين المسلمين، وفى مقدمتها: تحاشى الغلول، والاقتصاد فى الدماء، وحظر القتال قبل الدعوة للعودة إلى الإسلام، وحظر مواصلة القتال بعد الفيئة، وتقرير حرمة أموال البغاة، عدا السلاح الذى يحاربون به، وبشكل مؤقت، حيث رده إليهم بعد أن وضعت الحرب أوزارها، كما لم يضمنهم ما أتلفوه من مال وأنفس أثناء القتال. وهى ذات القواعد التى التزم بها على بعد ذلك فى حروبه ضد الخوارج، كما سيتضح لاحقا. وبعد عودتهم إلى الإقرار بحق الخليفة فى جمع الزكاة وصرفها فى مصارفها الشرعية على غرار ما كان عليه الحال فى عهد النبي – ﷺ –، أسر أبو بكر – رضي الله عنه – قلوبهم بالتسامح بعد القدرة عليهم، على نحو الأولى معه الكف عن تسمية تلك المعالجة حرب الردة، وتسميتها باسمها الصحيح:جهاد الردة[2].

د- معاملة الصحابة للخوارج ومنتحلى التشيع: مايز الصحابة –رضوان الله عليهم – بين الخوارج، ومنتحلى التشيع بمعيار جوهرى، فحواه: قصر

(١) ابن حبيش، الغزوات، تحقيق: د.أحمد غنيم، القاهرة: مطبعة حسان، ص ١٦ –٣٥.

(٢) انظر فى التفصيلات: رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٧٣،ص٣٩–٤٣، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة: مطبعة دار الكتب، ١٩٤٧، صج١٦ص٣١٧، أبو محمد عبد الله بن قدامة، المغنى، تصحيح: د.محمد خليل هراس، القاهرة: مطبعة الإمام، ١٩٦٦،ج٢ص ٥٣١،ص ٧١٨.

استخدام القوة فى مواجهتهم على حالة واحدة فحسب، هى:خروجهم بصفة جماعة ممتنعة بتأويل غير صحيح، ذات شوكة عسكرية، مع خروجها مغالبة، أى اللجوء إلى القوة المسلحة لفرض رؤاها. ورد صولة مثل تلك الجماعة المغالبة بقوتها واجب، بما أن حكم نصرة المبغى عليه فى حكم الجهاد، ولكن مع اعتبارهم إخوة مؤمنين بغاة[1]. فلقد فهم الصحابة – رضوان الله عليهم – إذن النبي بقتلهم فيما لو بادروا بحرب، بالمعنى الضيق المتمثل فى عدم التأزم من قتلهم أثناء القتال، الذى لا يرمى إلى قتلهم، بل لمجرد رد صولتهم، وتحقيق استجابتهم للصلح والعودة إلى الصف، مع اعتبار ما أتلفوه من مال وأنفس أثناء القتال فحسب، مهدورا، لكونهم متأولين مخطئين.

وفى حين اعتبر الصحابة الحرب بتأويل فاسد فى فتنة، كتلك التى شهدتها الأمة فى موقعتى الجمل وصفين، حالة: القاعد فيها خير من الماشى، والنائم خير من القاعد، باستثناء أولى الأمر المحتم عليهم إدارتها، وتأمين قعود السواد الأعظم عنها، وحسن توجيه ما لايستطيعوا دفعه من قتال، فإنهم اعتبروا حرب الخوارج واجبة ضد من يصر منهم على المغالبة بالقوة فحسب، وحرب فى فتنة بالنسبة لكل من يعتقد اعتقادهم، ولكنه لا يتجاوز ذلك إلى المبادرة بالعدوان وبأعمال الحرابة [2]. ومن أبرز خطوط الكيفية التى عالج الصحابة –رضوان الله عليهم – بها تلك الظاهرة:

(١) التنشئة التبصيرية: اعتبر الصحابة ظاهرة الخوارج ظاهرة فكرية،

---

(١) محمد بهجت عتيبة، محاضرات فى الفقه الجنائى الإسلامى، القاهرة: دار الشباب للطباعة، ١٩٨٨، ص375–374 ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة: مطبعة دار الكتب، ١٩٤٧، ج٢٦ ص٣١٩.

(٢) أبو العباس أحمد بن تيمية، دقائق التفسير، جمع وتحقيق: د.محمد السيد الجليند، القاهرة: دار الأنصار، ١٩٧٨،ص ٢٤٦–٢٥٢.

الـرد الحقيقـى عليهـا هـو مقارعـة الحجـة الداحـضة بالحجـة الـصحيحة، والتهميش البالغ للمعالجة الأمنية والعسكرية، بحيث تصير عند اللجوء إليها بمثابة استثناء تفرضه الضرورة الملجئة وبقدرها، وتواكبه هو ذاته عملية تأصيل رفيعة لآداب الاقتتال بين أهل القبلة سواء أثناء الحرب، أو بعد أن تفئ الفئة الباغية إلى أمر الله. وبإيجاز بالغ، يمكن الإشارة هنا إلى الآليات التالية:

(أ) الرد إلى حظيرة الإسلام والجماعة بالموعظة الحسنة: من ذلك قول عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – فى جمع منهم:" ما أسألكم عن الصغيرة، وما أركبكم للكبيرة. لقد أصاب الغم موسى للقتل الخطأ. وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض. ولا يزال المرء فى فسحة من أمره ما لم يصب دما حراما "[1]. ومن هذا القبيل أيضا هدى على – رضي الله عنهم –، فيهم فى العراق بأنه: لا خير فى علم ليس وراءه عمل، ولا فيمن يحكم لنفسه على غيره، ولا يحكم لغيره عليها، والدعوة لخزن اللسان عن الشر. فلسان المؤمن وراء قلبه، ولسان المنافق وراء لسانه، ونشر الوعى بأن الظلم على ثلاث مراتب: ظلم لا يغفر (ظلم المصر على الشرك بالله)، وظلم لا يترك (ظلم العباد)، وظلم المرء نفسه (في مستوى اللم[2] يغفره الله تعالى بفضله).ويحدد الإمام علي – رضي الله عنه – موضوع التسابق فى هذه الحياة بأن يلقى المرء ربه نقي الراحة من دماء المؤمنين وأموالهم، عفيف اللسان عن أعراضهم، وينبه إلى أن رعاة العلم قليل ورواته كثير. والخير فى عقل الرعاية لا الرواية[3].

---

(١) محمد بن عبد الوهاب، الكبائر، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، القاهرة: المكتبة القيمة، ١٩٨٧، ص ٦٠-٦١.

(٢) يحسن التذكير هنا بقول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الاثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الارْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ النجم٣٢.

(٣) على بن أبى طالب، مرجع سابق، ج٢ ص٣٧٨ – ٣٨٠.

ومما يحسن التذكير به هنا وصية أبي موسى الأشعري لأهل الكوفة، بأن يكونوا مأوى لكل مظلوم ومأمن لكل خائف، وأن يشيموا أسلحتهم، وينزعوا أسنة رماحهم، ويقطعوا أوتار قسيهم، ويلزموا قعور بيوتهم. فالنائم فى الفتنة خير من الساعى، والقاعد خير من القائم.

وفى هذا السياق ذاته، حرص آل البيت على فضح زيف دعاة التشيع لعلى – رضي الله عنه – وردوا عليهم أباطيلهم، وحذروا المسلمين منها فى مواعظ جامعة بالمساجد. من ذلك تأكيد الحسن بن على ومحمد بن الحنفية أنه لو كان لدى على – رضي الله عنه – عهد من رسول الله – ﷺ – بتولى الخلافة، لكان هو أكثر الصحابة إثما بترك طلبها. ولو كان كما يزعمون سيرجع قبل يوم القيامة، ما وزعوا تركته. وفند الحسن بالمسجد أكاذيب المختار الثقفى، وطالبه بالتوقف عن الخوض فى دماء المسلمين[1].

(ب) نشر المعرفة بآداب الاقتتال بين أهل القبلة: من القواعد التى أرساها الصحابة فى هذا الصدد: عدم شرعية اغتيال الخصوم. فكما قال على – رضي الله عنه –: لا غدر. وكما قال الزبير – رضي الله عنه –: قيد الإيمان الفتك. لا يفتك مؤمن. ومن ضوابط القتال أن: لا يتبع مدبر، ولا يجهز على جريح، ولا يضمن البغاة نفسا ولا مالا فى الحرب، ولا تسبى ذراريهم، ولا تمس حرمة أموالهم، ويقبل كل فريق شهادة الآخر، ويصلى خلفه، وتثبت لهم الأخوة والإيمان مع وصف البغي[2]. وقادة الجيش وجنوده هم أول من حرص الصحابة – رضوان الله عنهم –، على نشر هذه المبادئ فى أوساطهم. فلم يقف

(١) أبو الحسن على بن الحسن المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مراجعة وتعليق: محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: دار الرجاء للطباعة والنشر، ١٩٣٨، ج٣، ص٢١-٢٢.

(٢) أبو جعفر الشهير بالمحب الطبرى، الرياض النضرة فى مناقب العشرة، تصحيح: السيد محمد بدر الدين الحلبى، القاهرة: مكتبة الخانجى، د.ت.، ص٢٩، على بن حسين على، مكاتيب الرسول، لكهنوء: تشريس، ١٣٨٢هـ، ص٦٩، ابن خلدون، مرجع سابق، ج٢، ص١٠٨٢.

الأمر عند حرصهم على اختيار قيادات شديدة الحرص على الاقتصاد فى الدماء وتحاشى القتال ما وجدت إلى ذلك سبيلا ، بل كان الخليفة يصدر ما يشبه العهد لأمراء الجيش وجنوده. من ذلك رسالة على – رضوان الله عليه –، إلى أمراء الجند ، التى يستهلها ببيان حقوقهم لديه ، ثم حقوقه لديهم، ويختمها بتنبيهم إلى أنه يتبرأ من معرة الجيش. ويأمرهم بأن يعزلوا الناس عن الظلم، ويختما بوصيته أن:" احترسوا أن تعملوا أعمالاً لا يرضى الله بها عنا". وأفسح الصحابة – رضوان الله عليهم –، المجال لعناصر الصفوة للقيام بمساع للصلح وللتوعية فى صفوف الأمة[1].

(ج) بيان قواعد الاشتباك فى الاقتتال بين أهل القبلة: من القواعد التى أرساها الصحابة – رضوان الله عليهم –، وطبقوها ، وأمتنا فى أمس الحاجة الآن إلى الوعى بها وتمثلها: أن لا يبدأ الجيش الإسلامى البغاة من الخوارج ومنتحلى التشيع بقتال، وحظر منع أساسيات الحياة عن الطرف الآخر كالمياه، وعدم مواصلة القتال فى الأشهر الحرم، ولا تتبع مدبر، ولا الإجهاز على جريح، ولاالفتك بأسير، ولا كشف عورة، ولا التمثيل بقتيل، ولادخول دار إلا بإذن، ولا أخذ شئ من أموالهم، غير سلاحهم الذى يستولى عليه فى قتال هم البادؤون به، وعدم التعرض لنسائهم بسوء حتى لو شتمن الأمراء. فالكف عنهن عرف راسخ حتى وهن فى الجاهلية. فما بالنا بهن فى عصمة الإسلام ؟[2].

---

(١) نصر بن مزاحم،وقعة صفين،تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة:المؤسسة العربية للطباعة والنشر، ١٣٨٣هـ، ج٢ ص ١٢٥–١٢٧ ، أبو الحسن علي بن محمد الماوردى، نصيحة الملوك، تحقيق: محمد جاسم الحديثى، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦، ص ٤٦٣.

(٢) أبو بكر محمد الطيب بن الباقلانى، التمهيد فى الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، ضبط محمود محمد الخضيرى، محمد عبد الهادى أبو ريدة، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٣٤، ص٢٣٦ –٢٣٨، نصر بن مزاحم المنقرى، وقعة صفين، تحقيق: عبد السلام محمد =

ولم يتعـرض الإمـام علـى – رضـي الله عنـه –، للخـوارج إلا بعـد أن استعرضـوا المـسلمين،وسفكوا الـدماء، وقطعـوا الطريـق، ورفـضوا مبـدأ شخصية العقوبة، وتعاملوا كجماعة مسلحة متكاتفة على قتل عبد الله بن خباب – رضي الله عنه –[1]، ورفضوا تقديم قاتله للعدالة، وقالوا كلنا قتله، فأقاموا على أنفسهم الحجة.

= هارون، القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة، ١٣٨٢هـ.، ج٢ ص١٢٥–١٢٧، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: جمال الدين الشيال، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠،ص١٧٠–١٧٩.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، ج٢ ص١١٢٢، ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ج٧ ص٢٨٩.

الخاتمة

ضرورة العودة للمعالجة التأسيسية

لما قال قائل بعد معركة النهروان:" الحمد لله الذى قطع دابر الخوارج، نبه الإمام على – رضي الله عنه – الأمة إلى زيف تلك المقولة، وقال:" كلا. والله إنهم لفى أصلاب الرجال وأرحام النساء.فإذا خرجوا فقلما يلقون أحدا إلا ألبوا عليه "(١).

ونبهنا الإمام علي – رضي الله عنه –، بذلك إلى أن القابلية للإصابة بهذا الداء قائمة، وخصومة المصابين به غير محددة. فهم فى خصومة مع الجميع حتى مع أنفسهم، على نحو ما يتجلى فى كثرة انقساماتهم. و المهم ليس كسب جولة ضدهم، بل التزام آداب المعالجة التى تم بيانها والكشف عنها. وبين الصحابة – رضوان الله عليهم –، أن الفضل هو لمن يرد على العدوان بالعدل وبالإحسان، وليس بالمثل.

والسؤال الذى لا بد من طرحه فى نهاية هذه الدراسة هو: أين نحن فى مواجهة من ابتلوا بداء التكفير فى عصرنا، سواء على مستوى المؤسسات الرسمية، أو ما يسمى بمؤسسسات المجتمع المدني، من تصرف الإمام على – رضي الله عنه –، حين توعده سوار المنقري فى المسجد بالقتل، فأبى اتخاذ أى إجراء ضده،وقال:" أأقتله ولم يقتلنى؟ ". ثم حدد موقفه حين طعنه ابن ملجم بالفعل، فقال :" دعوه، وأحسنوا إليه ". فإن برئت رأيت رأيى فيه. إن شئت عفوت، وإن شئت استقدت، وإن مت فاقتلوه كقتلتى، ولا تمثلوا بالرجل، واعلموا أن الله يحب العفو "؟.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية،مرجع سابق، ج٧ ص ٣١٧.

وأين نحن من تعليمات على لأمراء جيشه أن من حق الخوارج أن:" يدعوا إلى الصلح، ويناظروا بالحجة، ويعطوا الحق إن ظهر لهم حق، ويتربص بهم حتى يكون منهم فساد. فإن فعلوا يطالبوا بالرد. فإن أبوا ينبذ إليهم على سواء"[1]، فضلا عن كل الضوابط الأخرى السالف ذكرها حالة الاشتباك المسلح ردا على عدوانهم ؟ وأين نحن أخيرا من إعلام المتمردين بأن من حقوقهم على الأمة وإمامها، أن: لا يمنعوا مساجد الله، ولا يحرموا من حقهم من الفئ ما دامت أيديهم مع الأمة، ولا يبدأوا بقتال ما لم يفسدوا، مع تحديد بالغ الدقة لمفهوم الإفساد يحصره فى: سفك دم حرام، وقطع السبيل، وظلم أهل الذمة ؟

إن العودة إلى القواعد الذهبية التى بلورها الصحابة وكبار التابعين فى صدر الإسلام للمواجهة بين الأمة والناكثين، شرط محورى لأى معالجة جادة ومثمرة لهذا الداء. وفشل المحاولات الأمنية النابعة من بعد أمني قومي ضيق الأفق، حتى الآن فى كل أرجاء المعمورة، خير شاهد على أن العودة لأصولنا الإسلامية تلك كما تبلورت فى خبرة صدر الإسلام، هى فريضة العصر. وقد لا نجانب الصواب إن قلنا أن السبب الرئيس فى تجدد تلك الظاهرة وتفاقمها عبر العصور، هو التقاعس عن الارتقاء فى معالجتها للمستوى الذى عرفه صدر الإسلام، ووفق مبادئه.

والحمد لله الذى بحمده تتم الصالحات

(١) المرجع السابق، ج٧ ص٢٨٩، القرطبى، مرجع سابق،ج١٦، ص٤٠، الدينورى، مرجع سابق،ص ٢١١.

ثبت مصادر الدراسة

- ابن حبيش، الغزوات، تحقيق: د.أحمد غنيم، القاهرة: مطبعة حسان، ١٩٨٣.
- ابـن قـيم الجوزيـة، إعـلام المـوقعين عـن رب العـالمين، تحقيـق: عبـد الـرحمن الوكيل، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٩
- أبـو الحسن الأشعرى، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٠
- أبو الحسن الندوي، صورتان متناقضتان لنتائج جهود الرسول الأعظم بين أهل السنة والشيعة الإمامية، الهند: لكهنوء: المجمع الإسلامي العالمي، ١٩٨٥.
- أبو الحسن على بن الحسن المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مراجعة وتعليق: محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: دار الرجاء للطباعة والنشر، ١٩٣٨.
- أبـو الحسن علـي بـن محمـد الماوردى، نـصيحة الملوك، تحقيـق: محمـد جاسـم الحديثى، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦
- أبـو الطيـب صـديق بـن حـسن القنـوجي البخـاري، تفـسير فـتح البيـان، القـاهرة: المطبعة الكبرى ببولاق، ١٣٠١هـ
- أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، دمشق: منشورات المكتب الإسلامى، د.ت.
- أبـو العبـاس أحمـد بـن عبـد الحلـيم بـن تيميـة، دقـائق التفـسير، جمـع وتحقيـق: د.محمد السيد الجليند، القاهرة: دار الأنصار، ١٩٧٨.
- أبو الفدا اسماعيل بن كثير، البداية والنهاية فى التاريخ، القاهرة: دار الفقه العربي، ١٩٣٣.
- أبـو بكـر محمـد الطيـب بـن البـاقلانى، التمهيـد فـى الـرد علـى الملحـدة المعطلـة والرافضة والخوارج والمعتزلـة، ضـبط محمـود محمـد الخـضيرى، محمـد عبـد الهادى أبو ريدة، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٣٤.
- أبو جعفر الشهير بالمحب الطبرى، الرياض النضرة فى مناقب العشرة، تصحيح:

السيد محمد بدر الدين الحلبى، القاهرة: مكتبة الخانجى، د.ت.

- أبو جعفر محمد الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧.
- أبو حامد الغزالي، التبر المسبوك فى نصيحة الملوك، دراسة وتحقيق: د.محمد أحمد دمج، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٧
- أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: جمال الدين الشيال، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠.
- أبو عبد اللّه محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة: مطبعة دار الكتب، ١٩٤٧.
- أبو محمد عبد اللّه بن قدامة، المغنى، تصحيح: د.محمد خليل هراس، القاهرة: مطبعة الإمام، ١٩٦٦.
- أبو محمد عبد اللّه بن قدامة، المغني، تصحيح: د.محمد خليل هراس، القاهرة: مطبعة الإمام، ١٩٦٦
- أبو محمد على بن أحمد بن حزم، الفصل فى الملل والأهواء والنحل، وبهامشه: الشهرستاني، الملل والنحل، القاهرة: مكتبة السلام العالمية ،د.ت.
- أبو يعلى محمد بن الحسيني الفراء، الأحكام السلطانية، تصحيح: محمد حامد الفقى، القاهرة: مكتبة البابي الحلبي.
- الإمام محمد عبده، رسالة التوحيد، دراسة وتحقيق: د.محمد عمارة، القاهرة: دار الهلال.
- جلال الدين السيوطى، تاريخ الخلفاء، الأزهار المتناثرة فى الأحاديث المتواترة، القاهرة: دار التأليف والنشر، ١٣٧١هـ
- جلال الدين السيوطى، تاريخ الخلفاء، تحذير الخواص من أكاذيب القصاص، القاهرة: مكتبة عبد الواحد، ١٣٥١هـ.،ص ٣٢–٣٤ .
- جلال الدين السيوطى، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،

القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٥.

- الحكيم الترمذى، تحصيل نظائر القرآن، تحقيق: حسن نصر زيدان، القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٦٩م.
- د. السيد عمر: الأمن القومي العربي ومتطلبات إعادة ترتيب العلاقة مع الحركات الإسلامية، القاهرة:مركز الدراسات الإستراتيجية للقوات المسلحة، أكاديمية ناصر العسكرية، ٢٠٠٦.
- د. يوسف القرضاوي، حقيقة التوحيد، القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٧٩.
- د.سليمان درويش، "مسار الحديث النبوى فى القرن الأول الهجرى"، حولية كلية الدعوة الإسلامية، جامعة الأزهر، ١٩٨٨.
- د.محمد عقة، "التطبيقات التاريخية والمعاصرة لتنظيم الزكاة"، ضمن: أبحاث مؤتمر الزكاة الأول، الكويت: بيت الزكاة، ١٤٠٤ هـ..
- رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٧٣.
- عبد الرحمن بن الجوزى، صفة الصفوة، الهند: حيدر أباد الدكن، ١٣٥٥هـ.
- عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، بيروت: دار الكتاب اللبنانى، ١٩٨١.
- عبد الرحمن بن عبد الله الشيزرى، المنهج المسلوك فى سياسة الملوك، القاهرة: مطبعة الزهراء، ١٣٣٦هـ.
- عبد العزيز بن محمد الصديق الغماري، إتحاف ذوى الفضائل بما وقع من الزيادة فى نظم المتناثر على الأزهار المتواترة، القاهرة: دار التأليف، ١٩٧١
- عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، القاهرة: مكتبة السلام العالمية، د.ت، بغداد: مكتبة المثني، د.ت.
- علي بن أبى طالب، نهج البلاغة، جمع: السيد الشريف الراضي، شرح: الإمام محمد عبده، بيروت: دار البلاغة، ١٩٨٥.
- علي بن حسين علي، مكاتيب الرسول، لكهنوء: تشريس، ١٣٨٢هـ.

- فخـر الـدين الـرازي، محـصل أفكـار المتقـدمين والمتـأخرين مـن العلمـاء والحكماء، القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٩٢٣.
- محمد أبو شهبة، دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٨٥
- محمد بن إدريس الشافعى، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة: البابى الحلبي، ١٣٠٩.
- محمد بن عبد الوهاب، الكبائر، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، القاهرة: المكتبة القيمة، ١٩٨٧.
- محمد بن على الشوكانى، در السحابة فى مناقب القرابة والصحابة، مخطوط بدار الكتب المصرية، ميكروفيلم ٢١٣٨ .
- محمد بهجت عتيبة، محاضرات فى الفقه الجنائي الإسلامي، القاهرة: دار الشباب للطباعة، ١٩٨٨.
- نصر بن مزاحم المنقرى، وقعة صفين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة، ١٣٨٢هـ.
- نصير الدين الطوسى، تلخيص محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٢٣هـ.

"الجذور التاريخية للتكفير– المعتزلة نموذجا

دراسة تاريخية ١٩٨–٢٤٧هـ/٨١٣–٨٦١م"

د. فتحي يوسف الشواورة

أستاذ مساعد في فلسفة التاريخ والحضارة الإسلامية

جامعة الملك فيصل –كلية الآداب

قسم الدراسات الاجتماعية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الواحد الأحد، الفرد الصمد، المتنزه عن الصاحبة والشريك والولد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، شهادة تقطع بها الظنون والأوهام، صلاة وسلاماً عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلاله وكل ضلالة في النار.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ،يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيما ﴾(٧١) سورة الأحزاب.

لقد عانت الأمة من الفكر التكفيري الذي زلزل المجتمع منذ العصور الإسلامية المبكرة، حتى إن دارس التاريخ الإسلامي يجد فيه ما يأخذ الألباب إلى منعطف من الذعر والفزع، عندما يقف على مشاهد القتل وسفك الدماء تعرض لها صحابة وخلفاء وغيرهم من العلماء، بحجة الدين، لأن نظريات التكفير اجتذبت في أول عهدها عددًا من الناس، حين غرر بهم باسم الدين، باعتبارها مذاهبَ تحمل طابع العقيدة، فباسم الدين طعن في مقدساتنا وأئمتنا وعقيدتنا.

وقد تناول هذا البحث جذور هذه الظاهرة من الناحية التاريخية من خلال البحث في إحدى الفرق الإسلامية وهي فرقة المعتزلة التي اتهم معتنقوها ومنظروها الخلفاء والصحابة بالفاحشة والفسق، واتهموا علماء الأمة من الفقهاء والمحدثين بالجهل والضلال أحياناً، واتهموهم أحيانا بالكفر فنكلوا ببعضهم وقتلوا بعضهم.

وقد اخترت هذا البحث بسبب قلة الدراسات التي تناولت جانب الجذور التاريخية لهذه الآفة، فأكثر الباحثين جزاهم الله خيرا تناولوا التكفير من

الجانب العقدي، وأقاموا الحجة البينة على التكفيريين، ولكن قليل من الباحثين – في حدود علمي – من تناول آفة التكفير من الناحية التاريخية، وجل من تناول التكفير تاريخيا بحث في فرقة الخوارج، متوهمين أنها هي وحدها التي تبنت التكفير، حتى وصل الأمر عند بعض الباحثين إلى اعتبار فرقة المعتزلة المارقة هي فرقة عقلية مستنيرة نادت بحرية العقل، وإطلاق العنان إلى التفكير دون ضوابط وروابط –متجاوزين كل الخطوط الحمراء فتناولوا الغيبيات والمقدسات الإسلامية بلا وجل أو خوف من الله تعالى–، جاهلين أو متناسين ما عانته الأمة وعلى رأسهم العلماء من ويلات الظلم والاضطهاد والاتهام بالجهل والكفر أحيانا على أيدي رجال المعتزلة.

وقد قسم الباحث هذه الدراسة إلى عشرة موضوعات كما هو موضح في فهرس المحتويات تركزت في مجملها على دراسة التطبيق العملي لفكر المعتزلة في العصر العباسي، وقام الباحث بنقد عقدي وفكري لمذهب المعتزلة وبيان العقيدة الصحيحة عقيدة أهل السنة والجماعة للرد على شبهات المعتزلة التي خالفت الشرع.

وفي نهاية هذا الموجز لا يدعي الباحث جمْع بحثه لكل أطراف البحث، ولكنها محاولة وجهد مقل، وفي المنتهى أردد قول الله لرسوله في تبصير عباده حين قال: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً ﴾(1).

وجزاكم الله خيرا وجعلكم حراسا للعقيدة وحماة للإسلام، وحصنا لثقافة الأمة.

وصلي اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(1) الإسراء: آية ٥٣.

التطور التاريخي للمعتزلة:

المعتزلة هم إحدى الفرق الإسلامية التي ظهرت مع بداية القرن الثاني الهجري[1]، كان ظهور هذه الفرقة نتاج خلاف عقدي حول مرتكب الكبيرة تزعمه واصل بن عطاء[2]، ومفاد هذا الخلاف حول مرتكب الكبيرة، وهل هو مؤمن أم كافر؟ فقد ذهب الخوارج إلى اعتبار صاحب الكبيرة كافراً وذهبت المرجئة إلى أنه مؤمن، ورأى الحسن البصري[3] أنه ليس بمؤمن ولا بكافر وإنما يكون منافقاً، في حين ذهب واصل بن عطاء إلى اعتبار صاحب الكبيرة ليس مؤمناً ولا كافراً ولا منافقاً بل يكون فاسقاً[4].

وقد علل المسعودي التسمية (الاعتزال) بالقول:

"أي باعتزال صاحب الكبيرة عن المؤمنين والكافرين جميعاً"[5]، وقد اعتبر الشهرستاني أن واصل بن عطاء هو مؤسس هذه الفرقة عندما دخل رجل على الحسن البصري، "فقال: يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر فكيف تحكم لنا بذلك اعتقاداً؟ فتفكر الحسن في ذلك، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً بل هو في منزلة بين المنزلتين، ثم قام

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٨٥، أحمد العمرجي، المعتزلة في بغداد، ص٢٠-٢٤.

(٢) أبو حذيفة واصل بن عطاء (ت١٣١هـ/٧٤٨م) من أئمة علم الكلام وكان يلقب بالغزال اشتهر بالتصدق على النساء العفيفات، ومن بدعه وانحرافاته القول "انه لا يعرف هل كان عثمان بن عفان رضي الله عنه هو المخطئ أم الذين قتلوه انظر ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ابن خلكان، وفيات، ج٤، ص٦٠، أحمد أمين، فجر الإسلام، ص٢٩٦.

(٣) الحسن البصري، هو الحسن بن أبي الحسن البصري (ت١١٠هـ/٧٢٨م) عرف به البعض بأنه هو إمام أهل البصرة وسيد التابعين وأمه هي مولاة أم سلمة زوج الرسول ﷺ. انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص٤٤١، الزركلي، الإعلام، ج٢، ص٢٤٢.

(٤) أمين، فجر، ص٢٩٦؛ El2 Mu'tazila.

(٥) المسعودي، مروج، ج٢، ص١٧٤.

واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزلنا واصل، فسُمّي وأصحابه معتزلة"[1].

وللمعتزلة تعاليم دينية فكرية تعرف باسم الأصول الخمسة وهي: التوحيد، العدل، الوعد، والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين وأخيراً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2].

ويعنون بالتوحيد: أن الله واحد من كل وجه، وأن صفاته ليست زائدة على ذاته وأن كل ما يطلق عليه من صفات ما هو إلا وجه لذات واحدة بسيطة لا قسمة فيها، وأن الله واحد ليس كمثله شيء وليس بجسم وليس بذي جهات ولا يحيط به مكان، ولا يجري عليه زمان ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم وليس بمحدود ولا والد ولا مولود لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام ولا تلحقه المضار ولا يصل إليه الأذى والألم ولا يجوز عليه الفناء ولا يلحقه العجز والنقص[3].

ولما كان المعتزلة يعتقدون وحدانية الله عز وجل وأن القدم أخص لذاته الكريمة، فإنهم حاربوا كل مذهب وكل قول يتعارض مع الوحدانية[4].

---

(١) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م) الملل والنحل، دار صادر، بيروت، (د.ت) ج١، ص٣٣–٥٥ (سيشار إليه تاليا: الشهرستاني، الملل).

(٢) عن هذه التعاليم انظر الإمام ابن محمد البغدادي، الفرق بين الفرق، ص١١٢ وما بعدها، للمزيد عن فكر المعتزلة انظر فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية ص٢٨٢–٢٨٤ عادل العوا، المعتزلة والفكر الحر، ص٤٥–٥٥، حسن حنفي، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ص٥٧٧–٥٨٥،) عبد الجبار ناجي، الدولة =العربية في العصر العباسي، ، ص١٧٧، أحمد أمين، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ج١، ص٢٩٩–٣٠٥، زهدي جار الله، المعتزلة، ص١٨٤، أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية والفكر الإسلامي، ص٣٣٥–٣٣٦، Marshall, O. S. The Venture of Islam chicagopress, 1982, p.384.

(٣) أبو الحسن الأشعري (ت٣٣٠هـ/٩٤١م)، مقالات الإسلاميين، ج١، ص٢٣٥؛ أبو زيد، تاريخ، ص٣٣٥؛ حنفي، موسوعة، ص٥٧٧.

(٤) الاسفراييني، التبصر في الدين، جار الله، المعتزلة، ص٦١.

وقال المعتزلة إن كلام الله مخلوق، وذلك لنفي وجود أي قديم سوى الذات الإلهية[1]. لأن المعتزلة بقولهم بخلق القرآن يرون أنهم يردون على ركن من أركان المسيحية، وهو الاعتقاد بأن المسيح هو كلمة الله الأزلية[2]، وهذا ما عبَّر عنه الخليفة المأمون في رسالته إلى والي بغداد إسحاق بن إبراهيم: "وضاهوا به قول النصارى في ادعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق إذا كان كلمة الله"[3]. والقول بخلق القرآن ينبع من التوحيد بما يتضمنه من التأكيد على التفرد الكامل للذات الإلهية بالقدم.

وملخص قول المعتزلة في التوحيد هو توحيد الله فلا شريك له، وتوحيد الله في ذاته وصفاته فليست متعددة بحال، وتنزيه له عن الجسمية وصفات الحوادث وقد فرّعوا على هذا الأصل كل الفروع[4].

اما العدل: فقد افتخر المعتزلة بهذا المبدأ وكانوا يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد[5]، ومعنى هذا الأصل في تعاليمهم أن كل أفعال الله تعالى لا تخلو من الصلاح والخير[6]، وأن الله تعالى لا يفعل بعباده إلا ما فيه صلاحهم[7]، وأن الإنسان هو المسؤول عن أفعاله بمعنى أنهم تمسكوا بحرية إرادة الإنسان حتى لا ينسب الشر الناتج عن علاقة الإنسان بالآخر كالظلم إلى الله تعالى، واتفقوا على أن العبد خالقٌ لأفعاله خيرها وشرها مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة[8].

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين، أحمد محمود صبحي، في علم الكلام، ج١، ص١٢٩.
(٢) الأشعري، الإبانة في أصول الديانة، ص، ٤١، العمرجي، المعتزلة، ص٨٩.
(٣) الطبري، تاريخ، ج٥، ص١٧٨.
(٤) الأشعري، الإبانة، ص٨٧، أمين، ضحى، ج٣، ص٤٤.
(٥) الشهرستاني، الملل، ج١، ص٥٠؛ العمرجي، المعتزلة، ص٣٦.
(٦) الشهرستاني، الملل، ج١، ص٣٩٧.
(٧) البغدادي، الفرق، ص١١٥–١١٦.
(٨) ابن المرتضى، المنية والأمل، ج٢، ص١١٧ حنفي، موسوعة، ص٥٧٧–٥٨٤؛ أمين، موسوعة، ج٤، ص٦٥٥؛ أمين، ضحى، ج٣، ص٢١–٣٦؛ العمرجي، المعتزلة، ص٣٨.

ويعني الوعد والوعيد: عند المعتزلة أن الله وعد المطيعين بالثواب وتوعد العصاة بالعقاب وأنه يفعل ما وعد به وتوعد عليه لا محالة أي أن من أحسن عملاً فيجازى بالإحسان ومن أساء فيجازى بالإساءة عذاباً أليماً[(١)]، وحقيقة الوعد والوعيد تعني أن من أطاع الله دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، وأن يجازى من أحسن بالإحسان ومن أساء بالسوء[(٢)].

المنزلة بين المنزلتين: يرى المعتزلة في هذا المبدأ أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بينهما[(٣)]، وكان هذا التوصيف لمرتكب الكبيرة هو السبب المباشر لتسميتهم بهذا الاسم (المعتزلة) حيث اعتزلوا أي جماعة تخالفهم في هذا الرأي[(٤)]، قال المسعودي: "وأما القول بالمنزلة بين المنزلتين فهو أن الفاسق حسب ما ورد التوقيف بتسميته، وأجمع أهل الصلاة على فسوقه وبهذا الباب سميت المعتزلة وهو الاعتزال"[(٥)]، وهذا المبدأ هو سبب الخلاف بين الحسن البصري وواصل بين عطاء وعلى إثر ذلك نتجت مدرسة المعتزلة[(٦)].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:وقد استند المعتزلة في هذا الأصل من أصولهم إلى قوله الله تعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الاخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ

(١) الأشعري، مقالات، ج١، ص٣١٩؛ ج١، ص١٥٧.
(٢) العمرجي، المعتزلة، ص٤٢؛ أحمد، ضحى، ج٣، ص٣٦.
(٣) القاضي عبدالجبار (ت٤١٥هـ/١٠٢٤م)، شرح الأصول الخمسة، ، ص١٣٧ البغدادي، الفرق، ص٩٨؛ الشهرستاني، الملل، ج١، ص٥٥.
(٤) العمرجي، المعتزلة، ص٤٠–٤٨.
(٥) المسعودي، مروج، ج٣، ص٢٢٢.
(٦) محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، ص٦٦.

فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[١].

فقال المعتزلة إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب وأنه يكون بالقلب إن كفى وباللسان إن لم يكف القلب، وباليد إن لم يكفنا اللسان وبالسيف إن لم تكف اليد[٢]، وهذا المبدأ هو الذي جعل المعتزلة يضطهدون مخالفيهم ويقسون عليهم لاعتقادهم أنهم بمخالفتهم قد أتوا منكراً[٣]، وهذا المبدأ هو الذي جعل للمعتزلة موقفاً فعالاً في الدولة العباسية وجعل لهم سلطاناً على الناس يوم أتيح لهم[٤].

نقد أصول المعتزلة:

يعرف المعتزلة بأنهم مشبهة الأفعال، لأنهم قاسوا أفعال الله تعالى على أفعال العباد، وجعلوا ما يحسن من العباد يحسن منه، وما يقبح من العباد يقبح منه، تعالى الله عما يقولون، وهذا هو القياس الفاسد[٥] عياذا بالله من كفرهم وضلالهم.

– المنزلة بين المنزلتين: فقد ابتدع المعتزلة هذا الأصل وخالفوا فيه الفرق الأخرى، حيث قالت الخوارج إن مرتكب الكبيرة كافر، وقالت المرجئة إن مرتكب الكبيرة كامل الإيمان.أما منهج الحق فمنهج السلف الصالح من أهل السنة والجماعة، فإن موقفهم من أهل الكبائر يمكن تلخيصه بأن "أهل الكبائر من أمة محمد ﷺ لا يخلدون في النار إذا ماتوا وهم موحدون وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين وهم في مشيئته وحكمه إن شاء غفر

(١) الحجرات، آية٩.
(٢) الأشعري، مقالات، ج١، ص٣٣٧؛ أمين، ضحى، ج٣، ص٣٦، ٦٤.
(٣) جار الله، المعتزلة، ص٥٢.
(٤) العمرجي، المعتزلة، ص٤٥.
(٥) الإمام القاضي علي بن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، ج٢، ص٧٩٢.

لهم وعفا عنهم بفضله كم ذكر الله عز وجل في كتابه العزيز [١]، ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ وان شاء عذبهم بعدله ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل الطاعة، ثم يبعثهم إلى جنته "[٢] وقد قال ابن حزم "ومن ضيع الأعمال كلها فهو مؤمن عاص ناقص الإيمان لا يكفر[٣].

وفي هذا قال الإمام النووي "اتفق أهل السنة من المحدثين والفقهاء على أن المؤمن الذي يحكم بأنه من أهل القبلة ولا يخلد في النار لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقادا جازما خاليا من الشكوك ونطق الشهادتين فإن اقتصر على إحداهما لم يكن من أهل القبلة أصلا إلا إذا عجز عن النطق لخلل في لسانه أو لعدم التمكن منه أو لغير ذلك فانه يكون مؤمنا[٤]، وقد ثبتت شفاعة الرسول ﷺ حيث ورد عنه قوله"شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي"[٥].

– التوحيد وقصدوا من ذلك نفي الصفات كالسمع والبصر وغير ذلك والرد عليهم أن صفات الله تعالى تليق بكماله وجلاله وعلوه وتنزيهه، كما ستر المعتزلة تحت هذا الأصل القول بخلق القرآن، إذ لو كان القرآن غير مخلوق للزم تعدد القدماء، " في زعمهم ويلزم على هذا القول الفاسد أن علمه وقدرته وسائر صفاته مخلوقة وهذا قياس فاسد "[٦].

–العدل: وقد ستر المعتزلة تحت هذا الأصل نفي القدر، واتفقوا مع فرقة الجبرية على أن الإنسان مجبر على أفعاله، ومسير عليها بشكل مطلق وبدون

---

(١) النسا، آية ٤٨.
(٢) الإمام القاضي علي بن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، ج٢، ص٥٢٤.
(٣) ابن حزم، المحلا، ج١، ص٤٥.
(٤) الإمام النووي، شرح مسلم، ج١، ص١٤٦.
(٥) أبو داود٤٧٣٩، الترمذي ٢٤٣٥.
(٦) الإمام القاضي علي بن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، ج٢، ص٣٩٣.

إرادة، وقالوا إن الله لا يخلق الشر، ولا يقضي به، إذ لو خلقه ثم عذب به لكان ذلك جوراً، عياذا بالله من قولهم، والرد عليهم أن هذا الأصل الفاسد يعني أن الله تعالى يكون في ملكه ما لا يريده، ولازمه وصفه بالعجز تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا[1] فقد وهب الله العظيم الإنسان قدرة وإرادة ولكنها تحت قدرة الله تعالى وإرادته، لأن علم الله الأزلي المتصف بالكمال سبق أن الإنسان سيفعل فعله خيرا أو شراً.

–الوعد والوعيد: بمعنى أن الله تعالى سيعذب مرتكبي الكبائر وأن الله سيخلدهم في النار ولكن عقابهم أخف من عذاب الكفار، والمعتزلة بذلك أنكروا الشفاعة وان الله "لا يعفو عمن يشاء ولا يغفر لمن يريد عندهم"[2] وقد ثبت عند أهل السنة والجماعة فقد قال الرسول ﷺ "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي"[3]، وقد جاء في فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء أن شفاعة النبي ﷺ وشفاعة الصالحين يوم القيامة ثابتة في القرآن[4] وفي حديث طويل أخشى الإطالة من ذكره أقتبس منه أن الله تعالى يُشفّع محمداً ﷺ في أمته حتى يخرج من النار "من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان" وفي الحديث نفسه أن الله تعالى يقسم ليخرجن من النار من قال "لا اله إلا الله"[5].

–الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: حيث ضمنوه أصولهم بغية الخروج على الحاكم وقتاله[6] وسيوضح البحث ذلك لاحقا إن شاء الله.

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص٧٩٢.
(٢) الإمام القاضي علي بن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، ج٢، ص٧٩٣.
(٣) مسند الإمام احمد، ج٣، ص٢٣٠.
(٤) فتاوى اللجنة الدائمة –العقيدة، ج٣، ص٣٤٢.
(٥) أخرجه البخاري، ٧٥١٠ ينظر ،فتاوى اللجنة الدائمة –العقيدة، ج٣، ص٢٩٣.
(٦) الإمام القاضي علي بن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، ج٢، ص٧٩٣.

تبني الخلفاء العباسيين فكر المعتزلة:

ذكر الطبري (ت٣١٠هـ/٩٢٢م) في أحداث سنة ٢١٢هـ: "وفيها أظهر المأمون القول بخلق القرآن، وتفضيل علي بن أبي طالب عليه السلام، وقال: هو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ"[١]، فأدى ذلك إلى ردة فعل دينية قوية، وصدمة لعامة الناس، والفقهاء والمحدثين وغيرهم، وفي ذلك يقول المسعودي: "فعظم الناس ذلك وأكبروه، واضطربت الأمة فاشمأزت النفوس منه، وكاد البلد يفتتن"[٢].

وقد أدى هذا الوضع إلى تأجيل الخليفة المأمون فكرته بتأثير قاضي قضاته يحيى بن أكثم، إضافة إلى انشغال المأمون بالحرب مع الدولة البيزنطية والمشاكل الداخلية في مصر والشام[٣]. وقد بدأت المحنة فعلاً في سنة ٢١٨هـ حيث قال الطبري "وفي هذه السنة كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في امتحان القضاة والمحدثين... وكان ذلك أول كتاب كُتب في ذلك"[٤]. وكانت رسالة المأمون إلى والي بغداد إسحاق بن إبراهيم طويلة[٥] تضمنت توضيح وتبرير رغبته في امتحان المحدثين والقضاة، وبيان دور الإمام في ترسيخ المعتقدات الدينية، واصفاً عامة الناس بالجهل في الأمور الشرعية وعدم مقدرتهم على فهم التوحيد، كما أنهم يخفقون في التمييز بين الخالق والمخلوق، وانتهى بأن طلب إلى الوالي أن يجمع ما لديه من القضاة ويقرأ عليهم كتابه ويمتحنهم فيما يقولون، فمن لم يقل بخلق القرآن يعزل من وظيفته[٦].

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٥، ص١٧٨.
(٢) المسعودي، مروج، ج٤، ص٤٠.
(٣) الكساسبه، السلطة، ص١٢٣.
(٤) الطبري، تاريخ، ج٥، ص١٨٦.
(٥) نص الرسالة عند، الطبري، تاريخ، ج٥، ص١٨٦–١٨٧.
(٦) الكساسبه، السلطة، ص١٢٤.

ثم عاود المأمون إرسال رسالة أخرى إلى الوالي إسحاق بن إبراهيم يأمره بامتحان العلماء والمحدثين، فبدأ الوالي يمتحن هؤلاء العلماء واحداً واحداً، فأجابوا إلا أربعة علماء هم "أحمد بن حنبل، وسجاده، والقواريري، ومحمد بن نوح المضروب". فأمر بهم إسحاق بن إبراهيم فشدوا في الحديد فلما كان من الغد دعا بهم جميعاً يساقون في الحديد فأعاد عليهم المحنة فأجابه سَجَّاده إلى أن القرآن مخلوق فأمر بإطلاق قيده. وأصر الآخرون على قولهم... ثم أجاب القواريري إلى أن القرآن مخلوق فأمر بإطلاق قيده، وأصر الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما"[١].

وقد أمر باستخدام القسوة والشدة في فرض هذه الفكرة، قال الدميري (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م): "فحمل الناس على القول بخلق القرآن وكل من لم يقل بخلق القرآن عاقبه أشد عقوبة"[٢].

فعانىَ عدة علماء خلال عهده، فإلى جانب المذكورين رفض الحارث بن مسكين قاضي مصر القول بخلق القرآن وسُجن، فبقي مسجوناً حتى أطلقه المتوكل[٣].

وقد ركز المأمون اهتمامه في مسألة خلق القرآن على امتحان القضاة والمحدثين وسائر العلماء دون النظر إلى العامة، وأصبح هذا الامتحان الديني أداة دينية وسياسية في يد الخلافة العباسية استخدمتها في جميع الولايات لإظهار من يدينون بالطاعة والولاء للخليفة العباسي[٤]. حيث عد الخليفة نفسه أنه الإمام الذي يلعب الدور الرئيس في ترسيخ المعتقدات الدينية، واصفا عامة

(١) الطبري، تاريخ، ج٥، ص١٩٣–١٩٤.
(٢) الدميري، تاريخ، ص٩٨.
(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ، ج٨، ص٢١٦.
(٤) جار الله، المعتزلة، ص٧٨–٧٩.

الناس بالجهل في الدين وعدم مقدرتهم على فهم التوحيد، وقد وصف الخليفة المأمون المحدثين والفقهاء وعلماء الشرع الذين يتبعهم جمهور العامة بأنهم رؤوس الضلالة ناقصو التوحيد[1]. وكان المأمون يقصد من ذلك إعلاء سلطة الخليفة الدينية، وبعبارة أخرى كان يريد أن يظهر أن للخليفة الحق في فرض أي مذهب على الناس؛ لأنه كان يرى أن الخليفة هو المصدر الوحيد للسلطة الدينية للأمة، وأن له الحق في وضع السياسة الدينية للأمة والتخطيط لها، فحدث الصدام مع علماء الشريعة من عهد المأمون إلى نهاية عهد الواثق بالله٢٣٢هـ، وكانت نتيجة ذلك النزاع هي فشل الخلفاء في ادعائهم بأنهم أصحاب السلطة الدينية وفشلوا في فرض مذهبهم "الاعتزال" على العامة، فتنازلوا عن السلطة الدينية لفئة العلماء، وبقي للخلفاء السلطة السياسية فقط كما سيتضح في هذا البحث لاحقاً.

وسميت مسألة خلق القرآن بالمحنة[2]، وأطلق هذا اللفظ على الاضطهاد الذي لقيه الناس والعلماء في أواخر عهد المأمون سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م واستمر في عهد المعتصم والواثق إلى سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م[3].

وقد كان الدافع لفعل المأمون في امتحان الناس أنه كان يرى أن الواجب يحتم عليه تصحيح عقائد الناس الفاسدة، ولا سيما إذا تغلغل في أصل من أصول الدين -من وجهة نظر المعتزلة- كالإشراك مع الله في القدم شيئاً آخر، مثل القرآن الكريم[4]؛ لأن المعتزلة يدافعون عن وحدانية الله ولذلك وجدوا في القول بأن القرآن غير مخلوق ما يتعارض مع وحدانية الله تعالى، لأن

(١) الطبري، تاريخ، ج٨، ص٦٣١-٦٣٤.
(٢) المسعودي، مروج، ج٤، ص٤٠.
(٣) EI2 Mihna.
(٤) أمين، ضحى، ج٣، ص١٦٩؛ العمرجي، المعتزلة، ص٦٠؛ حسن أحمد محمود وأحمد الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ، ص٤١.

الشيء إذا كان غير مخلوق أصبح قديماً أزلياً، والقدم والأزلية من صفات الله وحده[1].

أما عقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن الكريم فهي أنه كلام الله تعالى ليس بمخلوق، فقد قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عندما سأله إسحاق بن إبراهيم والي بغداد في عهد المأمون:

إسحاق: ما تقول في القرآن ؟.

الإمام أحمد: هو كلام الله .

إسحاق: أمخلوق هو؟

الإمام أحمد: هو كلام الله لا أزيد عليها.

إسحاق: ما معنى أنه تعالى سميع بصير ؟

الإمام أحمد: هو كما وصف نفسه[2].

وقد قال صاحب العقيدة الطحاوية رحمه الله: "إن القرآن كلام الله، منه بدأ بلا كيفية، وأنزله على رسوله وحيا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم انه ككلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه، وتوعده بسقر حيث قال تعالى ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ (المدثر ٢٥)[3]، فلما أوعد الله بسقر من قال (إن هذا إلا قول البشر)، علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر، وغاية شبهة المعتزلة أنهم يقولون يلزم منه التشبيه والتجسيم، فيقال لهم إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم"[4].

---

(١) الدميري (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، حياة الحيوان الكبرى، ج١، ص٧٣.
(٢) السيوطي تاريخ الخلفاء، ص٣١٠.
(٣) المدثر آية ٢٦.
(٤) ابن أبي العز، العقيدة الطحاوية، ج١، ص١٧٢، ١٧٥.

وقد أكد علماء اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء: أن شرح الشيخ ابن أبي العز هذا هو العقيدة الصحيحة في كلام الله[1].

بعد وفاة الخليفة المأمون سنة ٢١٨هـ وجد المعتصم نفسه أمام وصية أخيه الذي فرض عليه أمرين:

الأول: الاستمساك بدعوته في مسألة خلق القرآن.

الثاني: الاستعانة بأحمد بن أبي دؤاد وهذا ما يعزز الأمر الأول.

وهكذا فكما اعتبر المأمون أخاه خليفته في تولي شؤون الحكم، فقد اعتبر ابن أبي دؤاد خليفته في الدعوة إلى القول بخلق القرآن[2]، مع أن الخليفة المعتصم كان أميًّاً لا يقرأ ولا يكتب كما ذكر الطبري[3]، وأنه غير مثقف فلسفياً إلا أنه دعم فكرة المعتزلة بحماسة تقليداً لأخيه المأمون[4].

وقد كتب إلى الولايات يطلب الاستمرار في امتحان الناس بخلق القرآن وأمر الولاة أن يعلموا الصبيان ذلك وقاسى الناس معه مشقة كبيرة[5]، وأصبح كل عالم أو قاضٍ معرضاً للضرب بالسياط والتعذيب إذا لم يأخذ برأي المعتزلة بالقرآن[6].

كما حدث مع نعيم بن حماد الذي أُحضر من مصر للامتحان وسُئل عن خلق القرآن فامتنع فحُبس[7].

وقد كانت أهم وقائع المحنة في عهد المعتصم بالله هي محنة الإمام أحمد

(١) فتاوى اللجنة الدائمة، ج٣، ص١٥٢.
(٢) عبد الحسين، موقف، ص٣٨٨.
(٣) الطبري، تاريخ، ج٥، ص٢٧٢.
(٤) الكساسبة، السلطة، ص١٢٦؛ "El1 "Mihna.
(٥) السيوطي، تاريخ، ص٣٣٥.
(٦) جار الله، المعتزلة، ص١٧٢.
(٧) القرماني، أخبار، ص١٥٥.

ابن حنبل[1]، الذي عانى منذ أن أمر المأمون بجلبه مقيداً لامتناعه عن القول بخلق القرآن وأودع السجن[2]، وكان يتسلل إليه القوم ويطلبون منه أن يقول بخلق القرآن تقية كما قال غيره من العلماء فرفض ذلك[3].

طلب المعتصم الإمام أحمد فأحضر له من السجن، وعقد له مجلساً للمناظرة استمر ثلاثة أيام كان يناظره القاضي أحمد بن أبي دؤاد وغيره، وقد وصف الدميري (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) ذلك بالقول: "ولم يزل معهم في جدال إلى اليوم الرابع فأمر بضربه، فضرب بالسياط ولم يزل عن الصراط إلى أن أُغمي عليه ونخسه عجيف بالسيف ورمى عليه حصيرة ودِيسَ عليه، ثم حمل فصار إلى منزله وكانت مدة مكوثه في السجن ثمانية وعشرين شهراً"[4] عانى فيها أشد الأهوال من جلد بالسياط وحبس مظلم وغير ذلك[5].

ويبدو أن الخليفة المعتصم قد أعجب بثبات الإمام أحمد وصلابته، حيث شفق عليه وكان يخلو به ويقول له "ويحك يا أحمد أنا والله شفيق عليك وإني لأشفق عليك مثل شفقتي على ابني هارون يعني الواثق فأجبني فوالله لئن أجبتني لأطلقن غلك بيدي ولأطأن عتبتك ولأركبن إليك بجندي. فيقول: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئاً من كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله (ﷺ) فإذا طال المجلس به ضجر وقام ورد أحمد في الموضع الذي كان فيه وتردد إليه رسل المعتصم يقولون: يا أحمد أمير المؤمنين يقول لك ما تقول في القرآن؟ فيرد كما رد أولاً"[6] بقي في سجنه وقد ذكر ابن العماد الحنبلي ما يفيد بأن

(١) عن تفاصيل محنة الإمام انظر ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، مناقب الإمام أحمد، ص٢٦–٥٣.

(٢) الدميري، تاريخ، ص٩٨.

(٣) أبو نعيم، الأصبهاني، حلية الأولياء، ١٩٦٩، ج٩، ص١٩٧.

(٤) الدميري، تاريخ، ص١٠٠.

(٥) ابن الجوزي، مناقب، ص٣٩٧–٤١٦؛ عبد الحسين، موقف، ص٣٩٢–٣٩٥.

(٦) الدميري، تاريخ، ص١٠١.

الخليفة ندم على ضرب الإمام أحمد –رحمه الله تعالى–[1].

كما عانى علماء آخرون مثل ما عانى الإمام أحمد، فقد اضطهد بعضهم وقتل آخرون مثل قتل والي مصر عدداً من العلماء الذين لم يصرحوا باعتقادهم بخلق القرآن[2]، وقد كان تشدد الخليفة المعتصم في فرض مذهب الاعتزال من باب التقليد والوفاء لمبادئ وصية أخيه المأمون[3].

تعاظم نفوذ المعتزلة واضطهادهم علماء السنة:

خلف الواثق بالله أباه المعتصم بالله بالحكم، وقد كان على درجة عالية من العلم والمعرفة حتى وُصف بالمأمون الأصغر لغزارة معرفته وعلمه وأدبه وفضله، وقد اقتدى الواثق بكل من عمه المأمون وأبيه المعتصم في مسألة خلق القرآن، ويبدو أن رجال الإدارة والعلم الذين أحاطوا به قد حملوه على التشدد في المحنة، كما سيأتي ذكره لاحقاً، فسار على خطى عمه وأبيه بتطبيق مذهب الاعتزال واتخذ مجموعة من التدابير لغايات فرض مذهب الدولة على الناس، **ويمكن حصر هذه الإجراءات بما يأتي**:

١. استخدام أساليب الدعاية والإعلام المتاحة آنذاك، وهي المنابر والمساجد، حيث أمر الخليفة الواثق بالله بأن يُكتب على باب البيت الحرام في مكة، وعلى أبواب المساجد عبارة (القرآن مخلوق)[4].

وهنا يبدو أن الخليفة كان يريد تعميم فكرة خلق القرآن على المسلمين كافة الذين يأتون البيت الحرام للحج والعمرة والزيارة من كل حدب وصوب.

(١) ابن العماد الحنبلي، شذرات، ج٢، ص٦٩٩.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم، ج٢، ص٢١٨؛ الكساسبة، السلطة، ص١٢٦.

(٣) حسن محمود، العالم الإسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٥م، ص١٤١.

(٤) محمد التميمي (ت٣٣٣هـ/٩٤٤م) كتاب المحن، ١٩٨٣، ص٢٥٣ ،تقي الدين الحنفي (ت١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) الطبقات السنية في تراجم الحنفية، ج١، ص٣٨–٣٩.

٢. **أمر القضاة في دولته بامتحان الناس في خلق القرآن.**

قال اليعقوبي "وكتب إلى القضاة أن يفعلوا ذلك في سائر البلدان وأن لا يجيزوا إلا شهادة من قال بالتوحيد –خلق القرآن– فحبس بهذا السبب عالماً كثيراً"[١].

٣. **تعيين موظفي الدولة ممن يؤمنون بمذهب الاعتزال وخاصة القضاة**، حيث عاتب الخليفة أحمد بن أبي دؤاد عندما عين قاضياً من غير المعتزلة فقال له: يا أحمد "لم تولي قضاءنا من لا يذهب مذهبنا"، يقصد بذلك أحد القضاة في البصرة[٢].

إن الخليفة الواثق عين في الدولة قضاة يؤمنون بالاعتزال مثل الحسن بن علي بن الجعد بن عبيد الجوهري مولى أم سلمة المخزومية على قضاء مدينة بغداد بعد أن عزل قاضيها[٣].

٤. **امتحان موظفي الدولة:**

كالأئمة والمؤذنين فقد بعث الخليفة الواثق بالله بكتاب إلى والي البصرة في سنة ٢٣١هـ/٨٤٥م يأمره فيه بامتحان أئمة المساجد والمؤذنين في مسالة خلق القرآن[٤].

(١) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٤٨٢، انظر فاروق عمر فوزي، العباسيون الأوائل، ص٢٨٤.
(٢) وكيع بن حيان (ت٣٠٦هـ/٩١٨م) أخبار القضاةج٢، ص١٧٥ J.saundress, A History of medieval Islam, London, 1982, P112.
(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ، ج١٠، ص٧٣؛ ابن الجوزي المنتظم، ج١١، ص٢٩٧؛ ابن كثير، البداية، ج٩، ص٣٠٧.
(٤) الذهبي، العبر، ج١، ص٣٢٠–٣٢١، الذهبي، تاريخ، ص٦، الحنبلي، شذرات، ج٢، ص٦٩، اليافعي، مرآة، ج٢، ص٧٦، ابن ثغري بردي، النجوم، ج٢، ص٣١٤–٤٨٢، السيوطي، تاريخ، ص٣٤٠علي، موسوعة، ص٢١٧، حسين، موسوعة، ص٤٦٨–٤٦٩، Hussein F.Kasassbeh, The office of qadi in the early Abbasid Caliphate (132–247, 750–861) Amman, 1994. P230.

٥. **محاولة فرض هذا المذهب على العامة:**

حيث امتحن المخالفين من العامة وأمر بمناظرتهم وحملهم على قبول هذا المذهب[(١)]. أمر الخليفة الواثق بالله في سنة ٢٣١هـ/٨٤٥م بامتحان أهل الثغور فقالوا جميعاً بأن القرآن مخلوق فأعطاهم الخليفة الجوائز وأبقاهم في مناصبهم[(٢)].

٦. **امتحان العلماء:**

فقد أمر الخليفة بامتحان العلماء[(٣)] بمشورة قاضيه أحمد بن أبي دؤاد. مثل أبي يعقوب يوسف البويطي الذي حُمل من مصر إلى العراق للامتحان، فامتنع عن القول بخلق القرآن فسجن حتى مات بسجنه[(٤)]، وغيره كثير من العلماء[(٥)].

٧. **امتحان الأسرى:**

أمر الخليفة الواثق بالله في أثناء تبادل الأسرى مع الدولة البيزنطية سنة ٢٣١هـ/٨٤٥م بامتحان الأسرى، فمن أجاب بأن القرآن مخلوق تم إطلاق سراحه وأعطي جائزة مالية[(٦)]، حيث أمر الخليفة أن يعطى جميع من قال إن القرآن مخلوق "ممن فودي به ديناراً لكل إنسان"[(٧)] أما من أبى الإجابة في خلق القرآن فبقى في الأسر[(٨)].

(١) أبو الحسن الماوردي (ت٤٥٠هـ)، نصيحة الملوك، ص١٠٦؛ الأزدي، أخبار، ج٢، ص٣٥٤.
(٢) الطبري، تاريخ، ج٥، ص٢٨٥؛ مسكويه، تجارب، ج٤، ص٩٨؛ زهدي جار الله، المعتزلة، ، ص١٨٥.
(٣) الذهبي، دول، ج١، ص١٠٨.
(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ، ج١٤، ص٢٩٩-٣٠٢.
(٥) انظر الجدول رقم (١).
(٦) الطبري، تاريخ، ج٥، ص٢٨٥-٢٨٦؛ مسكويه، تجارب، ج٤، ص٩٩؛ ابن واردان، تاريخ، ص٥٥٦-٥٥٧؛ ابن العبري، تاريخ، ص٣٦؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج٢، ص٣١٤.
(٧) الطبري، تاريخ، ج٥، ص٢٨٥.
(٨) الطبري، تاريخ، ج٥، ص٢٨٥؛ جار الله، المعتزلة، ص١٨٥؛ ناجي، الدولة، ص١٤٦؛ خالد الجنابي، تنظيمات الجيش ، ص١٣٤.

ويرى الباحث أن في إجراء الخليفة الواثق بالله هذا الإجراء مع الأسرى صورة من صور التعصب المذهبي الذي لا مبرر له، وربما كان كثيرٌ من الأسرى أجابوا بخلق القرآن لأجل إطلاق سراحهم.

٨. **جمع الواثق بالله حوله الكثير من العلماء** الذين وافقوه على مذهبه القائل بخلق القرآن كما هو موضح تاليا، كما أقدم على تعذيب وقتل العلماء الذين خالفوه الرأي كما سيتضح لاحقا إن شاء الله.

موقف العلماء والعامة من اضطهاد المعتزلة لهم:

كان الخلفاء العباسيون بعد قيام الدولة العباسية مهتمين في تأسيس شرعية حكمهم، وكان عليهم إيجاد الأسس الفعالة لتلك الشرعية، فقد أكد العباسيون أنهم حصلوا على هذه السلطة من الله، لذلك تبنوا ألقابا دينية ذات مغزى سياسي، لأنهم كانوا يأملون أن يكونوا المرشدين الروحيين للأمة الإسلامية، غير أن السواد الأعظم من الأمة الإسلامية رفض تسليم الخلفاء العباسيين أي سلطة خاصة تنظم مثل هذه المسائل(١).

وقد حاول الخلفاء العباسيون أن يكونوا المصدر الوحيد للسلطة الدينية، وفي المقابل اعتبر العلماء أنهم مصدر السلطة الدينية وقاد هذا الموقف إلى توتر محتم بين الطرفين اتضح بجلاء إبان فترة المحنة التي سيرد الحديث عنها لاحقا في هذا البحث(٢).

لقد كانت وجهة نظر العلماء من الخلافة العباسية في عصرها الأول متباينة، ويمكن تصنيف مواقفهم السياسية إلى ثلاث مجموعات:

الأولى: مجموعة معارضة تتراوح بين المعارضة العنيفة التي مثلها فقهاء التيارات العلوية والخوارج، وهناك المعارضة السلمية الخفية مثل معارضة أبي

(١) حسين الكساسبة، السلطة القضائية، ص١١٩.

(٢) انظر أعلاه.

حنيفة رحمه الله ومعارضة مالك بن أنس رحمه الله وغيرهم ممن أيدوا ثورة محمد بن النفس الزكية[١].

الثانية: العلماء المحايدون وهؤلاء ابتعدوا عن الشؤون السياسية وركزوا جل اهتمامهم على العلوم والمعارف الدينية مثل فقيه الشام الإمام الاوزاعي[٢].

الثالثة: العلماء الموالون للسلطة العباسية ممن عملوا في وظائف حكومية كالقضاء مثل الفقيه أبي يوسف رحمه الله[٣].

يرى فهمي جدعان أن الهدف من تبني مذهب الاعتزال في عهد المأمون والمعتصم والواثق هو إضعاف فئة الفقهاء والعلماء[٤]، الذين كان لهم تأثير عميق على العامة والذين أصبح لهم شعبية تشكل قوة دينية وسياسية تنافس قوة الخلفاء[٥].

كما بين الباحث أثناء الحديث العلاقة بالعلماء الحديث في هذا البحث[٦].

كما أن منهج المعتزلة لم يناسب إلا الخاصة ولذلك لم يعتنق الاعتزال إلا خاصة المثقفين، أما العوام فكانوا يكرهون هذا المذهب، ولذلك عارضوه[٧]، وكرهوا الخليفة الواثق بالله وفسدت قلوب عامة الناس عليه[٨].

إن الإجراءات التي اتبعها الواثق لفرض أفكاره[٩]، أغضبت الناس عليه؛

(١) للمزيد ينظر، فتحي الشواورة، سياسة الخليفة المهدي، ص١٣٧.
(٢) الكساسبة، السلطة القضائية، ص١١٢.
(٣) المرجع نفسه، ص١١٣.
(٤) انظر العلي، سامراء، ص٣٢.
(٥) فهمي جدعان، المحنة، ص٢٩٧؛ سلطان بن حثلين، الفقهاء، والخلفاء، ، ص١٢٨.
(٦) انظر أعلاه، ص١٧.
(٧) أمين، موسوعة، ج٢٢، ص١٥٢، أيوب، التاريخ، ص٩٨.
(٨) السيوطي، تاريخ، ص١٢٨.
(٩) اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص٣١.

لأنه أشغلهم بالمحنة فكرهوه[١]، وقد أشار ابن العبري إلى أنه أنزل بمن خالفه في الاعتزال عذاباً فادحاً[٢]، وقد انقسم العلماء إلى فريقين تجاه مذهب الاعتزال:

الفريق الأول: أجاب بعض العلماء لمذهب الخليفة ووافقوه على الاعتزال.

ويبدو أن بعضهم أجاب لقناعة وفكر، وفريقاً أجاب طمعاً في مغنم، وهناك من أجاب موافقة للتيار العام لكونه مذهب الدولة، ومنهم من أجاب خوفا من السلطان، والله تعالى أعلم بالسرائر، لأن هذا الأمر محله القلب ولا يعلمه إلا الله. لقد كانت وجهة نظر العلماء من الخلافة العباسية في عصرها الأول متباينة، ويمكن تصنيف مواقفهم السياسية إلى ثلاث مجموعات:

الأولى: مجموعة معارضة تتراوح بين المعارضة العنيفة التي مثلها فقهاء التيارات العلوية والخوارج، وهناك المعارضة السلمية الخفية مثل معارضة أبي حنيفة رحمه الله ومعارضة مالك بن انس رحمه الله وغيرهم ممن أيدوا ثورة محمد بن النفس الزكية[٣].

الثانية: العلماء المحايدون وهؤلاء ابتعدوا عن الشؤون السياسية وركزوا جل اهتمامهم على العلوم والمعارف الدينية مثل قيه الشام الإمام الاوزاعي[٤].

الثالثة: العلماء الموالون للسلطة العباسية ممن عملوا في وظائف حكومية كالقضاء مثل الفقيه أبو يوسف رحمه الله[٥].

ومن هؤلاء العلماء الذين أجابوا الخليفة ووافقوه في "الاعتزال":

١. أبو الفضل جعفر بن حرب الهمذاني المعتزلي العابد: والذي كان مقرباً

(١) القضاعي، عيون، ص٤٤٨، النويري، نهاية، ج٢٢، ص٢٧٥، سالم، العصر، ص٩٦.
(٢) ابن العبري، تاريخ، ص٣٦.
(٣) للمزيد ينظر، فتحي الشواورة، سياسة الخليفة المهدي، ص١٣٧.
(٤) الكساسبة، السلطة القضائية، ص١١٢.
(٥) المرجع نفسه، ص١١٣.

من مجالس الواثق ومناظراته ووافقه على مذهب الاعتزال[1].

٢. صالح بن علي بن يعقوب بن المنصور الهاشمي الذي كان يقول بخلق القرآن أيام الواثق بالله[2].
٣. عبد الملك بن عبد العزيز الحافظ أبو نصر الثمار الذي كان إمامًا عالماً زاهداً، وقد كان على خلاف مع الإمام أحمد بن حنبل، حيث نهى عن الأخذ عنه لأنه أجاب في المحنة[3].
٤. أبو عثمان المازني[4]، وهو الشاعر والأديب النحوي الذي استدعاه الواثق من البصرة وحضر مجالس الخليفة العلمية.
٥. القاضي أحمد بن أبي دؤاد[5].
٦. الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات وهو وزير الخليفة الواثق ومن رؤوس المعتزلة.
٧. عبد الله بن محمد بن يزيد الخليجي، كان فقيهاً على مذهب أبي حنيفة، وكان يقول بخلق القرآن[6].

الفريق الثاني: وهم الذين عارضوا مذهب المعتزلة وعانوا في ذلك معاناة كبيرة، حتى إن بعضهم عُذب وسُجن ووصل الحد ببعضهم إلى دفع حياته ثمناً لمعارضته لفكر المعتزلة، ويمكن ذكر أبرز هؤلاء العلماء:

---

(١) الإمام ابن الجوزي، (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء، ص١٧٤.
(٢) ابن منظور، مختصر، ج٢٧، ص٤٢-٤٣.
(٣) ابن تغري بردي، النجوم، ج٢، ص٣٠٧.
(٤) الحنبلي، شذرات، ج٢، ص١١٣-١١٤.
(٥) Farowq Omar Fawsi, studies on the history of sects in medieval Islam, Al Albayt university, Jordan, 2001, p.124.
(٦) الخطيب البغدادي، تاريخ، ج٧، ص٢٤٠؛ أبو يعلى، طبقات الحنفية، ج١، ص٢٩٠.

١. الإمام أحمد بن حنبل:

هو الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن شيبان، ولد في بغداد سنة ١٦٤هـ/٧٨٠م، وهو إمام المحدثين في عصره، صنف مسنده الذي جمع فيه الحديث[١]، دُعي الإمام أحمد إلى القول بخلق القرآن في عهد المأمون، ولكنه رفض وحبس وظل في السجن دون أن يثنيه عن رأيه وظل على معارضة لرأي فيما يخص القرآن، وفي عهد الخليفة المعتصم طلبه إلى مجلسه كما مرَّ سابقاً وأحضر له الفقهاء فناظروه، فلم يجب فضرب وحبس سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م، وبقي في الحبس إلى أن مات الخليفة المعتصم، فلما ولي الخليفة الواثق بالله منعه من الخروج من داره إلى أن أخرجه المتوكل وخلع عليه[٢]، وفي أثناء اشتداد المحنة أيام الخليفة الواثق بالله جاءه بعض الفقهاء واستشاروه في الثورة والخروج على الخليفة، فرفض الإمام أحمد ذلك، ونصحهم بالإنكار، وإلا يعرضوا أنفسهم إلى الهزيمة والقتل ونصحهم بالصبر[٣]. ولم يذهب الواثق بعيداً في معاملة واضطهاد أحمد بن حنبل، ويعود ذلك كما يبدو لأسباب أولها: أن الواثق كان عارفاً أنه مع تعذيب الإمام أحمد واضطهاده لم يغير وجهة نظره وموقفه من خلق القرآن، وثانيها: أن الخليفة

(١) عن سيرة الإمام أحمد بن حنبل المفصلة انظر ابن خلكان، وفيات، ج١، ص٦٣، التميمي، المحن، ص٤٣٨، ابن حجر العسقلاني، (ت٧٧٣-٨٥٢هـ/١٣٧١-١٤٤٨م) أطراف مسند الإمام أحمد، ج١، ص٣٧-٤٣، ابن جزية البغدادي، (ت٤٩٣هـ) مختصر تاريخ بغداد، ص١٢٧، ابن كثير، البداية، ج٩، ص٣٢٥-٣٤٢، ألسبكي، (ت٧٢٧-٧٧١هـ/١٣٢٦-١٣٦٩م) طبقات الشافعية الكبرى، ج٢، ص٢٢، جلال الدين السيوطي، (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) طبقات الحفاظ، ، ص١٨٦، القاضي أبي يعلى، طبقات الحنابلة، ، ج١، ص، Fawzi, studies, p.272؛ أحمد، موقف، ص٣٩٦، عاشور، دراسات، ص٤٨، الشكعة، الإمام، ص١٦١، ختام القرعان، الفكر التربوي عند الإمام أحمد ص٤.

(٢) إسحاق بن حنبل، ذكر محنة الإمام أحمد، ١٩٨٣، ص٧٢-٧٣.

(٣) ابن حثلين، الفقهاء، ص١٣٢-١٣٣، أمين، موسوعة، ج٣، ص١٦١.

خشي من ردة فعل العامة المتعاطفين مع الإمام أحمد لو استمر في تعذيبه(١). وثالثها أن الشيخ الأذرمي الذي ناظر ابن أبي دؤاد وهزمه في تلك المناظرة، قد قلل من شأن ابن أبي دؤاد ومذهب المعتزلة في عين الواثق كما سيتضح لاحقاً.

٢. **أحمد بن نصر الخزاعي** :

الذي سيأتي الحديث عنه لاحقا إن شاء الله

٣. **أبو يعقوب يوسف البويطي**:

هو أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي، صاحب وتلميذ الإمام الشافعي(٢)، ينسب إلى قرية بويط في صعيد مصر، وقد قام البويطي مكان الشافعي بمصر بعد وفاته في الدرس والإفتاء(٣)، ولما كانت المحنة في خلق القرآن حُمل الإمام البويطي على بغلة من مصر مقيداً فلما وصل إلى العراق أُريد منه القول بأن القرآن مخلوق فامتنع عن ذلك ولم يجب فبقي في السجن، وكان وهو مسجون إذا سمع المؤذن يوم الجمعة اغتسل ولبس ثيابه ومشى حتى يبلغ باب السجن فيقول له السجان أين تريد فيقول أجيب داعي الله فيقول: ارجع عافاك الله فيقول: اللهم إنك تعلم أني قد أجبت داعيك فمنعوني(٤).

٤. **نعيم بن حماد**:

من العلماء الذين امتحنوا بخلق القرآن نعيم بن حماد الخزاعي الحافظ، أحد علماء الأثر، امتُحن فلم يجب فحبس وقيد ومات في الحبس سنة ٢٢٩هـ

(١) Patton, W. M., Ahmad bin Hanbal and the Mihna, Leiden, 1897, p.119.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ، ج١٤، ص٢٩٩–٣٠٢، ابن الجوزي، المنتظم، ج١، ص١٧٤، أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٦، الترمانيني، أحداث، ص٣٠٧، القلقشندي، مآثر، ج١، ص٢٢٧.

(٣) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٤، ص٢٦، ابن خلكان، وفيات، ج٧، ص٦١–٦٤.

(٤) الذهبي، العبر، ج١، ص٣٢٣، اليافعي، مرآة، ج٢، ص٧٧، ابن الوردي، تاريخ، ج١، ص٣٠٦، ابن كثير، البداية، ج٩، ص٣٣٥، الحنبلي، شذرات، ج٢، ص٧١–٧٢، السبكي، طبقات، ج٢، ص١٦٢–٢٦٥.

رحمه الله تعالى[1].

5. **بكار بن الحسن بن عثمان بن زياد بن عبد الله العنبري.**

وهو من فقهاء السنة الذين امتحنوا في أيام الواثق بالله، ولكنه لم يجب بأن القرآن مخلوق فأوذي[2].

وكان يقول "عيون الناس ممدودة إليَّ فإن أجبت أخشى أن يجيبوا ويكفروا" وقد تجهز للثورة على الخليفة الواثق فلما تهيأ لها جاءه خبر وفاة الخليفة، وقد توفي سنة ٢٣٨هـ رحمه الله[3].

6. **عفان بن مسلم بن عبد الله البصري.**

سكن بغداد ورفض القول بخلق القرآن زمن الخليفة الواثق بالله[4]، وهو من الفقهاء الذين امتحنوا في عهد الواثق بالله ولكنه لم يجب بخلق القرآن.

7. **أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد الأذرمي.**

امتحن ولم يجب[5]، وناظره مع القاضي ابن أبي دؤاد بحضور الخليفة الواثق، وانتصر على أبي دؤاد في المناظرة وكان سبباً في تراجع الخليفة عن الاعتزال.

8. **الحارث بن مسكين:**

وهو فقيه ومحدث عاش في مصر، كان مولده سنة ١٥٤هـ/٧٦٦م، رفض القول بخلق القرآن فحمل إلى مصر في عهد المأمون وسجنه فبقي في السجن

---

(١) الذهبي، العبر، ج١، ص٣١٨، الذهبي، دول، ج١، ص١٠٧، ألسبكي، طبقات، ج٢، ص٥٣، الترمابيني، أزمنة، ج١، ص٩٠٦، ابن حثيلين، الفقهاء، ص١٣٣؛ Kassasbeh, the office, p.119.

(٢) ابي الشيخ الأنصاري (ت٢٧٤-٣٦٩هـ/٨٦١-٩٧٩م) طبقات المحدثين بأصبهان،ج٢، ص١٣١-١٣٢، تقي الدين التميمي، طبقات المحدثين، ج١، ص١٦٨.

(٣) الشيخ الأنصاري، طبقات المحدثين، ج٢، ص١٣١.

(٤) التميمي، المحنة، ص٤٣٦.

(٥) السيوطي، تاريخ، ص٣٤١-٣٤٢.

حتى أطلقه المتوكل وأكرمه وأعاده إلى مصر وعينه قاضياً عليها، توفي سنة ٢٥٠هـ/٨٦٠م[١].

٩. **إبراهيم بن هاني أبو إسحاق النيسابوري:**

كان ورعاً صالحاً صبوراً، رفض مذهب الاعتزال ومدحه الإمام أحمد بن حنبل وقال عنه "إن كان في البلد رجل من الأبدال فأبو إسحاق النيسابوري"[٢].

١٠. **حنبل بن أحمد بن حنبل:**

رفض فكر المعتزلة وكان يقول "القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق ولا يوصف الله بشيء أكثر مما وصف به نفسه عز وجل"[٣].

أما العامة فلم يستجيبوا لسياسة الخليفة الواثق في فرض الاعتزال عليهم وكرهوه وكرهوا هذا الفكر، يشير المسعودي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م) لذلك بالقول: "شغل نفسه بمحنة الناس في الدين فأفسد عليهم قلوبهم وأوجدهم السبيل في الطعن عليه"[٤]، وذلك بمشورة ودعم من حاشيته والمقربين إليه، فقد بقي المعتزلة هم أصحاب النفوذ والسلطان، ومن أشهرهم أحمد بن أبي دؤاد قاضيه[٥]، ووزيره محمد بن عبد الملك الزيات[٦].

لقد كانت سياسة التشدد في فرض هذا المذهب وما رافقه من كبت وعنف سبباً في ظهور ردة فعل عنيفة في بغداد، إلى القيام بثورتين:

١. في سنة ٢٢٧هـ/٨٩٠م ثار جماعة من عامة الناس في بغداد على أبي صالح شعيب بن سهل الرازي الذي كان إمام مسجد الرصافة؛ الذي كان

(١) الذهبي، سير، ج١٢، ص٥٤.
(٢) الذهبي، طبقات الحفاظ، ج١، ص٩٧.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٤٣.
(٤) المسعودي، التنبيه، ص٣٢٩، انظر، محل، رسوم، ص١٥٥.
(٥) ألسبكي، طبقات، ج٢، ص٦١.
(٦) ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص١٠٣.

يتبنى مذهب الاعتزال ويمتحن الناس في خلق القرآن؛ فقام العامة بردة فعل ضد هذا الرجل فقاموا بإحراق داره ونهبوا منزله وحاولوا قتله لكنه هرب منهم[١].

٢. حركة أحمد بن نصر الخزاعي: هو أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي، كان جده مالك من نقباء الدعوة العباسية[٢]، تناولت كثير من المصادر قصة قتله، حيث اعتبرته شهيد زمانه، ووصفوه بأنه كان من أهل الحديث قائماً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٣]، ونعته آخر بأنه كان إماماً قوالاً للحق[٤]، وقد أسهبت المصادر في الحديث عنه وعن الحركة التي قام بها في بغداد[٥]. فوصفه الذهبي: " بالإمام الكبير الشهيد... كان أمَّاراً بالمعروف قوَّالاً للحق"[٦]. وقال عنه السبكي "الإمام أحمد بن نصر ذو الجنان واللسان والثبات وإن اضطرب المهند واللسان والوثبات كان شيخاً جليلاً قوالاً بالحق أماراً بالمعروف نهاءاً عن المنكر"[٧].

أما تفاصيل هذه الثورة فقد وردت مفصلة عند الخطيب البغدادي

(١) وكيع، أخبار، ج٣، ص٢٧٧.
(٢) الطبري، تاريخ، ج٥، ص٢٨١، البغدادي، الفرق، ص١٦٣، مسكويه، تجارب، ج٤، ص٩٥–٩٨، ابن واردان، تاريخ، ص٥٦٢–٥٦٣، السبكي، طبقات، ج٢، ص٥١، ابن كثير، البداية، ج٩، ص٣٠٥، ابن العماد، شذرات، ج٢، ص٦٩، البكجري، مختار، ص١٣٥.
(٣) السيوطي، تاريخ، ص٣٤٠.
(٤) الذهبي، دول، ج١، ص١٠٧، ابن الجوزي، المنتظم، ج١١، ص١٦٥.
(٥) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٤٨٢، الدميري، تاريخ، ص١٠٨. ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٢، ص٣٣٧، الخطيب البغدادي، تاريخ، ج٥، ص١٧٣، النويري، نهاية، ج٢٢، ص٢٦٥، رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية في بغداد، ص٨٠، ، هناء الضمور، الحياة العلمية والثقافية في سامراء، رسالة، ص٨٠.
(٦) سير، ج١٠، ص٣٠٦.
(٧) ألسبكي، طبقات الشافعية، ج٢، ص٥١.

(ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م):

ففي سنة ٢٣١هـ/٨٤٥م اجتمع أهل بغداد يطلبون من أحمد بن نصر قيادة ثورتهم ضد الدولة وبمساعدة الميسورين من أهل بغداد، وخُصصت مبالغ مالية لهذه الثورة، حيث يذكر الطبري أنه أُعطي "كل رجل منهم ديناراً ديناراً"[1].وحدد موعد لقيام هذه الثورة التي أُفشي سرها بسبب شرب بعض أتباعها من العامة النبيذ[2]. فتم القبض على أحمد بن نصر، فحمل من بغداد إلى الخليفة في سامراء، وهناك حدث حوار بين الواثق بالله وأحمد بن نصر، وهذا نص الحوار:

الواثق: ما تقول في القرآن؟

أحمد بن نصر: هو كلام الله.

الواثق: أمخلوق هو؟

أحمد بن نصر: هو كلام الله.

الواثق: أفترى ربك يوم القيامة؟

أحمد بن نصر: كذا جاءت الرواية.

الواثق: ويحك يُرى كما يُرى المحدود المتجسم يحويه مكان ويحصره الناظر. أنا أكفر برب هذه صفته "الواثق يخاطب الحاشية: ما تقولون فيه؟" عبد الرحمن بن إسحاق القاضي على الجانب الغربي ببغداد هو حلال الدم.

ابن أبي دؤاد: "كان كارهاً لقتل أحمد بن نصر": يا أمير المؤمنين شيخ مُختل لعل به عاهة أو تغير عقل يؤخر أمره.

الواثق: ما أراه إلا مؤدياً لكفره قائماً بما يعتقده منه، فطلب الواثق

(١) الطبري، تاريخ، ج٥، ص٢٨٢.

(٢) المصدر نفسه، تاريخ، ج٥، ص٢٨٢.

بالصمصامة[1]، وقال إذا قمت إليه فلا يقومن أحد معي فإني أحتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد رباً لا نعبده ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها، ثم أمر بالنطع وأُجلس عليه وهو مقيد وأمر بشد رأسه بحبل، وأمرهم أن يمدوه ومشى إليه حتى ضرب عنقه وأمر بحمل رأسه إلى بغداد فنصب في الجانب الشرقي. وأمر الواثق أن تعلق ورقة في أذنه مكتوب عليها: "بسم الله الرحمن الرحيم: هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك دعاه عبد الله الإمام هارون إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه فأبى إلا المعاندة فجعله الله إلى ناره"[2].

وكان مقتل أحمد بن نصر يوم السبت في شهر رمضان وهو صائم سنة ٢٣١هـ/٨٤٥م، حيث صلب جسمه في سامراء وبعث رأسه، ونُصب في بغداد ولم يزل منصوباً ست سنين حيث أمر الخليفة المتوكل بالجمع بين رأسه وجسده، ودفن في الجانب الشرقي من بغداد[3].

وبعد قتل أحمد بن نصر أمر الواثق بتتبع أنصاره فسجن منهم حوالي خمسين رجلاً حيث تم قيّدوا بالحديد ومنع ذووهم من زيارتهم[4].

وتتطرق بعض المصادر إلى أسباب أُخرى أدت إلى قتل أحمد بن نصر تعدت ذلك الحوار ويمكن إجمالها بأن أحمد بن نصر قد استفز الخليفة الواثق حيث قال له:

"ما أنت والعلم إنما أنت نطفة سكران في رحم قينة، فأمر الواثق بقتله"[5]، ويبدو أن مثل هذا الطعن بنسب الخليفة لا يمكن أن يصدر من

---

(١) الصماصمة: هو السيف الذي ينثني يعود السيف إلى عمرو بن معد يكرب، انظر، الطبري، تاريخ، ج٥، ص٢٨٣–٢٨٤؛ نعمان ثابت، العسكرية في عهد العباسيين، ، ص١٥٠.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ، ج٥، ص١٧٣–١٧٩، وقد ورد حوار مشابه عند ابن الأثير الكامل، ج٥، ص٢٧٤، ابن كثير، البداية، ج٩، ص٣٠٤، الذهبي، طبقات، ج١، ص٨٠–٨٢، السيوطي، تاريخ، ص٣٤٠–٣٤١.

(٣) ابن الجوزي ت٥٩٧هـ، صفة الصفوة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٩م، ج٢، ص٣٣٧–٣٣٨.

(٤) الطبري، تاريخ، ج٥، ص٢٨٤، ابن كثير، البداية، ج٩، ص٣٠٥.

(٥) التميمي، المحن، ص٢٤٧.

الفقيه أحمد بن نصر.

وهناك من ذكر أن أحمد كان ينعت الخليفة بالخنزير والكافر(١)، وأنه خاطب الخليفة بالقول: "يا صبي"(٢) وأغلظ عليه في الخطاب(٣)، أما الدراسات الحديثة فقد تباينت في سبب مقتله فمنهم من اعتبر مقتل أحمد دلالة واضحة على قوة وتصميم الفقهاء على مقاومة فكر الاعتزال حتى ضحى بعضهم بنفسه(٤)، ورأت بعض الدراسات أن سبب مقتل أحمد يعود لأسباب تتعلق بسلامة الدولة أكثر من كونها عقائدية، ذلك أن الخليفة لم يقتل أحمد بن حنبل المعروف بصلابته في معارضة عقيدة الدولة(٥)، وهناك من اعتبر مقتله يعود لسبب سياسي وليس لخلاف أيديولوجي مذهبي(٦)، وبمقتل أحمد ظهرت ملاحم أسطورية أخذت تسري بين الناس عن أنه بعد صلبه على عود في بغداد رآه الناس يحرك رأسه نحو الكعبة ويتكلم الشهادة(٧).

يبدو أن الخليفة الواثق تراجع عن الاعتزال قبل وفاته على ما ذكرت كثير من المصادر(٨) وبعض الدراسات الحديثة(١)، وقد استندوا في هذا الرأي

(١) ابن خلدون، العبر، ص٧٥١.
(٢) الذهبي، دول، ج١، ص١٠٧، الذهبي، العبر، ج١، ص٣٢١.
(٣) اليافعي، مرآة، ج٢، ص٧٦.
(٤) جدعان، المحنة، ص١٧١، عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية ، ص٣٦.
(٥) فاروق عمر فوزي، العباسيون الأوائل، ج٢، ص٥٢٥، (سيشار إليه تاليا: فوزي، العباسيون).
(٦) Kassasbeh, The office, p.118.
(٧) عبد الملك، سمط، ج٣، ص٤٥٨، ألسبكي، طبقات، ج٤، ص٥٢–٥٥، أبو يعلي، طبقات، الحنابلة، ج١، ص٨٠–٨٢.
(٨) الخطيب البغدادي، تاريخ، ج١٤، ص١٦، ابن منظور، مختصر، ج٢٧، ص٤٥، ابن الجوزي، المنتظم، ج١١، ص٣٦٠–٣٦٧، الذهبي، دول، ج١، ص١٠٩، ألسبكي، طبقات، ج٢، ص٥٩–٦٠، ابن كثير، البداية، ج٩، ص٣٠٩–٣١٠، الدميري، تاريخ، ص١٠٨–١١٠، القرماني، أخبار، ج٢، ص١٠٧، عبد الملك، سمط النجوم، ج٣، ص٤٥٩–٤٦٠، ابن واردان، تاريخ، ص٥٦٢، مقديش، نزهة، ج١، ص٢٥٥.

إلى الرواية التي أوردها ابن الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) للحوار الذي دار في مجلس الخليفة الواثق بالله مع الشيخ عبد الله بن محمد الأذرمي بأنه هو السبب في نهاية الاعتزال.

(بحضور الخليفة الواثق بالله) جيء بالشيخ الأذرمي مقيداً.

ابن أبي دؤاد: يا شيخ ما تقول في القرآن أمخلوق هو؟

الشيخ: لم تنصفني المسألة، أنا أسألك قبل الجواب هذا الذي تقوله يا ابن أبي دؤاد من خلق القرآن، شيء علمه رسول الله – ﷺ – وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي –رضي الله عنهم– أو جهلوه.

ابن أبي دؤاد: بل علموه.

الشيخ الأذرمي: فهل دعوا إليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا.

ابن أبي دؤاد: بل سكتوا.

الشيخ الأذرمي: فهلا وسعك ما وسعهم من السكوت.

فسكت ابن أبي دؤاد وأعجب الواثق كلامه وأمر بإطلاق سبيله، وقام الواثق من مجلسه وهو يردد (هلا وسعك ما وسعهم)، يكرر هذه الكلمة؛ وهي من أسباب خُمود الفتنة[٢].

يلاحظ أن مناظرة الشيخ الأذرمي هذه قامت على مرحلتين هما:

المرحلة الأولى: العلم، فقد سأل الشيخ الأذرمي القاضي بن أبي دؤاد: هل علم النبي ﷺ وخلفاؤه هذه البدعة، فأقرَّ ابن أبي دؤاد بعلم الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين لها؛ وابن أبي دؤاد ليس أمامه غير هذه الإجابة، فإذا كانوا لا يعلمونها ففي ذلك حجة عليه، وهل يمكن أن يحجب الله عن رسوله

---

(١) طقوش، تاريخ، ص١٥٣، محمد ماهر، حمادة، الوثائق السياسية، ص٣٨٧؛ Kassasbeh, the office, p.119; Carl Brockelman, p.132؛ شاكر الدولة، ص٢٣١، الهاشمي، الخلافة، ص٣٥٠–٣٥٢، الشكعة الإمام، ص١٦٢، عبد الحسين، المحنة، ص٣٩٨.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ، ج١٤، ص٢٩٩–٣٠٢.

أمراً من الشريعة ويفتحه لابن أبي دؤاد.

المرحلة الثانية: إن كان الرسول ﷺ قد علم هذه المقولة فهل أمكنه أن يدعو الناس إليها أم لم يمكنه؟ فكانت إجابة ابن أبي دؤاد أن الرسول ﷺ علمها، ولكنه سكت عنها، ولم يدعو الناس إليها.

فكان رد الشيخ الأذرمي على القاضي بن أبي دؤاد أنه قال له: سكت عنه الرسول ﷺ فلمَ لا تسكت عنه أنت؟.

كما أنه أشار صراحة إلى أن الواثق قد تاب عن القول بخلق القرآن (وأوشك أن يكتب بذلك كتاباً)[1] وهناك إشارات وردت في المصادر حول الموضوع ذاته بأن الواثق رجع عن الاعتزال بعد تلك المناظرة ولم يمتحن بعد ذلك أحداً[2].

وقد أورد السبكي (ت٧٧١هـ) خبراً يفيد أنه دخل على الواثق رجل يُدعى عُبادة وقال يا أمير المؤمنين: أعظم الله أجرك في القرآن، فقال الواثق: ويلك القرآن يموت؟ قال يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت، بالله يا أمير المؤمنين من يصلي بالناس التراويح إذا مات القرآن؟

فضحك الخليفة وقال: قاتلك الله أمسك[3].

ولكن المصادر لم تشر صراحة إلى أن الواثق أبطل الاعتزال، ويبدو أن السبب في عدم تصريح الخليفة الواثق بإبطال مذهب الاعتزال هو أن رجال الإدارة في عهده كانوا سبب ذلك.

وقد عُرف الخليفة المتوكل بأنه هو الذي أبطل مذهب المعتزلة وأحيا

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ، ج١٤، ص١٦.
(٢) ابن منظور، مختصر، ج٢٧، ص٤٥.
(٣) ألسبكي، طبقات، ج٢، ص٦٠.

مذهب أهل السنة والجماعة[1]. قال الديار بكري (ت٩٦٦هـ/١٥٥٩م): "الخلفاء ثلاثة أبو بكر الصديق رضي الله عنه في قتل أهل الردة، وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم، والمتوكل في إحياء السنة وإماتة التجهم"[2].

حيث أوضح المسعودي موقف الخليفة المتوكل من المعتزلة في قوله "لما أفضت الخلافة إلى المتوكل أمر بترك النظر والمباحثة في الجدال والترك لما عليه الناس في أيام المعتصم والواثق وأمر الناس بالتسليم والتقليد وأمر الشيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة"[3].

وفي سنة ٢٣٧هت/٨٥١م أمر الخليفة المتوكل بإنزال جثة أحمد بن نصر الخزاعي فأنزلت وضم رأسه إلى جسده، فدفن يوم عيد الفطر من تلك السنة، واستدعى الإمام أحمد بن حنبل وقربه إليه وأكرمه[4].

أباطيل المعتزلة والرد عليها:

موقفهم من الحديث والمحدثين: هاجم المعتزلة الحديث النبوي الشريف وكذبوا المحدثين الذين رووا أحاديث لا توافق هواهم، وخاصة الأحاديث التي تؤكد رؤية المؤمنين الله عز وجل يوم القيامة، وأحاديث الصفات والقدر ومن هذه الأحاديث التي رفضوا الأخذ بها ما رواه البخاري، أن رسول الله ﷺ قال:"إنكم سترون ربكم عيانا"[5].

إنكار المعتزلة الشفاعة: أنكر المعتزلة شفاعة الرسول ﷺ لأهل الكبائر من المسلمين يوم القيامة، حيث ذكر الأشعري أن المقصود بهذه الشفاعة:"أن

---

(١) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٤٨٤؛ الدميري، حياة الحيوان، ج١، ص٢١٨؛ الذهبي، دول، ج٢، ص١٠٩؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١١، ص٢٥١؛ العلي، سامراء، ص٢٤–٢٥.

(٢) الديار بكري (ت٩٦٦هـ/١٥٥٩م)، تاريخ الخميس.

(٣) المسعودي، مروج، ج٢، ص٣٩١.

(٤) ابن الجوزي، مناقب، ص٣٥٨.

(٥) صحيح البخاري، ٧٤٣٦، ج١٧، ص١٩٩٦.

النبي يشفع عند الله عز وجل في أن يزيد المؤمنين من فضله لا في أن يدخلهم جناته"[1]، وبهذا الموقف يكون المعتزلة قد أنكروا أمرا ثبت في السنة النبوية الصحيحة، حيث قال الرسول ﷺ: "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي"[2].

إنكار المعتزلة عذاب القبر: وفي هذا يذكر القاضي عبد الجبار "أن الميت حين يدفن لا يسمع ولا يبصر ولا يدرك فكيف يجوز عليه المسألة والمعاقبة بعد الموت، وأنكر مشايخنا عذاب القبر في كل حاله"[3] وهذا مخالف صراحة لما ثبت في السنة النبوية حيث عقد الإمام البخاري بابا في كتاب الجنائز ترجم له بالقول: باب ما جاء في عذاب القبر[4].

موقفهم من الجنة والنار: لقد وصل مروق وانحراف بعض رجالات المعتزلة كأبي الهذيل العلاف إلى حد القول بفناء نعيم أهل الجنة وفناء عذاب أهل النار.وقد رد علماء اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالقول:"قامت الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة على أن النار لا تفنى وعلى تخليد الكافرين في النار وأنهم لا يخرجون منها....أما الجنة فيتمتع من دخلها متاعا حقيقيا حسيا وروحيا ويحيون فيها حياة أبدية فلا فناء ولا خروج منها ولا انقطاع لنعيمها بالنصوص القطعية وإجماع أهل العلم والإيمان[5].

قال تعالى: ﴿ إلا بَلاغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾[6].

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ج٢، ص١٦٦.
(٢) صحيح مسلم، ج١، ص١٩٥، صحيح البخاري ج٣، ص٤٧٣.
(٣) فضل الاعتزال، ص٢٠٢.
(٤) صحيح البخاري، ج٣، ص٤٧٣.
(٥) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع الشيخ احمد الدرويش، ١٤٢١، ج٣، ص٣٥٤.
(٦) سورة الجن، اية٢٣.

قال تعالى: ﴿ لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[1].

الطعن في الخلفاء و الصحابة:

موقفهم من خلفاء المسلمين:

تعرض المعتزلة للخلفاء الراشدين، فقال بعضهم إن الخلافة بد وفاة الرسول ﷺ كانت لعلي رضي الله عنه وإن الأمة ضلت حين بايعت غيره[2]. وقد قال بعضهم إن أحد الفريقين المتخاصمين في موقعة الجمل فاسق لا محالة[3].

وقد علق واصل بن عطاء على مقتل عثمان بقوله إنه لا يعرف: هل كان عثمان مخطئاً أم قاتلوه[4]. وقال بعضهم عن أبي هريرة إنه كان:"اكذب الناس"[5]، ومن الأقوال التي نسبت إلى واصل بن عطاء أنه قال:"لو شهدت عندي عائشة وعلي وطلحة والزبير على باقة بقل لم أحكم بشهادتهم"[6].

اتهم بعض رجال المعتزلة الصحابة بإيثار الهوى على الدين ووقوع الفاحشة فيهم[7] مخالفين بذلك المنهج الحق منهج السنة والجماعة الذين يجمعون على عدالة الصحابة.

وأن الطعن فيهم هو آية من آيات الزندقة والخروج على الإسلام[8].

وجاء في فتاوى اللجنة الدائمة:صحابة رسول الله ﷺ خير هذه الأمة وقد أثنى الله عليهم في كتابه[9].

---

(١) سورة الحجر، اية٤٨.
(٢) الأشعري،مقالات، ج٢، ص١٤٣.
(٣) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص٢٠.
(٤) البغدادي،الفرق، ص٩٩.
(٥) المصدر السابق، ص١٣٣.
(٦) الشهرستاني،الملل، ص٦٥.
(٧) الشهرستاني،الملل والنحل، ج١، ص٦٥.
(٨) الخطيب البغدادي،الكفاية في علم الرواية، ص٧.
(٩) فتاوى اللجنة الدائمة، ج٣، ص٢٨٦.

قال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(١).

وقال رسول الله ﷺ: " لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحد ولا نصفه"(٢).

موقف أهل السنة والجماعة من المعتزلة:

لقد رفض أئمة الفقه الإسلامي علم الكلام رفضا قاطعا فذهب الإمام الشافعي والإمام مالك والإمام احمد وسفيان الثوري رحمهم الله وجميع أهل الحديث من السلف الصالح إلى حد تحريم الاشتغال بهذا العلم والنفور منه(٣)، وينسب إلى الإمام الشافعي رحمه الله قوله: " لأن يلقى الله عبد بكل ذنب ما خلا الشرك خير من أن يلقاه بشيء من الكلام"(٤).

ويروى عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يكفر المنكرين لأسماء الله وصفاته، لأن أقوالهم مناقضة لما جاء به الرسول ﷺ بشكل ظاهر بين(٥)، وقال القاضي أبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة عن المعتزلة:"هم الزنادقة"(٦).وروي عن عبدا لله بن المبارك أنه قال: " إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية "(٧). وقد تصدى ابن حزم الأندلسي رحمه الله لأباطيل المعتزلة وألف كتابا للرد على زندقتهم أسماه

(١) سورة التوبة، اية ١٠٠.
(٢) البخاري، رقم ٣٦٧٣.
(٣) ينظر الغزالي، إحياء علوم الدين، ج١، ص٩٥.
(٤) طاش كبري زادة، مفتاح السعادة، ج٢، ص١٥٦.
(٥) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٧، ص٦١٨.
(٦) البغدادي، الفرق، ص٣٥١.
(٧) الدار مي، الرد على الجهمية، ص٨.

"الفصل في الملل والأهواء والنحل"، اعتبر فيه أن الشيطان قد تلاعب بعقول المعتزلة وقال: فاعجب لتلاعب إبليس بهذه الفرقة الملعونة وسلوا الله العافية في أن يكلكم إلى أنفسكم "(١)، أما الأشعري فقد وصفهم بأنهم الزائغون عن الحق(٢)، وعرفهم البغدادي بأنهم هم "المعتزلة عن الحق"(٣).

التكفير في فكر المعتزلة: رأى المعتزلة ضرورة اغتيال المخالفين لهم في الرأي، حيث قالوا:"إذا كنا جماعة وكان الغالب عندنا أنا نكفي مخالفينا عقدنا للإمام، ونهضنا فقتلنا السلطان وأزلناه وأخذنا الناس بالانقياد لقولنا، فإن دخلوا في قولنا الذي هو التوحيد وهو قولنا في القدر وإلا قتلناهم"(٤) وقد خالفوا بذلك منهج أهل السنة والجماعة في العلاقة بالحاكم حيث يقول أبو العثماني الصابوني إن أهل الحديث من السنة والجماعة يرون: "الصلوات خلف كل إمام مسلم برا كان أو فاجرا، ويرون الدعاء لهم بالتوفيق والصلاح ولا يرون الخروج عليهم، وان رأوا منهم العدول عن العدل إلى الجور والحيف"(٥).

وعزز هذا الرأي الإمام الطحاوي بقوله: "ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعو عليهم ولا ننزع يدا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة "(٦) ووصل الأمر عند الإمام النووي إلى اعتبار الخروج على الحكام المسلمين "حراماً بإجماع المسلمين وان كانوا فسقةً ظالمين"(٧) واشترط ابن

(١) ابن حزم، الفصل، ج٤، ص١٥٢.
(٢) الأشعري، الإبانة، ص١٣.
(٣) البغدادي، الفرق، ص٩٣، ٩٩.
(٤) ينظر الأشعري، مقالات الإسلاميين، ج٢، ص١٥٧.
(٥) الإمام أبو عثمان الصابوني (ت٤٩٩هـ)، عقيدة السلف أصحاب الحديث، ص١٠٦.
(٦) الإمام الطحاوي، شرح العقيدة الطحاوية، ج٢، ص٥٤٠.
(٧) الإمام النووي، شرح مسلم، ج١٢، ص٢٢٩.

حجر للخروج على الحاكم "إن يقع من السلطان الكفر الصريح"[1].

كما وجه المعتزلة تهما إلى الفقهاء والمحدثين في دينهم ورموهم بالجهل والكفر والتخشع لغير الله[2]، حيث قال الجاحظ عنهم "وليس هؤلاء ممن يفهم تأويل الأحاديث"[3] وبناء على هذا التصور فقد عانى العلماء من اضطهاد المعتزلة فتعرضوا للتعذيب والقتل والسجن وغير ذلك من صنوف العذاب كما يتضح ذلك في هذا البحث.

تأثر المعتزلة بالخوارج:

لبيان تأثر المعتزلة بفكر الخوارج لابد للباحث من العودة قليلا إلى عقيدة الخوارج الذين اعتبروا أنفسهم الممثلين الحقيقيين للأمة الإسلامية واعتبروا أنفسهم أهل العدل في تطبيق قواعد الإسلام ومبادئه[4]، وقد اعتمد الخوارج على القرآن الكريم وتركوا السنة النبوية الشريفة ففهموا القرآن وأولوه حسب أهوائهم، وأجمعوا على أن من لم يعتقد معتقدهم يكفر ويباح دمه وماله وأهله[5].

وقد رفض الخوارج الاعتراف بشرعية الخلفاء، فمنذ ظهورهم رفضوا الاعتراف بأية خلافة لا تقوم على مبدأ الشورى، وكان رأيهم أن الإمام يجب أن يختار من قبل الأمة اختيارا لا إكراه فيه ليس لاعتبار الأصل أو القبيلة أو الجنس، وللأمة حق عزل الإمام إذا أخل بشروط العقد بينه وبين الجماعة، وظل الخوارج مخلصين لأفكارهم هذه فكانوا يثورون كلما سنحت لهم

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج١٣، ص٧.
(٢) الطبري، تاريخ، ج٨، ص٦٣٢.
(٣) الجاحظ، الحيوان، ج٤، ص٢٧٩.
(٤) فاروق عمر، التاريخ الإسلامي، ص٣٧.
(٥) نيل الاوطار ج٧، ص٣٠٤.

الفرصة في العهد الأموي والعباسي[1].

وقد ضمن المعتزلة أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أصولهم بغية الخروج على الحاكم وقتاله[2]. ولكنهم اشترطوا للخروج على السلطان التأكد من القدرة على قتله، كما أنهم قالوا بضرورة اغتيال المخالفين لهم في الرأي كما أوضحنا أعلاه عند الرد على أباطيل المعتزلة.

سقوط المعتزلة وأسبابه التاريخية:

ولما جاء الخليفة المتوكل قام بإجراءات في إطار مناهضته مذهب المعتزلة، فوطد قواعد مذهب أهل السنة والجماعة[3] ففي سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م أصدر المتوكل مرسوما أعلن فيه انتهاء المحنة[4] وفرض حظرا على المناقشة بشأن طبيعة القرآن الكريم من حيث كونه مخلوقا أو غير مخلوق ،وقد أوضح المسعودي موقف الخليفة المتوكل من المعتزلة بالقول "لما أفضت الخلافة إلى المتوكل أمر بترك النظر والمباحثة والجدال فيما عليه الناس في أيام المعتصم والواثق وأمر الناس بالتسليم والتقليد وأمر الشيوخ والمحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة[5] وبذلك أكد المتوكل على مذهب السنة والجماعة مذهباً رسمياً للدولة ، وتبرأ مما كان عليه أسلافه ، وكتب" أن الذمة قد برئت ممن يقول بخلق القرآن "[6] بل وأمر بحبس كل من يقول في علم الكلام [7] ،كما أمر المحدثين بمهاجمة الجهمية والمعتزلة، وأمرهم بإحياء شعائر عديدة كانت

(١) فتحي الشواورة، سياسة الخليفة المهدي الداخلية، ص١٣٧، فتحي الشواورة، خلافة الواثق بالله، ص٣٦.

(٢) الإمام القاضي علي بن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، ج٢، ص٧٩٣.

(٣) اليعقوبي ، تاريخ ،ص٤٨٧،الذهبي ، دول الإسلام ،ج٢،ص١٠٩.

(٤) اليعقوبي ، تاريخ، ص٣٤١.

(٥) المسعودي ،مروج ،ج٢، ص٣٩١.

(٦) المطهر المقدسي ،البدء والتاريخ ،ج٥، ص١٢١.

(٧) ابن كثير ،البداية ،ج١٠، ص٦٧٨.

معروفة منذ زمن الرسول ﷺ، وحثهم على دراسة الحديث النبوي الشريف في سبيل إنعاش مذهب السنة والجماعة. **وعلاوة على ما سبق وفي إطار إجراءات الخليفة المتوكل في إسقاط مذهب الاعتزال اتخذ مجموعة من التدابير تمثلت فيما يلي:**

١- إطلاق سراح المساجين من الذين رفضوا مذهب الاعتزال وأكرمهم وخلع عليهم الكسوة[١] فقد أمر سنة ٢٣٧هـ بتنظيف سجن أخيه الواثق ممن حبسهم في خلق القرآن في كافة الأمصار.

٢- أمر بإنزال جثة أحمد بن نصر الخزاعي الذي كان الواثق قد فصل رأسه عن جسده فصلب الرأس في بغداد والجسد في سامراء ، أمر المتوكل بأن يجمع الرأس والجسد فدفن يوم عيد الفطر سنة ٢٣٧هـ/٨٥١م[٢] وقد تجلت سياسة المتوكل المعادية للاعتزال في التشييع الرسمي الذي أمر به لأحمد بن نصر الخزاعي ،حيث أحيا ذكره بعد ست سنوات من مقتله وأمر بدفنه في احتفال مهيب[٣].

استدعى الإمام أحمد بن حنبل من بغداد إلى سامراء مقر الخليفة وقربه إليه وأكرمه ، ولكن الإمام أحمد استأذن الخليفة المتوكل في الرجوع إلى بغداد وآثر الابتعاد عن السلطان[٤] رافضا هدايا الخليفة الذي خلع عليه من ملابسه الخاصة ، ورفض أن يأكل من طعام السلطان عندما دعاه المتوكل إلى مائدته[٥] وأرسل إليه الخليفة طبيبه الخاص يوحنا بن ماسويه[٦]. وقد أصبح لأحمد بن حنبل رحمه الله مكانة كبيرة عند

(١) اليعقوبي ،تاريخ ، ص٤٨٤.
(٢) ابن كثير ،ج١٠،ص٦٧٩.
(٣) ابن الجوزي مناقب الإمام احمد، ص٣٥٨.
(٤) المقدسي ،البدء ،ج٥،ص١٢١.
(٥) ابن كثير ،البداية ،ج١٠،ص٦٧٩.
(٦) ابن خلكان ،وفيات ،ج١،ص٦٣.

الخليفة، وكان ذلك يعني انتصار المحدثين الذين يمثلون أهل السنة والجماعة، ومن الجدير ذكره أن ذلك النصر قد كافح الفقهاء والمحدثين وعلى رأسهم أحمد بن حنبل وأحمد بن نصر الخزاعي من أجله كثيراً، وبذلوا في سبيله المهج والأرواح. ويمكن القول أن مذهب أهل السنة والجماعة الذي وضع أسسه الخليفة أبو جعفر المنصور لم يكن واضح المعالم في بداية العصر العباسي على اعتبار أن التمسك بالسنة النبوية ضرورة من ضرورات الشرع، فكان الخلفاء الأوائل فوق الميول المذهبي ونظروا إلى الخارجين عن هذا الخط على أنهم جماعات مناوئة لها مطالب لا تخرج عن الإطار السياسي. مع ذلك فقد ادعى المنصور أن العباسيين جاؤوا لإحياء السنة النبوية واتباع كتاب الله في الحكم وأكد على أنه سيحكم الرعية بكتاب الله وسنة رسوله. وكانت دوافع الخليفة أبي جعفر المنصور دينية سياسية في مواجهة الحركات العلوية في عهده كحركة محمد النفس الزكية، حيث حاول المنصور إقامة الدليل على أن بني العباس أحق الناس بالسلطة الدينية والدنيوية على اعتبار أن العباس بن عبد المطلب هو عم الرسول ﷺ وأن بني العباس هم الوارثون وحدهم للرسول، والعم له الأحقية على بني الابنة في الإرث حسب الشريعة الإسلامية وقد أثيرت هذه المناقشات في المراسلات المتبادلة بين الخليفة المنصور ومحمد النفس الزكية[1]، وأكد العباسيون أحقيتهم في الخلافة وحاججوا العلويين: وأنه إذا كان العلويون يسعون إلى الخلافة بسبب القربى فإن العباس رضي الله عنه أقرب قريب إلى الرسول الكريم ﷺ وليس عليا، وإذا كان الأمر بالقرابة فإن في أهل بيت

(١) ينظر الطبري، تاريخ، ج٧، ص٥٦٦.

الرسول الكريم ﷺ من هو أقرب من علي رضي الله عنه، وإن كان الحق بقرابة فاطمة رضي الله عنها فإنه يكون للحسن والحسين رضي الله عنهما وليس لعلي في هذا الأمر وهما حيان، وإذا كان الأمر على ذلك فإن عليا قد ابتزهما جميعا واستولى على ما لا يجب له[١]. وخلاصة القول أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور أراد أن يقاوم أفكار العلويين وثوراتهم بالتأكيد على إحياء منهج سنة الرسول ﷺ، بحكم أن بني العباس هم القرابة الأقربون من غيرهم حتى العلويين، وتعلق إحدى الدراسات الحديثة على موقف الإمام أحمد بن حنبل بالقول: إن الإمام أحمد كان يمثل روح العصر الذي يعيش فيه وإنه أثر في جماهير غفيرة من الناس لصلابته في أثناء المحنة وتشبثه بعقيدته واتزانه وبعده عن السلطان مع أن الخليفة المتوكل حاول أن يغرقه بالهدايا والجوائز[٢] وحين مات أحمد بن حنبل شيعته الدولة تشييعا رسمياً[٣].

٣- أمر الخليفة المتوكل بالاهتمام بالحديث النبوي ونشر السنة وأمر ألاّ يشتغل احد إلا بالكتاب والسنة[٤].

٤- استقدم الشيوخ والمحدثين من كافة الأمصار إلى سامراء وأجزل لهم العطاء[٥] وأمرهم بالتحديث والرد على الجهمية والمعتزلة وأن يحدثوا "بأحاديث الرؤية "[٦] أي رؤية الله عز وجل يوم القيامة.

٥- قام الخليفة المتوكل بالتخلص من رموز المعتزلة مثل وزير أخيه الواثق،

---

(١) الازدي، تاريخ الموصل، ص٣٧٣.
(٢) فوزي، العباسيون، ج٣، ص١٦٨.
(٣) ابن كثير ،البداية ،ج١٠،ص٧٠٢.
(٤) ابن كثير ،البداية ،ج١٠،ص٦٨٧.
(٥) المسعودي ،مروج ،ج٤،ص٨٦،السيوطي ،تاريخ ،ص٤٠٦.
(٦) ابن الجوزي ،المنتظم ،ج١١،ص٢٠٧.

محمد بن عبد الملك الزيات[1] فأمر بالقبض عليه وحبسه مقيدا بخمسة عشر رطلا من الحديد[2] وأمر بتعذيبه بالتنور الذي كان ابن الزيات قد صنعه من الحديد ودق فيه مسامير ليعذب فيه من كان في حبسه من المخالفين له في الاعتزال ، فأدخله المتوكل فيه وأمر بتعذيبه حتى مات[3]. ولا بد من القول في هذا المقام أن العلاقة بين الخليفة المتوكل وابن الزيات كانت سيئة منذ عهد الخليفة الواثق ، لأن ابن الزيات كان يسيء معاملة المتوكل ويهتم بنقل أخباره إلى الواثق من قبل[4].

٦- أمر المتوكل بمراقبة رجالات المعتزلة والتضييق عليهم ومتابعتهم ومطاردتهم والقبض عليهم ،وممن قبض عليه القاضي أحمد بن أبي دؤاد فحبسه مع أولاده وأمر بمصادرة أملاكه وضياعه ،حتى مات سنة٢٤٠هـ[5] والقاضي أحمد كان هو المسؤول المباشر عن محنة الإمام أحمد بن حنبل[6].

٧- استخدام وسائل الدعاية والإعلام المتاحة في ذلك العصر ضد رجالات المعتزلة في الأمصار ،حيث أمر المتوكل والي مصر بأن يحلق لحية قاضيها أبي بكر محمد بن أبي الليث، وأمر بجلده وبأن يطاف به على حمار، وقد علل السيوطي ذلك بأن ابن أبي الليث كان ظالما وأنه "كان من رؤوس الجهمية "[7].

(١) فتحي الشواورة ،خلافة الواثق ،ص٣٦.
(٢) ابن العماد الحنبلي ،شذرات ،ج٢،ص٧٨،ابن العمراني ،الانباء ،ص١١٧.
(٣) الدميري ،حياة ،ج١،ص٧٧.
(٤) ابن الأثير ،الكامل ،ج٦،ص٩٧.
(٥) الخطيب البغدادي ،تاريخ ،ج٢،ص٣٤٢.
(٦) المسعودي ،مروج ،ج٤،ص٩٦.
(٧) السيوطي ،تاريخ ،ص٤٠٦.

٨- أصدر المتوكل مرسوما وزعه في كل أنحاء الدولة العباسية يمنع فيه النقاش في موضوع خلق القرآن ، وهدد من يتكلم في هذا الأمر بالسجن.

لقد تركت سياسة المتوكل الدينية في إنهاء مذهب المعتزلة وإظهار مذهب أهل السنة والجماعة أصداء طيبة عند جمهور العلماء وعامة الناس ،حيث تشير المصادر إلى ذلك بقول بعضهم:

"خلفاء الإسلام ثلاثة أبو بكر يوم الردة وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم والمتوكل على الله في إحياء السنة "(١) ، وقد علق الإمام الذهبي على ما قام به المتوكل بقول بعضهم:

"رفع المحنة بخلق القرآن ، واظهر السنة وأمر بنشر الآثار النبوية ولله الحمد"(٢) وكذلك امتدحه السيوطي وأثنى عليه وعلى ما قام به تجاه إحياء السن(٣).

إن أبرز الأسباب التي أدت إلى سقوط مذهب الاعتزال تكمن فيما يلي:

١- استعمال المعتزلة لأساليب القسر والإجبار في فرض أفكارهم على عامة الناس(٤).

٢- تكفير المعتزلة لمخالفيهم واتهامهم بالكفر والكذب ، ووصمهم أهل الحديث بالجهل ،حيث جاء على لسان ثمامة بن أشرس وهو من رجالات المعتزلة البارزين في عهد المأمون ،إذ قال للخليفة: "ما العامة ؟ والله لو وجهت إنسانا على عاتقه سواد ومعه عصى لساق إليك عشرة آلاف منها"(٥) وفي هذا تحقير للعامة واستخفاف بهم وتسفيه ، وذلك يتناقض مع

(١) الديار بكري ،تاريخ الخميس ،ج٢،ص٣٣٨.
(٢) الذهبي ،دول ،ج٢،ص١٠٩.
(٣) السيوطي ،تاريخ ،ص٤٠٨.
(٤) اليعقوبي ،مشاكلة الناس ،ص٣١،النويري ،نهاية الأرب ،ج٢٢،ص٢٧٥.
(٥) ابن قيم الجوزي ،أحكام ،ص١٢-١٣.

تعاليم المعتزلة التي تقضي باحترام عقل الإنسان وحريته.

٣- المبالغة في إقحام الفلسفة الإغريقية القديمة في الإسلام، والإسراف في الاستدلالات العقلية ،في محاولة إعادة صياغة العقيدة ضمن قالب دخيل لا يتطابق مع تعاليم الإسلام في موضوع الأسماء والصفات ،مما جعل عامة الناس غير قادرين على فهمها وجعل فقهاء الإسلام يرفضونها[1].

وملخص القول أن المدقق في وصف الروايات لجنازة أحمد بن نصر الخزاعي ،بعد ست سنوات من مقتله عندما أمر المتوكل بالجمع بين رأسه وجثته رحمه الله ، والتي خرج فيها خلق كثير من أهل بغداد يدرك مدى الكره الذي كان يكنه العامة لمذهب الاعتزال. ولذلك جاءت إجراءات الخليفة المتوكل هذه تجاه المعتزلة بسبب معارضة عامة الناس لمنهج الاعتزال، الذي خلق الفتن والاضطرابات للدولة العباسية في عهود من سبقوه من الخلفاء.

فتوجه إلى مذهب العامة الذي عجز المأمون والمعتصم والواثق على هزيمته، وبقي صلبا مقاوما، وبذلك أبعد المتوكل نفسه عن الإشكالات التي وقع فيها من سبقوه من الخلفاء، وبهذا وضع المتوكل نفسه في قلوب العامة وكان هذا الخيار هو الخيار الأفضل لرجل الدولة والسياسة، فبدلا من أن يضع نفسه في صفوف القلة من النخب المتفلسفة وجد أنه من الأفضل لسلامة دولته أن ينحاز لصفوف العامة وهم الأغلبية ، وقد علق الخطيب البغدادي على ما فعله المتوكل في هذا السياق بقوله "أطفأ نيران الفتنة وأوقد مصابيح السنة"[2].

(١) احمد أمين ،موسوعة ،ج٢٢،ص١٥٢.
(٢) الخطيب البغدادي ،تاريخ ،ج٧،ص١٧٠.

جدول (١)

أسماء العلماء الذين قاوموا الاعتزال

م	اسم العالم	علمه تخصصه	عصر الخليفة	معلومات عامة
١	أحمد بن حنبل	فقيه ومحدث	الواثق بالله	مُنع من الخروج من داره، ما يشبه بالإقامة الجبرية.
٢	أحمد بن نصر الخزاعي (ت٢٣١هـ)	إمام ومحدث	الواثق بالله	عذبه وقتله وصلبه في بغداد لامتناعه عن القول بخلق القرآن.
٣	إبراهيم بن هاني أبو إسحق النيسابوري (ت٢٦٥هـ)	إمام ومحدث	الواثق بالله	عُذب في عصر الواثق بالله لرفضه القول بخلق القرآن[(١)].
٤	أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي (ت٢٣٠هـ)	فقيه	الواثق بالله	رفض القول بخلق القرآن وبقي محبوساً طيلة عصر الواثق بالله[(٢)].
٥	أبو الفضل جعفر بن حرب الهمذاني (ت٢٣٦هـ)	مفسر للقرآن	الواثق بالله	رفض القول بخلق القرآن[(٣)].
٦	الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف (ت٢٥٠هـ)	فقيه ومحدث	الواثق بالله	سُجن منذ عصر المأمون وبقي في سجنه حتى نهاية عصر الواثق لرفضه القول بخلق القرآن[(٤)].

(١) الذهبي، طبقات الحفاظ، ج١، ص٩٧.
(٢) انظر أعلاه، ص، الخطيب البغدادي، تاريخ، ج١٤، ص٣٠٠.
(٣) الذهبي، سير، ج١٠، ص٥٤٩.
(٤) المصدر نفسه، ج١٢، ص٥٤.

م	اسم العالم	علمه تخصصه	عصر الخليفة	معلومات عامة
٧	بكار بن الحسن بن عثمان بن زياد (ت٢٣٨هـ)	فقيه	الواثق بالله	امتحنه الواثق وسجنه لرفضه القول بخلق القرآن(١).
٨	محمد بن الحارث بن شداد (ت٢٤١هـ)	فقيه	الواثق بالله	امتحن في خلق القرآن وسجن في عصر الواثق بالله(٢).
٩	عبد الله محمد الأذرمي	فقيه	الواثق بالله	سُجن في عصر الواثق ولكنه ناظر ابن أبي دؤاد، وهزمه فأطلق الواثق سراحه(٣).

(١) أبو الشيخ الأنصاري، طبقات المحدثين، ج٢، ص١٣١.
(٢) المصدر السابق، ج١، ص٣٨.
(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٠، ص٧٤-٧٩.

الخاتمة والنتائج

تحرت هذه الدراسة الكشف عن سياسة المعتزلة الداخلية تجاه عامة الناس حتى طبقة العلماء من الفقهاء والمحدثين عندما اعتنق ثلاثة من خلفاء العصر العباسي الأول مذهب المعتزلة (المأمون والمعتصم والواثق) وكيف تعاملوا مع فئة العلماء وموظفي الجهاز الإداري في الدولة، وقد توصل الباحث إلى النتائج التالية:

١- إذا كانت عناصر الحدث التاريخي ثلاثة عناصر هي:الزمان والمكان والشخوص، فإن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه؛ لأن الناس يموتون ويذهب زمانهم، ولا يمكن أن نعيد التاريخ إلى الماضي الحاضر، وان بقي المكان، ولكن الأحداث التاريخية تتشابه، ولهذا أصبح لزاما علينا دراسة التاريخ لنأخذ المواعظ والعبر والفوائد ونضع القوانين، وما أشبه الحاضر بالماضي، ففي الوقت الذي أفرط فيه الخوارج في تكفير الناس بالمعصية، وأفرط المعتزلة في إخراج صاحب الكبيرة من دائرة الإيمان، أفرط التكفيريون في زماننا هذا بتكفير الناس بالمعاصي.

٢- لقد أخفى المعتزلة تحت أصولهم الخمسة، أهدافاً خبيثة بينها البحث في موضعها، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي ستروا تحته مبررات الخروج على ولي الأمر، فشابهوا الخوارج في هذا المنهج.

٣- بين البحث أن سوء التفكير يؤدي إلى التكفير، فلما تلاعب الشيطان بعقول المعتزلة كما بين ابن حزم الأندلسي، كفروا المخالفين لهم من العلماء كأحمد بن نصر الخزاعي، واتهموا الصحابة والمحدثين بالجهل والضلال، وعليه يمكن التأسيس على أن كل من تعد كالحق وتجاوز

حده إلى غير الهدى فهو من أهل الغلو، وغلو المعتزلة في قولهم إن فاعل الكبيرة بمنزلة بين المنزلتين، وقابل هذا التشدد تساهل من المرجئة حين قالوا لا يضر مع الإيمان ذنب، والوسط في المنهج الحق مذهب أهل السنة والجماعة.

٤- ظهر غلو المعتزلة في الاستدلالات العقلية، وظهر غلوهم في العقل، عندما بحثوا في الأسماء والصفات فأدى بهم بحثهم إلى التمثيل والتعطيل، وخالفوا منهج أهل السنة والجماعة الذين أثبتوا ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسول الله ﷺ.

٥- بين البحث أن علماء السنة والجماعة من المحدثين كأحمد بن حنبل انتهجوا نهج المقاومة السلمية عندما تعرضوا للاضطهاد والتنكيل من المعتزلة.

٦- اظهر مذهب المعتزلة ضعفه الشديد وعدم قدرته على الصمود عندما تخلت السلطة السياسية عنه، فكان سريع السقوط وتهاوى بسرعة عندما أعاد المتوكل إحياء منهج المحدثين، في حين أظهر الفقهاء قوة كبيرة في الثبات على الحق، مع ما عانوه من الاضطهاد والتنكيل.

٧- أظهرت المحنة فشل المعتزلة، ونتج عن ذلك أن حصل علماء الحديث على مكانة عالية، وتأثير كبير، وبعبارة أخرى حقق مذهب السنة والجماعة – الذي كان فيه العلماء مصدر السلطة الدينية – نصرا كبيراً.

٨- اظهر فشل المحنة أن مذهب السنة والجماعة كان أشد قوة وتغلغلا في الناس في العصر العباسي الأول، وازداد الناس في ذلك العصر اتباعاً للسنة النبوية وتمسكا بالحق، وأصبح المذهب السني أقوي من المذاهب المبتدعة كالخوارج والمعتزلة والشيعة.

٩- أثبت البحث أن مذهب الاعتزال لو نجح لتحولت الخلافة إلى نظام يلعب

في العقيدة لعب أباطرة بيزنطة في الديانة المسيحية.

وفي نهاية هذا البحث لا يدعي الباحث استيفاء بحثه لكل أطراف الموضوع، ولكنها محاولة وجهد مقل، وفي المنتهى أردد قول الله لرسوله في تبصير عباده حين قال: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً ﴾ [1].

وجزاكم الله خيرا وجعلكم حراسا للعقيدة وحماة للإسلام، وحصنا لثقافة الأمة.

وصلى اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) الإسراء: آية ٥٣.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

- ٢٣الازدي. تاريخ الموصل، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٢م.
- ابن أبي العز، الإمام القاضي علي بن محمد، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق الدكتور عبد الله التركي وشعيب الارناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨م.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، (ت٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد. (ت٥٧٩هـ/١١٨٣م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا.القاهرة ١٩٨٧م.
- ابن الجوزي، الإمام جمال الدين أبو الفرج. (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م). الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الحرمين، الدوحة ١٩٨٢م.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج. (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م). صفة الصفوة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩م.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج، مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ط١، القاهرة ١٩٧٩م
- ابن العبري، أبو الفرج غيريغوريوس الملطي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م). تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت (د.ت).
- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي. (ت١٠٨٩هـ/١٦٨٦م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط١، دار أحياء التراث العربي.
- ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد. (ت٥٨٠هـ). ١٩٧٣م. الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، مطبعة بريل، لندن.

- ابن الوردي، عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تاريخ ابن الوردي، ط١، المطبعة الحيدرية، النجف ١٩٦٩م.
- ابن تغري بردي. (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م). النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٨٤م.
- ابن حجر العسقلاني، الإمام الحافظ أحمد، (ت٧٧٣-٨٥٢هـ/١٣٧١-١٤٤٨م) أطراف مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق زهير الناصر، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٩٣م.
- ابن حنبل، اسحاق، ذكر محنة الإمام أحمد، مطبعة سعدي، القاهرة، ١٩٨٣م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط٦، دار بيت الأفكار، عمان ٢٠٠٦م.
- ابن خلكان، أحمد بن أبي بكر. (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. (ت٢٧٦هـ/٨٨٩م). المعارف، ط١، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- ابن كثير، الحافظ الدمشقي. (ت٧٧٤هـ١٣٧٢م). البداية والنهاية، ط٢، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٩٠م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم المعروف بابن منظور (ت٦٣٠هـ)، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق روحية النحاس، دار الفكر، دمشق ١٩٩٠م.
- ابن واردان. (عاش سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٨م). تاريخ العباسيين، ط١، تحقيق منجي الكعبي، الإمارات (د.ت).
- أبو الشيخ الأنصاري، أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان المعروف (ت٢٧٤-٣٦٩هـ/٨٦١-٩٧٩م) طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها، تحقيق عبد الغفور البلوشي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٨ م.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) المختصر في أخبار البشر،

ط١، المطبعة الحسينية، القاهرة (د.ت)
- أبو يعلى، القاضي أبو الحسين محمد بن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٢ م.
- الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، الجامعة الأردنية، عمان ٢٠٠٦ م.
- الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت٣٣٠هـ/٩٤١م)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ط٢، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٩ م.
- الأصبهاني، أبو نعيم. حلية الأولياء، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٩م.
- الإمام عبد القاهرة بن طاهر بن محمد البغدادي (ت٤٢٩هـ/٨٦٣م) الفرق بين الفرق، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠١م.
- البكجري، علاء الدين بن عبد الله البكجري (ت٧٦٢هـ/١٣٦٠م) مختصر تاريخ الخلفاء، ط١، دار الفجر، القاهرة ٢٠٠١م.
- التميمي، محمد بن أحمد بن تميم. (ت٣٣٣هـ/٩٤٤م). كتاب المحن، تحقيق يحي الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣م.
- الحنفي، تقي الدين عبد القادر التميمي المصري. (ت١٠٠٥هـ/١٥٩٦م). الطبقات السنية في تراجم الحنفية، تحقيق عبد الفتاح الحلو، دار الرفاعي، الرياض ١٩٨٣م.
- الخطيب البغدادي، الحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ/١٠٧م) تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).
- الدميري، الشيخ كمال الدين الدميري (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، تاريخ الخلفاء، ط١، تحقيق محمد الفاضلي، مؤسسة المعارف للمطبوعات، بيروت ٢٠٠١م.
- الدميري، الشيخ كمال الدين محمد بن عيسى بن علي الدميري (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، حياة الحيوان الكبرى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

- الديار بكري، حسين بن محمد الحسن. (ت٩٦٦هـ/١٥٥٩م). تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، مؤسسة شعبان للنشر، بيروت (د.ت).
- الذهبي الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. (ت٧٤٨هـ). دول الإسلام، تحقيق عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩١م.
- الذهبي، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد. (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م). العبر في خبر من غبر، ط١، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.
- الذهبي، الإمام شمس الدين. (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م). تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٥٤م.
- الذهبي، الحافظ شمس الدين. (ت٧٤٦هـ/١٣٤٥م). كتاب دول الإسلام، ط١، دار المعارف النظامية، حيدر آباد.
- السبكي، تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، (ت٧٢٧-٧٧١هـ/١٣٢٦-١٣٦٩م) طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة، (د.ت).
- السيوطي، الإمام الحافظ جلال الدين (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، ط١، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر ١٩٥٢م.
- السيوطي، جلال الدين السيوطي، (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٩٩٤م.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م) الملل والنحل، دار صادر، بيروت، (د.ت)
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، ط٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٥ م.
- عبد الملك المكي، بن حسين بن عبد الملك الشافعي العاصمي (ت١١١١هـ) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ط١، تحقيق عادل أحمد عبد

الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨ م.

- القاضي عبد الجبار (ت٤١٥هـ/١٠٢٤م)، شرح الأصول الخمسة، ط١، تحقيق عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٥٦م.
- القرماني، أحمد بن يوسف. (ت١٠١٩هـ/١٦١٠م). أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ط١، تحقيق أحمد حطيط وفهمي سعيد، دار عالم الكتاب، بيروت ١٩٩٢م.
- القضاعي، القاضي محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي (ت٤٥٤هـ/١٠٦٢م)، تاريخ القضاعي كتاب عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف، تحقيق جميل المصري، ط١، مكة المكرمة ١٩٩٥ م.
- القلقشندى، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندى، (ت٨٢٠هـ) مآثر الأناقة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار عالم الكتاب، بيروت، ١٩٨٠ م.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد. (ت٤٥٠هـ)، نصيحة الملوك، تحقيق محمد جاسم الحديثي، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٦م.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن. (ت٣٤٦هـ/٩٥٦م) التنبيه والإشراف، ط١، مكتبة هلال، بيروت ١٩٨١م.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط٢، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت (د.ت).
- مسكويه، أبو علي أحمد بن يعقوب. (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م). تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق سيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.
- المقدسي، المطهر بن طاهر. البدء والتاريخ المنسوب لأبي زيد البلخي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (د.ت).
- مقديش، محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزوادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨ م.

- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)؛ نهاية الأرب في فنون الأدب، ط١، تحقيق محمد جابر عبد العال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤ م.
- وكيع، محمد بن خلف بن حيان. (ت٣٠٦هـ/٩١٨م). أخبار القضاة، عالم الكتاب، بيروت (د.ت).
- اليافعي، عفيف الدين عبد الله بن أسعد. (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م). مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ط١، تحقيق عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، ط١، دار صادر، بيروت ١٩٧٩.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح. (ت٢٨٤هـ/٨٩٧م). تاريخ اليعقوبي، ط١، دار صادر، بيروت (د.ت).

ثانيا: المراجع العربية:

- إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٨٩م.
- ابن حثلين، سلطان بن خالد. الفقهاء والخلفاء، دار عمار للنشر، عمان ٢٠٠٠م.
- أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية والفكر الإسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٦٤ م.
- أحمد شوقي إبراهيم العمرجي، المعتزلة في بغداد وأثرهم في الحياة الفكرية والسياسية في خلافة المأمون حتى وفاة المتوكل على الله من سنة ١٩٨–٢٤٧هـ/٨١٣هـ–٨٦١م، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- أحمد محمود صبحي، في علم الكلام، ط٤، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٢م.
- أحمد، عبد الحسين علي. موقف الخلفاء العباسيين من أئمة أهل السنة، دار قطري بن الفجاءة، قطر ١٩٨٥م.

- أمين، أحمد. ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- أمين، أحمد. فجر الإسلام. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨٦م.
- أمين، أحمد. موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، دار نوبليس، بيروت ٢٠٠٦م
- حسن أحمد محمود وأحمد الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥م.
- حسن حنفي، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ١٩٨٦ م.
- حسين فلاح الكساسبة، السلطة القضائية في العصر العباسي، ط١، مركز زايد للتراث، الإمارات، ط١، ٢٠٠١م.
- خالد جاسم الجنابي، تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني ٢١٨–٣٣٤هـ/ ٨٣٣–٩٤٥م، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٩م.
- ختام محمود القرعان، الفكر التربوي عند الإمام أحمد بن حنبل، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٢م.
- خير الدين الزركلي، الإعلام، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤م.
- رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية في بغداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسي الأول، جامعة بغداد ١٩٨٢م.
- زهدي جار الله، المعتزلة، المؤسسة العربية للنشر، بيروت ١٩٩٠ م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، دار ذات السلاسل، الكويت ١٩٨٦م.
- السيد عبد العزيز سالم العصر العباسي الأول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٧٧م.
- طلب صبار محل، رسوم دار الخلافة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة صلاح الدين ١٩٨٩م.
- عبد الجبار ناجي وآخرون، الدولة العربية في العصر العباسي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، ٢٠٠٣ م.

- عبـد الجبـار نـاجي وآخـرون، الدولـة العربيـة في العـصر العباسـي، مركـز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، ٢٠٠٣م.
- عبـد الـسلام الترمـانيني، أحـداث التـاريخ الإسـلامي بترتيـب الـسينين، ط١، طلاسدار، دمشق، ١٩٨٨م.
- عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، مكتبة الطليعة، بيروت، ١٩٨٨م.
- العلـي، صـالح أحمـد. سـامراء دراسـة في النـشأة والبنيـة والـسكانية، شـركة المطبوعات للنشر، بيروت (د.ت).
- العوا، عادل. المعتزلة والفكر الحر، دار الأهالي للطباعة، دمشق ١٩٨٧م.
- فتـاوى اللجنـة الدائمـة للبحـوث العلميـة والإفتـاء، جمـع وترتيـب الـشيخ احمـد الدويش، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٢هـ.
- فتحي يوسف الشواورة، تاريخ الدولة العباسية السياسي والحضاري، دار النـشر الدولي، الرياض، ٢٠١١م.
- فتحـي يوسـف الـشواورة، خلافـة الواثـق بـالله، رسـالة دكتـوراه غـير منـشورة، جامعة مؤتة، الأردن، ٢٠٠٨م.
- فتحي يوسف الشواورة، سياسـة الخليفـة المهـدي الداخليـة، رسـالة ماجستير غير منشورة، الأردن، جامعة مؤتة ١٩٩٩
- فهمـي جـدعان، المحنـة بحـث في جدليـة الـديني والـسياسي في الإسـلام، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان ١٩٨٩م.
- فوزي، فاروق عمر. التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، دار اقرأ، بيروت ١٩٨٥م.
- فـوزي، فـاروق عمـر. الخلافـة العباسـية عـصر القـوة والازدهـار، دار الـشروق، عمان، ١٩٩٨م.
- فوزي، فاروق عمر. العباسيون الأوائل، دار مجدلاوي للنشر، عمان ٢٠٠٣ م.
- محمـد عمـارة، المعتزلـة ومـشكلة الحريـة الإنـسانية، ط١، المؤسـسة العربيـة

للنشـر، بيروت ١٩٧٢ م.

- نعمان ثابت، العسـكرية في عهد العباسيين، مراجعة حامد أحمد الورد، بغداد، ١٩٨٦م.
- الهاشمي، عبد المنعم. الخلافة العباسية، دار ابن حزم، بيروت ٢٠٠٣م.
- هنـاء أحمـد محمـود الـضمور، الحيـاة العلميـة والثقافيـة في سـامراء، رسـالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، ٢٠٠١م.

ثالثا: المراجع الأجنبية:

- Brockelman, Carl. History of the Islamic peoples, London, 1984.
- EI^2, Mihna
- Fawsi, Farowq Omar. (2001). Studies on the history of sects in medieval Islam, Al Albayt University, Jordan.
- Fawzi, Farouk Omar. Aspect from Abbasid history, Amman, 2003.
- Sanders, J. A history of Medieval Islam, London, 1982
- Kasassbeh, Hussein F. The office of qadi in the early Abbasid caliphate (132–247/750–861), Amman, 1994.
- Marshall, O. S Hodgson. The venture of Islam, Chicago press, 1982.
- Masudul Hasan, History of Islam, London, 1994.
- Patton, W. M. Ahmad bin Hanbal and the Mihna, Leiden, 1897.
- The Cambridge Encyclopedia of the middle east, London, 1992

ظاهرة التكفير .. الأسباب والعلاج والآثار

الجذور التاريخية لظاهرة التكفير عند الخوارج

النشأة – التطور– الآثار

أ.د. محمد عيسى الحريري

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

العميد الأسبق لكلية الآداب جامعة المنصورة

عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

مؤتمر ظاهرة التكفير .. الأسباب .. الآثار .. العلاج

مقدمة

إن العنـف والإرهـاب الـذي تمارسـه بعـض الجماعـات الـتي تُنْـسَبُ إلى الإسلام، إنما هو إفراز لفلسفة معينة تتبناها هذه الجماعات، التي نسجت لها فقهاً خاصاً بها يعتمد على مجموعة من القواعد الأساسية أخطرها التكفير للمخالفين لهم، وهذا الفقه هو نفسه الفقه الخارجي لدى جماعات الخوارج والذي تعتمد فيه على المتشابهات وتَدَعُ المحكمات من الآيات، وتستند إلى الجزئيات وتهمل الكليات، وتتمسك بظواهر الآيات وتغفلُ المقاصد، كما تغفل ما يعارض هذه الظواهر من نصوص وقواعد، وكثيراً ما تضع الأدلة في غير موضعها، وتُخرجها عن سياقها وإطارها، وتروج هذه الجماعات المتطرفة لذلك كله لدى بعض الأغرار من الشباب والسطحيين من الناس، الذين يقفون عند السطوح ولا يغوصون في الأعماق لإدراك المقاصد، وأقاموا ذلك كله على فكر الخوارج الذي عفا عليه الزمن، هؤلاء الخوارج الذين كانوا يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ويتخذون من التكفير محوراً أساسياً لمذهبهم، ومرتكزاً لأفعالهم الخبيثة في المجتمعات الإسلامية قديماً وحديثاً.

وسوف نتناول في هذه الدراسة تعريفاً بالتكفير والخوارج لغة واصطلاحاً، ونشأة ظاهرة التكفير عند الخوارج، وتطور هذه الظاهرة عندهم، وأثرها في انقسام الخوارج إلى فرق مختلفة، ثم نتناول أثر ظاهرة التكفير عند الخوارج على ما ظهر في الآونة الأخيرة من جماعات وتنظيمات اعتنقت التكفير الخارجي، ودوافع هذه الجماعات وأثرها على المجتمعات الإسلامية محلياً وعالمياً.

تمهيد

يمثل فكر الخوارج ظاهرة سياسية ودينية ثبت خطرها الكبير على المجتمعات الإسلامية، حيث استطاع الخوارج منذ أحداث الفتنة الكبرى التي انتهت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان –رضي الله عنه–، والتي مهدت لظهورهم بما سببته من جرأة على رأس الدولة وخليفتها إلى حد قتله، وتمثل أحداث هذه الفتنة، وما جاء بعدها من أحداث، الجذور الخفية لظاهرة التكفير، التي أصبحت أساساً لكل مبادئهم المعاكسة لكل ما جاء به الإسلام من قيم ومبادئ عظيمة، كان أهم أهدافها تحقيق الأمن والأمان والسلامة للمجتمع الإسلامي، والسلام الشامل بين المجتمع الإسلامي وسائر المجتمعات الأخرى في أنحاء العالم.

مهدت أحداث الفتنة التي انتهت بمقتل الخليفة عثمان –رضي الله عنه– إلى فكرة الخروج على ولي الأمر ورأس الدولة وخليفتها لدى فرقة الخوارج، التي ظهرت بهذا الاسم في زمن الخليفة علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– وبعد ذلك في كل العصور التي تلته وحتى الآن.

وقد حذر رسول الله – ﷺ – من غبار هذه الفتنة القاسية على المجتمعات الإسلامية، حيثما وُجد هؤلاء الخوارج، فعن أبي سعيد الخدري– رضي الله عنه– قال: "بعث علي–رضي الله عنه– إلى النبي – ﷺ –، بذُهَيْبَةٍ، فقسمها بين الأربعة: الأَقْرعِ بن حابسٍ الحَنْظَلِيِّ ثم المجُاشعى، وعُيْيْنَة بن بدر الفِزَارِى، وزيد الطائي، ثم أحد بنى نَبهان، وعلقمة بن عُلاثة العامري، ثم أحد بني كلاب، فغضبت قريش والأنصار، قالوا يُعطي صناديد أهل نجد ويدعُنا، قال– ﷺ– إنما أتألفهم، فأقبل رجل غائر العينين، مُشْرِفُ الوجنتين، ناتئُ

الجَبين، كَثُّ اللحية، مَحْلُوقٌ، فقال: اتق الله يا محمد، فقال – ﷺ –: من يطع الله إذا عصيتُ، أيأمنني الله على أهل الأرض، فلا تَأْمَنُوني؟ فسأله رجل قَتْلَهُ، أَحْسِبُهُ خالدُ بن الوليد، فمنعه رسول الله – ﷺ – فلما وَلىَّ قال ﷺ: إن من ضِئْضِئِ هذا – أو في عَقِبِ هذا– قَوْمٌ يقرؤن القرآن، لا يُجاوزُ حناجرهم، يَمْرُقُون من الدين مُرُوق السَّهْم من الرَمِيَّةِ، يقتلون أهل الإسلام، ويَدعَون أهل الأوثان، لَئِنْ أنا أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عادٍ"[1].

حكم رسول الله – ﷺ – على هؤلاء الخوارج مع كثرة صلاتهم وصيامهم، وقراءتهم للقرآن، وذكرهم لله تعالى، بالمروق من الدين كما يمرق السهم من الرَمية، لأنهم يُكَفِرون من لا يستحق الكفر، ولذلك فمن حكم على أحد بالكفر، وهو ليس كذلك فإنه من الخوارج الذين أمرنا رسول الله – ﷺ – بقتلهم كقتل عاد[2].

ومن المهم هنا أن أشير إلى أن التكفير نشأ متدرجاً وملازماً لأحداث الصراع الذي مرت به حركة الخوارج في صراعهم مع السلطة الشرعية المتمثلة في الخليفة علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– ومن جاء بعده من ولاة أمر المسلمين، فالنظرية الخارجية قامت في أساسها على مبدء التكفير الذي أرسى قاعدة أخرى مهمة لديهم وهي قاعدة البراءة من المخالفين لهم، وأصبح مبدأ التكفير وقاعدة البراءة من المخالفين متلازمين في فكر الخوارج القدماء والمحدثين في هذه الأيام تلازم اللحم والعظم في الجسد الواحد.

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ج٥، ص٣٣٠، ٣٣١، (كتاب بدء الخلق) برقم (٢٩٨٩).

(٢) الفوزان: التكفير وضوابطه، المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ص١٠٨.

التكفير لغة واصطلاحاً:

الكُفْرُ، بالضَّمِّ: نقيضُ الإيمان، وأصل الكُفْرِ من الكَفْرِ بالفتح بمعنى الستر والتغطية، ولذلك يقال رجل كافِرٌ أي جاحد لأنعم الله لأنه مُغطًّى على قلبه. وجمعه كُفَّارٌ وكَفَرَةٌ وكِفَارٌ.

فالكافر عندما دعاه الله إلى توحيده، فقد دعاه إلى نعمة، وأحبها له إذا أجابها، فلما أبى ما دعاه إليه من توحيده كان كافراً نعمة الله أي مغطياً لها بإبائه حاجبا لها عنه.

والنعم التي سترها الكافر هي آيات الله – سبحانه وتعالى– الدالة على توحيده، والتي أبانت لذوي التمييز أن خالقها واحد لا شريك له، وأنه – تعالى– أرسل الرسلَ بالآيات المعجزة، والكتب المنزلة والبراهين الواضحة وهي نعمٌ منه ظاهرة، فمن لم يصدق بها وردَّها فقد كَفَرَ نعمة الله، أي سترها وحجبها عن نفسه[(١)].

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾[(٢)] وقال عز وجل: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[(٣)].

وذكر ابن منظور في لسان العرب، والزبيدي في تاج العروس أن الكفر على أربعة أنواع: كُفْرُ إنكار بألا يَعْرِفَ اللّهَ أصلاً، ولا يَعْتَرِفَ به، وكُفر جُحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق، ومن لقي ربه بشيءٍ من ذلك لم يُغْفَر له، ويَغْفِرُ الله – تعالى– ما دُون ذلك لمن يشاء[(٤)].

فأما كفر الإنكار فهو أن يكْفُرَ بقلبه ولسانه، ولا يعرفُ ما يُذكر له

(1) ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، ج٥، مادة (ك ف ر).

(2) سورة البقرة: الآية (٨٩).

(3) سورة البقرة: الآية (١٤٦).

(4) المصدر السابق، نفس المادة، الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد العليم الطحاوى، سلسلة التراث العربي، الكويت ١٩٧٤، ج١٤، مادة (ك ف ر).

من التوحيد، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

أما كُفْرُ الجحود فأن يعترف بقلبه ولا يقر بلسانه فهو كافر جاحد ككفر إبليس ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾[2].

وأما كفر المعاندة فهو أن يعرف الله بقلبه ويقر بلسانه، ولا يدين به حسداً وبغياً ككفر أبي جهل وأَحْزَابه، أو أنه يعترف بقلبه ويقر بلسانه ويأبى أن يقبل كأبي طالب حيث يقول معبراً عن حالته[3]:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حِذارُ مَسبَّةٍ ... لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

أما كفر النفاق بأن يقر بلسانه ويكفُر بقلبه ولا يعتقد بقلبه.

والتكفير اصطلاحاً: نسبة أحد أهل القبلة إلى الكفر، على أي حالة من تلك الأحوال السابقة[4] ولكن الذي ينبغي أن ننبه إليه أن التكفير حكم شرعي، وحق محض للرب سبحانه وتعالى لا تملكه هيئة من الهيئات، أو جماعة من الجماعات، أو فرد من الأفراد وإنما لا يكفُر إلا من كَفَّرَهُ الله ورسوله. فالتكفير حق لله[5]. ولذلك فمن ضوابط التكفير أن الأصل في المسلم الظاهر العدالة بقاء إسلامه وبقاء عدالته حتى يتحقق زوال ذلك عنه بمقتضى الدليل الشرعي، ولا يجوز التساهل في تكفيره أو تفسيقه لأن في

(١) سورة البقرة: الآية (٦).
(٢) سورة البقرة: الآية (٨٩).
(٣) ابن منظور: مصدر سابق، نفس المادة.
(٤) الزبيدي: مصدر سابق، نفس المادة.
(٥) د. باسم بن فيصل الجوابرة: التكفير في ضوء السنة النبوية، جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية، الدورة الثانية، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م، ص٥٨.

ذلك محذورين عظيمين[1].

أحدهما: افتراء الكذب على الله تعالى في الحكم والمحكوم عليه في الوصف الذي وصَفَهُ به وهو التكفير.

الثاني: الوقوع فيما وصف به أخاه إن كان سالماً منه، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– أن النبي – ﷺ – قال: "إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما"[2].

كذلك يجب التفريق بين التكفير المطلق وتكفير المُعَيّن:

فالتكفير المطلق: هو الحكم بالكفر على القول أو الفعل أو الاعتقاد الذي ينافي أصل الإسلام ويناقضه، وعلى فاعليها على سبيل الإطلاق بدون تحديد أحد بعينه.

أما تكفير المعين: فهو الحكم على المعين بالكفر لإتيانه بأمر يناقض الإسلام بعد استيفاء شروط التكفير فيه وانتفاء موانعه[3].

الخوارج لغة واصطلاحاً:

الخوارج مفردها خارجي وهم جماعة تمثل أقدم الفرق الإسلامية، ولزمهم هذا الاسم كما يقول ابن منظور "لخروجهم على الناس"[4]، أو لأنهم "قوم من أهل الأهواء لهم مقالة على حدة"[5]، ويؤيد هذا المعنى بعض مؤرخي الفرق الإسلامية ففي ذلك يقول الشهرستاني إن كل "من خرج على الإمام الحق

(١) المرجع السابق، ص٥٩.

(٢) البخاري: صحيح البخاري، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، طبعة القاهرة، ١٤٢١هـ–٢٠٠٠م، ج٩، ص٢٥١، ٢٥٢، (كتاب الأدب) برقم (٥٤٠٣).

(٣) المرجع السابق، ص٧٨، د. عبد المجيد سالم بن عبد الله المشعبى: منهج ابن تيمية في مسألة التكفير، مكتبة أضواء السلف، الرياض ١٤١٨هـ–١٩٩٧م، ج١، ص١٩٣.

(٤) ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص١١٢٦.

(٥) المصدر السابق، نفس الصفحة.

الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان"[1].

وفي الاصطلاح أُطلقت لفظة الخوارج على الجماعة التي كانت ضمن جيش الخليفة علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– في أثناء نزاعه مع معاوية بن أبي سفيان في موقعة صفين[2] وأجبروا علياً –رضي الله عنه– على قبول التحكيم ثم خرجوا عليه بعد أن جرى أمر التحكيم على خلاف ما يريدونه وقالوا لعلي– رضي الله عنه–: "لم حكَّمت الرجال؟ لا حكم إلا لله"، ولذلك سموا بالمحكمة، وخرجوا من معسكر الإمام علي –رضي الله عنه– إلى كُوْرَة حروراء بالقرب من الكوفة، فسموا أيضاً بالحرورية نسبة إلى هذا الموضع[3]. كما سموا أنفسهم أيضاً "الشراة" اعتقاد منهم أنهم بعملهم هذا قد اشتروا الآخرة بالدنيا، أو أنهم باعوا أنفسهم في سبيل الله[4].

نشأة ظاهرة التكفير عند الخوارج:

المتتبع لأحداث الفتنة التي حدثت زمن الخليفة عثمان بن عفان –رضي الله عنه– والتي انتهت بمقتله يرى أن أموراً كثيرة كانت تدور في جنبات الدولة الإسلامية، وأن هذه الأمور أخذت في التصاعد حتى كانت الفتنة بما فيها من أحداث مروعة زلزلت كيان الدولة الإسلامية، وأحدثت فيها تطورات سريعة ومتتابعة أنهت عصر الخلفاء الراشدين، وأدت إلى نشأت نظام سياسي جديد

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٤م، ج١، ص١١٥.
(٢) صفين: بكسرتين وتشديد الفاء، موضع بالقرب من الرقة على الشاطئ الغربي للفرات (ياقوت الحموي: معجم البلدان، طبعة دار صادر بيروت، (د.ت)، ج٣، ص٤١٤).
(٣) الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص١١٥، (حروراء بفتحتين وسكون الواو، وراء أخرى وألف ممدودة، قرية بالكوفة على ميلين منها، ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٢٤٥).
(٤) الأشعري: مقالات الإسلاميين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٨٥م، ص١٥٧.

يتمثل في الدولة الأموية، وفي نفس الوقت ظهرت فرقة الخوارج بما لديها من فكر أساسه الغلو والتكفير في كل ما تناولته هذه الفرقة من قضايا سياسية ودينية واجتماعية.

ولاشك أن العوامل المسببة لهذه الفتنة، كان لها أثرها الكبير في تشكيل حركة معارضة خبيثة، مارست الغلو في أبشع صوره، غُلُوٌ يعتمد على جملة من الافتراءات على شخص عثمان -رضي اللّه عنه- ومهدت بهذا الغلو إلى ما ظهر في أثناء الفتنة من رغبة في التخلص من الخليفة سواء بإجباره على التنازل عن حقه في الخلافة، أو تكفيره في النهاية وقتله. بل إن حركة المعارضة هذه أوجدت حالة من الجرأة في فكر كل من ينتمي إليها، ولا يخفى أنها كانت لها رغباتها وأطماعها في تخريب دولة الإسلام، وبعث الخلاف والتمزق في أوصالها.

بدأت مقدمات الحركة الخارجية في الظهور منذ فترة مبكرة، وبعد السنين الست الأولى من عهد الخليفة عثمان بن عفان -رضي اللّه عنه-، وظهرت طلائع هذه الحركة في صورة مكيدة كبرى دبرها عبد اللّه بن سبأ الذي كان يهودياً أسوداً أسلم في زمن عثمان - رضي اللّه عنه- وتنقل في الأمصار الإسلامية فمر بالحجاز ثم البصرة والكوفة والشام، ولكن أُكْتشف أمره وأُبعد من هذه الأمصار جميعاً، حتى أتى إلى مصر، واستمال في هذه البلاد قلوب بعض الناقمين على الولاة، وبدأ يبث أفكاره السامة المضللة، وعقائده المنحرفة، مستغلاً جهل المتقبلين لهذه الأفكار كالقول برجعة الأنبياء، والأوصياء، وإن كل نبي له وصي، وأن علياً وصي محمد، وانتقل بعد ذلك إلى الطعن في الخليفة عثمان -رضي اللّه عنه- وأنه أخذ الخلافة بغير حق، وزين لهم الطعن على الولاة والخروج عليهم في صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستطاع أن يكوِّن خلايا سرية في تلك

الأمصار، تجري بينهم وبينه مكاتبات، يحيكون بها المؤامرات، ويضعون الخطط للثورة والخروج على الخليفة عثمان رضي الله عنه(1).

وعن طريق الدعاية الواسعة التي نشرها ابن سبأ في الأمصار، استطاع السبئيون أن يتحركوا إلى المدينة المنورة، واضعين بذلك البذرة الأولى لخروج جماعي منظم على سلطة الخلافة، وكان عددهم كما يروي ابن كثير في أكثر من موضع ألفي مقاتل مدججين بالسلاح، وهو عدد كبير بالنسبة لأهل المدينة في ذلك التوقيت، لأن أكثر أهل المدينة كانوا قد خرجوا للحج، كما أن معظم الصحابة كان عثمان -رضي الله عنه- قد سمح لهم بمغادرة المدينة إلى الأمصار، وكان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قد منعهم في عهده من الخروج من المدينة، وكانوا له هيئة استشارية كبيرة، علاوة على أن كثيراً ممن تبقى في المدينة من الصحابة قد آثر اعتزال هذه الفتنة ولزموا بيوتهم(2). وهكذا لم يكن في مقدور أهل المدينة ومن تبقى فيها من الصحابة وأبنائهم أن يدفعوا هذا الخطر عن عثمان -رضي الله عنه-، وفي ذلك يقول ابن كثير: "والخوارج محدقون بدار عثمان -رضي الله عنه- وربما لو أرادوا (أهل المدينة) صرفهم عن الدار لما أمكنهم ذلك"(3).

حاصر الثوار بيت عثمان -رضي الله عنه-، وشعر كبار الصحابة الموجودين في المدينة في ذلك الوقت وعلى رأسهم علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- بخطورة الموقف، فحاولوا تهدئة الثائرين، وطلب هؤلاء الصحابة من عثمان- رضي الله عنه- أن يستمع إلى شكايتهم، والمظالم التي زعموها،

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ج٢، ص١٩٧، ١٩٨، د. أحمد محمد أحمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين، طبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص٤٣، ٤٤.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص١٧٩، ١٩٧.

(3) المصدر السابق، ص١٩٧.

وفعلاً وعد الخليفة بعد أن استمع إليهم بأنه سيرد الحق إلى نصابه، وأن يختار لإمرة المسلمين في ولاياتهم من يرضونه ويُرضي الله ورسوله، وبهذا هدأت الأحوال وتفرقت الجموع عائدة إلى الأمصار[1].

ولكن قادة هؤلاء الدهماء لا يرون في هذا الذي حدث تحقيقاً لأهدافهم، فزيفوا كتاباً اختلقوا فيه مزاعم تدعو إلى عودة الثوار بعد أن قطعوا شوطاً من طريق سفرهم، فهذا الكتاب تضمن أمراً زائفاً من عثمان إلى والي مصر بمعاقبة هؤلاء الثوار عند عودتهم وقتلهم وصلبهم، فلما قرؤوا الكتاب عادوا مسرعين إلى المدينة ليُجدِّدوا الحصار مرة ثانية وهم مصممون على عزل الخليفة أو قتله[2].

وطلب زعماء الثوار من عثمان أن يتوب إلى الله من ذنبه، وهذا يعني أنهم مصرون على تخطئة عثمان وتكفيره، وهذا يعني أيضاً أن هذه الثورة حملت في أحشائها فكرة التكفير أساساً لحركتهم وأنها اتسعت بعد ذلك على نحو ما حدث في الخلاف الذي نشب بين علي ومعاوية –رضي الله عنهما–، وكان الثوار يصيحون في عثمان "تب إلى الله، فرفع (عثمان) يديه وقال: اللهم إني أول تائب"[3].

ومما يعزز أن زعماء هذه الثورة كانوا يتبنون فكرة التكفير، أن أحد زعمائهم الذين اشتركوا في قتل عثمان– رضي الله عنه–، وهو رومان بن سودان، وكان كما وصفه ابن كثير رجلاً "أزرق قصير مُحَدَّدٌ عِدَادُهُ من مُراد"[4]. كان معه عودٌ من حديد دخل به على عثمان فاستقبله، وقال له:

---

(١) د. أحمد محمد أحمد جلى: دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين، ص٤٤.
(٢) ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص١٦٠.
(٣) المصدر السابق، ص ١٦٣.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص١٩٨.

(لعثمان) على أي ملة أنت يا نعثل؟ فقال عثمان: لست بنعثل، ولكني عثمان بن عفان، وأنا على ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين" وهذا يعني حكما بالكفر على عثمان رضي الله عنه(١). وقد اعتور هذا الخارجي عثمان بالحديدة فضربه بها على صِدْغِه الأيسر فقتله(٢).

ومن زعمائهم أيضاً حرقوص بن زهير السعدي(٣)، وهو ذلك الرجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتئ الجبين، كث اللحية محلوق الرأس، الذي قال: لرسول الله – ﷺ – وهو يوزع الذهبية التي بعث بها علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– من اليمن على بعض الحاضرين تأليفاً لقلوبهم، والذي ذكرناه في التمهيد لهذه الدراسة، والذي ذُكر في أحاديث أخرى تُشير إلى نفس شخصية هذا الرجل فتارة نجد الحديث يذكره تحت اسم "حرقوص بن زهير ذو الخويصرة التميمي". وهذا الرجل أيضاً هو ذو الثُدْيَة الذي أمر علي بن أبي طالب–رضي الله عنه– بالبحث عنه في أعقاب معركة النهروان، فوجد ضمن القتلى فقد كان رأساً من رؤس الخوارج، الذين عرض الخوارج عليه إمامتهم فرفضها، وقبل إمامة الصلاة وحدها(٤).

---

(١) المصدر السابق، نفس الصحفة. (نعثل: أي الشيخ الأحمق، ونعثل أيضاً كما يروي ابن منظور: "رجل من أهل مصر كان طويل اللحية، قيل أنه كان يشبه عثمان" ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ص٤٤٧٠).

(٢) ابن كثير: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) حرقوص بن زهير السعدي: من بني تميم، كان أحد رؤس الخوارج السبئية، وأمير خوارج البصرة الذين تمكن طلحة والزبير فيما بعد من قتلهم جميعاً، ولم يفلت منهم إلا حرقوص والذي قتل بعد ذلك مع الخوارج في معركة النهروان، الطبري: تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة، ج٤، ص٧٦، ٣٤٩.

(٤) راجع البخاري: صحيح البخاري، ج١٠، ص٣٣٣، ٣٣٤ (كتاب المرتدين والمعاندين) برقم (٦١٩٤)؛ ج٥، ص٣٣٠، ٣٣١، (كتاب بدء الخلق) برقم (٢٩٨٩)؛ ج٦، ص٥٤، ٥٥، ٥٦، (كتاب المناقب) برقم (٣٢٢٩، ٣٢٣٠)؛ د. سهير القلماوي: أدب الخوارج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة ٢٠١٠، ص ٢٤–٢٧؛ النهروان: كُورَة واسعة بين بغداد وواسط، ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٣٢٤، ٣٢٥.

هذا الرجل كان قائداً للبصريين الثائرين على عثمان –رضي الله عنه– وكان نواة يلتف حولها قوم يحملون بعد ذلك اسم الخوارج، كانوا في أثناء الثورة على عثمان –رضي الله عنه– يكفرون الخليفة فقط، أما عندما أصبحوا خوارج يمثلون فرقة لها أثرها في توجيه الأحداث في دولة الإسلام، فقد أصبحوا يكفرون الخلفاء(١) ويكفرون المخالفين لهم، بل وتتسع مساحة التكفير عندهم لتشمل كل من ارتكب ذنباً أو إثماً(٢).

هكذا كان هذا التكفير الذي مارسه هؤلاء الثوار نكبة كبرى على دولة الإسلام، حيث كان قتل خليفة المسلمين عثمان على هذا النحو عملاً إرهابياً بشعاً، ولم يكن أحد من الصحابة في المدينة أو غيرهم يظن أن الأمر يبلغ قتله، كما أن عثمان نفسه كان يمنع الصحابة وأهل المدينة من الدفاع عنه بالاشتباك مع هؤلاء الثوار رغبة منه في حقن دماء المسلمين في المدينة(٣).

بمقتل عثمان –رضي الله عنه– انفتحت أبواب الفتنة في الدولة الإسلامية على مصاريعها، وواجه علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– كثيراً من المشاكل، وظهرت هذه المشاكل بعد توليه الخلافة مباشرة، فقد ذكر ابن الأثير أن علياً لم يكن يرغب في الخلافة بعد مقتل عثمان فقد اجتمع إليه أصحاب رسول الله – ﷺ – من المهاجرين والأنصار، وقالوا له: "لابد للناس من إمام، قال: لا حاجة لي في أمركم فمن اخترتم رضيتُ به، فقالوا: ما نختار غيرك وترددوا إليه مراراً، وقالوا له في آخر ذلك: إنا لا نعلم أحداً أحق به منك، لا أقدم سابقة، ولا أقرب قرابة من رسول الله – ﷺ – فقال: لا تفعلوا

(١) المرجع السابق، نفس الصفحات، الأشعري: مقالات الإسلاميين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة القاهرة ١٩٨٥، هامش ٥٠، ٥١.

(٢) د. عبد المجيد المشعبي: منهج ابن تيمية في مسألة التكفير، ص٤٨٨.

(٣) د. حامد محمد الخليفة: الإنصاف فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من الخلافة، طبعة الواحة الفنية (د.ت)، ص٢٧٢.

فإني أكون وزيراً خيراً لي من أن أكون أميراً، فقالوا: والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك. قال: ففي المسجد فإن بيعتي لا تكون خفية ولا تكون إلا في المسجد، وكان في بيته، وقيل في حائط (بستان) لبني عمرو بن مبذول، فخرج إلى المسجد وعليه إزار وطاق وعمامة خز ونعلاه في يده متوكئاً على قوس، فبايعه الناس، وكان أول من بايعه من الناس طلحة بن عبيد الله"[1] وتبعه في البيعة الزبير بن العوام، وقال لهما علي -رضي الله عنه-: "إن أحببتما أن تبايعاني، وإن أحببتما بايعتكما، فقالا: بل نبايعك"[2].

وإذا كان التكفير في أساسه في المرحلة السابقة قد انصب على الخليفة عثمان -رضي الله عنه- على نحو ما بينا، فإن التكفير في المرحلة القادمة، سيتضخم على نطاق واسع، ولابد من تتبع الأحداث التي صنعت فرقة الخوارج التي جعلت من التكفير أساساً لعملها السياسي والديني.

لم تُجدِ البيعة لعلي -رضي الله عنه- في استقرار الأمور والأحوال في الدولة الإسلامية، فقد بدأ علي -رضي الله عنه- نشاطه الإداري بعزل الولاة العثمانيين الأمويين، الذين كانت سياستهم في إدارة الولايات العامل الأساسي في تحريك الثورة ضد عثمان -رضي الله عنه- ومن بين هؤلاء الولاة معاوية -رضي الله عنه- الذي رفض قرار عزله من ولاية الشام، ورفض بيعة عليٍّ بالخلافة، واستقل بإدارة الشام عن الحكومة المركزية، وزاد معاوية في الأمر فاتهم علياً – رضي الله عنه- بتدبير قتل عثمان، أو بالاشتراك في ذلك التدبير والاغتيال في الأقل، ووقف خطيباً في وفد بعثه علي -رضي الله عنه- إلى معاوية لإعادته إلى الطاعة فقال معاوية بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أما بعد فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة، فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٣، ص١٩٠، ١٩١.
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص١٩١.

هي، وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها، إن صاحبكم قتل خليفتنا، ومزق جماعتنا، وآوى ثأرنا وقتلتنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نردّ ذلك عليه، أرأيتم قتله صاحبنا؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة"[١]. ولم يكتف معاوية بذلك بل حرك أهل الشام بثورة عارمة ضد علي –رضي الله عنه– بأن رفع قميص عثمان ملطخاً بدمائه، وأصابع زوجته نائلة على منبر المسجد في دمشق مثيراً ومحرضاً الناس على الثورة مطالبين بالثأر من قتلة الخليفة المظلوم[٢].

كانت الأحوال تجري هكذا في الشام، بينما في المدينة المنورة كان ابن عباس –رضي الله عنهما– ينصح علياً فيقول له عندما سأله عن هذه الأحداث: "لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى تثبتهم لا يبالوا من ولى هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولوا: أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا (عثمان)، ويؤلبون عليك، فتنتفض عليك الشام وأهل العراق، مع أني لا آمن عليك طلحة والزبير أن يكرا عليك"[٣].

وصدقت رؤية ابن عباس للأحداث، فبينما كانت الأمور تجري في دمشق على هذا النحو، كانت هناك حركة أخرى تزعمها طلحة والزبير، تطالب بالثأر من قتلة عثمان –رضي الله عنه– ولا تقر علياً في خطواته التي اتخذها للإصلاح الإداري للدولة الإسلامية، والتي كانت الخطوة الأولى فيها عزل ولاة عثمان الأمويين، وانضمت إليهما السيدة عائشة –رضي الله عنها– وتطور أمر

(١) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص٦.
(٢) د. محمد حلمي أحمد: الخلافة والدولة في العصر الأموي، مكتبة الشباب، الطبعة الأولى ١٩٧٧م، ص٨٠.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٣، ص١٩٧.

خروجهم على عليّ -رضي الله عنه- إلى أحداث موقعة الجمل التي دارت وقائعها في البصرة، وقتل فيها طلحة والزبير، وهذه المعركة التي سبقت معركة صفين مباشرة كان لها تأثيرها البالغ في تفكيك عرى المجتمع الإسلامي وتفرقه، وتشرذمه إلى فئات متناحرة، ومختلفة على نفسها لم يستطع الخليفة الجديد علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أن يجمعها في صعيد واحد يرأب صدع الأمة ويعيد إليها وحدتها[1].

وفي المدينة المنورة كانت هناك خروجات أخرى على سلطة الدولة ممثلة في الخليفة علي -رضي الله عنه- وهذه الخروجات تبناها أفراد أقل ما فعلوه أنهم رفضوا بيعة عليّ -رضي الله عنه- ومنهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مُخَلَّد، وأبو سعيد الخدري، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت وغيرهم[2]. كذلك كان هناك خروج جماعي ضم الأعراب، وجماعات أخرى أيدتهم، وخرجت معهم إلى معركة الجمل.

وكان طلحة والزبير قبل أحداث معركة الجمل قد ذهبا مع عدد من

(١) د. محمد حلمي أحمد: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج٣، ص١٩١، (مسلمة بن مخلد بن الصامت الأنصاري، من الصحابة وهو أول من جمعت له إمرة مصر والمغرب توفي سنة اثنين وستين (٦٢هـ)، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٢، مج٣، ج٦، ص٩٨-٩٩، ترجمة رقم ٧٩٨٣)، (أبو سعيد الخدري: هو سعد بن مالك منسوب إلى "الخدرة" وهم من اليمن، كان من فقهاء الصحابة وأعيانهم شهد الخندق وبيعة الرضوان وتوفي سنة (٧٤هـ)، ابن قتيبة: المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦، ص٢٦٨، اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، تحقيق: عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٤، ج١، ص١٨٦)، (النعمان بن بشير بن سعد من بني الحارث بن الخزرج، ولد بالمدينة بعد هجرة الرسول ﷺ، كان عثمانياً ثم عزله معاوية بن أبي سفيان، فصار إلى الشام، فلما مات معاوية دعى النعمان لابن الزبير، وكان عاملاً على حمص فلما قتل الضحاك بن قيس (٦٤هـ) هرب النعمان من حمص وأدركه أهلها فقتلوه واحتزوا رأسه ووضعوه في حجر امرأته الكلبية، ابن سعد: الطبقات، ج٦، ص٥٣)، (زيد بن ثابت من أصحاب رسول الله ﷺ، كان مترئساً بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض توفي في خلافة معاوية سنة خمس وأربعين، ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٣٥٨-٣٦٢).

الصحابة للقاء علي في بيته، وقالوا لعلي: "يا علي إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل، وأحلّوا بأنفسهم. فقال: (علي) يا إخوتاه إنّي لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم وهم خلاطكم يسومونكم ما شاؤوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا. قال: فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه أبداً إلا أن يشاء الله"(١).

وعلى الرغم من هذه الشروح التي قدمها علي –رضي الله عنه– والتي أوضحت صعوبة الثأر لمقتل عثمان في ذلك الوقت على النحو الذي ذكره، فإن طلحة والزبير خرجا، حيث كانت معركة الجمل بأحداثها المروعة، والتي قتل فيها كما تذكر بعض الروايات نحوا من ثلاثة عشر ألف قتيل(٢).

وفي الشام بدت الصورة أكثر قتامة، حيث كان معاوية يستعد بأهل الشام لخوض حرب طاحنة ضد الخليفة الشرعي للدولة الإسلامية، متعللاً –كما ذكرنا– بالثأر للخليفة المقتول عثمان ابن عفان، وكان اللقاء بين جيش عليّ وجيش معاوية عند صفين(٣)، التي تبدأ عندها الأحداث التي تفجر منها الوجود الخارجي بفكره ومبادئه وقواعده وفي مقدمتها التكفير.

تقدم علي –رضي الله عنه– نحو صفين، وقضى الفريقان شهر المحرم من سنة سبع وثلاثين من الهجرة دون حرب، حيث اختلف الرسل بين علي ومعاوية طمعاً في الصلح، ولكن دون جدوى، فلما انسلخ شهر المحرم استعد الفريقان

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، ج٣، ص١٩٥.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: د. مصطفى نجيب فواز، د. حكمت كشلي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥، ص١١٢.

(٣) صِفّين: بكسرتين وتشديد الفاء، وهي موضع بالقرب من الرقة على شاطئ الفرات، ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٤١٤.

للحرب، وتم الاشتباك بين الفريقين في أول صفر، ودامت الحرب عشرة أيام متواصلة تخللتها مبارزات فردية، واشتباكات ضارية، تبادل فيها كل منهما النصر والهزيمة، وفي اليوم العاشر رجحت كفة جيش علي، وأوشكت قوات علي على سحق جيش معاوية ومعه عمرو بن العاص(1). الذي قال لمعاوية "هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً، ولا يزيدهم إلا فرقة؟ قال: نعم، قال نرفع المصاحف، ثم نقول: ما فيها حَكَمٌ بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها، وجدت فيهم من يقول: بلى ينبغي أن نقبل فتكون فُرقَةٌ تقع بينهم، وإن قالوا: بلى، نقبل ما فيها، رفعنا هذا القتال عنا، وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين، فرفعوا المصاحف بالرماح، وقالوا هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم... فلما رأى الناس المصاحف رُفعت، قالوا: نجيب إلى كتاب الله عز وجل وننيب إليه"(2).

أدرك علي رضي الله عنه أن معاوية وعمرو بن العاص يمارسون خدعة يحمون بها أنفسهم، ولذلك أخذ علي يحذر أصحابه من هذه المكيدة فقال يخطب فيهم "عباد الله امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط، وحبيب بن مسلمة، وابن أبي سرح، والضحاك بن قيس، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً، وصحبتهم رجالاً، فكانوا شر أطفال وشر رجال... وما

(1) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص١٠–٤٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٣، ص٢٩٣، د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، مؤسسة الثقافة الجامعية ١٩٧٣، ص٣٠٨، ٣٠٩.

(2) الطبري: المصدر السابق، ج٥، ص٤٨، (ويرى د. السيد عبد العزيز سالم أن ذلك الأمر قد دبر مقدماً بين معاوية وعمرو بن العاص، حيث أمرا أصحابهما بحمل نسخ من المصحف لترفع على الرماح عند الضرورة، وذلك لعلمهما أن جيش علي كان يضم فريقاً من القراء الذين يعملون بكتاب الله إذا دعاهم داع إلى ذلك، المرجع السابق، ص٣١٠.

رفعوا لكم إلا خديعة ودهناً ومكيدة"[1].

وهنا تبدو أول صورة ظهرت فيها تلك الجماعات التي صارت تعرف بعد ذلك بالخوارج –على حد تعبير ابن الأثير– حيث رفضت هذه الجماعات تحذيرات علي –رضي الله عنه– من خديعة معاوية وعمرو بن العاص، وتشير المصادر إلى أن هؤلاء الذين صاروا خوارج بعد ذلك كان أكثرهم من القراء والبدو والأعراب من تميم وغيرها من القبائل العربية الأخرى كبكر وهمدان والأزد[2]. وأول من تذكرهم المصادر من الشخصيات المعلومة منهم مسعر بن فدكى التميمي، وزيد بن حصين الطائي[3].

وأصرت هذه الجماعات من الخوارج على قبول التحكيم، ووصل بها الأمر من أجل ذلك إلى تهديد عليٍّ –رضي الله عنه– بأن قالوا له: "يا علي أجب

(١) المصدر السابق، ج٥، ص٤٨، ٤٩، ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص٣١٦ مع خلاف في اللفظ.

(٢) بنو تميم من أكبر قواعد العرب وهم من تميم بن مر من القبائل المضرية ومن أشهرهم بني الحارث وبني عمرو وبني زيد، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، الطبعة الخامسة، ص٢٠٧ وما بعدها.

بنو بكر: هم ولد بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلِب وفيهم البيت والعدد، ومالك والحارث وعمرو وثعلبة ومعاوية وهؤلاء الستة يسمون الأراقم، ابن حزم: الجمهرة، ص٣٠٤.

همدان: هم بنو همدان بن مالك بن زيد بن أوْسَلة بن ربيعة بن الجنار بن مالك بن كهلان بن سبأ وهم بطون خمسة ترجع كلها إلى حَاشِد وبَكِيل ابنى جُشم بن خيران بن نوف بن همدان وقائلهم بنو يريم، بنو حَجُور، وبنو شبام، وبنو الخارق.. ابن حزم: الجمهرة، ص٣٩٢–٣٩٥.

الأَزْد: هم بنو الأزد بن الغَوثْ بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ من عرب قحطان وهم بطون كثيرة منهم بنو بارق وبنو العتيك وبنو شهميل وبنو الحَجْر وبنو ماسخه، وبنو عدنان، ابن حزم: الجمهرة، ص٣٣٠، ٤٧٣–٤٧٤.

(٣) الطبري: المصدر السابق، ج٥، ص٤٩، الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص٢٧، ص١١٤، (زيد بن حصن الطائي ثم السبنسي ذكر الهيثم بن عدي عن يونس بن أبي إسحاق أنه كان عامل عمر بن الخطاب على حدود الكوفة، وأخرجه محمد بن قدامة في أخبار الخوارج، ابن حجر: الإصابة في تميز الصحابة، مج٢، ج٢، ص٢٦–٢٧ ترجمة رقم ٨٨٧)، (مِسْعَر بن فدكى: هو... مِسْعَر بن فدكىُّ بن أعبد بن أسعد ابن منْقَر، ابن حزم: الجمهرة، ص٢١٧).

إلى كتاب الله عز وجل إذا دُعيت إليه، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم، أو نفعل كما فعلنا بابن عثمان... والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك"[1].

وهنا تبدو قوة الخوارج ممثلة في جماعة القراء وغيرهم من الأعراب ومن حذا حذوهم من رجال جيش علي، وتنامت نزعة التكفير عندهم بنفس الدرجة التي كانت عندهم عندما قتلوا عثمان –رضي الله عنه–، وها هم يهددون عليّ بنفس الطريقة، وبنفس الأسلوب وهو أسلوب التكفير الذي ينتهي بالقتل، فهو إذا لم يوافق على التحكيم فسوف يسلمونه إلى معاوية ومن معه ليقرر فيه حكمه، أو يقتلونه كما قتلوا عثمان من قبل ذلك، ولذلك ترك لهم عليّ –رضي الله عنه– اختيار أحد أمرين: إما طاعته ومواصلة القتال، وإما عصيانه فيفعلوا كما شاء لهم أن يفعلوا، فاختاروا التحكيم، واختاروا أبا موسى الأشعري ممثلاً لأهل العراق في التحكيم، وحاول عليّ عبثاً أن يثنيهم عن هذا الاختيار، ورشح لهم عبد الله بن العباس أو الأشتر النخعي، فأبوا إلا اختيار أبي موسى الأشعري. وتمت كتابة وثيقة التحكيم التي تضمنت شروط التحكيم، وموعد اجتماع الحكمين على أن يُوافِي عليّ ومعاوية موضع الحكمين بدومة الجندل في شهر رمضان، ومع كل واحد منهما أربعمائة من أصحابه وأتباعه[2].

أحدث قبول التحكيم رجة كبرى في جيش عليّ– رضي الله عنه– فبعد أن كُتبت وثيقة التحكيم أخذها الأشعث بن قيس الكندي وخرج يقرؤها

(١) الطبري: المصدر السابق، نفس الصفحة، ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص٣١٧.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص٥٧، وراجع د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص٣١٠، ٣١١، (دُومة الجندل: بضم الدال، ما بين برك الغماد ومكة وقيل ما بين الحجاز والشام والمعنى واحد، وهي على عشر مراحل من المدينة وعشرين من الكوفة واثنتي عشرة من مصر، الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٤، ص٢٤٥).

على الناس، ويعرضها عليّهم فيقرؤونها، حتى مر بها على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أُديَّة التميمي فقرأها عليّهم فقال عروة: "تُحكمون في أمر الله الرجال لا حكم إلا لله"[1] ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابة الأشعث ضربة خفيفة فغضبت اليمنية وكادت أن تقع الفتنة بينها وبين تميم[2]. أما عليّ نفسه فقد قال للناس يوم صفين وقد أُجبر على قبول التحكيم: "لقد فعلتم فَعلةً أضَعفتْ قوة، وأسقطتْ منّة، وأوهنت وأورثت وَهْناً وذلّة... وأيم الله ما أظنكم بعدها توافقون رَشَداً ولا تصيبون باب حزم"[3].

عاد جيش عليّ إلى الكوفة وقد مزقته الفتنة وكانوا قبل ذلك قد خرجوا إلى صفين وهم متوادون أحباء، فرجعوا أعداء يتدافعون الطريق كله، ويتشاتمون، ويضطَرِبون بالسياط، وعندما بدأت طلائع جيش عليّ في الدخول إلى الكوفة رفض هؤلاء الذين صاروا خوارج بعد ذلك الدخول إلى الكوفة مع عليّ وإنما انطلقوا إلى موضع يعرف بحروراء وكانوا كما تقدرهم بعض المصادر اثني عشر ألفاً وهناك في حروراء شكلوا حكومة منفصلة عن عليّ. حيث نادى مناديهم: "إن أمير القتال شبث بن ربعيّ التميمي وأمير الصلاة عبد

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص٣٢١، الأشعث بن قيس بن معدى كرب بن معاوية بن حيان بن عدى بن ربيعة بن معاوية الأكرمين الكندي، شهد اليرموك والقادسية وسكن وشهد صفين مع عليّ وله معه أخبار قيل مات بعد عليّ بأربعين ليلة وقيل مات سنة اثنين وأربعين (٤٢هـ)، (ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، مج١١، ج١، ص٥٠–٥١، ترجمة رقم ٢٠٣)، عُرْوة بن أدية وأبو بلال مِرْدَاس الخارجي: هما مِرْدَاس وعُرْوة ابنا عمرو بن حدير من ربيعة بن حنظلة وأدية جدة لهما من "محارب" نسبا إليها وذكر ابن حزم أنها أمهما، وكان مرداس رأس كل حروري أما عروة فهو أول من قال "لا حُكْمَ إلا الله" على مذهب الخوارج يوم صفين، (ابن قتيبة: المعارف، ص٤١٠، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٢٢٣).

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص٣٢١.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص٥٦، ٦٣، د. عبد الشافي عبد اللطيف: العالم الإسلامي في العصر الأموي، الطبعة الأولى ١٩٨٤، ص٨٨.

اللّه بن الكواء اليشكري، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة للّه عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[1] ومن هذه الجمل الثلاث في نهاية النص نلمح أولى المعالم المبكرة لفكر الخوارج السياسي، فالأمر شورى بعد الفتح، وبعد الفتح تعني أنهم اعتزموا قتال كل من عليّ ومعاوية، والأمر شورى والبيعة للّه عز وجل يمثلان العودة إلى مبدأ الانتخاب العام لاختيار خليفة المسلمين وهذا المبدأ الأخير هو لب النظرية السياسية لدى الخوارج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمثلان قاعدة التعايش في المجتمع الإسلامي الجديد في ظل فكر الخوارج.

هنا ينتقل الخوارج إلى آليات جديدة للعمل الخارجي تتناسب مع هذا الطور الجديد، حيث تظهر قيادات دينية وأخرى سياسية تتولى قيادة المواقف، والإعلان عنها في كل ما يطرأ في الساحة من أمور تخص الدين أو تتصل بالسياسة، فصار للخوارج قادة حربيون وقادة دينيون[2]. وهذا يعني أن الخوارج انتقلوا من دور ستر وكتمان أفكارهم التي ترتكز على التكفير إلى الدور

(١) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص٦٣، عبد اللّه بن الكواء اليشكري: هو عبد اللّه بن عمرو بن النعمان بن ظالم بن أبي عاصم بن سعد بن عمرو بن جشم بن كنانة اليشكرى، كان اسمه الأعرس فسماه رسول اللّه (ﷺ) عبد اللّه، وقيل لأبيه "الكواء" لأنه كُوِيَ في الجاهلية، كان ناسباً عالماً ومن أصحاب على (كرم اللّه وجهه) ثم كان أول أمير للخوارج حين اعتزلوا جيش عليّ وخرجوا عليه مع أنه كان من ذوي النجدة بين أصحاب عليّ (كرم اللّه وجهه)، (ابن قتية: المعارف، ص٥٣٥، البغدادي: الفرق، ص٧٥ هامش ١، ابن حزم: الجمهرة، ص٣٠٩، ابن النديم: الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، طهران ١٩٧١، ص١٨١، ابن حجر: الإصابة، مج١، ج١، ص٥٤، ترجمة رقم ٢١٧، ومج ٢، ج٤، ص١١٤، ترجمة رقم ٤٨٥٣)، شَبَث بن ربْعيّ: شبث بن ربعى التميمي اليربوعي ويكنى أبا عبد القدوس أحد الأشراف والفرسان. وكان ممن خرج على عليّ وأنكر التحكيم ثم تاب وأناب وحدث عن عليّ وحذيفة وعن محمد بن كعب القرظي وسليمان النعيمي وله حديث واحد في سنن أبي داود، (ابن سعد: الطبقات، ج٦، ص٢١٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د.ت)، ج٤، ص١٥٠).

(٢) د. محمد أبو سعدة: الخوارج في ميزان الفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٨، ص٤٥، ٤٦.

العلني والتنظيمي الذي سيكون له الأثر الكبير في تطوير قاعدة التكفير كسلاح قوي لكل من يعارضهم أو يختلف معهم فيستبيحوا قتله.

وتأسيساً على ذلك نرى أن ظهور الخوارج ارتبط ارتباطاً وثيقاً بمشكلة الإمامة والاجتهاد حولها، حتى إن أعداء الخوارج نظروا إليهم نظرة من حاول الوصول إلى الحق فأخطأه[1]. وتحول الخلاف حول الإمامة إلى صراع دموي تحركه قاعدة التكفير عند الخوارج.

ويقول الشهرستاني في هذا الشأن معبراً عن تحول هذا الخلاف حول الإمامة إلى صراع دموي: "وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان" [2]. ولذلك فالدارسون متفقون على صعوبة البحث في تتبع نشأة الخوارج[3]. فمؤرخ تلك الحقبة "ممتحن أعسر الامتحان وأشقه"[4]، ومكمن الصعوبة ليس في ندرة المعلومات وشحها عن الخوارج، وإنما في وفرتها وتضاربها واضطرابها، فالمرء بوسعه أن يُدين من يشاء ويبرئ من يشاء وله في الحالتين من القرائن والأدلة ما يعينه على ذلك[5].

انطلق عليّ بن أبي طالب– رضي الله عنه– إلى الخوارج في حروراء في محاولة لإعادتهم إلى صفوفه مرة ثانية[6]. ودار بينه وبين الخوارج حوار نقله

---

(١) د. محمود إسماعيل: الخوارج وقضية التحكيم، المجلة التاريخية المصرية، المجلد العشرون، ١٩٧٣، ص٥٢.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص٢٤.

(٣) د. سهير القلماوي: أدب الخوارج في العصر الأموي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٤، ص٣٢.

(٤) د. طه حسين: الفتنة الكبرى، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠، ج٢، ص٩٢.

(٥) د. محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص٥٤.

(٦) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص٦٤، ٦٥، ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص٣٢٧، ٣٢٨.

معظم المؤرخين فنَّد فيه عليّ– رضي الله عنه– موقف الخوارج، وتعطينا مصادر هؤلاء المؤرخين تفاصيل إضافية عن هذا الحوار الذي كان بين عليّ والخوارج في حروراء[1]. ولدى الطبري – من هؤلاء المؤرخين– نص غاية في الأهمية والدقة يكشف فرض الخوارج للتحكيم على عليّ أول الأمر ثم رجوعهم عنه بعد ذلك، فقد سأل عليّ الخوارج في حروراء "من زعيمكم؟" قالوا ابن الكواء: قال عليّ: فما أخرجكم علينا؟ قالوا: حكومتكم يوم صفين. قال: أنشدكم بالله، أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف فقلتم: نجيبهم إلى كتاب الله قلت لكم: إني أعلم بالقوم منكم، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إني صحبتهم وعرفتهم أطفالاً ورجالاً، فكانوا شر أطفال وشر رجال، امضوا على حقكم وصدقكم، فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة ودَهْناً ومكيدة. فرددتم عليّ رأيي، وقلتم: لا بل نقبل منهم. فقلت لكم: اذكروا قولي لكم، ومعصيتكم إياي... قالوا له: (لعليّ) فخبرنا أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء؟ فقال: إنا لسنا حكّمنا الرجال، قالوا: فخبرنا عن الأجل، لم جعلته فيما بينك وبينهم؟ قال: ليعلم الجاهل، ويتثبت العالم، ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة. ادخلوا مصركم رحمكم الله: فدخلوا من عند آخرهم"[2].

حدث التصالح إذن بين عليّ وبين الخوارج الذين فرضوا عليه قبول التحكيم، ثم عادوا ورفضوه، وعاد الجميع إلى الكوفة، ويذكر المبرد أن هذه الجماعة صارت تحمل ابتداء من تلك اللحظة اسم الحرورية، وقد أطلقه عليهم عليّ نفسه. بالإضافة إلى لقب المحكمة الذي ارتبط بشعارهم الذي

(١) نفس المصدرين السابقين، ونفس الصفحات.

(٢) الطبري: المصدر السابق، ج٥، ص٦٦.

رددوه "لا حَكَمَ إلا الله"[1].

لم تدم إقامة الحرورية في الكوفة طويلاً، فقد كان قرار عليّ بإرسال أبي موسى الأشعري لإتمام إجراءات التحكيم – في موعده في شهر رمضان– كافياً لتفجير الوضع من جديد، وقد اتخذ الخلاف في هذه المرحلة شكلاً عنيفاً، إذ صار الحرورية يعبرون عن رفضهم للتحكيم في الأماكن العامة وخاصة في المسجد الجامع حيث راحوا يقاطعون علياً وهو يخطب ويقولون: "لا حكم إلا الله"، ويستفزونه برفع شعاراتهم وبتلاوة آيات من القرآن تتهمه بالكفر"[2]، وحاولت عناصر أخرى منهم الاتصال به لإقناعه بالعدول عن إرسال وفد التحكيم، والاستعداد لاستئناف الحرب ضد معاوية، ويظهر من خلال النصوص التي تقدمها لنا المصادر قتامة الحوار الذي دار بينهم وبين عليّ حيث يبدو فيه استخفاف كبير بالخليفة وتهجُم عليّه، وتهديد له بالقتل رغم مركزه وقدم إسلامه وقرابته من رسول الله – ﷺ – فقد جاء على لسان أحدهم وهو زرعة بن برج الطائي قوله: "أما والله يا عليّ لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله عز وجل قاتلتك أطلب بذلك وجه الله ورضوانه"[3].

لم تؤد التحركات الجماعية والفردية التي قامت بها الحرورية في الكوفة إلى نتيجة فقد أصر عليّ على إنجاز التحكيم، ورفض الرجوع عن العهد الذي قطعه على نفسه، ونتيجة لذلك بدأت استعدادات الحرورية للخروج على عليّ

(١) المبرد: الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف، بيروت، ج٢، ص١٤٠.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص٧٣، أبو موسى الأشعري: اسمه عبد الله بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن عَنَزْ بن بكر بن عامر بن عذر ابن وائل بن ناجِته بن الجماهر بن الأشعر، أسلم قديما بمكة ثم رجع إلى بلاد قومه فلم يزل بها حتى قدم هو وناس من الأشعريين على رسول الله (ﷺ)، توفي سنة اثنتين وخمسين وقيل قبل ذلك بعشر سنين سنة اثنتين وأربعين (ابن سعد: الطبقات، ج٤، ص١٠٠–١١٥).

(٣) الطبري: المصدر السابق، ج٥، ص٧٢.

مرة ثانية، وهو ما يظهر من خلال كثافة الاتصالات وكثرة الاجتماعات التي عُقدت في منازل زعماء الخوارج عبد الله بن وهب الراسبي، وشريح بن أوفى العبسي، وزيد بن حصين الطائي[1].

وتمدنا المصادر بتفاصيل خطيرة ومهمة عن المواضيع التي تمت مناقشتها خلال تلك الاجتماعات، كما تروي المصادر[2] خطبة لعبد الله بن وهب الرَّاسبي، وأخرى لحرقوص بن زهير السعدي التميمي، ومن خلال هذه الخطب تبرز معالم فكرة الخروج عن "القرية الظالم أهلها"، وهذه المنظومة الفكرية تطورت بعد ذلك عند الخوارج لتصبح مبادئ أساسية في فكرهم بعد أن كانت مجرد رغبات يشار إليها في خطبهم وأحاديثهم فأصبح الخروج ومفارقة المخالفين لهم أحد المبادئ الأساسية لهذه الحركة، ومحتواه لا يحمل معنى الابتعاد عن مكان الأعداء ومفارقتهم بقدر ما يحمل معنى الثورة وإعلان الحرب ضد معسكر الخليفة، الذي أطلقوا عليه مصطلحاً جديداً وهو "دار الكفر" في فترة لاحقة[3].

كما يذكر البلاذرى نقلاً عن الشعبي تبني الخوارج في هذه الفترة مبدأً

(١) البلاذرى: أنساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٩، ج٢، ص٣٦٣، د. لطيفة البكاي: حركة الخوارج، دار الطليعة بيروت ٢٠٠١، ص٣٥، شريح بن أوفى بن يزيد بن زاهر بن جزء بن شيطان بن حذيم بن رواحه قتل يوم النهروان وفيه قيل: اقْتَتَلتْ همدان يوما ورجل، (ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٢٥١–٢٥٢)، عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي العماني، كان رأس الخوارج وأول من أُمر عليّهم بعد أن اعتزلوا عليّ بن أبي طالب (كرم الله وجهه) وقتل بالنهروان سنة ٣٨هـ (البغدادي: الفرق، ص٧٦، هامش ١، الدرجيني: طبقات المشائخ، تحقيق: إبراهيم طلاي، مطبعة قسطنطينة، الجزائر ١٩٧٤، ج٢، ص٢٠١–٢٠٢، اليافعي: مرآة الجنان، ج١، ص٣٩).

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة، الطبري: المصدر السابق، ج٥، ص٧٤.

(٣) المصدر السابق، نفس الصفحة، د. لطيفة البكاي: مرجع سابق، ص٣٦، حرقوص بن زهير السعدي، كان ذا بأس شديد، وكان أحد أمراء الأجناد في أيام عمر بن الخطاب– رضي الله عنه– وهو الذي فتح الأهواز، شهد صفين ورفض التحكيم وكان من رؤس الخوارج وذكر البغدادي أنه كان معروفاً بذي الثدية، (البغدادي: الفرق، ص٧٦، الدرجيني: طبقات المشايخ، ج٢، ص٢٠٢، ٢٠٤).

آخر وهو "تكفير المخالفين لهم والبراءة منهم". فبعد أن شمل التكفير في حروراء معاوية وأنصاره، صار بعد قرار عليّ إجراء التحكيم، يشمل الخليفة عليّ نفسه والمساندين لعملية التحكيم، فقد انصرف الحرورية إلى "منزل عبد الله بن وهب الراسبي وذكروا أمر الحكمين وكفّروا من رضي بالحكومة وبرِؤُا من عليّ"[(1)].

وهذا يعني بداية التنظير للفكر الخارجي وأن التكفير في هذه المرحلة انتقل إلى مرحلة التطبيق الشامل على المخالفين لهم، لتوسيع دائرة المقاومة لكل من يعارضهم، وأصبح التكفير قاعدة مذهبية تكفر المخالفين لهم، وترفض النظام السياسي القائم وتسعى لإقامة نظام سياسي جديد يقوم على البراءة من المخالفين لهم، ولذلك تلازم التكفير والبراءة من المخالفين لهم تلازم اللحم والعظم في الجسد الواحد.

لم تسفر هذه الاجتماعات فقط عن التنظير، وطرح المبادئ والشعارات المنظمة لعملهم في المرحلة المقبلة، وإنما أيضاً تم الاتفاق في هذه الاجتماعات على، توقيت الخروج وتحديد المكان المقصود بهدف التجمع فيه وهو النهروان، وكيفية مغادرة الكوفة حيث رأوا ضرورة أن تتم المغادرة في سرية مطلقة، حتى لا يمنعهم أحد من الخروج، وأن يكون الخروج فرادى ووحداناً وليس في صورة جماعات[(2)].

نجح الخوارج في الخروج من الكوفة، والتجمع عند النهروان، وفي نفس الوقت ظهرت نتيجة التحكيم، وقد جاءت نتائجها مخيبة لآمال الجميع،

---

(1) البلاذري: المصدر السابق، ج٢، ص٣٦٠.

(2) الطبري: المصدر السابق، ج٥، ص٧٥، (وفي ذلك يروي الطبري تعليّمات أحد زعماء الخوارج وهو زيد بن حصين والذي قال لأتباعه الخوارج: "إنكم إن خرجتم مجتمعين أُتبعتم، ولكن اخرجوا وُحْداناً مستخفين، فأما المدائن فإن بها من يمنعكم، ولكن سيروا حتى تنزلوا جسر النهروان") المصدر السابق، نفس الصفحة.

ومغايرة تماماً لتوقعات عليّ بن أبي طالب فقد سلب التحكيم حق عليّ في الخلافة، وأعطى معاوية فرصة كبيرة كي يتقلد الخلافة بعد ذلك.

أما الخوارج فقد دعاهم عليّ– رضي الله عنه– إلى الدخول في الجماعة، وحاول أن يبين لهم أنه لا يختلف معهم بالنسبة لقضية التحكيم بدءاً ونهاية. ولكن الخوارج رفضوا عرضه إلا أن يشهد على نفسه بالكفر، ثم يثوب عائداً إلى الإسلام[(1)]، فيئس عليّ منهم. ومما قالوه لعليّ– رضي الله عنه– في هذا الشأن: "فإنك لم تغضب لربك، إنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر، واستقبلت التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين فلما قرأ كتابهم أيس منهم"[(2)]. وهكذا شرع الخوارج في تطبيق التكفير وهو القاعدة الأساسية في فكرهم الإرهابي على الخليفة عليّ –رضي الله عنه– رأس الدولة وأتباعه ومن في معسكره، دون نظر إلى مكانته أو قيمته أو المصلحة العليّا لأمن الدولة الإسلامية وأمان المسلمين فيها.

على هذا النحو فشلت المناقشات والحوار في إقناع الخوارج بالعدول عن موقفهم الانفصالي المنشق على عليّ، ولذلك رجع عليّ وابن عباس إلى الكوفة، وراح الخوارج يعيثون في الأرض فساداً، ولكي يطبقوا قاعدة التكفير على مخالفيهم استخدموا مبدأً آخر وهو مبدأ الاختبار الذي راحوا يمارسونه على نطاق واسع مع مخالفيهم، يستعرضون الناس ويمتحنونهم في عقائدهم، وفي موقفهم من علي ومعاوية، وفي الأوضاع القائمة، فمن يجدون فيه تعاطفاً وتأييداً لمذهبهم وتوجهاتهم ومواقفهم، يثنون عليه ويتركونه إلى

(1) د. محمد حلمي أحمد: مرجع سابق، ص٨٦، ٨٧، نَهرْوَان: كُورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي، حدها الأعلى متصل ببغداد، (ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٣٢٤).

(2) الطبري: مصدر سابق، ج٥، ص٧٨.

حيث شاء، أما من يجدونه مخالفاً لهم فإنهم يسارعون بقتله والتمثيل به"[١].

وأشهر مواقف استعراضهم للمسلمين، مافعلوه بعبد الله بن خبّاب بن الأرت، حيث مر بهم عند حروراء، فسألوه عن رأيه في الأوضاع القائمة، وموقفه من علي ومعاوية ورأيه في موقفهم الخارجي من عليّ –رضي الله عنه– فاستنكر الفتنة والحروب بين المسلمين، وذكَّرهُم بحديث سمعه عن أبيه عن رسول الله– ﷺ – بأنه ستكون فتنة عظيمة بين المسلمين، وأن على المسلم ألا يشارك فيها بأية حال، حتى وإن اضطر إلى البقاء في داره حتى تنتهي الفتنة، فلما أدركوا أنه لا يوافقهم بل يكاد يُعَرِّض بهم في كلامه فقاموا إليه وقتلوه وبقروا بطن امرأته وكانت حبلى، كما قتلوا نسوة أخريات كن معه[٢].

لما علم عليّ– رضي الله عنه– بذلك أرسل إلى الخوارج رسولاً يسألهم عما فعلوه بعبد الله بن خبَّاب، فقتلوا رسول عليّ– رضي الله عنه– وأتاه الخبر وهو بين الناس يحثهم على التوجه إلى الشام لمحاربة معاوية، فثار الناس، وطالبوا علياً بالتوجه لقتال الخوارج أولاً، لكن حكمة علي جعلته يرسل إلى الخوارج يطالبهم بتسليمه قتلة عبد الله بن خباب ومن كان معه من النسوة، فقالوا لعليّ كلنا قتلناهم، وكلنا يستحل دماءهم ودماءكم، إن الحق قد أضاء لنا فلسنا معكم وهنا قرر عليّ قتالهم وكانت معركة النهروان[٣].

أراد عليّ أن يخرج إلى معاوية في الشام، فرفض رجاله، وأصروا أن يتجه بهم أولاً لقتال الخوارج حتى يطمئنوا على ذراريهم وبلادهم قبل أن يبرحوها لحرب معاوية، واستجاب عليّ– رضي الله عنه– لرأيهم، وألحق بالخوارج

(١) د. محمد أبو سعده: الخوارج في ميزان الفكر الإسلامي، ص٥٣، ٥٤.
(٢) المرجع السابق، ص٥٤.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص٩٢، د. محمد حلمي أحمد، مرجع سابق، ص٨٧.

هزيمة كبيرة عند النهروان سنة (٣٨هـ/٦٥٨م)[١].

وتمثل معركة النهروان حداً فاصلاً للانفصال النهائي لجماعات الخوارج فكرياً وعسكرياً عن سلطة الدولة ممثلة في خليفتها عليّ بن أبي طالب– رضي الله عنه– وتحولها إلى حركة معارضة قوية لا تقل شأناً عن حركات المعارضة التي واجهت الخليفة عليّاً والأمويين من بعده، ومن ثم سعى عليّ لاستئصال هؤلاء الخوارج والقضاء على فكرهم، إذ ستعود حركة الخوارج من جديد إلى النشاط، وسيكون لتحركها دور كبير في استنزاف قوة عليّ العسكرية وتشتيت أنصاره، فقد أحدثت معركة النهروان شرخاً عميقاً في علاقة عليّ بالكوفيين، فهذه المعركة اضطر فيها الكوفيون إلى قتل أبنائهم، وإخوانهم، وأقربائهم من الخوارج، وهو ما يظهر بوضوح من خلال موقف الكوفيين وتصرفاتهم مع عليّ، فلقد أصبحوا يماطلونه، ويتلكؤون في تنفيذ أوامره، والانفراط من حوله حتى ضعف نفوذه، وصار يقول فلا يلتفت أحد إلى قوله، ويدعو فلا يستمع أحد لدعوته[٢].

أما تأثير هذه المعركة على الخوارج فكان كبيراً وعميقاً، حيث قضت هذه المعركة على معظم زعماء الخوارج الذين نظَّروا للفكر الخارجي في المرحلة السابقة، وأفسحت المجال لظهور زعامات أخرى جديدة أكثر تشدداً وتوسيعاً لمجالات عمل المبادئ الخارجية السابقة، وأهمها التكفير وما يتبعه من البراءة والاستعراض.

انطلقت تحركات الخوارج مباشرة بعد معركة النهروان بمعدل حركة كان تحدث منهم كل شهر تقريباً، وامتدت هذه الحركات لتشمل باقي الفترة المتبقية من سنة (٣٨هـ/٦٥٨م) وحتى مقتل عليّ– رضي الله عنه– سنة

(١) المصدر السابق، ج٥، ص٩٢، د. محمد حلمي أحمد، مرجع سابق، ص٨٧.
(٢) د. لطيفة البكاي: مرجع سابق، ص٤٨.

(٤٠هـ/٦٦٠م)[1].

وتكاد المصادر تجمع على أن مقتل عليّ جاء إثر اتفاق تم بين الخوارج يقضي بقيام ثلاثة عناصر منهم وهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي، والبُرَك بن عبد الله، وعمرو بن بكر التميمي باغتيال قادة المعترك السياسي الذين رأوا أنهم كانوا وراء انقسام المسلمين وهم عليّ ومعاوية وعمرو ابن العاص. وبينما نجح الأول في اغتيال عليّ– رضي الله عنه– فشل الآخران في مهمتهما[2]. وكان مقتل الإمام عليّ – رضي الله عنه– صورة مؤلمة من التطبيق العملي لفكرتي التكفير والبراءة لدى الخوارج دون نظر إلى القيمة والمكانة الكبرى لخليفة المسلمين، ودون أي اعتبار للمصلحة العليّا للإسلام والمسلمين، وظلت أصداء هذه الجريمة البشعة تدوي في أنحاء العالم الإسلامي ومازالت تُحدث تأثيرها البالغ في العالم الإسلامي حتى الآن.

بعد هذا العرض التاريخي الذي قدمناه لنشأة ظاهرة التكفير عند الخوارج، نرى أن قضية التكفير عند هؤلاء الخوارج قد وصلت إلى منعطف خطير حيث استخدموه وسيلة لإرهاب المجتمعات الإسلامية وبث حالة من الرعب فيها، حيث بالغ الخوارج في تكفير المسلمين وغالوا في ذلك إلى درجة أن أصبح هذا التكفير مبدأ يميز الخوارج عن غيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى، وتمثلت أهم مرجعيات ومنطلقات مبدأ التكفير عندهم في

(١) المرجع السابق، ص٥٣، البلخي: البدء والتاريخ، تحقيق: كلمان هوار، طبعة باريس ١٨٩٩، ج٥، ص٢٣٢، ٢٣٣، (وكان ابن ملجم قد شغف بامرأة اسمها قَطَامِ من الخوارج فخطبها فقالت له الصداق قتل عليّ، وكان عليّ قد قتل أباها وأخاها بالنهروان فضمن لها ذلك وسم سيفه وشحذه وضرب عليّاً عندما كان يصلي الفجر على رأسه بالسيف ضربة مات عليّ بعدها بثلاثة أيام، المصدر السابق، نفس الصفحة).

(٢) الطبري: مصدر سابق، ج٥، ص١٤٣، ١٤٤، ١٤٩، البلخي: البدء والتاريخ، تحقيق: كلمان هوار، طبعة باريس، ١٨٩٩، ج٥، ص٢٣١، ٢٣٢.

منطلقين[1]:

المنطلق الأول: هو مقتضى مبدؤهم في الإيمان، حيث عد الخوارج أن العبد لا يكون إلا أحد رجلين:

إما مؤمن بإطلاق كامل الإيمان، لا يشوب إيمانه أي قصور أو تقصير مهما كان ضئيلاً، واعتقدوا أنهم وحدهم هم أصحاب هذا الإيمان الكامل.

وإما كافر بإطلاق كامل، وهو كل مسلم قصر أو أهمل أو تقاعس عن أداء بعض الواجبات والطاعات المفروضة، أو ارتكب ذنباً أياً كان هذا الذنب صغيراً أو كبيراً، إذ ليس بين الإيمان والكفر حالة وسطى أو منزلة بين المنزلتين.

والدليل على أن الخوارج يكفرون بصغائر الذنوب وأنهم جعلوا صغائر الذنوب كالكبائر، أنهم جعلوا الإيمان جملة واحدة لا يُتبعض، إذا ذهب بعضه ذهب كله فلم يبق منه شيء، وقالوا: إن الإيمان هو مجموع ما أمر الله به ورسوله، وقالوا: ولا يجتمع في الشخص الواحد طاعة يستحق بها الثواب ومعصية يستحق بها العقاب، ولا يكون الشخص الواحد محموداً من وجه مذموماً من وجه، ولا يتصور أن الشخص يدخل الجنة والنار جميعاً، بل من دخل إحداهما لم يدخل الأخرى، فالإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله[2]، "فجماع شبهتهم فيه: أن الإيمان كالشيء المركب من أجزاء، متى ذهب منه جزء ذهب كله، كالعشرة فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة"[3].

المنطلق الثاني: هو مقتضى فهمهم لقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ ﴾[4]، واعتقد الخوارج أن كل مخالفيهم في

---

(١) د. محمد أبو سعده: الخوارج في ميزان الفكر الإسلامي، ص١٦٥، ١٦٦.

(٢) د. عبد المجيد بن سالم المشعبي: منهج ابن تيمية في مسألة التكفير، ج٢، ص٤٨٨، ٤٨٩.

(٣) المرجع السابق، ص٤٨٩.

(٤) المائدة: الآية ٤٤.

مذهبهم ومبادئهم، حاكمون بغير ما أنزل الله، واعتقدوا بيقين أن مذهبهم هو المذهب الحق الأوحد، وقد راح الخوارج تطبيقاً لهذا يتصيدون ما اعتبروه أخطاء ارتكبها هؤلاء المخالفون ليحكموا عليهم بالكفر.

والدليل على ذلك أن الخوارج عندما دعاهم عليٌّ – رضي الله عنه – إلى صفوف الجماعة بعد انتهاء التحكيم، رفضوا عرضه إلا أن يشهد على نفسه بالكفر ثم يثوب عائداً إلى الإسلام، وقالوا له: "فإنك لم تغضب لربك، إنما غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء، إن الله لا يحب الخائنين"[١].

وترتب على هذا أن أصبح للخوارج مسلكان الأول، تكفير مرتكبي المعاصي والذنوب من المسلمين. والثاني، تكفير مخالفيهم عامة سواء كانوا حكاماً أو محكومين.

التكفير تطوره وأثره في انقسام الخوارج إلى فرق:

كانت قاعدة التكفير هي الأساس الذي أرسى عليه زعماء الخوارج مذهبهم وكانت هذه القاعدة والقواعد الأخرى للمذهب هي مجرد آراء لزعمائهم التف حولها الخوارج، وأصبحت مبادئ ثابتة اجتمعوا عليها، ثم اختلفوا بعد ذلك فيما بينهم على بعضها سواء من الناحية النظرية أو من ناحية التطبيق العملي لها.

وتدور كافة المبادئ عند الخوارج على محور أساسي واحد وهو التكفير الذي طبقوه على كل من يتجاوز المبادئ الأخرى الموجودة في المذهب، فالتكفير عندهم سياج قوي يحفظ كيان مذهبهم، والكفر الذي أرادوه هو كفر الملة، الذي طبقوه على مخالفيهم من الناحية العملية في جميع معاركهم

(١) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص٧٨.

التي خاضوها مع خصومهم، فقتلوا المخالفين لهم، واستباحوا أموالهم، وسبوا نساءهم وأطفالهم. كذلك أصبحت دار المخالفين لهم معروفة عندهم "بدار الكفر"، ومن ثم أصبح الخروج من دار الكفر إلى دار الإيمان قاعدة مهمة لديهم، ولذلك أطلقوا على أنفسهم المهاجرين.

ولكي يطبقوا التكفير على المخالفين، التزموا بمبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، ولذلك فالخوارج كَفَّروا أهل الذنوب، ولم يفرقوا بين ذنب وذنب، حتى إنهم عدّوا الخطأ في الرأي ذنباً إذا أدى إلى مخالفة وجه الصواب في نظرهم[1]. ولذلك كفروا علياً– رضي الله عنه– لقبوله التحكيم، مع أنه لم يُقدم عليه مختاراً، ولو سُلِّم أنه اختاره، فالأمر لا يعدو أنه اجتهاد قد أخطأ فيه، وإن كان التحكيم جانب الصواب، فلجاجتهم في تكفيره –رضي الله عنه– دليل على أنهم يرون أن الخطأ في الاجتهاد يخرج من الدين[2].

يضاف إلى ذلك كله أنهم تمسكوا بظاهر نصوص القرآن، واستنبطوا منها أحكامهم، وفقاً لظاهرها ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[3] فجعلوا تارك الحج كافراً، مع أن ترك الحج ذنب[4].

ومن المعلوم أن الحج أحد أركان الإسلام الخمسة، وفرض من فرائضه التي عُلمت من الدين بالضرورة، فلو أنكر وجوبه منكر كفر وارتد عن الإسلام[5]. ولكن الخوارج اعتبروا أن تارك الحج مع إيمانه بفرضيته وأنه ركن من أركان الإسلام، اعتبروه كافراً أيضاً.

---

(١) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٦٥، ٦٦.
(٢) المرجع السابق، نفس الصفحات.
(٣) سورة آل عمران: الآية (٩٧).
(٤) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٦٦.
(٥) السيد سابق: فقه السنة، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م/١٤١١هـ، ص٣٥٣.

هكذا مارس الخوارج التكفير بطريقة مطلقة، ودون تمييز بين الأصول أو الفروع، ومثلت هذه المبادئ لوناً من التطرف الديني والسياسي، والخروج على سلطة الدولة الإسلامية، ومما يلفت النظر أن وحدة الخوارج في أول الأمر كانت ثابتة قوية تحت قاعدة التكفير، ولكن هذه القاعدة نفسها كانت هي السبب في تصدع الكيان الأساسي للخوارج وانقسامه إلى فرق تحمل مسميات جديدة نظراً للخلافات التي حدثت بين زعماء الخوارج وأهم هذه الفرق:

أولاً: المحكمة الأولى:

وهي الذين خرجوا على الإمام عليّ بن أبي طالب –رضي الله عنه– حين جرى أمر التحكيم، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وأول من بويع من المحكمة بالإمامة عبد الله ابن وهب الراسبى[1].

ثانياً: الأزارقة:

أتباع نافع بن الأزرق الحنفي، اجتمع عليه الخوارج وسموه أمير المؤمنين[2].

وهذه الفرقة كانت أكثر فرق الخوارج عدداً وأشدهم شوكة، ومن زعمائهم قطرى بن الفجاءة[3].

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص ١١٦، ١١٧.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص٨٥، أبو راشد نافع بن الأزرق بن قيس من الدول بن حنيفة، وإليه ينسب الخوارج الأزارقة. كان أول خروجه بالبصرة وفي سنة ٦٥هـ اشتدت شوكته وكثرت جموعه فأرسل إليه عبد الله بن الحارث بن كريز بن ربيعة، واشتد بينهما القتال حتى قتل في آخر جمادى الأخرى، (ابن قتيبة: المعارف، ص٣١١، البغدادي: الفرق، ص٨٢ هامش ٤، ابن حزم: الجمهره، ص٣١١)، اليمامة: مدينة متصلة بأرض عمان من جهة المغرب مع الشمال كان اسمها جَوًّا وسميت اليمامة بامرأة وهي زرقاء اليمامة (الحميري: الروض المعطار، ص٦١٩).

(٣) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٦٦، البغدادي: الفرق بين الفرق، ص٨٦، قطريّ بن الفُجاءة: من بني حرقوص بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، ويكنى أبا نعامة كان رأس الخوارج، خرج أيام مصعب ابن الزبير. فبقي عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة، ووجه إليه الحجاج جيشاً بعد جيش، وكان آخرهم جيش سفيان بن الأبرد الكلبي الذي قتله بطبرستان سنة تسع وسبعين (٧٩هـ) (ابن قتيبة: المعارف، ص٤١١، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص١٥١–١٥٢).

وتمثل أفكار الأزارقة برنامجاً ثابتاً يتعاملون به مع المخالفين لهم، وكان الخروج على أحد عناصر هذا البرنامج سببا في انقسام الخوارج إلى فرق، وأهم عناصر هذا البرنامج:

١- أنهم كفروا عليّاً– رضي الله عنه– وعثمان وطلحة والزبير وعائشة، وعبد الله بن عباس –رضي الله عنهم– وأبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص وسائر المسلمين معهم، وقالوا بخلودهم في النار جميعاً[١].

٢- قولهم بأن مخالفيهم من هذه الأمة كفارٌ وأن دارهم دار كفر ومن أقام فيها ولم يهاجر لهم فهو كافر، ومن ثم استباحوا قتل نساء مخالفيهم، وقتل أطفالهم، وزعموا أن أطفال مخالفيهم مخلدون في النار[٢].

٣- قولهم بأن القَعَدة– ممن كان على رأيهم– عن الهجرة إلى معسكر الخوارج كفار لأنهم لم يهاجروا إليه. ونافع بن الأزرق هو أول من أظهر البراءة من القَعَدَةِ عن القتال معه، وإن كان موافقاً له على دينه[٣].

٤- أوجبوا امتحان من قصدهم إذا ادعى أنه منهم بأن يدفعوا إليه أسيراً من مخالفيهم، ويأمروه بقتله، فإن قتله صَدَّقوه في دعواه أنه منهم وإن لم يقتله حكموا بأنه منافق ومشرك وقتلوه[٤].

٥- أسقط الأزارقة حد الرجم عن الزاني، بدعوى أنه لم يذكر في القرآن، وأسقطوا حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال، مع أنهم أوجبوا تطبيق حد القذف على قاذف المحصنات من النساء[٥].

---

(١) الشهرستاني: مصدر سابق، ج١، ص١٢٠، ١٢١، الأشعري: مقالات الإسلاميين، تحقيق: هلموت ريتر، الذخائر العدد ٦١، ص٨٧.

(٢) الأشعري: المصدر السابق، ص٨٩، البغدادي: مصدر سابق، ص٨٣، ٨٤.

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص٨٣.

(٤) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٥) المصدر السابق، ص٨٤، الشهرستاني: مصدر سابق، ج١، ص١٢١.

٦- أنهم برئوا من أهل التقية وقالوا: إن التقية غير جائزة في قول أو عمل[١].

٧- اجتمعت الأزارقة على أن من ارتكب كبيرة من الكبائر فهو كافر كفر ملة وأنه خرج بهذه الكبيرة التي ارتكبها عن الإسلام، ويكون مخلداً في النار مع سائر الكفار، واستدلوا على ذلك بكفر إبليس وقالوا: "ما ارتكب إلا كبيرة حيث أُمر بالسجود لآدم –عليه السلام– فامتنع وإلا فهو عارف بوحدانية الله تعالى"[٢]. وعلى الرغم من ذلك قالوا: بأنه يجوز على الأنبياء أن يرتكبوا الكبائر والصغائر وذلك بلا ريب من المتناقضات في أقوالهم إذ إنهم بينما يكفرون مرتكب الكبيرة – كما أسلفنا– فإنهم يجوزونها على الأنبياء، فالنبي في نظرهم قد يكفر ثم يتوب[٣]، ذلك أخذوه من ظاهر قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[٤].

٨- استحل الأزارقة لأنفسهم الأمانة التي أمر الله تعالى بأدائها لأصحابها، وقالوا: "إن مخالفينا مشركون فلا يلزمنا أداء أماناتهم إليهم"[٥]. كما أنهم قطعوا يد السارق في القليل والكثير، ولم يعتبروا في السرقة نصاباً"[٦].

ثالثاً: النجدات:

هم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي، وكان نجدة قد خرج من اليمامة مع عسكره يريد اللحوق بالأزارقة، وفي طريقه التقى بأبي فُديك، وعطية بن

(١) المصدر السابق، ص١٢٢، الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص٨٩.
(٢) الشهرستاني: مصدر سابق، ج١، ص١٢٢.
(٣) المصدر السابق، نفس الصفحة، محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٧٤.
(٤) سورة الفتح: الآية رقم (١، ٢).
(٥) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص٨٤، الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص٨٩.
(٦) البغدادي: المصدر السابق، ص٨٤.

الأسود الحنفي ومعهما جموع من الخوارج خرجت على نافع بن الأزرق لأنه كفَّر القَعَدَة، وقال بأن التقية لا تحل، واستحل قتل أطفال مخالفيه ونسائهم. فبايع هذا الجمع الخارج على نافع نجدة بن عامر وأطلقوا عليه أمير المؤمنين.

رابعاً: البَيْهَسِيَّة:

وهم أتباع أبي بَيْهس الهصيم بن جابر، وكان مطلوباً في زمن الوليد بن عبد الملك (٨٦–٩٦هـ/٧٠٥– ٧١٥م) طلبه الحجاج (ت ٩٥هـ/٧١٣م) ففر إلى المدينة المنورة، فقبض عليه واليها عثمان بن حيان المُزني وحبسه حتى ورد إليه كتاب الوليد يأمره بأن يقطع يديه ورجليه ثم يقتله ففعل به ذلك[1].

وقد زعم بَيْهس "أنه لا يُسلم أحد حتى يقر بمعرفة الله تعالى ومعرفة رسله ومعرفة ما جاء به النبي– ﷺ –، والولاية لأولياء الله تعالى والبراءة من أعداء الله"[2].

خامساً: العَجَارِدَةُ:

وهم أصحاب عبد الكريم بن عجرد قال عنهم الأشعري إنهم من العطوية المنشقين على النجدات[3]. بينما يروي الشهرستاني أنهم كانوا من أصحاب أبي بيهس ثم خالفوه وتفردوا عنه بجملة من الآراء فقالوا: "تجب البراءة عن الطفل حتى يدعى إلى الإسلام، ويجب دعاؤه إذا بلغ، وأطفال المشركين في النار مع آبائهم، ولا يرون المال فيئاً حتى يقتل صاحبه، وهم يتولون القَعَدَةَ إذا عرفوهم بالديانة، ويرون الهجرة فضيلة لا فريضة ويُكَفِرون بالكبائر، ويحكى عنهم أنهم ينكرون كون سورة يوسف من القرآن، ويزعمون أنها

(١) الشهرستاني: مصدر سابق، ص١٢٥، أبو بيهس من بني سعد بن ضبيعة بن قيس واسمه هيضم بن جابر، وكان عثمان بن حيان والي المدينة قد قطع يديه ورجليه، ابن قتيبة: المعارف، ص٦٢٢.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص٩٣.

قصة من القصص، قالوا: ولا يجوز أن تكون قصة العشق من القرآن"[1].

سادساً: الثعالبة:

وهم أتباع ثعلبة بن مشكان، وهم يقولون بإمامة ثعلبة بعد أن اختلف مع عبد الكريم بن عجرد في حكم الأطفال، فقال ثعلبة إنا على ولايتهم صغاراً وكباراً حتى نرى منهم إنكاراً للحق ورضا بالجور، فتبرأت العجاردة من ثعلبة، وصار ثعلبة إماماً لأصحابه[2].

سابعاً: الصُفرية:

وهو أتباع زياد بن الأصفر الذي مال إلى التخفيف من التشدد مع المخالفين للصفرية، فهي فرقة لا ترى إباحة دماء المسلمين المخالفين لهم، ولا ترى أن دارهم دار حرب، ولا ترى جواز سبي النساء والذرية، بل إنها لا ترى قتال أحد غير معسكر السلطان[3]، ومن أشهر زعمائهم عمران بن حطان السدوسى[4]، ونجح هؤلاء الصفرية، في إقامة دولة لهم على المذهب الصفرى في سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى[5].

(١) الشهرستاني: مصدر سابق، ج١، ص١٢٨.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص١٠٠.

(٣) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٧٦، ٧٧.

(٤) المصدر السابق، ص ٩١، ص٩٣، عمران بن حِطّان بن عبد الله الرقاشي من بني سَدوسي من بكر بن وائل. كان أبوه من أصحاب أبي موسى الأشعري وعبادة بن الصامت، وكان هو ناسكا شاعرا شديداً في مذهب الصفريَّة وتولى رئاستهم بعد مقتل مرداس، وتوفي سنة ٨٤هـ، (البغدادي: الفرق، ص٩٣، وهامش ١ من نفس الصفحة، ابن حزم: الجمهره، ص٣١٨، اليافعي: مرآة الجنان، ج١، ص٢٠٥).

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س. كولان و.إ. ليفي بروفنسال، ط دار الثقافة بيروت، ج١، ص١٥٦، د. محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، دار القلم الكويت ١٩٨٧، ص٢٠٦، سِجْلِمَاسة: بكسر السين المهملة وكسر الجيم، وفتح الميم ثم ألف وسين وهاء في آخره، مدينة جنوبي المغرب الأقصى في طرف بلاد السودان عند جبل درن، أسسها مدرار بن عبد الله سنة ١٤٠هـ (البكري: المغرب في ذكر أخبار إفريقية والمغرب، ص١٤٨، مجهول الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: د. سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨، ص٢٠٠، الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٠٥).

ثامناً: الإباضية:

وهم أتباع عبد الله بن أباض المرى التميمي، كان أحد كبار زعماء الخوارج، وكان له فضل كبير في إحداث تعديل كبير في قاعدة التكفير في المذهب الخارجي، وهذا ضمن لهذه الفرقة من فرق الخوارج المعتدلة، — والتي تعد أقرب المذاهب الخارجية إلى مذهب أهل السنة[1]— الانتشار في بعض المواقع من العالم العربي، وكانت هناك محاولات لنشر هذا المذهب في اليمن وحضرموت قام بها أبو حمزة بن عوف الأزدي، وعبد اللّه بن يحيى طالب الحق[2].

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن بقاء الإباضية حتى الآن في بعض المواقع من العالم الإسلامي، في بلاد المغرب والخليج العربي حتى الآن كان نتيجة لما جرى على قاعدة التكفير من تعديل، وذلك في نهاية القرن الأول الهجري، فكُفرُ المخالفين عند الأزارقة وغيرهم من فرق الخوارج كُفرُ مِلة، أما التعديل الذي أجراه زعيم الإباضية عبد اللّه بن أباض، وزياد بن الأصفر زعيم الصُفْريّة، فهو أنهما عدا كفر المخالفين لهم كفر نعمة، أي أن المخالفين لهم

(١) الشهرستاني: المصدر السابق، ج١، ص١٣٤، د. محمد عيسى الحريري: الاتجاهات المذهبية في اليمن حتى نهاية القرن الثالث الهجري، عالم الكتب بيروت ١٩٩٧، ص١٧، د. إبراهيم العدوى: بلاد الجزائر تكوينها العربي والإسلامي، الأنجلو المصرية ١٩٧٠، ص١٦٤، د. عوض محمد خليفات: نشأة الحركة الأباضية، طبعة ١٩٧٨، ص٧٧، ٧٨، عبد الله بن إباض المري التميمي رأس الإباضية في البصرة والأمصار وإليه ينسب المذهب الإباضي، اختلف مع الأزارقة وكان يميل للاعتدال عنهم، (الدرجيني: طبقات المشايخ، ج٢، ص٢١٤، الشماخي: كتاب السير، طبع حجر بالجزائر، ج١، ص٧٢، د. الحريري: الدولة الرستمية، ص٧٨).

(٢) د. الحريري: الاتجاهات المذهبية، ص ص ١٧–٢٦، أبو حمزة المختار بن عوف بن سليمان بن مالك ابن فهر الأزدي أحد زعماء الإباضية المشهورين وكان صاحب طالب الحق في ثورته، عنه انظر: الدرجيني: طبقات المشايخ، ج٢، ص٢٥٩–٢٧١، الشماخي: السير، ج١، ص٩١–٩٢، د. الحريري: الاتجاهات المذهبية، ص١٨–٣٠، أبو يحيى عبد الله بن يحيى بن عمر بن الأسود بن عبد الله بن الحارث بن معاوية ابن الكندي. كان قاضياً لإبراهيم بن جبلة عامل القويم التابعة لحضر موت في عهد مروان بن محمد، لمزيد من التفاصيل عنه وعن ثورته: الدرجيني: طبقات المشايخ، ج٢، ص٢٥٨–٢٦٠، الشماخي: السير، ج١، ص٩١، د. الحريري: الاتجاهات المذهبية، ص١٨–٣٠.

كفروا بأنعم الله بما ارتكبوه من ذنوب وكبائر وخطايا، ولذلك فهم أبرياء من الشرك، لا تحل دماؤهم، وصححوا مناكحتهم، والتعامل معهم، واعتبروا أرض القبلة أرض توحيد، بمعنى أنها ليست أرض أعداء، وإنما تُعتبر وطناً للجميع من الخوارج وغير الخوارج دون تمييز[1].

على أن بعض الفرق التي نُسبت للخوارج جاءت بمبادئ تعد خروجاً على الإسلام، وفكرهم يتناقض مع ما جاء في كتاب الله تعالى، وما تواترت به الأخبار عن رسول الله– ﷺ– وهذه الفرق هي:

- اليزيدية: وهم أتباع يزيد بن أنيسة الخارجي، وكان إباضياً زعم أن الله تعالى سيبعث رسولاً من العجم ينزل عليه كتاب من السماء جملة واحدة، ويترك شريعة المصطفى– ﷺ – ويكون على ملة الصابئة المذكورة في القرآن[2].
- الميمونية: وهم أتباع ميمون بن خالد، وهؤلاء أباحوا نكاح بنات البنات وبنات أولاد الإخوة والأخوات، كما أنكر هؤلاء أن تكون سورة يوسف من القرآن الكريم[3].

التكفير الخوارجي في العصر الحديث دوافعه وآثاره:

ظهرت في العالم الإسلامي في الآونة الأخيرة جماعات وتنظيمات اعتنقت فكر الخوارج التكفيري، وهذه الجماعات والتنظيمات يحدوها أمل الوصول إلى الحكم، ويدفعها إلى ذلك حب الزعامة، وتسترت هذه الجماعات لتحقيق أهدافها خلف أهداف ظاهرة كتحقيق العدالة، أو تحرير الأرض، أو مقاومة

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص١٣٤؛ د. عوض محمد خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص٧٧، ٧٨.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص١٣٦.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص١٢٩.

الظلم، أو طرد المستعمر، واستحلوا من أجل ذلك كل الوسائل للوصول إلى أهدافهم في الحكم والزعامة، وغلفوا ذلك ببعض الشرعية كقولهم "لا حكم إلا لله" واعتبروا هذا الشعار تحللاً لهم من الالتزام بإمرة معينة وقد رد عليهم عليّ – رضي الله عنه– بقوله: "كلمة حق يراد بها باطل"[1]. ومن أمثلة ذلك أيضاً سوء فهمهم للقرآن الكريم ففي قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[2]، قالوا: إن الفاسق لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم، فوجب أن يكون ممن اسودت وجوههم ووجب من ثم أن يسمى كافراً[3]. ولا شك أن هذه الأمور التي أخطؤوا في فهمها وتعسفوا في تطبيقها. واستخدموا أبشع وسائل الإرهاب النفسي والإخافة للمخالفين لهم فحكموا عليهم بالكفر، ورأت جماعات الخوارج في التكفير مبدأً مرعباً يمكن أن يؤثر في ضعاف النفوس، فيسارعون إلى الانضمام إليهم خوفاً من أن يكونوا كفرة فيحل عليهم غضب هذه الجماعات، وقد حكمت عليهم بالكفر واستحلت دماءهم ونساءهم وأموالهم، على نحو ما جرى فعلاً من بعض الجماعات في مصر من الهجوم على محلات الذهب والاستيلاء على ما فيها.

وهذه الجماعات والتنظيمات منتشرة في بلدان العالم الإسلامي تحت مسميات مختلفة، ومن هذه الجماعات، تنظيم القاعدة، جماعة التكفير والهجرة، جماعة الجهاد، وجماعات أخرى، وإذا نظرنا فيما تبنته هذه الجماعات من المبادئ والقواعد لوجدنا أن أهم هذه المبادئ قاعدة التكفير، فهي قاسم مشترك عند كل هذه الجماعات، وهي أشد فرق الخوارج اليوم في

---

(١) د. أحمد محمد أحمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين الخوارج والشيعة، ص٦١، ٦٢.
(٢) سورة آل عمران: آية ١٠٦.
(٣) المرجع السابق، ص٦٤.

التكفير للمسلمين حكاماً ومحكومين، وأشدهم في التطرف والقتل، وإذا عرضنا بعض أفكار هذه الجماعات التي ذكرناها- والتي اعتنقت فكر الإرهاب الخوارجي- فإننا سنشعر بكثير من الأسى لما تضمنته أفكارهم من انحراف عن جادة مبادئ الإسلام وتعاليمه السمحة التي جاء بها القرآن الكريم، وسنة رسول الله - ﷺ -.

أ- تنظيم القاعدة:

في مسألة التكفير أغنانا أتباع هذا التنظيم عن الاستدلال على ذلك حيث أعلن أسامة بن لادن رئيس هذا التنظيم في (التليفزيون) تكفيره لكل المسلمين الذين شاركوا في عضوية الأمم المتحدة وقال: فقد كفروا بما أُنزل على محمد - ﷺ -، مع أن الأمم المتحدة تأسست على معاهدة بين حكومات العالم لتبادل المصالح، وحماية الحقوق، كما هو معلوم في اتفاقية جنيف، والإسلام لم يمنع ذلك.

كما سجل بن لادن خروجاً على حكام المسلمين في المملكة العربية السعودية، الذين أسسوا المملكة على شريعة الإسلام والكتاب والسنة وأقاموا حدود الله، وناصرت المملكة أهل الإسلام في كل مكان[1].

واختط تنظيم القاعدة لنفسه استراتيجية هدفها استثارة حرب على أساس ديني تتسع باتساع العالم شرقاً وغرباً[2]. وعندما وضع تنظيم القاعدة هذه الاستراتيجية موضع التنفيذ ظهر جلياً انطواؤها على خلل كبير، ومرد هذا الخلل، أن تنظيم القاعدة أخطأ في قراءة الواقع العالمي في ذلك الوقت.

(١) د. فهد بن سليمان الفهيد: تأثر الخوارج المعاصرين بأصول الخوارج المتقدمين، بحث ضمن منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٠هـ، ص٥٤.

(٢) كرم محمد زهدى وآخرون: استراتيجية تفجيرات القاعدة، مكتبة التراث الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م، ص٢٧.

فالقاعدة كانت تُعلي منطق الصدام، وتوسع دائرة الصراع بغض النظر عن القدرات والمآلات، والمصالح والمفاسد والنتائج، علاوة على الفهم الخاطئ لفريضة الجهاد.

والملاحظ أن النتائج والآثار التي نجمت عن تلك الاستراتيجية تصب في غير مصلحة الأمة الإسلامية، وعندما نحاول حصر الخسائر الكبرى التي خسرها المسلمون نتيجة لهذه الاستراتيجية الفاشلة، نجدها تتضح فيما يلي(١):

١- احتلال أفغانستان، والعراق بدعوى الحرب ضد الإرهاب.

٢- الإضرار بقضايا العالم الإسلامي والأقليات الإسلامية، بالخلط المتعمد بين حركات المقاومة للاحتلال والإرهاب.

٣- إفساح المجال أمام تحقيق الأهداف والطموحات الإسرائيلية.

٤- مطاردة تنظيم القاعدة والحركات الإسلامية أياً كانت أهدافها في إطار تحقيق الأمن العالمي.

٥- تعرض الجاليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا خاصة لمضايقات عنصرية، وتشديد قوانين الهجرة واللجوء السياسي بها.

٦- التأثير السلبي على صورة الإسلام في العالم، وترويج صورة نمطية للإسلام تميل إلى وصمه بالإرهاب والعنف، وبالخطر الهائل، والعدو البديل.

٧- ما أحدثته تفجيرات القاعدة في الرياض، وفي المغرب، وفي جزيرة بالي الأندونيسية من خسائر وآلام في نفوس المسلمين، ومن إساءة إلى الإسلام وإلى صورته في نظر العالم شرقاً وغرباً(٢).

(١) المرجع السابق، ٨٤–٨٨.

(٢) ناجح إبراهيم عبد الله وآخرون: تفجيرات الرياض، مكتبة التراث الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ–٢٠٠٣م، ص١١.

ب- جماعة التكفير والهجرة:

هذه الجماعات نشأت في مصر وكان يقودها شكري مصطفى، الذي كان طالباً بكلية الزراعة بجامعة أسيوط، واعتقل في سنة ١٩٦٥م، بتهمة انتمائه إلى جماعة الإخوان المسلمين، وظل في السجن ست سنوات حتى عام ١٩٧١م، وتولدت أفكاره التكفيرية الخوارجية داخل الزنازين والمعتقلات، وقاد شكري جماعته داخل السجن، واعتبر نفسه مصلحاً عظيماً، وجعل نفسه المهدي المنتظر، وبايعه أتباعه أميراً للمؤمنين، وقائداً لجماعة المسلمين، وسيطرت عليه وعلى جماعته فكرة التكفير للمخالفين، وانتهى به الأمر أن أُعدم وزملاؤه من قادة الحركة بتهمة اختطاف واغتيال الدكتور/ محمد حسين الذهبي الذي كان وزيراً للأوقاف في مصر في ذلك الوقت(١).

واستطاعت جماعة التكفير والهجرة أن تكوِّن لها مبادئ معينة وأصول وقواعد، تمسكت بها، وأن تبني منهجاً معيناً، يرتكز على فكر الخوارج، ونظموا أنفسهم في إطار هذا الفكر وعمدوا إلى تطبيقه على أنفسهم وعلى مجتمعهم، ويأتي التكفير على رأس هذه القائمة من المبادئ على النحو التالي(٢):

١- التكفير ويشتمل على:

- "تكفير مرتكب الكبيرة والقول بخروجه من الملة وأنه خالد مخلد في النار كما تقول فرق الخوارج الأولى.
- تكفير المخالفين لهم من المسلمين (علمائهم وعامتهم) وتكفير المعين.
- تكفير من يخرج عن جماعتهم ممن كان منهم، أو من يخالف بعض أصولهم.

(١) د. أحمد جلي: دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين الخوارج والشيعة، ص١١٠، ١١١.
(٢) المرجع السابق، ص١١١؛ د. ناصر بن عبد الكريم العقل: الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، دار إشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ-١٩٩٨م، ص١١١، ١١٢.

- تكفير المجتمعات المسلمة (سواهم) والحكم عليها بأنها مجتمعات جاهلية.
- تكفير كل من حكم بغير ما أنزل الله مطلقاً دون تفصيل.
- تكفير من لم يهاجر إليهم، ومن لم يهجر المجتمع ومؤسساته.
- تكفير من لم يُكفر الكافر عندهم مطلقاً"[1].

٢- وجوب الهجرة والعزلة ويشتمل ذلك عندهم على:

- " هجر مساجد المسلمين وترك الصلاة بها، وترك الجمعة.
- هجر المجتمعات المسلمة من حولهم مطلقاً.
- هجر التعلم والتعليم، وتحريم الدخول في الجامعات والمدارس.
- هجر الوظائف الحكومية، وهجر العمل بمؤسسات المجتمع وتحريم مزاولة أي عمل فيما يطلقون عليه (المجتمع الجاهلي)"[2].

٣- الدعوة إلى الأمية ومحاربة التعليم:

- "وذلك بدعوى أن النبي -ﷺ- والصحابة كانوا أميين - إلا نادراً- وأنه لا يمكن التوفيق بين طلب العلوم الدنيوية، وبين عبادة الله تعالى بالصلاة والصوم والحج والدعاء والذكر، وتلاوة كتاب الله والجهاد والبلاغ، وأنه يمكن أن يتلقى المسلم القدر الضروري من العلم الشرعي بالتلقي المباشر دون اللجوء إلى تعلم القراءة والكتابة"[3].

٤- القول بالتوقف والتبين:

- "ويقصدون به كما يقصد أسلافهم الخوارج الأولون، التوقف في أمر

(١) د. ناصر بن عبد الكريم العقل: الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، ص١١١، ١١٢.

(٢) د. ناصر بن عبد الكريم العقل: الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، ص١١٢؛ د. فهد بن سليمان الفهيد: تأثر الخوارج المعاصرين بأصول الخوارج المتقدمين، ص٥٨.

(٣) د. ناصر بن عبد الكريم العقل: المرجع السابق، ص١١٢.

مجهول الحال من غير جماعتهم (من المسلمين) فلا يحكمون عليه بالكفر ولا يحكمون له بالإسلام إلا بالبينة، وهي لزوم جماعتهم ومبايعة إمامهم فمن أجاب فهو مسلم، ومن لم يجب فهو كافر"[١].

٥- "**القول بأن زعيمهم هو المهدي الذي يخرج آخر الزمان**، ويُظهر الله به الدين على سائر الأديان في الأرض"[٢].

٦- **القول بتعارض الفرائض**:

- "ويقصدون بذلك جواز إسقاط بعض الواجبات والفرائض الشرعية فزعموا سقوط الجمعة عنهم لأنهم في حالة الاستضعاف وشرطها التمكين"[٣].

- **ولهم سمات وعلامات أخرى مميزة لهم منها**:

  - "إحداث أصول تشريعية جديدة تخالف منهج السلف، وردهم للإجماع، ومنع التقليد والاقتداء مطلقا، وإلزام جميع الناس بالاجتهاد.
  - عدم اعتمادهم لفهم الصحابة والعلماء، وأئمة الهدى للقرآن والسنة.
  - لا يعتدون بالخلافة الإسلامية من القرن الرابع الهجري فيكفرون العصور التالية.
  - العنف والحدة في التعامل سمة مميزة لهم.
  - التعالم والتعالي والغرور، والشعور بالتميز عن سائر المسلمين.
  - استحلال الدماء والاغتيالات للمخالفين لهم ممن كان معهم ويسمونهم مرتدين"[٤]. وكانت آخر عملياتهم في هذا المجال اختطاف الشيخ الدكتور

---

(١) المرجع السابق، ص١١٢، ١١٣.

(٢) المرجع السابق، ص١١٣.

(٣) المرجع السابق، ص١١٣، ١١٤.

(٤) د. ناصر بن عبد الكريم العقل: الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، ص١١٣، ١١٤.

محمد حسين الذهبي وقتله، كما أنهم اغتالوا بعض الخارجين منهم عن جماعتهم[1].

وواضح من هذه الأصول والسمات التي عرضناها، أنهم جمعوا في فكرهم تركيبة من المبادئ التي يتصدرها التكفير الذي كان –كما ذكرنا– الآلية الرئيسية في مواجهة المخالفين لهم وهذه المبادئ أخذوها من كل فرق الخوارج الأول، وأصبحت هذه الأفكار مذهباً لهم يطبقونه بلا هوادة ولا رحمة على المجتمع.

ج– جماعة الجهاد:

نشأت جماعة الجهاد في أوائل سنة ١٩٧٤م برئاسة صالح عبد الله سرية، الفلسطيني الجنسية، والذي كان ينادي بقيام الدولة الإسلامية لتطبيق شريعة الله، مستخدماً في ذلك جميع طرق العنف، مع إباحة الدماء للوصول إلى هدفه، وجمع حوله الكثير من الأتباع خصوصاً من طلبة الجامعة، وبدأ نشاطه بحادث محاولة الاستيلاء على الكلية الفنية العسكرية، ولكن محاولته فشلت، وحوكم وأُعدم[2].

خلف صالح سرية في تنظيم الجهاد عبد السلام فرج الذي دعا إلى تكفير المجتمع بالكامل وأنه لا سبيل إلى الخلاص إلا بالقتل والعنف، وأن الآيات التي تدعوا إلى الصفح والعفو والتسامح هي آيات منسوخة، بينما الآيات التي تحض على القتال والجهاد هي الصحيحة، وصدر من هذه الجماعة كتاب "الفريضة الغائبة" وهي الجهاد الذي أصبح اسماً للجماعة.

---

(١) المرجع السابق، ص١١٤.

(٢) حسن صادق: جذور الفتنة في الفرق الإسلامية، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م، ص٣٣٩.

تضمن الكتاب أفكاراً أساسية للجماعة تدور حول[1]:

١- إقامة الدولة الإسلامية، أو الخلافة[2].

٢- حكام العصر تعددت أبواب الكفر التي خرجوا بها عن ملة الإسلام.

٣- الهجرة والعلم، والهجرة في نظرهم لإقامة الدولة الإسلامية، تقتضي الهجرة إلى بلد آخر وإقامة الدولة هناك ثم العودة مرة أخرى فاتحين.

٤- الخروج على الحاكم وتكفيره وخلعه إذا طرأ عليه كفر، أو تغيير للشرع، أو بدعة، وفي هذه الحالة وجب على المسلمين القيام عليه وخلعه، ونَصْبِ إمام عادل.

٥- القتال فرض على كل مسلم، للحكام الذين انتزعوا قيادتهم وجهادهم فرض عين على كل مسلم[3].

وكانت أخطر الجرائم الإرهابية التي نفذها أتباع هذا التنظيم، جريمة اغتيال الرئيس محمد أنور السادات في أكتوبر سنة ١٩٨١م، وقتل الدكتور رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب في أكتوبر سنة ١٩٩٠م[4]. بالإضافة إلى جرائم إرهابية أخرى، وهذه الجرائم كلها تشير إلى أن القتل والاغتيال كان الجانب التطبيقي لمبدأ التكفير الذي كان قاعدة أساسية في عقيدتهم.

د- جماعات أخرى:

هذه الجماعات الكبرى السابقة أفرزت جماعات صغرى، وكأن بلدان العالم الإسلامي أصبحت سوقاً رائجة لكل المتطلعين إلى السلطة، ومحبي الزعامة ومن هذه الجماعات:

(١) حسن صادق: جذور الفتنة في الفرق الإسلامية، ص٣٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤٠.

(٣) المرجع السابق، ص٣٤٢-٣٥٠.

(٤) د. محمد مورو: تنظيم الجهاد، الشركة العربية للنشر والإعلام، (د.ت)، ص٧٥، ص١٧١.

- **جماعة السماوية**:

كان عبد الله أحمد السماوي، وشهرته طه السماوي (٣٦)سنة ينتمي إلى جماعة التكفير والهجرة، وكان يعيش مع شكري مصطفى، وثمانية أفراد آخرين داخل زنزانة واحدة في أوائل السبعينات، وأطلقوا على زنزانتهم (المُكَفِرَة) لأنهم كانوا يكفرون الناس جميعاً بما فيهم رجال الدين والأزهر، وبعد خروج السماوي من المعتقل استقل بجماعته، وازداد تطرفاً عن جماعة التكفير والهجرة، وكان جريئاً في مهاجمة الحكومة في المساجد، وكان يكرر لأتباعه أن من يطيعه سيدخل الجنة لأنه يملك مفاتيحها.

ويقوم فكر السماوي على تكفير الحاكم والمحكوم، واعتبار المجتمع مجتمعاً جاهلياً، وقد انتهى السماوي بفكره إلى أن العمل في وظائف الحكومة، والقوات المسلحة كفر، والالتحاق بالتعليم كفر، وكان سلوكه الشخصي مع أتباعه يدل على مدى ما وصل إليه أتباعه من الجهل والضعف وقلة الفكر السليم، فقد كان السماوي في سجنه يسخر أتباعه لخدمته، وغسيل ملابسه، وتدليك جسده، وتجهيز ما يريد من أكل وخلافه[1]. ورفض السماوي الدخول في أي مناقشات مع رجال الدين حول أفكاره رفضاً باتاً.

- **جماعة الشوقيين**:

أمير هذه الجماعة الذي نسبت إليه هو شوقي الشيخ، الذي قتلته الشرطة، ثم كان أميرها بعده عادل عبد الباقي، الذي ترك الجماعة وتاب عما كان يفعل، وتعين على الجماعة بدلاً منه كمال توفيق.

والشوقيون جماعة تدعو إلى التطرف والغلو في الدين، ويقررون أن حكام مصر من الكافرين، وأن المواطنين المصريين كلهم كفار، ويجب محاربتهم

(١) حسن صادق: جذور الفتنة في الفرق الإسلامية، ص٤٤٠.

والقضاء عليهم بالقتل بأي صورة من صور القتل[1].

ويقرون باستحلال أموال كل من لا ينتمي إلى جماعتهم ولو بالقتل، ويحضُون على بناء مجتمع إسلامي جديد على أسس من مبادئ القرآن والسنة، وعليهم الفتك بكل من يعارضهم هو وعائلته، وقد انضم قادة التنظيم إلى الجماعة الإسلامية، ثم انفصلوا عنها وقد فضح أمير الجماعة التائب عادل عبد الباقي أسرارهم، حيث قرر أنهم يتزوجون عدة مرات حتى تصبح الزوجة متزوجة من عدة رجال في وقت واحد، ودون انتظار للعدة ولا يعنيهم من العقيدة إلا الجنس وحب الزعامة[2].

- **جماعة الناجون من النار:**

وهم خليط من الجماعات المختلفة، ويجتمعون في بعض الأحيان ثم ينفضون دون عمل إيجابي سوى المناداة بتكفير المجتمع والحكام، وإباحة قتلهم، ولا يستقرون على مبادئ معينة هادفة، وإنما يلجؤون إلى ارتكاب بعض الحوادث الفردية كتفجير القنابل والمفرقعات[3].

- **جماعة طلائع الفتح:**

وأمير الجماعة الأول هو أيمن الظواهري، الذي هو الآن الرجل الثاني في تنظيم القاعدة، وقد شرح الجماعة فكرهم في كتابين "الحصاد المر"، "العمدة في إعداد العدة"، وقد تناول فكرهم نبذ مبادئ الإخوان المسلمين، وجهادهم ومحاربتهم للسلطات بالطريق السلمي، وقرروا أنه يجب أن تكون هناك فترة انتقال ليتمكن المسلمون بقيادتهم من فرض الحكم الإسلامي وأنهم المسئولون عن هذه الفترة التي يحكم فيها الكفار، حيث يجب إبادة

(١) المرجع السابق، ص٤٤١.
(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.
(٣) حسن صادق: جدور الفتنة في الفرق الإسلامية، ص٤٤٢.

جميع الحكام والتخلص منهم لأنهم لا ينفذون شريعة الله، ولا يحكمون بكتاب ولا سنة. كما قرروا أن الحرب قائمة بينهم وبين كل من هو كافر في نظرهم سواء كان هذا من الحكام أو من الشعب، وقالوا إنهم لا يسعون إلى الحكم أو اعتلاء المناصب، وإنما فقط يعملون للتمهيد لمن يأتي بعدهم من المسلمين الصادقين[1].

بعد هذه الجولة مع هذه الجماعات الخوارجية المعاصرة والتي تبنت قاعدة التكفير أساساً لعملهم في المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية من بلدان الغرب والشرق، وظهر لنا من خلال تتبع أفكارهم المختلفة أن فكر الخوارج الأول كان دليلاً لهم في كل أعمالهم، وأنهم مارسوا مع مجتمعاتهم والمجتمعات الأخرى غير المسلمة ألواناً مختلفة من الإرهاب والقتل والتخريب، وأنها أضرت بسمعة الإسلام والمسلمين دولياً، حتى أصبح في الغرب ما يسمى (فوبيا الإسلام) أي الخوف من هذا الدين ومن معتنقيه حتى ولو كان هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام من الغربيين، ويلاحظ أن برامج هذه الجماعات تكاد تكون واحدة، والمستفيد الأكبر من أعمال هذه الجماعات هم أعداء الإسلام، لأن أفعال هذه الجماعات، تقدم الإسلام للآخر في صورة بالغة الهزال والقتامة، والخاسر الأكبر هم المسلمون، وعلينا أن نتذكر أن تفجيرات القاعدة أدت إلى احتلال أفغانستان، وضياع العراق، وضياع الكثير من مصالح المسلمين في أنحاء العالم، ولقسوة ضربات الخوارج المعاصرين المنسوبين للإسلام، وما هم من الإسلام من شيء، أصبحت كلمة الإسلام تعني في الغرب – بتأثير إعلامي صهيوني– كلمة الإرهاب، وقد أعطى غباء هذه الجماعات الفرصة للإعلام الغربي لكي يجعل من الإسلام عدواً جديداً

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

للغرب ينبغي القضاء عليه.

وحقاً ما روي عن رسول الله – ﷺ – أن هؤلاء الخوارج الذين يخرجون في كل عصر ينبغي استئصالهم من المجتمعات الإسلامية، فالرسول – ﷺ – يقول: ".. لئن أنا أدْرَكْتُهُمْ لأقتُلنهم قتل عادٍ"[1]، ويقول – ﷺ – في موضع آخر: " يأتي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ من الإسلامِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ، لاَ يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهَم يَوْمَ القِيَامَةِ[2]".

(١) البخاري: صحيح البخاري، ج٥، ص٣٣١، (كتاب بدء الخلق) برقم (٢٩٨٩).
(٢) المصدر السابق، ج٦، ص٥٦، (كتاب المناقب) برقم (٣٢٣٠).

الخاتمة

غاية القول أن هذه الدراسة انجزت مجموعة من النتائج تجعل من هذه الدراسة عملاً علمياً جديداً، أبرز كثيراً النقاط المهمة حول موضوع التكفير وأهمها:

- أن التكفير نشأ متدرجاً وملازماً لأحداث الصراع الذي مرت به حركة الخوارج في صراعها مع السلطة الشرعية المتمثلة في الخليفة عليّ بن أبي طالب– رضي الله عنه– ومن جاء بعده من سلطات شرعية في أزمان تالية.
- أن التكفير في أثناء الثورة على عليّ بن أبي طالب– رضي الله عنه–، أصبح أساساً للعمل السياسي للخوارج لتحقيق أهدافهم مع خصومهم والحكم عليهم بالكفر، وليطبق عليهم عقوبة القتل وما يتبعها من أمور أخرى.
- أن الخليفة عليّ بن أبي طالب في أثناء صراعه مع الخوارج حاول ردهم بالحوار وعاونه في ذلك عبد الله بن عباس– رضي الله عنهما– ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل، ونتج عنها معركة النهروان التي كان لها أثرها في تفكيك جيش عليّ حتى أصبح هذا الجيش عاجزاً عن التجمع، أو تحقيق أي انتصار، وخُذِلَ عليّ– رضي الله عنه– حتى كانت نهايته.
- أن الخوارج قاموا باستعراض الناس للتعرف على ميولهم، فإن كانوا يحملون آراءهم اعتبروهم منهم، وإن كانوا مخالفين لهم، حكموا عليهم بالكفر والقتل، وسبوا نساءهم وأطفالهم، واستولوا على أموالهم.

- تتبعت الدراسة التكفير وتطوره وأثره في انقسام الخوارج إلى فرق، وأثبتت الدراسة أن بقاء المذهب الإباضي الخارجي حتى الآن في بعض المناطق من العالم الإسلامي كالمغرب وعمان كان نتيجة التطور الذي لحق قاعدة التكفير فبعد أن كان الكفر كفر ملة، أصبح كفر نعمة.
- تتبعت الدراسة الفكر الخوارجي المعاصر، ورصدت أهم التنظيمات والجماعات الإسلامية وفكرها، كتنظيم القاعدة، وجماعة التكفير والهجرة، وجماعة الجهاد وبعض الجماعات الأخرى، وأثر فكر هذه الجماعات على الإسلام، والأضرار التي لحقت بالإسلام والمسلمين نتيجة لذلك.

التوصيات :

- ما نراه في هذا المؤتمر من تضافر الجهود بين وزارة الداخلية وبين الجامعات السعودية ممثلة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، يمثل خطوة جادة لمواجهة الجماعات الخوارجية المعاصرة، وهذا التعاون المشترك لابد أن يمتد إلى سائر الجامعات في المملكة العربية السعودية على اعتبار أن الجامعات بيوت خبرة واسعة في المجال العلمي، ولديها رصيد هائل من العلماء الذين يعرفون شبهات الغلاة ودعاويهم وتلبيساتهم ومزاعمهم، ولدى هؤلاء العلماء خبرة واسعة بكيفية الرد عليهم، كما أن هؤلاء العلماء يعملون في الجامعة موطن معظم الشباب السعودي، ولاشك أن التعاون بين الداخلية والجامعة سوف يؤتي ثماره، وذلك أفضل بكثير من عمل كل منهما منفرداً.
- تعظيم دور العلماء ورجال الدين، والدعم الكامل لهم بكل الوسائل

المسموعة والمقروءة والمرئية، وتهيئة كل الظروف والسبل التي تمكنهم من التوعية بخطورة هذه الجماعات على أبناء الأمة. ولاشك أن مهمتهم ستكون سهلة لأن الدولة السعودية يقوم نظامها على الإسلام وتحكيم الشرع والعمل بالكتاب والسنة والجماعة.

- وفي إطار ضرورة التوعية لابد أن يكون هناك تنسيق كامل ومنظم بين الجامعات وأجهزة الإعلام والداخلية، والمؤسسات العلمية البحثية لرصد أعمال هذه الجماعات ودراستها، وشرح خطورتها.
- تشكيل مجلس علمي يتضمن جهازاً علمياً من العلماء ومن المتخصصين الأمنيين في الداخلية للرد على شبهات هذه الجماعات من خلال شبكة المعلومات (الإنترنت)، وشرح فساد مبادئها ومخالفتها للشريعة.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت٦٣٢هـ)، الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر، بيروت (د.ت).
- ابن النديم: أبو الفرج محمد بن يعقوب بن إسحاق (ت ٣٨٠هـ)، الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، طهران ١٩٧١.
- ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٢.
- ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، الطبعة الخامسة، (د.ت).
- ابن سعد: محمد بن منيع (ت ٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، طبعة دار صادر، بيروت (د.ت).
- ابن عذارى: المراكشي (كان حيا ٧١٢هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س.كولان، إ.ليفى بروفنسال، طبعة دار الثقافة، بيروت (د.ت).
- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦.
- ابن كثير: أبو الفدا (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ)، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة (د.ت).
- الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت٣٢٤)، مقالات الإسلاميين: تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٨٥. ونسخة أخرى عني بتصحيحها هلموت ريتر طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة الذخائر رقم (٦١)،

القاهرة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

- البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبه الجعفي البخاري (ت ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ج١٠، طبعة القاهرة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- البغدادي: عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي (ت ٤٢٩هـ) الفرق بين الفرق، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت (د.ت).
- البكري: أبو عبيد الله عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، طبعة مكتبة المثنى ببغداد (د.ت).
- البلاذرى: أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي (ت ٢٧٩هـ)، أنساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٩.
- البلخي: أبو زيد أحمد بن سهل (ت ٣٢٢هـ)، البدء والتاريخ، تحقيق: كلمان هوار، طبعة باريس ١٨٩٩.
- حسن صادق: (لواء) جذور الفتنة في الفرق الإسلامية، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- الحميري: محمد بن عبد المنعم (عاش في القرن السابع الهجري)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٤.
- خليفة بن خياط: أبو عمرو خليفة بن خياط العصفري (ت٢٤٠هـ)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: د. مصطفى نجيب فواز، د. حكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥.
- د. إبراهيم العدوي: بلاد الجزائر تكوينها العربي والإسلامي، الأنجلو المصرية، ١٩٧٠.
- د. أحمد محمد أحمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين، طبعة مركز فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٣.

- د. باسم بن فيصل الجوابرة: التكفير في ضوء السنة النبوية، جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود (العالمية)، الدورة الثانية، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- د. حامد محمد الخليفة: الإنصاف فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من الخلاف، طبعة الواحة الفنية، (د.ت).
- د. سهير القلماوي: أدب الخوارج في العصر الأموي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٤.
- د. عبد الشافي عبد اللطيف: العالم الإسلامي في العصر الأموي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٤.
- د. عبد المجيد بن سالم بن عبد الله المشعبى: منهج بن تيمية في مسألة التكفير، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- د. عوض محمد خليفات: نشأة الحركة الإباضية، طبعة عمان ١٩٧٨.
- د. فهد بن سليمان الفهيد: تأثر الخوارج المعاصرين بأصول الخوارج المتقدمين، بحث ضمن منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٠هـ.
- د. كرم محمد زهدي وآخرون: استراتيجية تفجيرات القاعدة، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
- د. لطيفة البكاى: حركة الخوارج، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠١م.
- د. محمد أبو سعده: الخوارج في ميزان الفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٨م.
- د. محمد حلمي أحمد: الخلافة والدولة في العصر الأموي، مكتبة الشباب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٧.
- د. محمد عيسى الحريري: الاتجاهات المذهبية في اليمن حتى نهاية القرن الثالث الهجري، طبعة عالم الكتب، بيروت ١٩٩٧.
- د. محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب، دار القلم، الكويت ١٩٧٧.
- د. محمد مورو: تنظيم الجهاد، الشركة العربية للنشر والإعلام، (د. ت).
- د. محمود إسماعيل عبد الرازق: الخوارج وقضية التحكيم، المجلة التاريخية

المصرية، المجلد العشرون، ١٩٧٣.

- د. ناجح إبراهيم عبد الله وآخرون: تفجيرات الرياض، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- د. ناصر بن عبد الكريم العقل: الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، دار إشبيليا، الطبعة الأولى، الرياض ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- الدرجينى: أبو العباس أحمد الدرجينى (ت ٧٦٠هـ)، طبقات المشائخ، تحقيق: إبراهيم طلاى، مطبعة قسطنطينه، الجزائر ١٩٧٤.
- الذهبي: شمس الدين محمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت (د.ت).
- الزبيدي: محمد مرتضى الحسينى الزبيدي، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، وزارة الإعلام بالكويت، ج١٤، ١٩٧٤.
- السيد سابق: فقه السنة، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- الشماخى: أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت٩٢٨هـ)، السير، طبع حجر، الجزائر (د.ت).
- الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر محمد الشهرستاني (٤٧٩-٥٤٨هـ)، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٤م.
- صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان: التكفير وضوابطه، المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.
- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الرابعة، (د.ت).
- طه حسين: الفتنة الكبري، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠.
- المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ) الكامل في اللغة والأدب، مكتبة

المعارف بيروت (د.ت).

- مجهول: كاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: د. سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨.
- محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، طبعة دار الفكر العربي، بالقاهرة (د.ت).
- اليافعي: عفيف الدين بن عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٥هـ)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، تحقيق: عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٤.
- ياقوت: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، طبعة دار صادر، بيروت (د.ت).

ظاهرة التكفير .. الأسباب والعلاج والآثار

"الجذور والمظاهر العقدية للتكفير في النصرانية"

د. محمد عبد الحليم بيشي
جامعة الجزائر ، كلية العلوم الإسلامية
قسم العقائد والأديان

مؤتمر ظاهرة التكفير .. الأسباب .. الآثار .. العلاج

تعتبر النصرانية من أكبر الديانات التي تنتظم فيها أمم وشعوب كثيرة، وهي في صيرورتها التاريخية والعقدية لم تسلم من ظواهر التكفير والانشقاق، وما يتبعها من حروب دينية داخلية وخارجية بين مختلف طوائفها ومذاهبها. حتى إنه ليَمكننا المجازفة بالقول بأن تاريخها هو التكفير العام والتكفير المتعدد، ولا يمكننا أن نستنكف عن القول بأن ذلك أدى إلى وجود ديانات مختلفة داخل النصرانية. والذي يعضد هذا هو التبصّر في المواقف العقدية للمذاهب النصرانية فيما بينها حيث نجد إفراطا في مقالات التكفير، التبديع، الهرطقة، الانشقاق.. إلخ.

كما نجد أثر ذلك في التشريعات الحياتية في قضايا الزواج والميراث والصلاة والدفن، والفاجعة الكبرى هي في استقراء الحروب الدينية بين الطوائف النصرانية في أواخر ما اصطلح عليه بعصور الإيمان المظلمة وماتلاها في بدايات عصر النهضة، وهي التي تماهت تاريخيا مع العصور الوسطى، تلك الحروب التكفيرية التي أورثت أوروبا الخراب والدمار واهتزاز الكيانات السياسية والتأخر الفاضح في الحياة الثقافية والاقتصادية بسبب مقالات التكفير التي كان ينبعث شررها من المجامع الدينية ومن كنيسة روما الرسولية ضدّ الطوائف الإصلاحية الجديدة وضد الكنيسة الأورثودكسية الشرقية. وصنوها الكنيسة المرقصية القبطية، وهو ما تجلى في العلائق المقطوعة بين الكنائس الثلاث: الكاثوليكية، الأورثودكسية، البروتستانتية.

إلا أن أبرز نتيجة لميراث التكفير في المسيحية هي خسارة الكنيسة لمواقعها أمام الحركة العلمانية الصاعدة أواخر عصر الإيمان وبدايات عصر النهضة، فالأزمة الأخلاقية التي أعقبت الحروب الدينية التكفيرية

ولـدت يأسـا عامـا مـن الـدين المـسيحي الـذي لم يـضمن لأتباعـه الـسلم الاجتماعي، فقلب ظهره للكنيسة التي أوت إلى جحورها، حيث صار الدين الطبيعـي والعلمانيـة والإلحـاد هـي البـدائل الثقافيـة عـن ديـن متهالـك لم ينـتج طوال قرون عديدة غير ثقافة الـتكفير والهرطقـة والتبـديع والانـشقاق، حتـى وصلنا إلى العصر الحـديث و العـالم المعاصـر الـذي خلّـف الميراث التـكفيري وراء ظهـره، واتخـذ مـن العلمانيـة مفـردة واحـدة لـصياغة العـالم والقـانون والإنـسان بعيـدا عـن مـيراث الـتكفير والحـروب الدينيـة. وقـد قـسمنا هـذا البحث إلى الفروع الآتية:

الفرع الأول

النصوص المؤسسة للتكفير في النصرانية

تستند ثقافة التكفير والتحريم والهرطقة والانشقاق وسائر المترادفات التكفيرية في المسيحية إلى جملة جذور مؤسسة لها في داخل الكتاب المقدس و خارجه من قرارات المجامع المسكونية وبراءات التحريم من الكنيسة الرسولية البطرسية، وهي من الوفرة و الكثرة بمكان، وحيث إن الكنيسة الكاثوليكية خاصة تقدم نفسها سفينة للنجاة فترى أن لا خلاص ولا حياة ولا خلود إلا لمن ركبها ولاذ بحماها، وإلا كان من الغرقى الهالكين في جهنم أبداً.

تبني الكنيسة الثقافة التكفيرية على نصوص العهدين القديم و الجديد. أي التوراة ولواحقها من الأسفار المقدسة، ثم الإنجيل الشامل للأناجيل الأربعة و أعمال الرسل[1].

أولا: نصوص العهد القديم:

التوراة المحرفة مليئة بالنصوص المتعددة في تكفير المخالفين للديانة اليهودية، بله الأعراق الأخرى غير اليهودية بحجة وبغير حجة أو محجة.وهو ما يزيد من التشكيك في سلامة النص المنقول من التوراة، مع القطع بأن التوراة الموجودة محرفة بنص القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾[2].

---

(١) محمد علي البار: المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، ط١، دمشق، دار القلم، الدار الشامية، ١٩٩٠. ص٣٩-٤٦.

(٢) سورة المائدة الآية١٣.

فمن تلك النصوص التكفيرية التى اعتمدت في النصرانية للتوسع في التكفير الشرعي وغير الشرعي ما يأتي:

أ- التكفير القائم على أساس العرق والجنس، ومن ذلك ما ورد في سفر العدد :"لأنكم شعب مقدس للرب إلهكم، فإياكم قد اختار الرب إلهكم من بين جميع شعوب الأرض لتكونوا شعبه الخاص." [(١)].

وبناء على هذا المفهوم العرقي للدين تمّ إكفار المخالفين و استباحة دمائهم وأموالهم وأوطانهم، كما هو الأمر البين في تتبّع الحروب الدامية التي تكلمت عنها التوراة المحرفة ضد شعوب الشرق القديم مثل الأدومويين والأموريين و الكنعانيين وغيرهم[(٢)].

وتبرير ذلك لم يكن لمجرد كفرهم و وثنيتهم، وإنما لكونهم لا ينتمون للشعب المختار المختص وحده برسالة السماء كما يزعمون.

ب - التكفير في المفاهيم العقدية والتطبيقات الشرعية دون المرور بالتحقيق والاستتابة والمراجعة، إذ قضت نصوص التوراة بتكفير كل مرتد وساحر و متمرد على الشريعة. فمن تلك النصوص الموجبة للتكفر الجمعي والفردي المتعلق بالرجوع إلى الوثنية ما جاء في قصة عابدي العجل الذهبي عندما ذهب موسى عليه السلام للميقات في جبل الطور، كما هو النص في قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ﴾[(٣)]، وقد ذكر المفسرون القصة وكيف عكف بنو إسرائيل على تقديس العجل بإغواء من السامري وفتنته لهم عندما صنع لهم عجلا من الذهب المسروق من المصريين، ومع أن هارون عليه

(١) سفر العدد: الإصحاح٧(٦-٧)ص٢٣٩.

(٢) انظر: سفر يشوع: الإصحاح١٢/سفر القضاة الإصحاح١١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٤٨.

السلام حاول ثنيهم مرارا لم ينتهوا[1].

وكانت العاقبة أن أمر موسى عليه السلام سبط اللاويين بقتلهم، فقتلوا ثلاثة آلاف رجل في يوم واحد، وكانت ثمرة استجابتهم أن خصهم موسى عليه السلام بالأوامر الكهنوتية ورعاية الشعائر دون من سواهم.

كان هذا هو التشريع الموسوي بعقاب الناكصين عن الشريعة، وهذا التشريع ربما كان مناسبا لزمانه لأن بني إسرائيل طبعوا على قسوة القلوب فاستوجبوا ذلك العقاب كما جاء في قوله تعلى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[2].

ولكن الكنيسة ستستخدمه في غير وجهه وتجعله مفتاحا لكل التطبيقات التكفيرية التي تميزت بالصرامة من حيث خلو محاكماتها من الحوار أو الاستتابة لإرجاع المضللين أو المكفرين أو المرتدين.

ج – تكفير وتحريم المدن: لقد اتسمت التطبيقات التكفيرية بالقسوة الشديدة انطلاقا من التكفير الجمعي و استباحة الدماء في المدن التي يظهر فيها الضلال والنكوص عن الشريعة، ولتأكيد هذه الحقيقة التي ستطبع الديانة النصرانية في معاملتها مع المخالفين من مهرطقين ومجدفين ومنشقين، فإنه يجدر بنا أن نقرأ هذه النصوص اليهودية[3] المتعلقة بتحريم المدن واستعراض المخالفين، حيث يعاقب الكل بالحرق والتدمير بجريرة البعض المنحرف، جاء في سفر التثنية: "إن سمعتم عن إحدى مدنكم التي يهبها الربّ

(١) القرطبي:الجامع لأحكام القرآن، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية ٢٠٠٠.ج٧ص١٨١.

(٢) سورة البقرة الآية ٥٤.

(٣) التوارة كتاب الله، أنزل الله فيها الهدى والنور، ولا تليق بها هذه الخرافات ولا يجوز أن تنسب إليها.

إلهكم لتسكنوا فيها أنّ بعض الفاسقين قد خرجوا من بينكم، وضلّلوا سكّان مدينتهم قائلين: لنذهب ونعبد آلهة أخرى غريبة عنكم، فافحصوا الأمر أوّلا، وتحقّقوا منه بدقّة، فإن تبيّن لكم صدقه، وثبت أنّ هذا الأمر الشنيع قد جرى فعلا، فاقضوا قضاء على سكّان تلك المدينة، وعلى بهائمهم واقتلوهم بحدّ السّيف، واجمعوا كل أمتعتها وكوّموها في وسط ساحتها وأحرقوا المدينة مع كلّ أمتعتها كاملة، انتقاما للربّ، فتصبح تلا خرابا إلى الأبد لا تبنى بعد"[1].

وهو ما يذكرنا بما تفعله الجماعات التكفيرية في ديار الإسلام اليوم من التفجيرات الجماعية بحكم ما تدعيه من مشاركة الكل في فعل المنكر أو الأمر به، أو الرضا والسكوت عنه.

د – قتل ذوي الأرحام مباشرة دون الرجوع إلى السلطة الدينية أو القضائية: "وإذا أضلّك سرّا أخوك ابن أمّك أو ابنك أو ابنتك، أو زوجتك المحبوبة، أو صديقك الحميم قائلا: لنذهب ونعبد آلهة أخرى غريبة عنك وعن آبائك من آلهة الشعوب الأخرى المحيطة بك أوالبعيدة عنك من أقصى الأرض إلى أقصاها، فلا تستجب له ولا تصغ إليه، ولا يشفق قلبك عليه، وتترأّف به، ولا تستر عليه. بل حتما تقتله، كن أنت أول قاتليه، ثمّ يعقبك بقيّة الشّعب، ارجمه بالحجارة حتّى يموت،.. فيشيع الخبر بين الإسرائيليّين جميعهم، ويخافون ولا يعاودون ارتكاب مثل هذا الأمر الشنيع بينكم "[2]. وهو ما ستستعمله الكنيسة فيما بعد في منح صكوك الغفران لكل من ساهم في الدفاع عن آرائها، إذا بدأ بتطهير الرجس من بيته وذوي قرباه وجيرانه.

هـ – قتل المرتد الكافر دون استتابة أو مراجعة: ومن ذلك ما جاء في سفر

(١) سفر التثنية: الإصحاح ١٣ (١٢–١٧)ص ٢٤٨.
(٢) سفر التثنية: الإصحاح ١٣ (٦–١١)ص ٢٤٧ – ٢٤٨.

التثنيـة:" إذا ارتكـب بيـنكم رجـل أو امـرأة مقـيم في إحـدى مـدنكم الـتي يورّثكم إياهـا الـربّ إلهكـم،.. فغوى وعبـد آلهـة أخـرى وسـجد لهـا أو للـشمس والقمـر، أو لأيّ مـن كواكـب الـسّماء ممّـا حظرتـه علـيكم..فـأخرجوا ذلـك الرّجل أو تلك المرأة الذي ارتكب ذلك الإثم خارج المدينـة، وارجمـوه بالحجـارة حتّـى يمـوت، لا تقتلـه إلا بعـد أن تقـوم عليـه شـهادة اثـنين أو ثلاثـة، ويحظـر أن تقتـل بموجـب شـهادة واحـد فقـط ويكـون الـشهود هـم أوّل مـن يرجمونـه، ثـم ّيتعاقب عليه الشّعب، فتستأصلون عندئذ الشرّ من بينكم"[1].

و – قتـل الـساحر والـساحرة كمـا جـاء في سـفر الخـروج:" لاتـدع سـاحرة تعيش"[2]. وهـو مـا سـستتخذه الكنيسة ذريعـة لتكفير مخالفيهـا بحجـة قـراءة الـسحر واسـتعماله، ومـن المعلـوم أن الاطـلاع علـى كتـب العـرب ومنتجـاتهم العلميـة في علـوم الرياضيات والكيميـاء والفلـك كـان يعـد سـحرا في تقنينـات مكتب المحافظة على الإيمان الفاتيكاني في بدايات النهضة الأوروبية.

ز– عدم التخفيف في عقوبة منتهكي الطقوس الدينية لحرمة السبت،فقد جاء في حق أحدهم:" لترجمه الجماعة كلها بالحجـارة خـارج المخيم لأن عقابـه القتل حتما"[3].

لقد تميزت الأحكام اليهودية بالصرامة تجاه المخـالفين حيث إن عقوبـات القتل والرجم والحرق والتدمير الكلي تنال المكفرين دون مراجعة أو حـوار أو استتابة، وربما كان الدافع لهذا هـو إقامة الحـواجز الجزائيـة ضد الانحـراف العقـدي الـذي كـان ينـال المجتمعـات اليهوديـة نظـرا لهشاشة البنيـة الإيمانيـة، وضـبابية الرؤيـة العقديـة في ديانـة اتـسمت بـالانغلاق والحـذر مـن الأغيـار

(١) التثنية، الإصحاح ١٧ (١–٧)ص٢٥٢.
(٢) سفرالخروج:الإصحاح ٢٢، (١٨) ص ١٠١.
(٣) سفرالعدد:الإصحاح ١٥ (٣٥) ص ١٩٥.

المخالفين، هذه الأحكام القاسية توارد عليها ربانيو اليهود للحفاظ على الديانة، فنجد في شروح موسى بن ميمون الذي يعرف بموسى الثاني (١٢٠٤م) ما يعضد هذه الأحكام، حيث جاء في أحكام التكفير قوله::"وأما إدانة المحكمة بالموت فتجدها في الأمور العظيمة في فساد اعتقاد، أوفي مظلمة عظيمة أعني في الشرك، وفي السبت لكونه يثبت اعتقاد حدث العالم[1]، وفي النبوة والشيخ العاصي لعظيم الفساد.... وأيضا كل أنواع الشرك يعاقب عليها بالموت من المحكمة إلى أصول عبادتها مثل الدعوة إليها، والمتنبئ باسمها، والمجيز على النار والجّان والتابعة والسحر"[2].

وإذا كان التنقص للديانة جماعيا فإن العقاب يشمل الجميع المجرم و البريء، والقتل والحرق يحيق بهم كلهم، بل إن أموالهم يحرم الانتفاع بها لأنهم في حكم الملعونين والمحرومين، يقول ابن ميمون: " أناس المدينة الضالّة الذين يقتلون قتل كفر لا قتل قصاص، ولذلك تحرق أموالهم وليست لورثتهم، مثل من حكم عليه بالموت من المحكمة، وهكذا أيضا قولي في جمع من إسرائيل تمالئوا على التعدّي على أي فريضة كانت، وتحكّموا متعدّين، فإنهم يقتلون بجملتهم..لأنهم ارتدوا عن الدّين كلّه"[3].

ويعني هذا أن فإن الرأي الفقهي الرباني الذي ستستثمره الكنيسة فيما بعد يتّسم بالصرامة تجاه المرتدين، وهي صرامة آتت أكلها في الحفاظ على الديانة اليهودية، نـع أنها كانت سالبة للسلطة الزمنية لآماد كثيرة، لأن

(١) انتهاك حرمة السبت عند ابن ميمون هو فعل دال على عدم الإيمان بما جاء في سفر التكوين بأن الله خلق العالم في ستة أيام واستراح في السابع، ولذلك وجب تقديسه بالعبادة والشكر وعدم العمل، والتارك لذلك كأنه يقول بقدم العالم، الأمر الذي نقضه ابن ميمون في فصول كثيرة من كتابه. انظر: دلالة الحائرين ص ٣٥٢ /سفر التكوين:إصحاح ٢ ص٣.

(٢) موسى بن مييمون:دلالة الحائرين ص٢٠١

(٣) موسى بن مييمون:دلالة الحائرين ص٣٥٤.

العلائق الاجتماعية في داخل الجماعة كانت من الفعالية بمكان، كما أن الضغوط الخارجية من الأغيار زادتها متانة وقوة.

ونجد تطبيقات تلك الآراء التكفيرية للمخالفين في تفسيرات النصوص الدينية، فالربانيون كانوا يكفرون فرقة القراءين[1] التي تنسب إلى عنان بن داود(ت٧٦٢) التي تميزت برفض النصوص الشارحة للتوراة كالمشنا و التلمود، فأعلن الربانيون كفرهم ونجاستهم وحرمانهم من رحمة الله، و منع الصلاة في معابدهم[2]، و أيضا فإن دائرة التكفير التوراتية اتسعت لتشمل مدعي الماشيحانية، وتعتبر مسألة عيسى بن مريم عليه السلام أهم القضايا، حيث يشير التلمود إلى أن صلب المسيح–كما يدعون– تم بناء على قرار محكمة السنهدرين اليهودية، بسبب ادعائه الماسيحانية، وكل المصادر الكلاسيكية اليهودية تتحمّل المسؤولية الكاملة عن ذلك، ولذلك يسمّى في المصادر اليهودية بأسماء مقيتة"[3]. وهو ما جلب لليهود عداء المسيحيين على مرّ دهور كثيرة[4].

ويبنى على هذا أن النصوص المتعددة في العهد القديم–المزعوم– كانت التكأة المهمة لثقافة التكفير والتبديع في النصرانية، ويكفي للتدليل على ذلك مقارنة البراءات الفاتيكانية بمثيلاتها الربانية الحاخامية في قضية حديثة متعلقة بتكفير الفيلسوف بارزح سبينوزا (١٦٣٢–١٦٧٧م)[5] الذي انتقد الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد[6]، فأصدر المجلس الملي اليهودي

---

(١) حسن ظاظا: الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، ط٤، دمشق، دار القلم، ١٩٩٩. ص٢٤٨.

(٢) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩. ج٤ص٥٦٦.

(٣) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ط١، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٩ج٣ ص٣٤٠.

(٤) مارتن لوثر: اليهود وأكاذيبهم، ط١، الجيزة، مكتبة النافذة، ٢٠٠٧، ص١٠٩.

(٥) ديورانت ول: قصة الفلسفة، ط٤، بيروت، مكتبة المعارف، ١٩٨٥، ص١٩٣.

(٦) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ط٢، القاهرة، مكتبة الأنجلومصرية، ١٩٨١، ص١٢.

بأمستردام فتوى بتكفيره وحرمانه من الميراث سنة١٦٦٥.جاء فيها: " بقرار الملائكة وحكم القدّيسين نحرم ونلعن وننبذ ونصب دعاءنا على باروخ اسبينوزا بموافقة الطائفة المقدّسة كلها، وفي وجود الكتب المقدّسة ذات الستمائة والثلاثة عشر ناموسا المكتوبة بها، نصبّ عليه اللّعنة، وجميع اللّعنات المدونة في سفر الشريعة، وليكن مغضوبا وملعونا في ذهابه وإيابه، وخروجه ودخوله ونرجو من الله أن لا يشمله بعفوه أبدا، وأن ينزل عليه غضب الله وسخطه دائما ويحمّله جميع اللعنات المدوّنة في سفر الشريعة، ونسأل الله أن يخلص أولي الطاعة منكم وينقذهم. وأن لا يتحدث معه أحد بكلمة أو يتصل به كتابة، وأن لا يقدم له أحد مساعدة أو معروفا، وأن لا يعيش أحد معه تحت سقف واحد وأن لا يقترب منه أحد على مسافة أربع أذرع، وأن لا يقرأ أحد شيئا جرى به قلمه أو أملاه لسانه"(١).

لقد كانت النصرانية في تاريخها المليء بالتكفير و الاحتراب تدلل لمراسيمها و براءتها التكفيرية بالخلفية الشرعية للديانة اليهودية،فالكل يقتبس من مشكاة واحدة، ينيرها باطل الأحبار والرهبان الذين غيروا الدين وحرفوا الملة، وصيروا الجنة حكرا على نسلهم المختار بزعمهم.

ثانيا: نصوص العهد الجديد:

تستند الكنسية النصرانية في موضوع التكفير إلى مجموع النصوص المختلفة في العهد الجديد أي الأناجيل الأربعة (متى –يوحنا–لوقا–مرقص)و أعمال الرسل و رسائلهم.و هي نصوص معتمدة لدى الطوائف المختلفة استعملتها الكنيسة ضد مخالفيها من المهرطقين والمجدفين المبتدعين و الناقدين للكتاب المقدس.

(١) هاشم صالح :مدخل إلى التنوير الأوروبي، ط١ ،بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠٥ ،ص١٩١.

فمن تلك النصوص ما أوردوه على لسان المسيح: "أنا الكرمة وأنتم الأغصان، من يثبت فيّ وأنا فيه فذاك ينتج ثمرا كثيرا..إن كان أحد لا يثبت فيّ يطرح خارجا كالغصن فيجف ثمّ تجمع الأغصان الجافة، وتطرح في النار فتحرق"(١).

والنص قد استعملته الكنيسة لتبرير حرق المكفرين والخارجين عليها بدلالة ما في النص من إحراق الذين لا يثبتون على دين المسيح. لأنهم انفصلوا عن روح المسيح التي تحل في قلوب المؤمنين وشاهد ذلك العشاء الرباني الذي يتناول فيه النصراني الخبز على أنه لحم المسيح، ويشرب الخمر على أنها دمه الذي سال تكفيرا لخطايا البشر كما يزعمون، وهذا هو الحلول المرفوض في عقائد المسلمين، فالكل يقف أمام الله فردا حيث لا تزر وازرة وزر أخرى.

ومما نسبوه إلى المسيح زورا وبهتانا قوله في حقّ المعترضين على حكمه: "إني أقول لكم إن كلّ من عنده يعطي المزيد، وأما من ليس عنده ينتزع منه...وأما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم، فأحضروهم إلي هنا، واذبحوهم قدّامي"(٢).

وورد أيضا في سفر أعمال الرسل:"فإن أخطأنا عمدا برفضنا للمسيح بعد حصولنا على معرفة الحقّ، لا تبقى هناك ذبيحة لغفران الخطايا، بل انتظار العقاب الأكيد في لهيب النار التي ستلتهم المتمّردين، ويا له من انتظار مخيف، تعلمون أن من خالف شريعة موسى، كان عقابه الموت دون رحمة، على أن يؤيّد مخالفته شاهدان أو ثلاثة، ففي ظنّكم كم يكون أشدّ كثيرا ذلك العقاب الذي يستحقّه من يدوس ابن الله"(٣).

---

(١) إنجيل يوحنا:الإصحاح ١٥، (٥– ٧) ص ١٦٠.
(٢) إنجيل لوقا:الإصحاح ١٩(٢٦–٢٧)ص١٢٠.
(٣) أعمال الرسل:الرسالة إلى العبرانيين، الإصحاح ١٠(٢٦–٢٩)ص٣٣٧.

وتفريعا عن هذه النصوص الموحية بالبراءة من مخالفي الكنيسة كان حكم هذه الأخيرة يسلّط سيفها على رقاب المخالفين لآرائها ومعتقداتها وسلوكات بابواتها، فكانت أغلب نهايات هؤلاء المكفرين هي الموت حرقا تطهيرا لأفئدتهم وأجسادهم من لسعات الشيطان، حيث إن التاريخ الكنسي حافل بمشاهد المحارق التي تقام علنا لأصناف المهرطقين، والسّحرة والمجدّفين.

كما استندت الكنسية في إنشاء سلطتها المتعلّقة بتتبّع المكفرين و المرتدين إلى جملة الإشارات الواردة في الإنجيل حول المعرضين والمعترضين على أوامر الكنسية، وهو ما أسّس للسلطة المطلقة للكهنوت النصراني الذي حكم أوروبا دينيا وزمنيّا دهورا وآمادا عديدة.

فقد ورد في الإنجيل المزعوم:" إن أخطأ إليك أخوك، فاذهب إليه وعاتبه بينك وبينه على انفراد، فإذا سمع لك، تكون قد ربحت أخاك، وإذا لم يسمع، فخذ معك أخا آخر أو اثنين، حتّى يثبت كل أمر بشهادة شاهدين أو ثلاثة، فإذا لم يسمع لهما فأعرض الأمر على الكنيسة، فإذا لم يسمع للكنيسة أيضا، فليكن عندك كالوثني وجابي الضرائب"[(١)].

وبناء على ما سبق اتّخذت الكنيسة مرجعيتها المطلقة في الأحكام العقدية لتصحيح أوتخطئة ما تراه من الأحكام والأسماء تبعا لما تسفر عنه مجامعها المسكونية، استنادا إلى ما أوردوه على لسان المسيح: "فالحق أقول لكم إن كل ما تربطونه على الأرض يكون قد ربط في السماء وما تحلونه على الأرض يكون قد حلّ في السماء"[(٢)].

(١) إنجيل متى: الإصحاح ١٨، (١٥– ١٧) ص٢٨.
(٢) إنجيل متى، الإصحاح ١٨ (١٨ – ١٩) ص ٢٩.

وعليه فقد علا نجم الكهنوت، وصارت ميزته العليا مصادرة الآراء المخالفة واضطهاد المعارضين، والتنْكيل بالمهرطقين والمجدّفين بحجج النقاء العقدي والتعالي الديني، ممّا جعل الكنيسة تؤسّس لمبدأ الكبح العام تجاه المخالفين لآراء المجامع المسكونية.

وأدى هذا لأن تكون مسائل التكفير والحرمان الكنسي ذات حيّز كبير في تاريخ القرارات الكنسية، بل إنه ليس من المجازفة في القول أن تاريخ النصرانية هو تاريخ التكفير المتواصل.

ثالثا: نصوص الآباء المؤسسين و المجامع المسكونية:

و هي النصوص التي رفعت إلى رمزية النصوص المقدسة، حيث إن المجامع المسيحية المتعاقبة هي التي قررت العقيدة النصرانية في صورتها النهائية، ولم يكن المرور إلى تقرير هاته العقيدة، دون الإطاحة بجماعات مسيحية كثيرة نالتها صيحات التكفير وبراءات التحريم المتوالية. وذلك أن جداول أعمال هذه المجامع المسكونية كانت تتصدرها القرارات المتعلقة بالتكفير الجماعي والفردي لكل المخالفين لآرائها.

ولإدراك عمق الأزمة التي طالت النصرانية، فإنه يجدر بنا الطواف في قراءة قرارات هذه المجامع المسكونية، التي قفزت على النصوص المؤسسة للمسيحية، وجعلت التجربة التاريخية معيارا لصياغة العقيدة، حيث اعتبر الإجماع مصدرا رئيسيا لها، وكل خارج عنه سيكون مآله التكفير والحرمان. ولإدراك فداحة الوضع الذي تشابك فيه السياسي والديني فلنا أن نرصد أهم المجامع المسكونية، ونقرأ قراراتها البانية للتكفير والتكفير المضاد، ثم الاحتراب المذهبي، ثم الانشقاق الطائفي، وأخيرا الانقسام التاريخي.

وقبل ذلك فإن هناك اتفاقا تاريخيا بين الباحثين على أن انتقال المسيحية من ديانة مضطهدة عانت الويلات من الأباطرة الوثنيين[1] إلى ديانة حاكمة مارست الأساليب ذاتها ضد مخالفيها خاصة مع اعتناق الإمبراطور قسطنطينين لها سنة ٣١٢م.

لكن الانتقال السياسي الوديع صاحبه انتقال قيمي عنيف اتسم بالاضطهاد و الحرب للمخالفين.حيث تم فرض العقائد النصرانية بقهر السيف وحيف السلطة.

وفي هذا المقام نسوق شهادة ناقد مسلم قديم وهو القاضي عبد الجبار المعتزلي(٤١٥هـ) في معرض نقده لطرائق تقرير العقائد النصرانية التي اعتضد فيها الديني بالسلطوي حيث يقول:"وليس سيف حمل بباطل في جميع الأزمان مثل سيف النصرانية"[2].

وبعده بقرون يقول الناقد الأوروبي جون بيوري(١٨٦١–١٩٢٧م):"لقد قرّر قسطنطين الأكبر أن يعتنق المسيحية وكان هذا القرار الخطير فاتحة لألف عام عاشها الفكر في الأغلال، واستبعد العقل استبعادا، وتوقفت فيها حركة العلم والعرفان، ويؤكّد أن المسيحية اتّخذت مبدأ التسامح حين كانت تعوزها السلطة، وحينما أصبح دينهم هو الدّين الغالب على أمره وصار مدعّما بسلطان الدولة هجر مبدأ التسامح هجرانا"[3].

ولفهم المآلات التكفيرية للنصرانية لابد من قراءة نصوص الآباء المؤسسين، واستفصال الكرستيولوجيا أي العقائد المتعلقة بالثالوث، وكذا السوتريولوجيا المتعلقة بمفاهيم الخلاص الكنسية، وذلك بتتبع أهم المجامع

(١) شارل جنيبر: المسيحية نشأتها وتطورها، صيدا، المكتبة العصرية-د ت-ص١٦٩.
(٢) القاضي عبد الجبار:تثبيت دلائل النبوة، ط١، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية-د، ت-ج١ص١٥٨.
(٣) بيوري: حرية الفكر، مصر، لجنة القاهرة للتأليف والنشر-د ت- ص ٣٥.

النصرانية التي صاغت العقيدة النهائية للناجين، وحددت الأسماء والأحكام التكفيرية التي أطاحت برؤوس الملايين في المحارق والمشانق، بسبب اعتماد التكفير والحرمان ثقافة وحيدة لا مراء فيها ولا محيد عنها، أما الحوار والنقاش فقد طوّح به أزمانا مديدة، ولم يطل برأسه إلا مع النهضة الأوروبية التي حيّدت الكنيسة، وجعلت الدين النصراني يولي الأدبار أمام العلمانية الصاعدة.

أ- مجمع نيقية (٣٢٥م):

أهم تلك المجامع على الإطلاق هو مجمع نيقية، إذ اعتمدت فيه أهم المقررات العقدية النصرانية، أو ما يعرف بميثاق الإيمان النيقاوي، وقد جرى المؤتمر برعاية الإمبراطور قسطنطين، وتقرّر فيه عقيدة تساوي الكلمة مع الأب في الذات والجوهر، وهوجمت عقيدة "أريوس" وأتباعه القائلة بأن الأب وحده الله والابن مخلوق مصنوع، وقد كان الأب إذا لم يكن الابن"[(١)].

كان هذا أهم انشقاق عانته النصرانية الأولى التي انفصلت إلى موحّدة ومثلّثة وتبعا لذلك لعن أريوس(٢٥٦-٣٣٥م) وأتباعه، وحرّمت عقائدهم وأحرقت كتبهم، باعتبارهم كفارا مهرطقين[(٢)].

لا نكون مجازفين إن قلنا بأن هذا المؤتمر التأسّيسيّ الذي تقررت فيه الصورة الكلية للعقائد النصرانية، والكتب المقدسة المعترف بها، قد رسم للنصرانية طريقتها العنيفة في التبشير، واستئصال المخالفين، والمسارعة بإطلاق أحكام التكفير والحرمان اعتمادا على مظاهرة للسلطة الزمنية لها.

---

(١) قنواتي جورج و لويس غردية:فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية(ترجمة صبحي الصالح و فريد جبر)ط١ ،بيروت،دار العلم للملايين،١٩٧٨ ج٢ص٢٧٤/ أبوزهرة:محاضرات في النصرانية ص١٩٧.

(٢) تشينسكي(يان دوبار):أصداء الزمن الكنيسة وصراع الوجود، ط١ ،دمشق،دار الحصاد،١٩٩٥. ص٦٦.

يذكر الدكتور توفيق الطويل:

" منذ اللحظة الأولى لظفر الكنيسة بسلطة مدنية في عهد قسطنطين دخل مبدأ الكبح العام، واستمر عشرة قرون شداد رسف فيها العقل والقلب في الأغلال وعانى من قسوته اليهود والوثنيون كثيرا، وقد حاول قسطنطين أن يضع حدّا لشرورهم، فأصدر قانونا يقضي بإحراق كل يهودي يلقي على من اعتنق المسيحية حجرا، وعقاب كل مسيحي تهوّد، ثم عدل عن العقاب إلى مصادرة الأملاك، فإن تزوج يهودي بمسيحية أعدم"(١).

بدأ التنظيم القانوني الإجرائي للاضطهاد الكنسي مع مدونة الإمبراطور الروماني "ثيودسيوس"(٣٩٥م) التي تشمل ستة وستين مادة لمقاومة الهرطقة، وإلى جانبها بنود أخرى لاستئصال الوثنية ومناهضة الديانة اليهودية، والارتداد عن الدّين، ومزاولة السحر"(٢). أما قمّة التقنين للتطبيقات الوحشية لأحكام الردة عن المسيحية النيقاوية فكانت مع القديس أوغسطين(٣٥٤–٤٣٠م) (٣) الذي صاغ فلسفة للاضطهاد قائمة على ما نسب للمسيح:" أجبروهم على اعتناق دينكم"، قائلا:" إن عقاب الملحدين هو من دلالات الرفق بهم وشواهد الرحمة، إذ كان هذا العقاب ينقذهم من العذاب الأبدي الذي ينتظر المرتدين عن المسيحية، إن الهرطقة توصف في الكتاب المقدس وكأنها نوع من الفسوق والمروق وعبادة الأوثان، إنها أسوأ أنواع القتل، لأنها قتل للأرواح، ومن أجل ذلك اقتضت العدالة أن ينال أهلها ما يستحقون من عقاب "(٤).

وهكذا ستصلى الكنيسة الرسمية بهاته التوجيهات الناظمة لإدارة

(١) توفيق الطويل:قصة الاضطهاد الديني ٥٤.
(٢) محمد الغزالي:التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ص٨٣.
(٣) جورج طرابيشي:معجم الفلاسفة، ط٢، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٧م.
(٤) الغزالي: التعصب والتسامح ص ٨٤.

الحوار الديني في داخلها، ممّا جعل النتيجة الحتمية للتاريخ هي الحروب الدينية، فلم يعرف تاريخ دين من الأديان الشقاق والصراع كالنصرانية.

بـ مجمع القسطنطينية ٣٨١م:

إذا كان مجمع نيقية قضى بارتداد الموحدين القائلين ببشرية المسيح من أتباع الأريوسية، وسنّ سنّة سيئة في اعتضاد الديني بالسلطوي لقمع الآراء المخالفة، فعلى مسلكه جاءت المجامع التالية، ومنها هذا المجمع الذي انعقد على عهد البابا "دمازيوس"(٣٦٦–٣٨٤م) والذي حضره مائة وخمسون أسقفا قرروا فيه ألوهية الروح القدس، وكونه ثالث أقانيم الثالوث المقدس[١]. وتبعا لذلك لعن الأسقف مقدونيوس وأتباعه القائلون بعدم ألوهية الروح القدس، وقد عرف هؤلاء بالمقدونيين أو المرطونيين أو الوجهيين[٢].ولا يخفى تأثير الأريوسية الموحدة فيهم، والحاصل أن هذا كان تكفيرا جماعيا للرافضين للاتجاه التثليثي في النصرانية المؤسسة.

ج– مجمع أفسس٤٣١م[٣]:

عقد هذا المجمع على عهد البابا" سلستينوس" للرد على النساطرة القائلين بالطبيعتين الإلهية والإنسانية في شخص المسيح، فقرّر المجمع الطبيعة الواحدة ووحدة الأقنوم في المسيح لقطع الطريق أمام مسألة التجسيد والتأنيس والعودة إلى آراء الأريوسية.

وكان هذا أيضا تكفيرا جماعيا جديدا لطوائف كثيرة ساندت نسطور(٤٥١م)أسقف القسطنطينية المحروم والملعون بسبب هذا المجمع[٤].

---

(١) أبو زهرة:محاضرات في النصرانية ص ٢٠٦– ٢٠٧.

(٢) المقدونيون أتباع مقدينيوس أسقف القسطنطنية(٣٢٤–٣٤٦ثم٣٥١–٣٦٠)أنكروا ألوهية الروح القدس،كفّرهم مجمع القسطنطنية. انظر فلسفة الفكر الديني ج٢ص٢٨٩/أصداء الزمن ص٩٠.

(٣) انظر: أبو زهرة: نفسه ص ٢٠٩.

(٤) ويلتر جون:الهرطقة في المسيحية (ترجمة جمال سالم)ط١ ،بيروت،دار التنوير،٢٠٠٧.

د- مجمع خلقدونية٤٥١م:

عقد المجمع على عهد البابا "ليونطوس" (٤٤٠-٤٦١م) للرد على مذهب "الأوتيخية" المقابل لمذهب النساطرة، حيث قالوا بنفي التمييز بين الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية، وعرف هؤلاء باليعاقبة، وكان رأس المذهب في الإسكندرية، ومن ثم تبنّته الكنيسة القبطية فيما بعد، وكذا كنائس الشام، في حين عرف القائلون بالطبيعتين بالملكانية، الذين كفّروا ولعنوا ديسقورس، ومن يقول بمقالته ونفوه إلى فلسطين"[1].

وترتّب عن هذا الانشقاق الذي تبادل فيه الطرفان أحكام الحرمان والتكفير ردات عنيفة طالت الاستقرار السياسي والاجتماعي والحياد الديني واستمر الصراع على أشدّه بينهما، ولم تتخلّص الكنيسة القبطية من أغلال أنصار مجمع خلقدونية إلا بعد دخول الإسلام إلى مصر. حيث إن رأس الكنيسة الأسقف "بنيامين" ظلّ مختفيا طوال ثلاثين سنة، وجيء بأخيه فوضع على منصّة أوقدت تحتها المشاعل، وسلّطت نارها على بدنه، فأخذ يحترق حتى سال دمه من جانبيه على الأرض، ولما لم يتزحزح عن عقيدته خلعت أسنانه، ثم قاده الجلادون إلى الشاطئ وعرضوا عليه أن يترك دينه ويخضع لقرارات المجمع، فأبى فرموه في البحر "[2].

وسرى الأمر نفسه على الكنائس السورية، ممّا جعل بعض المؤرخين يعتبرون إنسيابية الفتح الإسلامي تعود في بعض منها إلى أثر هذا الصراع الدامي بين الكنائس الرسمية والمنشقّة عنها. وهكذا مضت القرون الأربعة الأولى بفصل وحرمان وارتداد طوائف عريضة كالأريوسية والنسطورية

(١) أبو زهرة:نفسه ص ٢١٢./ فلسفة الفكر الديني ج٢ص٢٧٥ /أصداء الزمن ص١٢٥.
(٢) محمد الغزالي:نفسه ص ٩٧.

والأوتوخية اليعقوبية[1].

وكذلك استمرت سنّة المجامع الخامس والسادس في إعلان أحكام الحرمان والخروج من حظيرة النصرانية لطوائف عديدة كالمونوثيلية سنة (٦٨١م)، والطوائف التي لبست أو استعادت الأوتوخية. أما أهم مسألة شغلت بها الكنائس في القرن الثامن الميلادي، فهي مسألة عبادة الإيقونات والصور المقدّسة، حيث انقسمت إلى حزبين متناحرين عرف أحدهما باللاإيقونيين الذين عقدوا مجمعا(٧٥٤م) واعتبروا عبادة الصور كفرا وشركا، وعضدوا مجمعهم بقرارمن الإمبراطور"ليون الثالث"سنة(٧٢٥م)، والإمبراطور"قسطنطين الخامس" سنة(٧٣٠م) بمنع عبادة الصور وتحطيم الإيقونات[2]. ولكن حزب الإيقونيين ربح المعركة من جديد بعد ثلاثين سنة من الاضطهاد والنفي ومنع عبادة الصور والإيقونات في المجمع المسكوني السابع(٧٨٧م) حيث استرجعت الصور والإيقونات مكانتها في تاريخ الكنيسة[3].

هـ- المجمع الثامن (٨٦٩م):

وهوالمجمع الذي وقع فيه الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية بسبب الخلاف في عقيدة الروح القدس ثالث الأقانيم، أهو منبثق من الأب فقط كما هو رأي الأرثدوكس؟ أم من الأب والابن معا كما يقول الكاثوليك؟.

وتبعا لهذا الاختلاف لعن كل فريق الآخر، واعتبر أحدهما الآخر مطرودا من حظيرة النصرانية[4]، وبهذا الانشقاق انتهى عهد المجامع المسكونية

(١) الأوتوخية:أو المونوفيزية القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح،بدأت سنة ٤٤٤م مع الأسقف أوتاخي ببزنطة حيث عقد أتباعه المجمع الرابع الذي تسميه روما مجمع اللصوص الذي نسخه مجمع خلقدونية الرسمي الرابع.انظر:الهرطقة في المسيحية، ص٩٤/ فلسفة الفكر الديني ج٢ ص ٣١٦/رمسيس عوض:الهرطقة في الغرب،ط١ ،القاهرة،دارسينا ،بيروت،مؤسسة الانتشار العربي،١٩٩٧.ص٨٧.

(٢) العريني السيد الباز:تاريخ الدولة البيزنطية،ط١ ،بيروت،دار النهضة العربية، ص ١٧٨.

(٣) عبد المجيد الشرفي: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، تونس،الدار التونسية للنشر،١٩٨٦ ص١٠٦.

(٤) أبو زهرة: نفسه ص ٢١٨.

الـشاملة وانفـصلت الكنيـستان وتباعـدتا، ووصـل الأمـر إلى تبـادل قـرارات الحرمـان في بعـض الأمـور الفقهيـة مثـل حلـق اللحـى وارتـداء القمـيص والخـاتم للرهبان واستعمال الفطير في العشاء الرباني بدل الخبز، فقد أقرّته الكنيسة الغربيـة ولم تعـترف بـه الـشرقية، واسـتمر الجـدل متـصاعدا بـين الطـائفتين الكبيرتين إلى أن حصل الانشقاق التام يوم ١٦ تموز ١٠٥٤م[١].

نتج عن هذا الانشقاق والحرمان المتبادل عداوة مريرة تجلّت أيام الحـروب الصليبية حيث سلّط الكاثوليك قوتهم في إخضاع الأرثدوكس والمسلمين على السواء، فعندما دخلوا بيت المقدس:"حرّم فيها المذهب الأرثدوكسي الشرقي، وفرّ البطريق اليوناني إلى قبرص، وقبلت أبرشيات المملكة الجديدة الشعائر اللاتينية، والمطران الإيطالي والحكم البابوي[٢].

بل إن هـذا الاسـتخفاف بعقائـد الأرثـدوكس امتـدّ إلى معابدهم المقدّسـة، فعندما دخل الصليبيون القسطنطينية دمّروا ما فيها، ولم يراعوا حرمة علماني أو كهنوتي، كمـا روى ابـن الأثـير(٦٣٠هـ) في أحـداث سـنة (٦٠٠هـ) حيـث قال:"فأصبح الروم كلهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيئا، ودخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى بأيديهم الإنجيل المحرّف والصليب يتوسّلون بها إلى الفرنج ليبقوا عليهم، فلم يلتفتوا إليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة"[٣]. وهذه عينة بسيطة لما آلت إليه آثار قرارات الحرمـان والتكفير الجماعي في أوروبا من حروب دينية دموية استمرت مددا طويلة، واصطلت أوروبا بنارها كما هو الحال في أواخر العصور الوسطى وبدايات عصر النهضة.

(١) عـادل زيتـون:العلاقـات الكنـسية والـسياسية بـين الـشرق البيزنطـي والغـرب اللاتـيني في العـصور الوسطى، ص ٣٤٢.
(٢) قصة الحضارة ج١٦ ص٢٦، ج ١٤ ص٣٩٠.
(٣) ابن الأثير:الكامل في التاريخ ج٩ ص٢٦٤.

الفرع الثاني

المظاهر التكفيرية في النصرانية في عصور الإيمان

لا يمكن تخيّل تاريخ النصرانية في أوج عظمتها أي فيما اصطلح عليه عصور الإيمان التي تماهت مع العصور الوسيطة المظلمة الممتدة من سقوط روما (٤٢٣م) إلى بدايات عصر النهضة دون تذكّر محاكم التفتيش الكنسيّة، والتي قتلت آلاف الأفراد وعشرات الطوائف والمذاهب المهرطقة، وكذا ملايين المخالفين للمعتقد المسيحي من مسلمين ويهود في أسبانيا، وقد مثلت هذه المحاكم التطبيق الحرفي لوصايا منظّري مبدأي الكبح العام والنقاء الإيماني.

فمع مجمع اللاتران الرابع (١٢١٥م) قرّر البابا أنونست (١١٩٨–١٢١٦م) تأسيس محاكم التفتيش لتتبّع المهرطقين، والحكم عليهم بالموت حرقا لخروجهم من دين النصرانية[١]، وأوكلت مهمات التفتيش إلى أشدّ القساوسة تعصّبا من رهبان الفرنسيسكان والدومينيكان[٢].

يعتبر بعض المؤرخين محاكم التفتيش استمرارا للحروب الصليبية في الدائرة الداخلية لأوروبا، حيث تناولت قراراتها جماعات نصرانية عديدة، منها طوائف عديدة توالد بعضها من الكنائس القديمة، وبعضها كان امتدادا للكنائس البائدة التي اندثرت بتحالف قرارات المجامع الرسمية مع السلط الزمنية المتعاقبة، ومنها الموحدون والرشديون والعلميون والموريسيكيون.

(١) بسام سخيطة: قصة محاكم التفتيش في العالم، ط١، دمشق، دارهيا، ٢٠٠٠، ص ١٤.

(٢) نجيب العقيقي: المستشرقون، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠ ج١ص٢٥٠و٢٦٨.

أولاً: الطوائف المكفرة من الكنيسة الكاثوليكية:

يمكن إجمال الطوائف الدينية التي نالتها نيران التكفير فيما يأتي:

أ – الكاثاريون:

من أشهر الفرق التي أبيدت بتلك الأساليب القاسية طائفة الكاثاريين أو التطهيريين، وهي طائفة متأثرة بالتعاليم المانوية التي تدين بازدواجية الخير والشر، وشاعت النحلة في شمال إيطاليا وجنوب فرنسا[1]، وهزّت الكنيسة الرسمية هزّا عنيفا بسبب سلوكات باباواتها التي قلبت ظهر المجنّ للمنقول من زهد وتقشف المسيح عليه السلام.

قوبلت هذه الطائفة بكل أنواع الاستئصال قتلا وحرقا من قبل السلطات الزمنية التي استظهرت بقرار للبابا "نقولاس الثالث" سنة(١٢٨٠م)، وهو مرسوم كنسي تكفيري جاء فيه:" نلعن بهذا جميع الضّالين ونصبّ عليهم اللّعنة – الكاثاري والبناويين – فإذ أدانتهم الكنيسة وجب تسليمهم إلى القاضي الزمني لمعاقبتهم وإذا ما ندم واحد منهم بعد اعتقاله، وأراد أن يكفّر عن ذنبه، وجب سجنه مدى الحياة، وكلّ من يأوي الضّالين، أو يحميهم، أو يساعدهم يحرم من الدّين، وإذا بقي إنسان محروم عاما كاملا ويوما حرم من حماية القانون.وإذا لم يستطع المتّهمون بالضلال أن يثبتوا براءتهم طردوا من حظيرة الدّين فإذا بقوا محرومين عاما كاملا حكم عليهم بما يحكم على الضّالين، وليس لهؤلاء حق استئناف الحكم، وكل من يمنحهم دفنة مسيحية يحكم عليه بالحرمان، ويظلّ كذلك حتى يعمل ما يستوجب الرضا عنه، فلا يغفر ذنبه حتى يخرج بيديه جثث المحرومين ويطرحها في العراء. ونحن نحرّم على غير رجال الدّين جميعهم أن يناقشوا مسائل الدين

(١) الهرطقة في المسيحية ص١١٥/الهرطقة في الغرب،ص١٣٩ /قصة الحضارة،ج ١٦ ص٨٠.

الكاثوليكي. ومن يفعل هذا يحرم من الدّين، وعلى كل من يعرف أحدا من الضّالين، أو ممّن يعقدون اجتماعات سرية أو ممّن لا يؤمنون بعقائد الدين القويم أيا كانت أن يبلّغ ذلك إلى من يفضي إليه باعترافه أو إلى شخص آخر يبلّغه إلى الأسقف أو المحقّق، فإذا لم يفعل هذا حرم من الدّين، والضّالون وكلّ من يأوونهم، أو يؤيدونهم، ، وكذلك أبناؤهم حتى الجيل الثاني، هؤلاء لا يسمح لهم بتولي المناصب الكنسيّة، وها نحن أولا نحرمهم جميعهم وأمثالهم إلى أبد الدهر"[1]. هذا المرسوم الخطير في الفقه الكنسي طبّق بحذافيره طوال القرون التالية[2].

واستمرت العذابات من ضغط الكنيسة ضدّ المارقين في نظرها، ولكن هذه الأحكام القاسية لم تردع الطوائف المنشقّة، والتي تسميها الكنيسة بالملحدة والضّالة، لأن فشل الحروب الصليبية التي ألهب أواراها باسم الله، واحتكاك الصليبيين بالثقافة الإسلامية، جعل موجة النقد والشكّ تتصاعد في الأوساط المسيحية حول قضايا الصور، ومعجزات القساوسة، وصكوك الغفران، وحول عقيدة تحوّل الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه، وكذا قدرة العشاء الرباني على إخراج الشياطين، وأقسى من ذلك التشكيك في عصمة الباباوات، وهو ما ولّد عشرات الطوائف المرتدة في نظر الكنيسة.

كان القضاء على الكاثاريين كلّف أوروبا الكثير، إذ إن حربا صليبية داخلية اشتعلت، وتعهّد البابا بغفران الذنوب للمشاركين، وحرّم أراضي المنشقّين، فمدينة "بيزير" في جنوب فرنسا دمّرت عن آخرها، وقتل فيها

---

(١) قصة الحضارة، ج١٦ ص٩٨.

(٢) مثل قانون فردريك الثاني إمبرطور ألمانيا(١٢٢٠– ١٢٣٩)الذي قضى بحرق الضالين أحياء ومصادرة أملاكهم وحرق بيوتهم وعدم إعادة بنائها، وكذلك الأمر في فرنسا مع لويس التاسع.انظر:قصة الحضارة ج١٦ ص٩٤.

عشرون ألفا من الرجال والنساء والأطفال، ولما سئل مندوب البابا مرشد الحملة العسكرية:هل يؤمّن الكاثوليك على حياتهم؟ قال:"اقتلوهم جميعا، فاللّه يعلم من هم أنصاره"[1].

وهو ما يذكرنا بمقالات التكفيريين الممارسين للتفجيرات الجماعية في بلاد الإسلام اليوم عندما يسألون عن الأبرياء الضحايا فيجيبون بأنهم يبعثون على نياتهم.

ب – جماعة القديس يوحنا:

من الجماعات الطليعية التي افتتح بها تاريخ محاكم التفتيش جماعة "القس يوحنا" في ألمانيا، الذين أنكروا عقائد المطهر والغفران والعشاء الرباني، ونعوا على عزوبية القساوسة. فأحرق ثمانون منهم بقرار كنسي في يوم واحد سنة(١٢١٢م)[2] حتى إن المحقّقين الدومنيك صار يطلق عليهم تندّرا "كلاب اللّه"، أو الصيادون لهوسهم بتتبع عقائد وآراء الناس.وبلغ الأمر بأحدهم وهو الراهب "روبرت الدومينكي" أن أرسل إلى المحرقة في يوم واحد مائة وثمانين شخصا بتهمة التجديف، وكان ذلك سنة(١٢٣٩م)[3]. ويصعب على الإنسان أن يتتبّع حالات الإحراق الفردي والجماعي ومخلّفات الحروب الدينية في أوروبا بسبب القسوة المتناهية التي اعتمدتها الكنيسة. قسوة ظاهرها الرغبة في نقاء العقيدة، وهي رغبة قتل منها آلاف الأبرياء ولم تنج منها أوروبا إلا في عصور الأنوار والنهضة.

ج – الهوسيون:

أتباع القس "جون هس" زعيم كنيسة بوهميا (١٣٦٩ –١٤١٥م).والذي تأثر

(١) الهرطقة في المسيحية ص١٢٧.
(٢) قصة الحضارة ج١٦ ص ١٠٥.
(٣) المصدر نفسه ج ١٦ ص ٩٨.

بدعوات الإصلاحي"ويكلف"(١٣٨٤م)، وقامت دعوته على إنكار العشاء الرباني[1] ومعارضة بيع صكوك الغفران، وانتقاد البابا الذي سماه نابش الأموال. كما هاجم القساوسة المتاجرين بالدّين في أخذهم الأجرة على التعميد، ودعا إلى الزهد وإلى مرجعية الإنجيل وحده، وعصيان البابا إذا خالفت أوامره أوامر المسيح، لكن قدر الله ساقه إلى المحاكمة بعد قرارات الحرمان ضدّه وضدّ أتباعه وانتهى أمره إلى إحراقه حيا في ٣٠ ماي١٤١٥م[2].

ثانيا: الموحّدون:

أطبقت أوروبا في العصور الوسطى على رفع لواء الكاثوليكية تحت هيمنة الكرسي الرسولي في روما، وفي أتون التبشير بالنصرانية تمّ القضاء على كل المذاهب المخالفة والنحل المهرطقة. إلا أن الصوت التوحيدي الذي آوته الأريوسية قضي عليه بعنف في داخل أسبانيا القوطية. ولكنه تمظهر من جديد في أطروحات فردية وجماعية رافضة للأسرار الكنسية ولخرافة التثليث وللإفخارستية وعصمة البابا وصكوك الغفران. ففي إيطاليا برزت الطائفة الصوصنية التي أنكرت ألوهية المسيح[3] ولكن أتباعها طوردوا واستؤصلوا تحت حراب ونيران محاكم التفتيش، ففرّوا إلى سويسرا فلاقوا

(١) قرر المجمع الثاني عشر الذي يعرف بالمجمع اللاتيراني الرابع سنة ١٢١٥ اعتبار العشاء الرباني وتحول الخمر والخبز إلى دم وجسد المسيح عقيدة رسمية، وقرر أيضا محاربة الألبجسيني، ويعتبر أهم مجمع مسكوني بعد مجمع نيقية.انظر: الهرطقة في الغرب ص٦٥.

(٢) الهرطقة في المسيحية، ص١٧٧/قصة الحضارة ج٢٣ ص٤–١١ /أبو زهرة:النصرانية ص٢٣٩.

(٣) هاشم صالح:مدخل إلى التنوير الأوربي ص ١٨٣ /توفيق الطويل نفسه ص١١٣. وقد أسسها فاوستو باجلو صوزيني (١٥٣٩ –١٦٠٤) الذي استقر في بولنداعام ١٥٦٣ ،تقول الطائفة بالوحدانية (الله أقنوم واحد)وتنكر ألوهية المسيح،تأثر بآرائها الفيلسوف يعقوب أرمينوس (١٥٦٠– ١٦٠٩) في انجلترا ،وبعد نفي أتباعه وهروبهم إلى هولندا سيطروا على قسم اللاهوت بجامعة ليدن ولاحق الملك جيمس الأول وجودهم في هولندا.انظر:رمسيس عوض: الإلحاد في الغرب،ط١، القاهرة دار سينا ،بيروت،مؤسسة الانتشار العربي، ١٩٩٧ ص٧٠.

نفس الاضطهاد من كالفن الإصلاحي. وتحت تأثير الروح الصوصيني أعلن كاستيلون السافوي مبدأ التسامح في رسالة شهّر فيها بتعصّب كالفن وحقده[1]، وندّد بموقفه من إحراق سرفنيوس الذي أدين بالردة وتم إحراقه لتشكيكه في مسألة التثليث، حيث أعلن أن الدين إذا صاحبه الاضطهاد كان لعنة[2].

وإضافة إلى "سوسيني فاوستو" المتأثّر بعمّه "لاليوس سوسيني" (١٥٢٥–١٥٥٦م) قام رجل اللاهوت "بول بست "سنة(١٦٤٥م) بمجاراة هذا المذهب بإنكار التثليث، والقول بأن الابن أدنى مرتبة من الأب، وباستحالة اجتماع اللاهوت والناسوت، وكان هذا انتصارا لأراء أريوس التوحيدية القديمة. وقد شكّل البرلمان الإنجليزي لجنة للتحقيق سنة(١٦٤٦م) انتهت بإدانته وسجنه وحرق كتبه[3].

وعلى غرار الصوصينة قام "جون بيدل" بتأسيس المذهب اليونيتاري في انجلترا، وهو مذهب قائم على إنكار التثليث والقول بالتوحيد، وإنكار ألوهية روح القدس. ونتيجة لقانون(١٦٤٨م)، اتهم بالتجديف وسجن سنوات عديدة، ثمّ نفي على عهد الثائر كروميل[4].

ويمكن أيضا ذكر طائفة اللامعمدانيين التي أنكر بعضها ألوهية المسيح، فلم يعتبروه إلا إنسانا، إلا أنه أشدّ الناس ورعا،وقد كفّر عن خطايا

(١) الغزالي:التعصب والتسامح ص٩١.
(٢) موريس كروزيه:تاريخ الحضارات العام(القرنان السادس عشر والسابع عشر،تأليف رولان موسنييه)، ط٢، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٨٧.ج٤ص١٠٣.
(٣) والكتاب الذي تعرّض للحرق لتشكيكه في الثالوث واتهام مجمع نيقية بالهرطقة هو كتاب:كشف الأسرار.انظر: رمسيس عوض:الإلحاد في الغرب ص٨٠– ٨١.
(٤) نفسه ص٨١– ٩٢.

البشر ليس بصلبه، ولكنه باعتباره قدوة للآخرين[1].

ولم يكن الأمر مقصورا على إيطاليا وفرنسا، بل إنّ انجلترا التي تعتبر رائدة في دعوات التسامح حاول فيها المحافظون البروتستانت استصدار قرار من البرلمان بإعدام كل من يشير إلى رأي يتعارض مع عقيدة التثليث والتجسيد سنة (١٦٤٨م). وفي سنة (١٦٨٨م)، أصدر البرلمان الإنجليزي قانون الحقوق الذي ينصّ على كون البروتستانتية الدّين الرسمي للدولة، ويحرّم على الكاثوليك وغيرهم من مخالفيهم الموحّدين حقّ العبادة، أو التعبير، أو الاجتماع[2].

لا يمكننا أن نغفل في حديثنا عن حركات التوحيديين المدانة من الكنيسة مسألة تسرّب التصوّرات الإسلامية، وترجمة معاني القرآن إلى اللاتينية وإلى الفكر الأوروبي الوسيط.

بدأ الأمر عملا معرفيا مضادّا للأطروحات العقدية الإسلامية كما قال بطرس الجليل(١٠٩٢–١١٥٦م)[3] : "يجب أن نقاوم الإسلام لا في ساحة الحرب، بل في ساحة الثقافة...ولإبطال العقيدة الإسلامية يجب التعرّف عليها، وأنه سواء وصفنا الضلال المحمدي بالنعت المشين –بدعة–، أو بالوصف الكريه– وثنيّة–فإنه لابد من العمل ضدّه، لابد من الكتابة ضدّه".

لكن ترجمة معاني القرآن التي بدأت وطبعت ابتداء من سنة(١٥٤٣م) للغة اللاتينية وتوالت إلى اللغات المحلية، سرعان ما تركت آثارها في رواد النزعة الإنسانية الذين ناصبوا الكنيسة العداء سرّا وجهرا، ووجدوا في الثقافة

(١) قصة الحضارة ج٢٤ ص٩٧.
(٢) محمد الغزالي:التعصب والتسامح ص٩٨.
(٣) نجيب العقيقي:المستشرقون، ج١ص١١٢.

الإسلامية ما يسند مقولاتهم، حتى إن "بيكوديلا ميراندو"[1] قال في كتابه" في الكرامة الإنسانية": "لقد قرأت في كتب العرب أنه ليس ثمّة في الكون شيء أكثر روعة من الإنسان"[2].

وهو الأمر الذي فتح النافذة على دخول الآثار الناقدة للرؤى المسيحية في العقيدة، وخاصة ما كتبه العلماء الأندلسيون، ممّا ساعد على بروز الأطروحات التوحيدية المناهضة للكثلكة في العالم النصراني، والتي أدينت بكل قسوة وحكم على روادها وأتباعها بالردة والهرطقة والضلال.

ثالثا: نقّاد الكتاب المقدّس:

تناولت أحكام التكفير والحرمان الكثير ممن تعرّضوا لمسألة إطلاقية وصحة الكتاب المقدس، ومع أن المسألة بعيدة الجذور زمنيا بين الطوائف النصرانية، حيث ظلّ الخلاف قائما حول صحّة العديد من الأناجيل التي تجاوزت العشرات، إلا أن مجمع نيقية الشهير استبعد الكثير منها، وأبقى على الأربعة المعروفة، فكان قرار الحرمان والتكفير ينال كل متعبّد بغير هذه الأناجيل مثل إنجيل برنابا.

لكن الأمر لم يحسم بالقرارات، فالخلاف ظلّ قائما بين الكنائس الشرقية والغربية في الاعتداد ببعض أسفار العهد القديم، ثم جاءت البروتستانتية أيضا لتعيد الجدل حول الاعتداد ببعض الأسفار والرسائل.

وقد سبق لوثر كلّ هذا النقاش عندما ترجم الإنجيل إلى الألمانية بدل اللاتينية، ومهّد للفلاسفة والنقّاد طريقهم لنقد الكتاب المقدس، من حيث توالي الترجمات إلى بقية اللغات، ممّا جعل الآسار الكنسية المكبّلة للعقل

(١) معجم طرابيشي ص٢٢٣/الحفني:موسوعة الفلسفة والفلاسفة ج١ص٣٦٨.

(٢) محمد عابد الجابري:في نقد الحاجة إلى الإصلاح، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥.ص٦٢ – ٦٤.

الأوروبي في العصر المدرسي تتفكّك واحدة واحدة، مع عدم إغفال دور الطباعة في تسريع وتيرة تبادل الأفكار الناقدة للوضع الأوروبي العام.

أما المصلح الإيطالي جيرودانوبرونو(١٥٤٨–١٦٠٠م) (١) فقد انتقد القضايا العلمية التي تبنّتها الكنيسة وقدّستها، ولما تبنّى برونو نظرية كوبرنيكس (١٤٧٣–١٥٤٣م)، وقال بلا نهائية العالم وأزلية المادة، وأنكرعذرية مريم، اتّهمته الكنيسة بالتجديف لطعنه في الإنجيل وقوله بوحدة الوجود، فحكمت عليه محكمة التفتيش بقطع لسانه، ثمّ حرقه حيا لأنه تفوّه بكلام فيه تجديف وزندقة "(٢).

ونجد أيضا أحد رواد المذهب الإنساني في أوروبا وهو المصلح إيراسموس(١٤٦٩–١٥٣٦م) (٣) الذي هاجم وضعية الكنسية وانتقد رجال الدّين اتهمهم بتهويد المسيحية عن طريق الزجر والتخويف والتشاؤم، وهو ما اعتبره مناقضا لرسالة المسيح، ولذلك قام بتحقيق الإنجيل من جديد ويسّر قراءته لكل الناس.وشكّل كتابه" ثناء على الجنون" ثورة وصدمة في الأوساط البابوية لما حمله من نقد لاذع لرجال الدّين المتزمّتين، ولأجل هذا حرّمته الكنيسة ووضعته على قائمة الكتب المحظورة، واتّهمت صاحبه بالتجديف، وأحرق أتباعه في أسبانيا، وأعدم المترجم الفرنسي لكتابه سنة(١٥٣٦م)، و تحول الباقون من أتباعه إلى البروتستانتية(٤).

لم تنته مسألة التكفير والحكم بالتجديف في حقّ نقّاد الكتب المقدّسة، ولكن استمر اشتعالها في عصر النهضة والأنوار حتى الأيام الأخيرة،

(١) معجم طرابيشي ص١٧٤/الحفني:موسوعة الفلسفة والفلاسفة ج١ص٢٨٩.
(٢) هاشم صالح: مدخل إلى التنوير الأوروبي ص١٢٧ /رمسيس عوض: الإلحاد في الغرب ص٤٧ – ٤٩/ الحفني: موسوعة الفلسفة ج١ ص٢٨٩ /يوسف كرم:تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٤.
(٣) عبدالرحمن بدوي:موسوعة الفلسفة ج١ص٩٧/قصة الحضارة ج٢٣ص١٨٠.
(٤) مدخل إلى التنويرالأوروبي ص١١٢ / قصة الحضارة ج٢٣ ص ١٨٦.

ويكفي التذكير بما حصل للأب "ألفريد لوازي" الذي كان زعيما لتيار التأويل الحديث للكتابات المقدّسة، ممّا حدا بالبابا "بيوس" إلى تكفيره وحرمانه وفصله من الكنيسة سنة (١٩٠٨م) (١).ولولا قوانين العلمانية الحديثة لكان مصيره الإحراق كسابقيه.

رابعا: الرشديون:

اعتبرت الكنيسة العلوم الوافدة من العرب علوما مدخولة لأن مصدرها الكفار،–أي المسلمين– ولأجل هذا كانت الخصومة شديدة مع فلسفة ابن رشد(٥٩٥هـ) الأرسطية التي تسلّلت إلى أوروبا من الأندلس. فمنذ القرن الثالث عشر والفلسفة الرشدية تصارع الكتلكة في فرنسا وإيطاليا وانتشرت انتشارا مهولا أقلق السلطات البابوية، ودفعتها إلى السعي للرد العلمي والقضائي على هذه الفلسفة الوثنية كما تراها.

اعتبرت القضايا الرشدية محرّمة التداول بقرارات متتالية من الكنيسة الرسولية بالفاتيكان، وكان مدار النزاع حول القول بالحقيقتين الفلسفية والدينية. وأزلية المادة وعدم خلود الأرواح وهو ما يؤدي إلى إنكار البعث. وكذا القول بأن العالم تسيّره القوانين بعيدا عن رعاية اللّه، ويتبع هذا إنكار المعجزات.

أما الردود العلمية فثمّت من قبل"ألبرت الكبير"(١٢٠٦–١٢٨٠م) (٢) الذي كلّفه البابا الإسكندر الرابع (١٢٥٢م) بالردّ على ابن رشد(٣)، فكتب رسالته:" في وحدة العقل ضد فلسفة ابن رشد ". ثمّ تلاه توما الأكويني (١٢٢٤–١٢٧٤م) في كتبه" خلاصة المذهب الكاثوليكي ضدّ الوثنيين"

---

(١) شوقي أبو خليل: الحوار دائما ص٩٠ /مدخل إلى التنوير الأوروبي ص ١٢٤.

(٢) معجم طرابيشي ص٨٦/الحفني:موسوعة الفلسفة والفلاسفةج١ص١٨٠.

(٣) زينب الخضيري:أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى، ط١، بيروت، دار التنوير، ٢٠٠٧.ص٦٩.

و"خلاصة اللاهوت". وهو يمثّل قمة المناهضة العلمية في التصدّي لفلسفة ابن رشد والمشائيين. وهو ما يدل على الرجفة العنيفة والقوية التي أصابت الأوساط الكنسية، نتيجة النقد الممارس لمسلمات الفلسفة القروسطية الموروثة عن الآباء المؤسسين[1].

أما الرد القانوني فتمثّل في القرارات الصادرة بالحرمان، والحكم بالتكفير على المشتغلين بفلسفة ابن رشد أو المروّجين لكتبه. فإضافة إلى القرارات الفاتيكانية العليا بتحريم النظر في الرشدية، فإن دكاترة جامعة السوربون المحافظين ندبوا أنفسهم للتصدّي لفلسفة ابن رشد مظاهرين لدواوين التحقيق في عملها[2].وأصدر أسقف باريس"أتين مانبيه" بيانا سنة(١٢٧٧م) بتكفير الرشديين اللاتينيين في مائتين وثلاث عشرة مسألة، وقرّر رسميا أنها تسم قائلها بالإلحاد، ولأجل هذا أدين العالم سيجير(١٢٣٥–١٢٨١م) [3] من طرف محكمة التفتيش بالسجن المؤبد ثم اغتيل في سجنه[4].

وكذلك كان الأمر مع الفيلسوف "بومبوناتزي"(١٤٦٢–١٥٢٥م) [5] الذي ألّف كتاب" خلود النفس"منكرا فيه الخلود، كما قال بالحقيقتين والحرية الإنسانية.ممّا دعا محكمة التفتيش إلى إحراق كتابه، ولم ينج هو إلا بحماية أحد الكرادلة[6].

وتأيّد ذلك بقرار أصدره مجمع اللاتران سنة(١٥٠٢م) بلعن كل من ينظر

(١) دي لاسي أوليري:الفكر العربي ومركزه في التاريخ (ت إسماعيل بيطار) ط٦، بيروت،دار الكتاب اللبناني،١٩٧٢.ص٢٤٢.

(٢) عبد الرزاق قسوم: مفهوم الزمان في فلسفة أبي الوليد بن رشد،الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب،١٩٨٥.ص١٨٥–١٨٧.

(٣) الحفني:موسوعة الفلسفة والفلاسفةج١ص٧٦٢/معجم طرابيشي ص٣٨١.

(٤) قصة الحضارة ج١٧ ص١٠٩.

(٥) الحفني:موسوعة الفلسفة والفلاسفةج١ص٣٤٧/معجم طرابيشي ص١٢٠.

(٦) محمد عبده:الإسلام والنصرانية،ص٣٠/يوسف كرم:تاريخ الفلسفة الحديثة ص١٤.

في فلسفة ابن رشد. وطفق الرهبان الدومنيكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر في كلامه شيئا من الصناعة والعبادة[1]. حتى إنهم نالوا من الأموات الذين نجوا بقدر الله من هذه الأحكام القاسية، إذ إنهم حاكموا جثة المعلّم "بطرس ديانو" وأحرقوا عظامه بعد موته في البندقية، تبعا للحكم التراجعي بردته وكفره[2].

وهكذا اشتدت الحملة على الرشديّين الذين كفّروا، وأبعدوا وأدينوا بتهم الردة والإلحاد، ولم يتمكّن الرشديون من العودة إلى أقسام الفلسفة واللاهوت إلا مع سيطرة فلسفة الأنوار التي طوّحت بمواريث العصور الوسطى وراء ظهرها لتنجي أوروبا من أغلال دواوين التحقيق، ومحاكم التفتيش، وأحكام التكفير.

خامساً: العلميون:

طالت أحكام التكفير مجموعة كبيرة من رواد النهضة العلميين، والمتتبّع للسجلاّت القضائية للكنيسة يذهل من غرابة الأحكام القضائية الصادرة بحقّ رواد البحث العلمي في أوروبا.حيث إنه لا مبالغة في الاقتصار على وصف أواخر عصر الإيمان وبدايات النهضة الأوربية بأنه تاريخ الصراع بين الدّين والعلم، حيث كانت العلمية مناهضة للخرافة والتوسّع في المعاجز والإيمان بمواريث القرون الوسطى.

وفي هذا الصدد حاصرت الكنيسة كل تطلّع علمي، وحرّمت العديد من الكتب وأصدرت قرارات الحرمان ضدّ المطالعين للكتب التي لا تسمح بها.حيث كانت السلامة قائمة على ترك الفكر والتفكير والنقد، والأخذ

(١) محمد بيصار: في فلسفة ابن رشد الوجود والخلود، ط٣، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٣.ص١٩٧.
(٢) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص١٤ – ١٥.

بالتسليم لأن الجهالة أمّ التقوى[1].

فمثلا:"دي رومنيس" حكم عليه بالسجن لأنه قال إن قوس قزح ليست قوسا حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد، بل هي انعكاس ضوء الشمس على الماء، ومات في حبسه فأحرقت جثته، وكتبه معه[2].

وكذلك العالم الفلكي الكبير"غاليلو" (١٥٦٤–١٦٤٢) الذي برهن على كروية الأرض ومركزية الشمس، فصادرت الكنيسة كتابه"حركات الأجرام السماوية"، وجرّته أبحاثه إلى المحاكمة التي خيّرته بين الإعدام أو التراجع عن آرائه فانحنى أمام جبروت الكنيسة تاركا كلمته الشهيرة:" ولكنها تدور"[3].

ولا غرابة في هذا إذا ذكرنا بأن الكنيسة كانت تتوجّس من العلوم ذات الأصول اليونانية، أو الوافدة من العرب، فالرياضيات كانت تسمى فنّ الشيطان، والفلك شجرة السّحرة، والناظر فيها يؤول أمره حتما إلى الهرطقة ومحادّة حقائق الإنجيل المحرف، ولهذا كانت المزاولة العلمية تنمو في الخفاء والمطبوعات تتداول سرا، والباحثون يفرّون من قمع إلى قمع خوفا من سيف الكنيسة[4]. وتبعا لهذا انتشر تيار المشكّكين في العقيدة، ونما الإلحاد في المراكز العلمية. حتى كانوا يقولون:حيث يجتمع ثلاثة أطباء يكون اثنان منهم كافرين[5].

---

(١) محمد عبده: الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية ص٢٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٨.

(٣) انظر: جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة ص٤٣٢ /يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص٢١.

(٤) لم يلغ المكتب الفاتيكاني الخاص بالكتب الممنوعة(الضارة بالعقول والخطرة على العقيدة)إلا في سنة١٩٦٥م، مثل كتب:بالزاك، فلوبير، فيكتورهيغو، زولا، جان بول سارتر، إلكسندر دوما، وإن كان مجمع حراسة الإيمان في الفاتيكان–الذي كان يرأسه البابا الحالي بنديكنت السادس عشر– يمارس بعضا من مهام المكتب السابق.

(٥) هاشم صالح: مدخل إلى التنوير الأوروبي ص١٣٧.

ولأجل هذا قابلت الكنيسة العلم الحديث بالتوجّس والخيفة أحيانا، وأحيانا أخرى بالمحاصرة بأحكام الحرمان، ثم الضرب بيد من حديد قرارات دواوين التحقيق.

ولكن النتيجة التي هي أبعد من ذلك كله هي موت الكنيسة نفسها، فديكارت زعيم الفلسفة الحديثة، اعتبر عدوا للكنيسة، وحرّمت كتبه سنة(١٦٦٢م)، وأصدر "لويس الرابع عشر"(١٦٣٨–١٧١٥م) قرارا يمنع تدريس فلسفته سنة(١٦٦٧م) بضغط من اليسوعيين[1].

لقد ضيّق على العلماء وحسرت المراكز العلمية بسلطان دواوين التحقيق فنظّمت مؤسسة خاصة للرقابة على المطبوعات في عهد البابا"بولس الثالث"، ففي سنة(١٥٤٢م) صدر مرسوم كنسي مؤكّد للمعاني المشار إليها:

١– حين يكون الإيمان موضع شك، يجب ألا يكون هناك أي تأجيل، ولابد من اتخاذ الإجراءات الصارمة بكل سرعة إذا قامت أي شبهة.

٢– يجب ألا يكون هناك أي اعتبار لأي أمير أو حبر مهما علا منصبه.

٣– الصرامة المتناهية أولى أن تستعمل مع أولئك الذين يحاولون الاحتماء بأي حاكم، ولا يعامل بالرفق إلا من اعترف اعترافا كاملا.

٤– يجب ألا يحطّ إنسان من قدره بإبداء التسامح نحو المهرطقين[2].

لم يكن غريبا ذلك الإجماع حول المواقف السلبية للكنيسة تجاه العلم[3]،

(١) قصة الحضارة ج ١٧ ص١٠٦.

(٢) قصة الحضارة ج٢٧ ص٢٤٠.

(٣) من المواقف الغريبة أن مهندسا ألمانيا اكتشف مصباحا يعمل بآلية الزيت، فاعتبرته الكنيسة مهرطقا وقضت عليه بالحرمان وعلّلت الحكم بأن الله أراد الليل ظلاما والنهار ضياء، وأن محاولة إضاءة الليل هي تمرّد على الإرادة الإلهية.انظر:عبد العظيم المطعني:الإسلام في مواجهة الإيديولوجيات المعاصرة،ط١،القاهرة،مكتبة وهبة،١٩٨٧.ص٧٢.

مواقف عجلت بدوران عجلة التاريخ الحديث دون الكنيسة التي انحسرت في حجورها.

يلخّص الفيلسوف برتراند راسل (١٨٧٢–١٩٥٠م)(١) الحصيلة السيئة للكنيسة في محاضرته:"لما لم أكن مسيحيا":"في عصر ما يسمى بعصر الإيمان، وفي الوقت الذي كان يؤمن الناس فيه إيماناً حقيقيا بالدّين المسيحي في جميع تعاليمه وطقوسه، أنشئ ديوان التفتيش بتعدّياته،فأحرقت جثث ملايين من النساء التعيسات كأمثلة للعيان، واستخدم باسم الدّين كل أنواع القسوة ضد جميع صنوف الناس"(٢).وهي حقيقة لا تنكرها الكنيسة نفسها، إذ تصدر الاعتذار تلو الآخر.فعلى نفسها جنت براقش الأوروبية.

سادساً: حركة الإصلاح الديني:

ارتفعت موجة التكفير الداخلي في المسيحية واكتمل أَوْجُها في الانشقاق التاريخي الثالث، وهو خروج البروتستانتية من رحم الكاثوليكية، وقاد هذا الانشقاق الألماني"مارتن لوثر" الذي انتفض على السلطة المطلقة لبابا روما، فدعا إلى إصلاح الكنيسة، ورفع راية الاحتجاج على صكوك الغفران، واحتكار تفسير الإنجيل المحرف، فهاجم الجدران الثلاثة التي شيّدتها البابوية حول أنفسهم، وهي:

التمييّز بين رجال الإكليروس والعلمانيين، وتحريم زواج القساوسة.وحقّ البابا في تفسير الكتاب المقدّس على هواه.ثم حقّه المطلق في الدعوة لمجلس عام للكنيسة(٣).

كان الرد البابوي قاسيا، فأعلن البابا " ليوالعاشر" سنة(١٥٢١م) ردة لوثر

(١) بدوي: موسوعة الفلسفة ج١ص٥٧١/معجم طرابيشي ص٣١٧/موسوعة الحفني ج١ص٦٤٧.
(٢) محمد البهي:الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ص١٣٦.
(٣) قصة الحضارة ج٢٤ ص٢٨ /تاريخ الحضارات العام ج٤ص٨٠.

وصدر الأمر بإحراق كتبه، وإذا رفض المجيء إلى روما، وسَحْبَ أقواله خلال ستين يوما: " فإنه سوف يبتر من عضوية العالم المسيحي بحرمانه من غفران الكنيسة، وسوف يعرض عنه كل المؤمنين باعتباره هرطقيا، وسوف تتوقّف العبادة في جميع الأماكن التي يقيم فيها، وعلى جميع السلطات الزمنية أن تطرده من أملاكها، أو تسلّمه إلى روما "[1].

وردّ لوثر بالدعوة إلى طرد ممثلي البابا من ألمانيا، وإلى الامتناع عن دفع الإتاوات، وإلى تعطيل القوانين الكنسية، وترك صرخة مدوية ضدّ كرسي روما في ندائه:

"استمع أيها البابا، ولا أقول أقدّس الرجال، بل أكبرهم إثما، ثق بأن اللّه ربّ السموات سوف يقوّض عرشك قريبا، ويغرقه في هاوية الجحيم، يا سيدي المسيح أطلّ علينا من عليائك، ودع يوم قصاصك يشرق ويدمر عش الشيطان في روما"[2].

انقسم العالم المسيحي الأوربي من جديد إلى تجمّع كاثوليكي وآخر بروتستانتي، وتبادل الطرفان تهم المروق والردة والتكفير، واشتعلت الحروب الدينية، وحصلت الانقلابات والثورات دعما أو هدما لإحدى الطائفتين، وعلّقت أعواد المشانق، وسالت الدماء في المجازر الطائفية في هذا البلد أو ذاك.

والذي يخلص إليه أن ميراث ما اصطلح عليه بعصور الإيمان النصرانية، ومحاكم التفتيش ودواوين التحقيق وعنف الكنيسة ضدّ المخالفين لها من الطوائف المنشقّة، أومن الاتجاهات الموحّدة، أو الفلسفية والعلمية، دفع بحركة الإصلاح قدما، تلك الحركة التي نهلت من الوافد الإسلامي من أسبانيا وصقلية والمشرق العربي إبّان الحروب الصليبية، والتي دعت إلى فتح

---

(١) قصة الحضارة ج ٢٤ ص٢٧/ بيوري: حرية الفكر ص٦٨.
(٢) قصة الحضارة ج ٢٤ ص٣٠.

الموارية الدينية لتقرأ بغير عيون الكنيسة الرسولية، وهو ما عجّل بحروب دينية بين المحافظين والإصلاحيين، تلك الحروب التي غدتها آثار محاكم التفتيش التي كانت أغلب قرارتها تطبيقات لأحكام التكفير والحرمان بكل أنواعه، حيث صار التكفير جمعيا، ثمّ كانت المحارق والمجازر جماعية أيضا، فالكلّ كان يقدّم القرابين البشرية تطبيقا لنصوص الكتاب المقدّس المزعوم القاضية بعدم الرحمة والرأفة بالمرتدين والمهرطقين.

الفرع الثالث

الآثار التكفيرية للنصرانية في بداية النهضة الأوروبية

أولاً: التكفير الجماعي:

إن الحصيلة الرئيسية لمواريث العصور الوسطى الأوروبية هي شيوع ثقافة التكفير والتبديع وتبادل تهم المروق والحرمان بين مختلف الطوائف النصرانية، وآية ذلك هي الحروب الدينية التي استمرت مائتي عام كاملة صليت أوروبا بنارها واكتوت من حرها واحترقت بشررها.

فالمستقرأ للكتابات الدينية بين البروتستانت والكاثوليك يجدها طافحة بألفاظ التكفير والحرمان والهرطقة والحكم الدياني بدخول جهنم، حتى إن بعضهم سمى أدبيات تلك الفترة بالسعار اللاهوتي.

ويمكن التمثيل لذلك من طرف البروتستانت بما يلي:

– الراهب" توماس مونزر" الذي دعا إلى الحرب الاستئصالية ضدّ مخالفيه غير البروتستانت قائلا: "إن الكفار لا حقّ لهم في العيش إلا بقدر ما تسمح به الصفوة "[(١)].

نحت هذه الثورة إلى العنف الشديد ضد النبلاء ورجال الدين المعارضين، ولهذا تنصّل منها لوثر لنبذها مبدأ التسامح مع الكفار(أي غير البروتستانت)[(٢)].

وتلاقت ظروف سياسية واجتماعية في ألمانيا ضدّ هذه الثورة الاجتماعية التي تسلّحت بسلاح الإصلاح الديني ضد أغلال الكنيسة الكاثوليكية.

---

(١) الهرطقة في المسيحية، ص١٩١/ قصة الحضارة ج٢٤ ص٨٧.

(٢) جون لوك:رسالة في التسامح، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي١٩٨٨. ص١٤.

وعلى منوال تلك الحركة قامت حركة اللامعمدانيين[1] التي نادت بعدم ألوهية المسيح، ودعت إلى حياة الزهد والتقشف، ورفض الخدمة العسكرية أو امتهان العنف لفرض الآراء، والدعوة إلى إعادة التعميد بعد البلوغ، إلا أن هذه الطائفة جوبهت بقسوة، فاعتبرت حركة ردة، وصادق الملك "شارل الخامس"(١٥٠٠–١٥٥٨م) على مرسوم يقضي بإعدام كل اللامعمدانيين سنة(١٥٢٩م) فقتل الآلاف في سويسرا وألمانيا.

وصف أحد المؤرخين الأحكام القاسية الصادرة عن دواوين التحقيق ضدّهم بقوله:

"عذّب البعض على المخلعة وشدّت أطرافهم حتى انتزعت، وأحرق البعض الآخر حتى غدت أجسادهم رمادا وهباء منثورا، وشوي لحم البعض فوق أعمدة أو مزقوا إرباً إرباً بكمّاشات ملتهبة إلى درجة الاحمرار، وشنق آخرون فوق الأشجار، أو قطعت رؤوسهم بالسيف، أو ألقي بهم في لجة الماء، ومات بعضهم جوعا، أو هلكوا في غياهب السجون المظلمة....وظلّ الكثيرون منهم سنوات في غياهب السجون، وختمت على خدودهم أرقام تركت فيهم أخاديد"[2].

وعندما نجح أحدهم وهو"جون الليدي" في حكم مدينة "مونستر"بألمانيا، حوصرت هذه الأخيرة، حتى أفنت المجاعة الناس، وذلك سنة(١٥٣٥م)، ولما سلّم اللامعمدانيون أنفسهم وكانوا ثمانمائة رجل ثمّ ذُبحوا جميعا، أما زعيمهم فقد ربط واثنان من أعوانه على سارية، فقد خمش كل جزء من أجسادهم بكماشات ملتهبة إلى درجة الاحمرار، وشدّت ألسنتهم حتى تدلت

(١) اللامعمدانيون:نحلة مسيحية تدعو إلى البساطة والزهد والتسامح وإشاعة الملكية،ومناهضة الإكليروس الرسمي ورفض الخدمة العسكرية،وتجديد العماد بعد البلوغ ليأخذ العقيدة المسيحية بعلمه واختياره.انظر:الهرطقة في المسيحية،ص١٩٥/قصة الحضارة ج٢٤ص٩٦/تاريخ الحضارات العام ج٤ص٨٦

(٢) قصة الحضارة ج٢٤ ص ١٠٠.

من أفواههم، وأخيرا طعنت قلوبهم بالخناجر"[1].

وحتى "مارتن لوثر" لم يسلم من ذلك، إذ كان موقفه الأول مناديا بالحوار والتسامح في داخل النصرانية لما هاجم البابا "ليو العاشر" حيث قال:

" إن حرق الهراطقة مخالف الروح القدس، ويجب أن نقهر الهراطقة بالكتب لا بالإحراق". كما دعا إلى تخفيف عقوبة الردة من الإعدام إلى النفي، لأن إكراه النّاس على العقيدة قسرا غير مفيد[2].

لكنه في سنواته الأخيرة بدأ في قلب ظهر المجّن للتسامح، فتراجع في موقفه من اليهود المنبوذين في أوروبا، ووصفهم بأنهم هم والبابويون (أي الكاثوليك) تعساء كفرة، وأن الطائفتين جوربان صنعا من قماش واحد، وأن اليهود أمّة من أناس غلاظ كفرة خبثاء ممقوتين، ودعا إلى إشعال النار في مدارسهم ومعابدهم وإلى طردهم من البلاد كالكلاب المسعورة[3].

وتساوقا مع هذه الدعوات المنتقصة من اليهود فقد تعرضوا لموجة سخط عارمة في أوروبا، فزيادة على ما وقع ضدهم من تهجير في أسبانيا وإكراه على الارتداد إلى النصرانية، فقد اعتبروا سببا للطاعون الأسود في القرن الرابع عشر الميلادي، وحمّلتهم الكنيسة وزر صلب المسيح –بزعمهم–، بل إن الكنيسة لم تكن تعتبر المسيح ولا أمه مريم عليهما السلام يهودا.

ففي مدينة تولوز كانت العادة أن يستدعى كبير الحاخامات في عيد الفصح ليصفع أمام الجميع انتقاما لما حدث للمسيح صبيحة الصلب، واستمرت عذاباتهم في أسبانيا والبرتغال بالحرق أحياء، وأخر يهودي أُحرق في

(١) الهرطقة في المسيحية، ص١٩٧/قصة الحضارة ج٢٤ ص.١٠٧.
(٢) قصة الحضارة ج٢٤ ص ١٤٠.
(٣) انظر عبد الودود شلبي: الإسلام وخرافة السيف ص١١١– ١١٦.

أسبانيا كان سنة(١٨٢٥م) فقط، أما في إيطاليا فكان بعض الباباوات يأمرون بوضعهم في براميل لها مسامير ثم تدحرج حتى تتقطع أشلاؤهم، وعندما تحلّ الكوارث الطبيعية أو تندر السلع، فإن الانتقام الأول كان ينصبّ على اليهود باعتبارهم أصحاب الربا[1].

والمتصفّح للحياة الاجتماعية في أوروبا يجد أن نصيب اليهود كان السكن فيما يعرف بـ " الجيو"، وحولهم نسج كُتّاب الأدب قصصا مليئة بالكراهة والتمييز، ففي قطعة للشاعر " سبيا" يهجو فيها جنس اليهود بأنه: "جنس محتقر كريه الرائحة، ومسخ حسود ناشر أمراض بلا شرف، مهمل بغيض خسيس قذر بخيل ملعون متكاسل"[2].

وكذلك فعل شكسبير في تصويره للشخصية اليهودية المرابية الجشعة في مسرحيته "تاجر البندقية"، وفي فرنسا وفي أعقاب اكتشاف خلية يهودية في اللوفر قام لويس ١٣ بقتل اليهودي "كونسينين" عام (١٦١٧م)، وقام الكاثوليك بإخراج جثة اليهودي" مورشيرا" من القبر وطعنوها وأكلوها على جسر نيف وأحرقوا العظام الباقية ورموها في نهر السين، في حين أحرقت زوجته علنا[3].

وعلى شاكلة التكفير الجمعي سار الإصلاحي" كالفن" سيرة متشدّدة مع الممارسين للطقوس الكاثوليكية، مثل تمجيد التماثيل، أو الاعتزاز بإحدى المخلّفات المقدّسة، أو اتخاذ مسبحة، أو اعتبار عيد قدّيس يوما مقدّسا، وكان العقاب الموحّد للهراطقة من الكاثوليك، أو السحّرة، أو المخلّين بالنظم الجديدة للبروتستانتية هو الإعدام.

(١) بشتاوي: الأمة الأندلسية الشهيدة ص٢٢٩ – ٢٣٩.
(٢) قصة الحضارة ج ٢٦ ص١٥٥–١٦١.
(٣) رمسيس عوض: الإلحاد في الغرب ص٣٢.

ففي عامي(١٥٤٢و١٥٦٤م)، أعدم ثمانية وخمسون شخصا، ولم يسمح في "جنيف" التي عرفت بمدينة الربّ بوجود غير البروتستانتيين.

ولا ننسى ما فعله كالفن بطائفة اللامعمدانيين، وكذلك رسائله إلى أشياعه في فرنسا من الهوجنوت في مبادلة الكاثوليك نفس الحرب والبراءة الدينية باعتبارهم مرتدين عن النصرانية الحقة. وقد صدرت أكثر من ثمانمائة نشرة سنة(١٦١٨م) ضدّ الكاثوليك.

وكانت المسرحيات البروتستانتية تسخر من البابا وتختم عادة بزجه في الجحيم، وشاعت مفردات كثيرة في هذا السعار اللاهوتي التكفيري مثل: الروث، النفاية، الأفاعي، الخنزير، البغيّ، القاتل، مستحضري الأرواح، السحرة....إلخ، وفي إحدى الصور المحفوظة في ألمانيا صورة البابا على شكل خنزيرة تلد رهبانا يسوعيين في صورة خنازير صغار[1].

أما البروتستانت فقد جاء في إحدى نشراتهم الدعائية سنة (١٥٩٠م) ضد الكالفنيين: " إن أراد أحد أن يقال له في بضع كلمات أية مادة من مواد الإيمان نقاتل عليها جنس الأفاعي الكلفينية الشيطاني، كان الجواب كلها بلا استثناء، ذلك لأنهم ليسوا مسيحيين بل يهود ومسلمون معمّدون".

وقالوا عن الكاثوليك:" إن البابويين كغيرهم من الترك واليهود والوثنيين هم خارج نطاق النعمة الإلهية ومغفرة الخطايا والخلاص، فلقد كتب عليهم العويل والبكاء وصرير الأسنان إلى الأبد في نار جهنم المشتعلة وكبريتها"[2].

وتساوق هذا مع إعدامات متبادلة ومحاكمات جائرة وظلم متواصل نال الطوائف الصغيرة تصحيحية أو محافظة، فالكالفنيون قمعوا بشدة الموحّدين

(١) قصة الحضارة ج٢٩ص١٨٩.

(٢) المصدر نفسه ج٢٩ ص ١٩٠ – ١٩٢.

سنة(١٥٧٠م) وأعدموا شخصين نازعا في ألوهية المسيح[١]، وفرضوا تعاليمهم بالقوة في أماكن نفوذهم.

أما الكاثوليك فقد اعتبروا البروتستانت كفاراً تباح دماؤهم وأموالهم، واعتبروا هلاكهم من بديهيات اللاهوت، لأنهم مرتدون محرومون من الغفران.

ويمكن التمثيل لآثار هذا التكفير الجماعي بما حدث في فرنسا، وهي البلد الذي شهد أعنف موجات الاضطهاد الديني والزمني ضدّ الموسومين بالارتداد من البروتستانت الذين أطلق عليهم محليا "الهوجونوت".

كان الطلاق بين الفريقين بائنا، واستظهرت الكنيسة بالاستبّداد الملكي لأسرة "البوربون"، فتوالت القرارات المؤدية إلى استئصال شأفة البروتستانت المرتدين مقاطعة وتحريما للزواج منهم[٢]، وإبطالا لعقودهم، ومنعهم من الدفن في مقابر الكاثوليك[٣]، ولهذا أرادت فرنسا تحقيق الوحدة الدينية تحت شعار: ملك واحد وقانون واحد وعقيدة واحدة.

وسجّل التاريخ أشنع مذبحة جماعية للبروتستانت، وهي تلك التي وقعت في عيد القديس "سان بارتيملو" في١٤أوت١٥٧٢م، حيث ذبح أزيد من عشرين ألف بروتستانتي، وابتهج الكرسي الرسولي بذلك، وأصدر البابا أوسمة فيها صورة البابا "جوريجوري" وبجانبه ملك يضرب أعناق الملحدين وكتب عليها: "إعدام الملحدين"[٤].

---

(١) نفسه ج٢٩ ص ١٨٨.

(٢) مع العلم أن هذا الأمر مستمر حتى في العصر الحاضر فقد صدر قرار بابوي آخر في أيار١٩٤٩ بتحريم زواج الكاثوليكية من الأرثذوكسي والبروتستانتي.انظر:شلبي: أضواء على المسيحية ص١٢٦.

(٣) لم يسمح مثلا للبروتستانت بالدفن في مقابر المسيحيين حتى عام ١٨٣٠م في مالقة، حيث سمح الإسبان بدفن الإنجليز الدين قاتلوا الفرنسيين إلى جانبهم، وقبل ذلك فإن الحانوتيين كانوا ينتظرون جزر البحر حتى يدفن غير الكاثوليك، حتى اشتكى الصيادون من أن رفات هؤلاء يلحق النجاسة بأقدامهم.انظر:عادل بشتاوي: الأمة الأندلسية الشهيدة ص٢٧٠.

(٤) انظر: قصة الاضطهاد الديني ص٩٠ –٩١/الموسوعة العربية الميسرة ج١ص٩٤٩.

كل هذا والمحاكم تستظهر في إعدام البروتستانت بالقانون السابق للملك "هنري الثاني"(١٥٤٧–١٥٥٩م)الذي أمر القضاة بأن يحكموا بالإعدام على كل البروتستانتيين المتشبّثين بعقيدتهم في يونيو(١٥٥٩م)، واتبع هذا القانون بمرسوم يقضي بهدم كل المباني التي تقام فيها اجتماعاتهم، فاضطّر الكثيرون منهم إلى الفرار إلى خارج فرنسا[١].

توالت المذابح المتبادلة، فأقفرت فرنسا وتراجع أسطولها، ودمّرت بيوتها حتى سميت هذه السنوات الجنونية بسنوات الدم، والتي أودت بحياة الملك "هنري الثالث"(١٥٥١–١٥٨٩م) الذي حاول الحدّ من الحروب الطائفية، ممّا كلفه صراعا مع العصبية الكاثولكية، التي ذهبت به إلى حتفه نتيجة تعاطفه مع المنشقين البروتستانت.

ولما جاء خليفته "هنري الرابع"(١٥٥٣–١٦١٠)، أصدر مرسوم "نانت" التاريخي في١٣أفريل١٥٩٨م، الذي أباح الممارسة الكاملة للديانة البروتستانتية.

ولكن المرسوم قوبل بالرفض، فندّد به البابا" كليمنت الثامن": "كألعن ما يمكن تصوّره، منحت به حرية الضمير للجميع، وهذا أسوء شيء في الوجود".

وأعلن الكتّاب الكاثوليك من جديد بأنه يحلّ خلع الملك الزنديق أو قتله.

وكانت الفاجعة بقتل الملك المتسامح سنة(١٦١٠م) على يد متعصّب كاثوليكي بتأثير من اليسوعيين[٢].

اشتعلت الحروب الدينية التي مزّقت فرنسا نتيجة براءة كل جهة من الأخرى الموسومة بالردة والهرطقة، وكانت أعنف حرب هي حرب الثلاثين عاما بين سنتي ١٦١٨ و١٦٤٨م.

---

(١) قصة الحضارة ج ٢٩ ص١٧٥.

(٢) قصة الحضارة ج٢٩ ص٢٣٠.

وارتكبت الفظائع الغربية المزيّنة بأحكام التكفير الفردي والجماعي، حتى إن مدنا حرّمت كلها، كمدينة "لاروشيل"—في شمال فرنسا— ذات الأغلبية البروتستانتية التي حوصرت ثلاثة عشر شهرا، وأكل فيها الناس القطط من الجوع، ثم استسلمت لسيوف الكاثوليك في ٣٠ أكتوبر١٦٢٨م[1].

و يسوق المؤرخون تاريخا قديما عما يسمى"حملات الهداية" لإعادة البروتستانت الهوجونوت إلى الكاثوليكية بالقوة، فقد صدر مرسوم سنة (١٦٧٩م) بنفي جميع البروتستانت ومصادرة أملاكهم، وإبطال زيجاتهم، والتعميد القسري لمن بلغ تسع سنوات، مع حملة فظيعة وتتبّع دقيق للاجتماعات والمنشورات، بل إن قانونا وضع لمنع الهجرة، وقد عوقب من تسبّب في مساعدة الهوجونوت بالعمل الشاق في السفن مدى الحياة، وكان لفرق الخيالة النصيب الأوفر في هذه الأفعال القاسية فاضطر الآلاف من البروتستانت (٢٠٠ألف) للفرار إلى هولندا وألمانيا[2].

ثانياً: الحروب الدينية:

إن تصاعد الجدل اللاهوتي والأخلاقي بين الكاثوليك والبروتستانت والكالفينيين وغيرهم جرّ أوروبا وسرّتها الإمبراطورية الرومانية المقدسة[3] إلى حرب دينية عمّقت الشقاق في داخل النسيج الاجتماعي الهش.

وقد سبقت هذه الحرب بتصاعد نبرات الاحتجاج، وبروز صيحات التكّفير من الطرفين، واستخدمت فيها ألوان من الحرب الدعائية والإعلامية، التي مثّلت فيها النشرات والمسرحيات والحكايات وسائل للتعريض بالآخر.

لم يكن هذا السعار اللاهوتي لينتهي بسلام بين المذاهب المتصارعة،

---

(١) نفسه ج٢٩ ص٢٤٤.

(٢) قصة الحضارة ج٣١ص١١١—١١٥.

(٣) تضم ألمانيا والنمسا وبوهيميا وأجزاء من سويسرا وفرنسا.انظر تاريخ الحضارات العام ج٤ص١٤٢.

خاصة بعد أن صارت الحروب الصليبية داخلية، فاليسوعيون نادوا بحرب صليبية جديدة لاسترداد الأراضي الإصلاحية في ألمانيا. وهكذا انقسم العالم النصراني إلى حلفين رئيسين، فالحلف الكاثوليكي ضمّ إضافة إلى روما كلاّ من أسبانيا وبروكسل والإمبراطور الألماني.أما الحلف البروتستانتي فضمّ:انجلترا والدنمارك والسويد والنمسا وبوهيميا ونصف ألمانيا، وفرنسا بسبب عدائها لآل هبسبورج، واشتعلت الحرب الدينية الفظيعة ثلاثين عاما حالكة (١٦١٨– ١٦٤٨م)، وكانت أشنع حرب دمّرت جيلا كاملا في ألمانيا المنقسمة إلى شمال بروتستانتي وجنوب كاثوليكي، والتي تناقص سكانها من واحد وعشرين مليونا إلى خمسة عشر مليونا، أما بوهيميا فكاد سكانها ينقرضون فمن ثلاثة ملايين لم يبق إلا ثمانمائة ألف.

وتسبّبت الحرب الدينية في خراب القرى والمدن[(١)] وانتشار الأوبئة والطاعون حتى أكل الناس القطط والجيف، ووجد الموتى وفي أفواههم الحشيش، ولكثرة القتلى تعفّن الهواء واستحالت الحياة. فمثلا "فرانكفورت" الكاثوليكية ذبحت حاميتها كلها (٢٠٠٠ رجل) سنة(١٦٣١م)، ومدينة "مجدبرج" قاومت ستة عشر شهراً، ثم أبيحت عن آخرها، وقتل فيها ١٧ألفاً من ٣٦ ألف ساكن، وأحرقت الكاتدرائية كلها، وجاء في وصف هذا الدمار: "لم يعد هناك شيء إلا الضرب والحرق والسلب والنهب. وفي حمأة الغضب المسعور اجتاحت ألسنة النيران المدن العظيمة الفخمة التي قامت وسط الأرض كعروس جميلة، وعذب وأعدم الآلاف من الرجال والنساء والأطفال، وسط ضجة رهيبة من صيحات وصرخات تمزّق الفؤاد، بطريقة وحشية مخزية تقصر أية كلمات عن وصفها، وأية دموع عن ندبها والتوجع لها[(٢)].

(١) انظر قصة الحضارة ج٢٩ ص٢٠٦.

(٢) المصدر نفسه ج٢٩ص٢٠٧.

إن أكبر نتيجة لهذه الحرب المجنونة التي لم تشهد أوروبا مثيلا لها – عدا الحربين العالميتين– أنه ولد من رحمها موجة يأس من الحاضر، وشكّ في العقيدة التي استبيحت باسمها الحرمات، وأحرقت المدن، وأزهقت الأرواح. ولعل أكبر خاسر من هذه الحرب الدينية التي اتخذت من أحكام التكفير مطيّة لتبريرها وشرعيتها هو النصرانية نفسها.

ثالثاً: الآثار الفكرية للتكفير في النصرانية:

يمكن إجمال الآثار الفكرية لميراث العصور الوسطى النصرانية في جملة عناصر أهمها سقوط الكنيسة، ثم صعود العلمانية، وشيوع الإلحاد.

أ – سقوط الكنيسة:

لقد كان الإرهاب الفكري والقمع المقنّن الفظيع الذي مارسته المحاكم الكنسية ضد الخارجين عن معتقداتها، أفرادا وجماعات تحت طائلة أحكام التكفير والتجديف والهرطقة، ممّا قاد أوروبا إلى حروب دينية اصطلت بنارها على مدار مائتي عام وخلّفت اهتراء في البنية الاجتماعية والاقتصادية.

ينقل المؤرخون هذه النبوءة للمركيز"دار جنسون" سنة (١٧٥٣م): "قد يكون من الخطأ أن نعزو ضياع الدّين في فرنسا إلى الفلسفة الإنجليزية التي لم تكتسب أكثر من نحو مائة فيلسوف في باريس، بدلا من إرجاعه إلى الكراهية التي أضمرها الفرنسيون لرجال الدّين إلى أقصى الحدود. ستكون الثورة شيئا مختلفا كل الاختلاف عن الإصلاح الديني، وهو خليط مشوّش من الخرافة والحرية جاءنا من ألمانيا، ولما كانت أمّتنا وقرننا قد استنارا بطريقة متباينة كل التباين، فإنهما سيسيران إلى حيث ينبغي لهما أن يسيرا سيطردان رجال الدّين، ويلغيان مهمّة القساوسة، ويتخلّصان من كل الوحي والأسرار الغامضة، فلا يتحدّث المرء في مصلحة رجال الدّين، ولا يساندهم في دوائر المجتمع، إلا كان موضع سخرية واستهزاء، واعتبر جاسوسا لمحاكم التفتيش"[١].

(١) قصة الحضارة ج٣٨ ص٧ –٨.

نعم، إن الحقيقة التاريخية ناطقة بجناية الكنيسة على نفسها، فطوال ألف سنة وهي مهيمنة بشراسة لا مثيل لها على مقاليد الحياة، حتى إن مصائر الملوك والأباطرة كانت تتقرر في دهاليز الفاتيكان، فضلا عن السّيف المصلت على رقاب المخالفين والمتأوّلين والمنشقين، الذين قضوا بنيران محاكم التفتيش ومقاصل دواوين التحقيق، ولا غرابة في أن نجد تراكما أدبيا أوروبيا تنوء بحمله المكتبات من الروايات والمسرحيات والأشعار الناقدة والحاقدة والمتهكّمة على الكنيسة، ورموزها، وتاريخها الأسود. ولم ينبت من رماد المحارق إلا شجرة العلمانية التي سقيت بدماء المرتدين والمهرطقين والمجدّفين.

ب – صعود العلمانية:

لا يمكن للباحث أن يغفل الدور الذي أنجزته الحركة الفكرية المتنامية في عصر النهضة، وخاصة تلك التي ناهضت الكنيسة وميراثها الفكري والقانوني والتي انتهت جهودها إلى إلغاء أحكام التكفير من العالم المسيحي.

فالأسماء التي برزت في القرن السادس عشر والسابع عشر أمثال:

فرانسيس بيكون(١٥٦١–١٦٦٢م)، ورينه ديكارت(١٥٩٦–١٦٥٠م)، وتوماس براون (١٦٠٥–١٦٧٠م)، وسبينوزا (١٦٣٢–١٦٧٧م)، وجون لوك(١٦٣٢–١٧٠٤م) وبيربال (١٦٤٧–١٧٠٦م)، وغيرهم أسهموا في التمهيد لغلق الباب نهائيا أمام التاريخ المظلم للكنيسة(١). هذه الأسماء وما تركته من جهود نقدية أفضت إلى ميلاد الحركة العلمانية المعادية للكنيسة، والتي ظهرت في مذاهب التألهيين والطبيعيين والماديين.

مثّل التألهيون الرافضون للدّين الذروة في نقد النصرانية وكتبها وصفات ثالوثها، ومعجزات قدّيسها، وخوارق رهبانها.

(١) هاشم صالح :مدخل إلى التنوير الأوروبي ص١٤٠.

وتساوقا مع وقائع الثورة العلمية التي سطع فيها نجم "نيوتن"، قالوا بوجود إله مهندس محافظ على القوانين الناظمة للكون، ومن ثم كان رفضهم للمعجزات والخوارق، وقصص العهدين القديم والجديد[1].

أخذ التنويريون على الكنيسة أنها:" تطلب من العقل فوق ما يحتمل، فكيف استطاع آدم الكائن المحدود أن يهين الله إهانة غير محدودة ؟ كيف يمكن التصديق أن الجنس البشري بكليته أصبح مذنبا بفعل خطيئة الإنسان الأولى؟ كيف يمكن تصور إله واحد في ثلاثة أقانيم ؟ إله يتجسّد ؟ وإنسان يقوم من بين الأموات؟[2].

وبرز من هؤلاء المناهضين للميراث الكنسي "توماس بين"(١٧٣٧–١٨٠٩م) صاحب كتاب"عصر العقل" والذي كان مشعلا في تقويض الفكر الكنسي، ممّا تسبّب في إعادة بعث قوانين محاربة التجديف في بريطانيا بين سنتي(١٨٢١–١٨٣٤م)، وكتابه الثاني"حقوق الإنسان" الذي كان ثورة في موضوعه، فاضطرت سلطات بريطانيا إلى حظره، وإصدار قانون يمنع الكتابات الشريرة والهمجية في ٢١ماي١٧٩٢م[3].

لكن الصوت الأكثر اسماعاً في هاته الحركة المعادية للكنيسة وأغلالها الفكرية كان من حظ الأديب الفرنسي فولتير(١٦٩٤– ١٧٧٨م)[4] الذي طفحت كتاباته الأدبية والفلسفية بالتنديد بما آل إليه الوضع الديني في أوروبا. ودارت عطاءاته الفكرية والأدبية حول التسامح الديني ونقد رجال الكنيسة والروح اللاهوتية المتعصّبة، التي أحرقت أوروبا بحروبها الدينية

(١) هاشم صالح:مدخل إلى التنوير الأوروبي، ص ١٣٨.
(٢) تاريخ الحضارات العام(القرن الثامن عشر)ج٥ص٩٠.
(٣) رمسيس عوض: الإلحاد في الغرب ص ١٥٨ – ١٦٠.
(٤) بدوي: موسوعة الفلسفة ج٢ص٢٠١/معجم طرابيشي ص٤٧٣/قصة الفلسفة ص٢٨٤.

ومحارقها المذهبية، وارتفعت صرخته: "اقضوا على الرجس" سنة(١٧٦٢م) [1].

إن الفلسفة الحديثة التي بذر شذرتها ديكارت سرعان ما تفجّرت قنابل شديدة المفعول أتت على التراث الكنسي إلى أن أزاحته من الحياة العامة[2].

إن منهج الشك الديكارتي تولّد أعمالا ناقدة للكتاب المقدس عند سبينوزا، وبيانات نضالية عند فولتير، وأفضى إلى الإلحاد عند جان مسيلييه(١٦٧٨ – ١٧٣٣) [3]، وديدرو (١٧١٣ – ١٧٨٤) [4]، وهولباخ (١٧٢٣–١٧٨٩م) [5]، وقادت الأمور في الأخير إلى تحييد الإكليروس من الهيمنة على مفاصل الحياة الدينية واليومية، وأنهت تبعات الردة، وأحلّت محلها تدابير التسامح مع المتديّنين والملحدين والطبيعيين والتألهيين.

ج– شيوع الإلحاد:

من المعلوم أن الأصوليين الكاثوليك سخروا كلّ إمكاناتهم للتضييق على الخارجين على عقائد ومقررات الكنسية الدينية والعلمية، ولأجل هذا لم تتوقف مكاتب المراقبة الكنسية عن إصدار التحريمات المتوالية ضدّ الأشخاص ومؤلفاتهم العلمية والأدبية والفلسفية المناهضة لمواريث عصور الإيمان، مستعينة بالسلطات الزمنية.

ولأجل هذا انتشرت حرب المنشورات المتبادلة، وحيث إن كل ممنوع مرغوب فيه، فقد كانت وسيلة المنع والمصادرة ذات أثر مضادّ لمراد الكنيسة، فكان الإلحاد والتشكّيك في العقائد يسري في أوروبا سريان النار في الهشيم، نتيجة لشيوع فعل المصادرة والتحريم وغياب الحوار والجدل العلمي.

---

(١) قصة الحضارة ج٣٨ ص ١٩٥.

(٢) حسن حنفي: مقدمة رسالة في اللاهوت والسياسة ص١١.

(٣) قصة الحضارة ج٣٨ص١٠.

(٤) يوسف كرم:تاريخ الفلسفة الحديثة ص١٩٠/معجم طرابيشي ص٢٩٥.

(٥) الحفني:موسوعة الفلسفة ج٢ص١٤٩٠/معجم طرابيشي ص٧١٦.

يصف" دارجنسون" الوضع الثائر ضدّ الكنيسة بقوله:" إن دين الوحي أصبح يتلقى الضربات من كل الجهات، والشيء الذي يثير الشكّاكين أو المرتابين أكثر هو الجهود التي يبذلها العبّاد والنسّاك، ثم بشكل أخص جماعة الجانسيين، إنهم يغضبون ويشتمون ويريدون إقامة محاكم التفتيش على الكتابات والمخطوطات على الأرواح والعقول، إنهم يبالغون في الظلم والتعصّب....إن هذه الرياح المضادّة للنظام الملكي قد أتتنا من جهة إنجلترا، وبما أن الفرنسي يزاود دائما على الأجانب، فإنه يذهب بعيدا أكثر في الوقاحة والسفاهة "[1].

لا تبدو هذه الشهادة ضدّ الكنيسة غريبة إذا استعرضنا قائمة الكتب الممنوعة التي دمغ أصحابها بالردة والتجديف فمثلا :قام برلمان باريس الذي سيْطر عليه الكاثوليك الجانسينيون بتحريم الرسائل الفلسفية لفولتير سنة(١٧٣٤م)، كما أدين كتاب روح لقوانين"لمونتسكيو"سنة(١٧٥٠م)، وكذا كتاب التاريخ الطبيعي للعالم "بوفون"[2]، وحظرت موسوعة "ديدرو" لأنها صارت بؤرة للزندقة والإلحاد[3]، والعهد الجديد "لجان مسيليه"، ورسالة العميان"لديدرو". وكتاب "النصرانية المهتوكة الستر،أو فحص مبادئ الدّين المسيحي وأفاعيله""لهولباخ" سنة(١٧٦٧م)[4]، كما حظرت مقالاته وكتبه مثل"الكنيسة بغير قناع" "القساوة الدينية"، و"تحطيم الجحيم"، و"المسيحية في خطر" التي ذكر فيها:

" أن الديانة هي فن تخدير الناس بالحماسة لتحول بينهم وبين مناهضة

(١) هاشم صالح :مدخل إلى التنوير الأوروبي ص٣٢٢.
(٢) مدخل إلى التنوير الأوروبي ص٣٢٣.
(٣) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص١٩٠.
(٤) طرابيشي: معجم الفلاسفة ص ٧١٧.

المساوئ والمظالم التي يعانونها من حكامهم، وبتهديد الناس بالقوى الخفية استطاعت الكنيسة والدولة أن تفرضا على الناس أن يعانوا وأن يحتملوا في صمت ما يلقون من عنت وشقاء من القوى المرئية، وفرض عليهم أن يأملوا في السعادة في الحياة الآخرة، إذا وافقوا على أن يكونوا بائسين في هذه الحياة الدنيا"[(١)].

وعليه فإن الفتاوى التكفيرية الكنسية وأجهزة الرقابة وأحكام القتل والسجن، أو النفي لم تفد في وقف الحركة العلمانية المعادية، وإنما أدت إلى تسريع وفاة أحكام التكفير من العالم النصراني.

وهكذا كان التعدّد الطائفي والصعود العلماني معجلاً بإنهاء سطوة محاكم التفتيش وسلطة رجال الدّين مما جعل البلدان الثلاثة فرنسا وإنجلترا وألمانيا تتباهى بكثرة التحلّل من الدّين وتتسابق في الثورة على الموروث، وفيها تصاعدت وتيرة الدعوة إلى الإلحاد، وهناك ترعرعت المذاهب المادية، وصارت المفاخرة باللادّين هي السمة الغالبة على مفكري تلك العصور.

ولم تكن هذه النتيجة السلبية إلا من تطرّف الكنيسة في حبس أنفاس الناس ومحاسبتهم على أفكارهم ومتابعة توجّهاتهم، وكان الخاسر الخسارة الكبرى من تلك الهيمنة هو الدّين نفسه، وعليه فإن أوروبا الجديدة والتي أصبحت تحت هيمنة الدّين الجديد دين الحريات المطلقة والاعتقاد نبذت أحكام التكفير والهرطقة وحجرت على الكنائس التي لم تعرف من قبل إلا لغة التكفير ضد مخالفيها. أما الحوار والمراجعة فهي مؤجلة إلى حين.

(١) قصة الحضارة ج٣٨ ص١٢٧، مع العلم أن هذا الكتاب طارده البرلمان والكنيسة معا، فقد حكم على بائع جوال بالتجديف في السفن الشراعية خمس سنوات، وعوقب غلام أعاد بيعه ثانية بتسع سنوات تجديف في السفن الملكية.

الخاتمة

إن الميراث التكفيري بحق وبغير حق كان سمة بارزة للنصرانية في داخل طوائفها ومللها المتعددة، والسبب الأبرز لذلك هو التنكّب عن هدي الله تعالى بالتحريف الذي نال الوحي المنزل، حيث استعيض عن الشريعة السماوية بأقوال الأحبار والرهبان الذين صُيّروا أربابا من دون الله، وهكذا حلت البدعة مكان الدين، وأكل السحت بصكوك الغفران التي طال أمدها واتسع نطاقها باتساع دائرة التكفير لكل مخالف لمعتقدات الكنيسة وأقوال باباوتها الذين لم يكفوا عن مَلْء خزائنهم ببراءات التحريم وأحكام التكفير الفردي والجماعي لكثير من الطوائف القديمة والحديثة. ولأجل ذلك نصبت أعواد المشانق ومنصات المحارق للمخالفين، وحورب العلم، واتهم الكتّاب، وطورد الناقدون للكتاب المقدس المحرف، وزج بالعلماء المشككين في مقالات الكنيسة المناهضة للحقيقة العلمية في السجون، ولم تحسم المعركة إلا بصعود العلمانية في أوروبا وتحييد الكنيسة والإعلاء من شأن حقوق الإنسان. لأن النصرانية المحرفة لن تحمل الخير للبشر، لأنها أقوال البشر القاصرين وليست تنزيلا من الحكيم الحميد.

ولا عجب أن كل المواثيق الحديثة دولية كانت أو إقليمية تصدّرتها مبادئ الحريات، وكان التاريخ المظلم لمحاكم التفتيش ومنصات الحرق قد شكّل هاجسا لا شرطيا وواقعا شرطيا لوجود الإنسان الأوروبي الحديث، وجود لم تتحقّق هويته إلا في الحرية والتحلّل من أغلال الكنيسة والانعتاق من نظمها وفلسفتها. إنها عاقبة التكفير المفرط، دون بينة أو برهان، وعاقبة من نكص عن هدي الله القويم، واختار أن يستعجل الحساب الدياني، ويأتي بالجنة والنار قبل أوانهما، فلم يبؤ إلا بخسارة الدين أمام الإلحاد والتنوير

المظلم بالمادية المحادة لله ورسله، فلن ينتج التكفير إلا الاحتراب المذهبي، الذي تعمى معه الأبصار، فلا ترى إلا الخراب والفناء، إنها عاقبة الأخسرين الضالين عن دين الله الخاتم ورسوله الهادي إلى الصراط المستقيم.

نتائج البحث:

يمكننا أن نخلص من هذا البحث المتعلق بالتكفير في داخل الديانة النصرانية المحرفة. والذي يتناول جذور التكفير من خلال قراءة نصوص العهدين القديم والجديد، وقرارات المجامع المسكونية، وتطبيقات ذلك عند الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى التي سميت بعصور الإيمان، وآثار ذلك في بدايات عصر النهضة الأوروبية إلى ما يأتي:

١- أن التحريف الذي أصاب الكتب المقدسة، والانحراف الذي آلت إليه الديانة النصرانية جعل من مساحات التكفير والتبديع أصلا لا استثناء له في تعامل الطوائف النصرانية فيما بينها.

٢- أن البدعة والابتداع في داخل الدين، والعدول عن الوحي ووصايا الأنبياء المرسلين إلى أقوال الأحبار والرهبان الذين صُيّروا أربابا من دون الله، جعل من الشرائع المبتدعة وسيلة للصد عن الدين الحقيقي. وكانت النتيجة هي صعود العلمانية وشيوع الإلحاد في أوروبا المعاصرة.

٣- أن غياب الحوار والنقاش كان السمة المميزة للثقافة النصرانية، وهذا جعل لغة التكفير هي السائدة بين الكنائس النصرانية، وهو ما أدى بها إلى الاحتراب والقطيعة واستباحة الدماء والأعراض، وشواهد ذلك معروفة في الحروب الدينية التي صليت بها أوروبا مائتي عام.

٤- أن لغة المتطرفين واحدة في كل ديانة، فكما وجد التكفير الجماعي في النصرانية، كان مثيله في المجتمعات الإسلامية في حركات الخوارج والباطنية.وكما وجد التقتيل الجماعي للأصول والفروع في النصرانية،

فقد كان مثيله في ما يعرف عند الخوارج بالاستعراض، وفي قتل الغيلة عند الشيعة الباطنية.

٥- إن التكفير غير البين، والقسوة والعنف في التعامل مع المخالفين سيذهب بقيمة الدين ذاته، من حيث صعود العلمانية وشيوع الإلحاد والتحلل من الأخلاق، إذا كان الدين لا يضمن لأتباعه السلم الاجتماعي ولأهله الحرية الفكرية.

٦- العالم اليوم في حاجة شديدة لقراءة متبصرة بالتاريخ الأوروبي الوسيط، ولأفعال الكنيسة التي جنت على الأديان كلها بسبب ثقافتها التكفيرية المعادية للعلم، مما جعل الهيئات الأممية المعاصرة تصوغ القوانين والمواثيق الدولية والإقليمية والفئوية لحقوق الإنسان بعيدا عن هدي الله رب العالمين.

٧- وجوب قراءة فكر الجماعات التكفيرية المتطرفة في داخل الديانات، ومقارنة عقائدها وسلوكاتها لإبراز خطر الابتداع في الدين، إذ لم يكن الضلال والانحراف إلا بسبب البدعة في الدين، والزيادة في الشريعة، فكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن الأثيرعزالدين: الكامل في التاريخ، ط٦، بيروت.دار الكتاب العربي.د.ت.
- أبو خليل شوقي: التسامح في الإسلام المبدأ والتطبيق، ط١، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٣.
- أبو زهرة محمد: محاضرات في النصرانية، الحزائر، دار الشهاب، ١٩٨٩.
- البارمحمد علي: المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، ط١، دمشق، دار القلم، – بيروت، الدار الشامية، ١٩٩٠.
- بدوي عبد الرحمن:موسوعة الفلسفة، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١.
- بشتاوي عادل سعيد: الأمة الأندلسية الشهيدة، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠م.
- بن ميمون موسى: دلالة الحائرين، ط١، بيروت، المكتبة العلمية، ٢٠٠٧.
- البهي محمد: الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، ط٢، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٤.
- بيصار محمد: في فلسفة ابن رشد الوجود والخلود، ط، بيروت، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٣.
- بيوري جون:حرية الفكر(ترجمة محمد عبد العزيزاسحاق) مصر، لجنة القاهرة للتأليف والنشر. دت.
- تشينسكي(يان دوبار):أصداء الزمن الكنيسة وصراع الوجود، ط١، دمشق، دار الحصاد، ١٩٩٥.
- الجابري محمد عابد:في نقد الحاجة إلى الإصلاح.ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥.
- جنيبير شارل:المسحية نشأتها وتطورها(ترجمة عبد الحليم محمود)، صيدا، المكتبة العصرية.د–ت.

- جيمس وليم:إرادة الاعتقاد(ترجمة محمود حسب الله)، مصر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٦
- الحفني عبد المنعم:موسوعة الفلسفة والفلاسفة، ط٢، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٩.
- الخضيري زينب محمود:أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى، ط١، بيروت، دارالتنوير، ٢٠٠٧.
- ديورانت ول: قصة الحضارة.ترجمة المنظمة العربية للثقافة والعلوم، ط١، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٨
- ديورانت ول:قصة الفلسفة(ت فتح الله محمد المشعشع)ط٥، بيروت، مكتبة المعارف، ١٩٨٥م.
- زيتون عادل:العلاقات الكنسية والسياسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، ط١، دمشق، دار دمشق، ١٩٨٠.
- سخيطة بسام:قصة محاكم التفتيش في العالم.ط١. دمشق دار يايا.٢٠٠٠
- سينوزا :رسالة في اللاهوت والسياسة (ت حسن حنفي)ط٢، القاهرة، مكتبة الانجلومصرية، ١٩٨١
- الشرفي عبد المجيد :الفكر الإسلامي في الرد على النصارى. تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٦.
- شلبي عبد الودود :الإسلام وخرافة السيف، ط١، القاهرة، مؤسسة الخليج العربي، ١٩٨٧.
- صالح هاشم: مدخل إلى التنوير الأوروبي.ط١، بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠٥.
- طرابشي جورج: معجم الفلاسفة، ط٢، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٧.
- الطويل توفيق: قصة الاضطهاد الديني بين الإسلام والمسيحية.ط١، القاهرة، دارالكتاب العربي، ١٩٤٧.
- ظاظا حسن: الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه.ط٤، دمشق، دار القلم، ١٩٩٩.
- عبد الجبار القاضي:تثبيت دلائل النبوة، ط١، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية–د، ت.
- عبده محمد :الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية، الجزائر، موفم للنشر، ١٩٩٠.

- العريني السيد الباز: تاريخ الدولة البيزنطية، ط١، بيروت، دار النهضة العربية–د، ت
- العقيقي نجيب:المستشرقون، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠ ج١ص٢٥٠و٢٦٨.
- العهد القديم والجديد.ط. قسم جي.سي. مصر الجديدة سنة ١٩٩٥.
- عوض رمسيس: الإلحاد في الغرب، ط١، القاهرة، دار سينا، ١٩٩٧
- عوض رمسيس: الهرطقة في الغرب، ط١، القاهرة، دارسينا، ١٩٩٧.
- الغزالي محمد: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ط٣، القاهرة، دار نهضة مصر، ٢٠٠٣.
- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠.
- قسوم عبد الرزاق: مفهوم الزمان في فلسفة ا بن رشد، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٥.
- قنواتي جورج و لويس غردية:فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية.(ترجمة الدكتور صبحي الصالح والدكتور فريد جير)ط١، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٨.
- كرم يوسف:تاريخ الفلسفة الحديثة، بيروت، دار القلم (د ت).
- كروزيه موريس:تاريخ الحضارات العام، ط٢، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٨٧.
- لوثرمارتن:اليهود وأكاذيبهم(ترجمة محمود النجيري)، ط١، الجيزة، مكتبة النافذة، ٢٠٠٦.
- لوك جون: رسالة في التسامح (ت–عبد الرحمن بدوي)ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي.١٩٨٨
- المسيري عبد الوهاب:موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. ط١، القاهرة، دارالشروق، ١٩٩٩.
- المطعني عبد العظيم:الإسلام في مواجهة الإيديولوجيات المعاصرة. ط١، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٨٧
- مهران محمد بيومي:بنو إسرائيل، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩
- ويلتر جون:الهرطقة في المسيحية (ترجمة جمال سالم)ط١، بيروت، دار التنوير، ٢٠٠٧.

ظاهرة التكفير .. الأسباب والعلاج والآثار

الجذور التاريخية لظاهرة التكفير عند المسلمين

د. رشيد بن حسن محمد علي

الأستاذ المشارك بجامعة الملك خالد

كلية الشريعة وأصول الدين، أبها

الجذور التاريخية لظاهرة التكفير عند المسلمين

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد:

فإن التكفير غير المنضبط بضوابط الشرع الحنيف ظاهرة قديمة نشأت أول ما نشأت في فجر الإسلام على يد الخوارج الذين كفروا أهل القبلة بالذنوب أو بما يرونه من الذنوب، واستحلوا لذلك دماء المسلمين، فكانوا كما نعتهم المصطفى ﷺ "يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان"[(1)]. ثم وافقهم في الجرأة على التكفير الرافضة حيث كفروا أبا بكر وعمر وعثمان وعامة المهاجرين والأنصار، وكفروا جماهير أمة الإسلام من المتقدمين والمتأخرين، وكان من شنائع هاتين الطائفتين ما يقض المضاجع ويُشيب الرؤوس، وما ذاك إلا بأسباب الجهل بأحكام الدين ودلالات النصوص، اتباع الهوى، والغلو في الدين، ووقوع كثير منهم في شرك الكائدين للإسلام وأهله، مع ما صاحب ذلك من فرط اعتدادهم بأنفسهم، وبما تمليه عليهم عقولهم التي تلاعب بها إبليس، حيث أوقعهم في شراكه، ولبس عليهم بشبهات مصدرها الاستبداد بالرأي، في مقابلة النص واختياره الهوى في معارضة الأمر ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [٤٠سورة النور].

وقد أحببت أن أسهم ولو – بجهد المقل – في إيضاح الجذور التاريخية لهذه الظاهرة لدى المسلمين من خلال تاريخ هاتين الطائفتين (الخوارج والشيعة)

---

(١) صحيح مسلم، ترتيب وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي، حديث رقم ١٠٦٤، ج٢ ص ٧٤١ ـ ٧٤٢ .

وذلك في ضوء خطة البحث الآتية:

تمهيد.

المبحث الأول: التكفير لدى الخوارج في مطلبين.

- المطلب الأول: نشأة الخوارج.
- المطلب الثاني: قولهم بالتكفير.

المبحث الثاني: التكفير لدى بعض طوائف الشيعة في مطلبين:

- المطلب الأول: نشأة الشيعة.
- المطلب الثاني: قولهم بالتكفير.

الخاتمة .

وسيكون منهج البحث بعون الله هو المنهج الوصفي التحليلي مستنداً على ما ورد من النصوص والنقول والأقوال في هذه المسألة، وتحريرها في ضوء المطالب المتقدمة.

سائلين الله تعالى أن يمدّنا بعونه وتوفيقه، وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم إنه تعالى سميع قريب مجيب.

تمهيـــــد

يحسن بنا قبل أن نتناول ما نحن بصدده من الحديث عن نشأة كل من فرقتي الخوارج والشيعة وما عرف عنهما من الآراء في التكفير أن نشير إلى ما ورد في تعريف كل منهما في اللغة والاصطلاح.

أولاً: التعريف بالخوارج:

أ ـ التعريف بالخوارج في اللغة:

جاء في لسان العرب مادة " خرج ": الخروج: نقيض الدخول، خرج يخرُج خُروجاً ومَخرجاً، فهو خارج وخَروج وخَرّاج....، وخرجت خوارج فلان إذا ظهرت نجابته، وتوجّه لإبرام الأمور وإحكامها....

والخوارج الحرورية؛ والخارجية " طائفة لزمهم هذا الاسم لخروجهم عن الناس، والخوارج قوم من أهل الأهواء لهم مقالة على حدة"[1].

ب ـ التعريف بالخوارج اصطلاحاً:

وأما في الاصطلاح فقد اختلفت الآراء في تعريفهم تبعاً لاختلاف صفاتهم وخصائصهم حيث يضع بعضهم تعريفاً عاماً يشمل الفرقة التاريخية المعروفة، ويشمل غيرها من الفرق التي اشتركت معها في الخروج على الإمام في أي زمان، كما عرفهم بذلك الشهرستاني [ت ٥٤٨هـ] حيث قال: (كل من خرج على الإمام الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين؛ أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان)[2].

(١) لسان العرب، ٢٤٩/٢ ـ ٢٥١، وانظر المعجم الوسيط ٢٢٤/١ ـ ٢٢٥.

(٢) الملل والنحل، ١١٤/١.

بينما خصّ بعضهم الخوارج بالطائفة الذين خرجوا على الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ في حروراء ومن نشأ منهم بعد ذلك[1].

ج ـ ألقاب الخوارج:

جاء في مقالات الإسلاميين: (وللخوارج ألقاب فمن ألقابهم الوصف بأنهم "خوارج" ومن ألقابهم " الحرورية " ومن ألقابهم " الشراة " و" الحرارية " ومن ألقابهم "المارقة" ومن ألقابهم " المحكمة " وهم يرضون بهذه الألقاب كلها إلا المارقة فإنهم ينكرون أن يكونوا مارقة من الدين كما يمرق السهم من الرمية، والسبب الذي له سمو " خوارج " خروجهم على علي بن أبي طالب، والذي له سموا " محكمة " إنكارهم الحكمين، وقولهم: لا حكم إلا لله، والذي له سموا " حرورية "نزولهم بحروراء في أول أمرهم، والذي له سمو " شراة " قولهم: شرينا أنفسنا في طاعة الله أي بعناها بالجنة)[2].

ثانياً: التعريف بالشيعة:

أ ـ التعريف بهم لغة:

قال الأزهري (ت ٣٧٠هـ) : والشيعة أنصار الرجل وأتباعه، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة. والجماعة شيع وأشياع .

وقال الجوهري (ت ٤٠٠هـ) تشيّع الرجل أي: (ادعى دعوى الشيعة، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيع)[3].

وقال ابن منظور (ت ٧١١): (والشيعة القوم الذين يجتمعون على الأمر، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة. وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيع.... والشيعة أتباع الرجل وأنصاره وجمعها شيع، وأشياع

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٨،٤٧٠.

(٢) مقالات الإسلاميين، ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٣) الصحاح ٣،١٢٤٠ .

جمع الجمع.... وأصل الشيعة الفرقة من الناس، ويقع هذا على الواحد والإثنين والجمع المذكر والمؤنث بلفظ واحد(١).

ب ـ تعريف الشيعة اصطلاحاً:

١ ـ في مصادر الشيعة:

يعرف شيخ الشيعة سعد بن عبدالله القمي (٣٠١هـ) الشيعة بقوله:(هم فرقة علي بن أبي طالب المسمون شيعة علي في زمان النبي –ﷺ– وبعده، معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته)(٢).

ويوافقه على ذلك شيخهم الحسن بن موسى النونجتي (ت بعد ٣٠٠هـ)(٣).

ويرى الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) وهو من أعلام الشيعة الإمامية أن لفظ الشيعة إذا أدخل فيه علامة التعريف فهو على التخصيص لا محالة لأتباع أمير المؤمنين صلوات الله عليه على سبيل الولاء والاعتقاد بإمامته بعد الرسول صلوات الله عليه وآله بلا فصل)(٤).

٢ ـ في غير المصادر الشيعية:

وأما في المصادر غير الشيعية التي عنيت بدراسة الفرق فيعرفهم الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين بقوله: (إنما قيل لهم: الشيعة لأنهم شايعوا علياً – رضوان الله عليه – ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله – ﷺ –) (5).

وعرفهم ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) بقوله: (ومن وافق الشيعة في أن علياً – رضي الله عنه – أفضل الناس بعد رسول الله – ﷺ – وأحقهم بالإمامة وولده

(١) لسان العرب ١٨٨،٨ـ ١٨٩..
(٢) المقالات والفرق ص ٣..
(٣) فرق الشيعة ١٧، ٢.
(٤) أوائل المقالات ٢ ـ٤.
(٥) مقالات الإسلاميين ص ٥

من بعده فهو شيعي، وإن خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون، فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعياً)[1].

ويختار هذا التعريف بعض الروافض ويعتبره من أدق التعاريف للشيعة فيقول: (ومما حدانا إلى تفضيل تعريف ابن حزم أن الاعتراف بأفضلية الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ على الناس بعد رسول الله، وأنه الإمام والخليفة بعده، وأن الإمامة في ذريته هو أس التشيع وجوهره)[2].

وأما الشهرستاني (ت ٥٤٨) فيعرفهم بقوله: (الشيعة هم الذين شايعوا علياً رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية، إما جلياً وإما خفياً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم من غيره، أو بتقية من عنده، وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة، وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين، لا يجوز للرسل عليهم الصلاة والسلام إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله، يجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر، والقول بالتولي والتبري قولاً وفعلاً، وعقداً، إلا في حال التقية، ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك)[3].

التعريف الراجح:

ويرجح الباحث الدكتور ناصر القفاري وهو من له عناية متميزة بدراسة أصول مذهب الشيعة الإمامية أن تعريف الشيعة مرتبط أساساً بأطوار نشأتهم، ومراحل التطور العقدي لهم، ذلك أن الملحوظ أن اعتقاد الشيعة وأفكارها في تغيّر وتطور مستمر، فالتشيع في العصر الأول غير التشيع فيما

(١) الفصل بهامشه الملل والنحل، ٢،٨٩ ـ ٩٠.
(٢) انظر تاريخ الإمامية: عبدالله فياض، ص ٣٣.
(٣) الملل والنحل ١،١٤٦ ـ ١٤٧.

بعده، ولهذا كان في الصدر الأول لا يسمى شيعياً إلا من قدم علياً على عثمان، ولذلك قيل: شيعي وعثماني، فالشيعي من قدّم علياً على عثمان، والعثماني من قدم عثمان على علي. وهم وإن سموا بالشيعة فهم من أهل السنة لأن مسألة عثمان وعلي ليستا من الأصول التي يُضلل المخالف فيها، وإن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان[1].

ثم نبه إلى ما يُلحظ على تعريفات الشيعة الواردة في معظم كتب المقالات من أنها دأبت على القول في التعريف للشيعة الأمامية بأنهم أتباع علي.... الخ، قال: وهذا يؤدي إلى نتيجة خاطئة تخالف إجماع الأمة كلها. هذه النتيجة هي أن يكون علي شيعياً يرى ما يراه الشيعة فيه وفي بنيه، ولذلك لا بد من وضع قيد واحتراز في التعريف رفعاً للإبهام فيقال: هم الذين يزعمون اتباع علي، حيث أنهم لم يتبعوا علياً على الحقيقة، وليس أمير المؤمنين على ما يعتقدون. أو يقال: بأنهم المدّعون التشيع لعلي، أو الرافضة، ولذلك عبر عنهم بعض أهل العلم بقوله: " الرافضة المنسوبون إلى شيعة علي[2]". فهم أيضاً ليسوا على منهج شيعة علي المتبعين له، بل هم أدعياء ورافضة[3].

(١) أصول مذهب الشيعة الإمامة ١،٦٤ بتصرف..

(٢) منهاج السنة النبوية ٣،٣٨٩..

(٣) أصول مذهب الشيعة الإمامية ١،٦٨ ـ ٦٩.

المبحث الأول
التكفير لدى الخوارج

المطلب الأول
نشأة الخوارج

اختلفت آراء الباحثين والمؤرخين حول أصل النشأة لطائفة الخوارج في الإسلام، وسنورد أهم الآراء التي قيلت في ذلك والراجح منها.

الرأي الأول: " **رجوع النسبة إلى عهد النبي – ﷺ –** "

ويستند أصحاب هذا القول إلى ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما في ذلك

فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: بعث علي رضي الله عنه وهو باليمن بذهبة في تربتها إلى رسول الله – ﷺ – فقسمها رسول الله – ﷺ – بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس الحنظلي، وعُيينة بن بدر الفزاري، وعلقمة بن عُلاثة العامري، ثم أحد بني كلاب، وزيد الخير الطائي، ثم أحد بني نبهان. قال: فغضبت قريش. فقالوا: أيعطي صناديد نجد ويدعنا؟ فقال رسول الله – ﷺ – " إني إنما فعلت ذلك لأتألفهم " فجاء رجل كث اللحية مشرف الوجنتين. غائر العينين ناتئ الجبين، محلوق الرأس. فقال: اتق الله. يا محمد! قال: فقال رسول الله ﷺ " فمن يطع الله إن عصيته! أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني " قال: ثم أدبر الرجل. فأستأذن رجل من القوم في قتله، (يرون أنه خالد ابن الوليد) فقال: رسول الله ﷺ: " إن من ضئضئ هذا قوماً يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم. يقتلون أهل الإسلام. ويدعون أهل الأوثان يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة. لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل

عاد"[1].

قال النووي – رحمه الله – (ت ٦٧٧هـت) في شرحه (قوله ﷺ " إن من ضئضئ هذا قوما " هو بضادين معجمتين مكسورتين وآخره مهموز، وهو أصل الشيء وهكذا هو في جميع نسخ بلادنا ن وحكاه القاضي عن الجمهور وعن بعضهم أن ضبطه بالمعجمتين والمهملتين جميعاً، وهذا صحيح في اللغة قالوا: ولأصل الشيء أسماء كثيرة منها الضئضئ بالمعجمتين والمهملتين)[2]

وليس المراد هنا – والله أعلم – أنهم سيكونون من ذريته وإنما ا المراد أنهم على شاكلته وصفته، قال الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ): (وليس المراد به أنه يخرج من صلبه ونسله، لأن الخوارج الذين ذكرنا لم يكونوا من سلالة هذا، بل ولا أعلم أحداً منهم من نسله، وإنما المراد " من ضئضئ هذا " أي من شكله وعلى صفته فعلاً وقولاً والله أعلم)[3].

وقد ورد أن هذا الرجل الذي خاطب النبي – ﷺ – هو عبدالله بن ذي الخويصرة وأنه من بني تميم، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد قال: (بينا النبي ﷺ يقسم جاء عبدالله بن ذي الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه، قال: دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في قُذذه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رِصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيّه فلا يوجد فيه شيء،

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث رقم ١٠٦٤، ج٢،٧٤١-٧٤٢.

(٢) انظر شرح النووي على صحيح مسلم ٧،١٦٢، ولسان العرب ١،١١٠..

(٣) البداية والنهاية ١٠،٦١٨.

قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل إحدى يديه، أو قال ثدييه، مثل ثدي المرأة، أو قال: مثل البضعة تَدردرُ يخرجون على حين فرقة من الناس.

قال أبو سعيد: أشهد سمعت من النبي ﷺ، وأشهد أن علياً قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ قال: فنزلت فيه ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [٥٨ سورة التوبة][(١)].

وتشير بعض المصادر إلى أن ذا الخويصرة هذا هو حرقوص بن زهير السعدي الذي ذكره الطبري في الصحابة وذكر أنه كان له في فتوح العراق أثر، وأنه الذي افتتح سوق الأهواز ثم كان مع علي في حروبه ثم صار مع الخوارج فقتل معهم[(٢)].

قال ابن حجر: (وزعم بعضهم أنه ذو الثدية.... وليس كذلك) [(٣)].

وذهب ابن الجوزي إلى أنه (أول خارجي في الإسلام، وآفته أنه رضي برأي نفسه، ولو وقف لعلم أنه لا رأي فوق رأي النبي ﷺ)[(٤)] وقد استشكل ما رواه الإمام أحمد في مسنده وغيره من أن ذا الخويصرة. هو الذي اعترض على النبي ﷺ بقوله: " لم أرك عدلت " في قسمة غنائم حنين[(٥)]. وهذه القسمة لغنائم حنين روى قصتها مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه، ولم يصرح فيها باسم المعترض[(٦)].

ومن المعلوم تفاوت الحدثين في زمان وقوعهما، فإن حديث جابر عند مسلم

(١) أخرجه البخاري بصحيحه بشرحه الفتح، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب ترك قتال الخوارج للتألف، حديث ٦٩٣٣ ج٢٩٠، ١٢.

(٢) انظر الإصابة بهامشه الاستيعاب ٣٢٠، ١ وفتح الباري ٢٩٢، ١٢.

(٣) انظر فتح الباري.٢٩٢، ١٢.

(٤) تلبيس إبليس ص ٩٠.

(٥) مسند الإمام أحمد، حديث رقم ٧٠٣٨، ج٦١٣، ١١ - ٦١٤ وحسن إسناده المحقق.

(٦) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث ١٠٦٣ ج٧٤٠، ٢..

يحكي قصة قسمته الغنائم في حنين، وقد كان ذلك عند منصرفه ﷺ من الجعرانة وكان ذلك في ذي القعدة سنة ثمان، وكان قسمة النبي ﷺ فيها فضة كانت في ثوب بلال وكان يعطي كل من جاء منها، والقصة التي في حديث أبي سعيد كانت بعد بعث علي إلى اليمن وكان ذلك في سنة تسع وكان المقسوم فيها ذهباً خصّ به أربعة، قال ابن حجر: (فهما قصتان في وقتين اتفق في كل منهما إنكار القائل، وصرح في حديث أبي سعيد أنه ذو الخويصرة التميمي، ولم يسمّ القائل في حديث جابر، ووهم من سمّاه ذا الخويصرة ظاناً اتحاد القصتين، ووجدت لحديث جابر شاهداً من حديث عبدالله بن عمر و بن العاص عن النبي ﷺ أنه أتاه رجل يوم حنين وهو يقسم شيئاً فقال: يا محمد اعدل ولم يسم الرجل أيضاً، وسماه محمد بن إسحاق بسند حسن عن عبدالله بن عمر، وأخرجه أحمد والطبري أيضاً ولفظه " أتى ذو الخويصرة التميمي رسول الله ﷺ وهو يقسم الغنائم بحنين، فقال: يا محمد " فذكر نحو الحديث المذكور فيمكن أن يكون تكرر ذلك منه في الموضعين عند قسمة غنائم حنين وعند قسمة الذهب الذي بعثه علي)[1].

(وقد كان حرقوص هذا أحد الرؤوس التي دبرت الفتنة وشاركت في المؤامرة ضد الخليفة عثمان، إذ كان يقود ثوار البصرة، كما أنه كان من قادة الخوارج الذين انشقوا على علي بن أبي طالب، بعد معركة صفين وكان من أشدّ الخوارج على علي – رضي الله عنه – وجادل علياً لقبوله التحكيم الذي اعتبره خطيئة وذنباً، وطالب علياً بالتوبة منه، وكان حرقوص مع الخوارج الذين قاتلهم علي وقتل في معركة النهروان سنة سبع وثلاثين)[2].

الرأي الثاني: السبئية:

(١) انظر فتح الباري ٢٩١،١٢.

(٢) دراسة عن الفقر في تاريخ المسلمين ـ الخوارج والشيعة، ص ٥٥. وانظر تاريخ الطبري، ٧٢،٥.

يذهب بعض كتاب الفرق والمؤرخين إلى أن للسبئية بزعامة عبدالله بن سبأ[1]. أثراً ظاهراً في نشأة الخوارج مستندين في ذلك إلى روايات أوردها الطبري (ت ٣١٠هـ) ذكر فيها أن بعضاً من زعماء الخوارج اشتركوا في مقتل عثمان رضي الله عنه وأن كثيراً ممن كان مع علي رضي الله عنه في موقعة الجمل بذلوا جهوداً مضنية لإثارة الفتنة وعدم الصلح بين الفريقين حتى لا يؤاخذوا على اشتراكهم في مقتل عثمان رضي الله عنه[2]. ومما يعضد القول بهذا ما نقل عن بعضهم من الثناء على قتلة عثمان رضي الله عنه.

فهذا رأس الأزارقة نافع بن الأزرق لم يكتف بالخروج على عثمان بل ورد في سياق كلامه مدح قاتليه ففي كتابه إلى عبدالله بن الزبير يقول (وقد حضرت عثمان يوم قتل، فلعمري لئن كان قتل مظلوماً لقد كفر قاتلوه وخاذلوه، وإن كان قاتلوه مهتدين ـ وإنهم لمهتدون ـ لقد كفر من تولاه ونصره)[3].

ويشير بعض الباحثين إلى: (أن العلائق الوثيقة الخطيرة بين رؤوس الخوارج الأول وبين ابن سبأ وأنصاره تجعلنا نميل إلى أن حركة الخوارج قد نمت وترعرعت في أحضان السبئية، وأنها إحدى ولائدها التي كانت تعمل في الظلام حتى تهيأت لها الفرصة المواتية، فخرجت إلى ميدان العمل العلني بعد التحكيم. وأما ما لاحظه فلهوزن من أن الخوارج كانوا يشنعون على خصومهم من الشيعة ويرمونهم بالسبئية، فقد كان ذلك بعد أن تمّ الطلاق

(١) عبدالله بن سبأ رأس الطائفة السبئية، كانت تقول بإلوهية علي رضي الله عنه، أصله من اليمن، كان يهودياً وأظهر الإسلام، دخل دمشق أيام عثمان، وأخرجه أهلها، فجهر ببدعته بمصر، وكان يقول بالرجعة، انظر (لسان الميزان ٣،٢٨٩، الأعلام ٤،٨٨).

(٢) تاريخ الأمم والملوك ٢،٦٤٧، وانظر أثر الخوارج في الفكر الإسلامي، ص ٥٨ ـ ٥٩..

(٣) العقد الفريد ٢،٢١١.

الحاسم بين الفريقين وبخاصة حين رضي شيعة علي بمقاتلة الخوارج تحت راية الأمويين)[1].

الرأي الثالث: حادثة التحكيم:

يذهب كثير من مؤرخي الفرق إلى أن حادثة التحكيم كانت السبب الرئيس في ظهور الخوارج. وتتلخص قصة التحكيم في أنه لما اشتد القتال بين جيش علي رضي الله عنه وجيش معاوية في صفين - (موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات) - وكانت الغلبة لجيش العراق، رُفعت المصاحف من أهل الشام، ودعوا إلى الصلح وتفرقوا على أن تجعل كل طائفة أمرها إلى رجل، حتى يكون الرجلان يحكمان بين الفريقين بالحق، فكان من جهة علي أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، ومن جهة معاوية عمرو بن العاص رضي الله عنه، فاجتمعا في عصبة كريمة من الناس. فقال عمرو لأبي موسى الأشعري: ما ترى في هذا الأمر. قال: أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ. قال: فأين تجعلني أنا ومعاوية ؟ قال: إن يُستعن بكما ففيكما معونة، وإن يُستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما. قال: فكانت هي التي فتل معاوية منها نفسه[2].

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله [ت ٧٧٤هـ] أنه جاء في كتاب المصالحة والتحكيم ما نصه: (هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى علي على أهل العراق ومن معهم من شيعتهم والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معه من المؤمنين والمسلمين أنا ننزل عند حكم الله وكتابه، ونحيي ما أحيا الله، عز وجل، ونميت ما أمات الله، فما وجد الحكمان في كتاب الله - وهما أبو موسى الأشعري وعمرو بن

(١) الخوارج في العصر الأموي، ٥٩، وانظر الخوارج والشيعة لفلهوزن، ص ٢٥..

(٢) انظر العواصم من القواصم، ١٤٠، ١-١٤٣.

العاص ـ عملا به، وما لم يجدا في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة، ثم أخذ الحكمان من علي ومعاوية من الجندين العهود والمواثيق على أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه ويتفقان، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كليهما عهد الله وميثاقه أنهم على ما في هذه الصحيفة، وأجلا القضاء إلى رمضان، وإن أحبا أن يؤخرا ذلك على تراض منهما، وكتب في يوم الأربعاء لثلاث عشرة دخلت من صفر سنة سبع وثلاثين على أن يوافي علي ومعاوية موضع الحكمين بدومة الجندل في رمضان، ومع كل واحد من الحكمين أربعمائة من أصحابه فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا في العام المقبل بأذرح)[1].

ثم ذكر ابن كثير أن الأشعث بن قيس مر على ملأ من بني تميم فقرأ عليهم الكتاب فقام عليه عروة بن أدية (وهي أمه) ـ وهو عروة بن حدير من بني ربيعة بن حنظلة فقال: أتحكمون في دين الله الرجال ثم ضرب بسيفه عجز دابة الأشعث فغضب الأشعث وقومه، وجاء الأحنف بن قيس وجماعة من رؤساء بني تميم يعتذرون إلى الأشعث من ذلك..... قال ابن كثير: (وقد أخذ هذه الكلمة من هذا الرجل طوائف من أصحاب علي من القراء وقالوا: إن الحكم إلا لله فسموا المحكمية)[2].

قال ابن كثير رحمه الله: (والحكمان كانا من خيار الصحابة.... وإنما نصبا ليصلحان بين الناس، ويتفقا على أمر فيه رفق بالمسلمين، وحقن لدمائهم، وكذلك وقع. ولم يضل بسببهما إلا فرقة الخوارج حيث أنكروا على الأميرين التحكيم، وخرجوا عليهما وكفروهما)[3].

---

(١) البداية والنهاية ٧، ٣٠٧، وانظر الكامل في التاريخ ٣،١٦٣.

(٢) البداية والنهاية ٧، ٣٠٨.

(٣) البداية والنهاية ٦،٢٤١.

وقد ذكر المنصفون أن ما جرى بين علي ومعاوية رضي الله عنهما كان مبنياً على اجتهاد كل من الفريقين في إصابة الحق فمجتهد مخطئ ومجتهد مصيب

قال الغزالي ـ رحمه الله ـ (ت ٥٠٥هـ): (واعتاد أهل السنة تزكية جميع الصحابة والثناء عليهم كما أثنى الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ. وما جرى بين معاوية وعلي رضي الله عنهما كان مبنياً على الاجتهاد لا منازعة من معاوية في الإمامة، إذ ظنّ علي رضي الله عنه أن تسليم قتلة عثمان مع كثرة عشائرهم واختلاطهم بالعسكر يؤدي إلى اضطراب أمر الإمامة في بدايتها فرأى التأخير أصوب، وظنّ معاوية أن تأخير أمرهم مع عظم جنايتهم يوجب الإغراء بالأئمة ويعرض الدماء للسفك. وقد قال أفاضل العلماء: كل مجتهد مصيب. وقال قائلون: المصيب واحد، ولم يذهب إلى تخطئة علي ذو تحصيل أصلاً)[1].

وقال ابن تيمية – رحمه الله – [ت ٧٢٨هـ] : (ومعاوية لم يدع الخلافة، ولم يبايع له بها حين قاتل علياً، ولم يقاتل على أنه خليفة، ولا أنه يستحق الخلافة، ويقرون له بذلك، وقد كان معاوية يقر بذلك لمن سأله عنه، ولا كان معاوية وأصحابه يرون أن يبتدوا علياً وأصحابه بالقتال، ولا يعلوا.

بل لما رأى علي رضي الله عنه وأصحابه أنه يجب عليهم طاعته ومبايعته، إذ لا يكون للمسلمين إلا خليفة واحد، وأنهم خارجون عن طاعته يمتنعون عن هذا الواجب، وهم أهل شوكة رأى أن يقاتلهم حتى يؤدوا هذا الواجب فتحصل الطاعة والجماعة.

وهم قالوا: إن ذلك لا يجب عليهم، وأنهم إذا قوتلوا على ذلك كانوا

(١) إحياء علوم الدين ١١٥،١.

مظلومين، قالوا: لأن عثمان قتل مظلوماً باتفاق المسلمين، وقتلته في عسكر علي، وهم غالبون لهم شوكة، فإذا بايعنا ظلمونا واعتدوا علينا. وعلي لا يمكنه دفعهم، كما لم يمكنه الدفع عن عثمان، وإنما علينا أن نبايع خليفة يقدر على أن ينصفنا ويبذل لنا الإنصاف.

وكان في جهال الفريقين من يظن بعلي وعثمان ظنوناً كاذبة، برأ الله منها علياً وعثمان، كأن يظن بعلي أنه أمر بقتل عثمان، وكان علي يحلف وهو البار الصادق بلا يمين أنه لم يقتله، ولا رضي بقتله، ولم يمالىء على قتله، وهذا معلوم بلا ريب من علي رضي الله عنه. فكان أناس من محبي علي ومن مبغضيه يشيعون ذلك عنه: فمحبوه يقصدون بذلك الطعن على عثمان بأنه كان يستحق القتل، وأن علياً أمر بقتله، ومبغضوه يقصدون بذلك الطعن على علي، وأنه أعان على قتل الخليفة المظلوم الشهيد، الذي صبر نفسه ولم يدفع عنها، ولم يسفك دم مسلم في الدفع عنه، فكيف في طلب طاعته ؟! وأمثال هذه الأمور التي يتسبب بها الزائغون على المتشيعين العثمانية، و العلوية.

وكل فرقة من المتشيعين مقرة مع ذلك بأنه ليس معاوية كفئا لعلي بالخلافة، ولا يجوز أن يكون خليفة مع إمكان استخلاف علي رضي الله عنه؛ فإن فضل علي وسابقيته، وعلمه ودينه، وشجاعته، وسائر فضائله: كانت عندهم ظاهرة معروفة، كفضل إخوانه أبي بكر وعمر، وعثمان، وغيرهم رضي الله عنهم)[1].

الرأي الرابع: القراء:

تناول بعض الباحثين أمر القراء ومدى علاقتهم بنشأة الخوارج، ولعل الباعث على هذا هو ما اشتهر عن الخوارج من تسميتهم بالقراء لكثرة

(١) مجموع الفتاوى ٣٥،٧٢ _ ٧٣

اجتهادهم في القراءة[1].غير أن توهم أن عنايتهم بالقرآن كانت الباعث على خروجهم وهم بعيد من أوهام المتناولين لتفسير ظاهرة الخوارج، وممن ذهب إلى ذلك بعض المستشرقين من أمثال فلهوزن [ت ١٩١٨م] حيث نقل: أنهم كانوا يغشون الجماهير ويؤثرون فيها حتى صارت لهم الكلمة العليا بين ثوار الكوفة، ووقعت عليهم بذلك تهمة قتل عثمان كما يرى أنهم كانوا في طليعة المحاربين في معارك اليمامة والجمل وصفين، ثم يخلص إلى القول: (فعلى المرء الإقرار بإمكان أن يكون هؤلاء هم التربة التي نبتت فيها الخوارج)[2].

وهذه الرؤية منقوضة بواقع الحال الذي كان عليه أكابر القراء حيث أنهم عدلوا عن الحرب قبل نشوبها[3]، كما أن كثيرين منهم عادوا إلى راية علي رضي الله عنه بعد ما تكشفت لهم أهداف زعمائهم يوم النهروان[4]. ومهما اختلفت الآراء حول هذه القضية الدقيقة الغامضة كما يقول بعض الباحثين: (فإنه يمكن القول: أن هؤلاء الناس الذين أخذوا اسمهم من كثرة تعاطيهم بالقرآن وحفظه وتدريسه، والذين لبسوا البرانس للدلالة على الصبغة الدينية التي يمثلونها في حياتهم العامة، لم يشكلوا كتلة سياسية أو دينية خاصة بهم، ولكن في الوقت ذاته لا نستطيع أن ننكر أن كثيراً من هؤلاء الناس قد انساقوا في تيار الثورة على عثمان، وأن آخرين منهم قد جرفتهم دعوة الخوارج، في بدء أمرها، خصوصاً وأن بعض زعماء الخوارج يوم النهروان كانوا من أصحاب الرأي فيهم. لكن بعد خروج الحرورية على علي وظهور هويتهم السياسية والفكرية، لم يعد من الجائز القول بأن الخوارج كانوا من

(١) المسند ٢،٤٨٥، فتح الباري ١٢،٢٨٣، وانظر قضية التحكيم في موقعة صفين ٢٧، ٣٠.
(٢) لخوارج والشيعة ٢١ ـ ٢٢ .
(٣) الأخبار الطوال ١٦٥.
(٤) الأخبار الطوال ٢١٠.

طبقة القراء. فقراء المهاجرين والأنصار – كما سبق وعلمنا – اعتزلوا الاقتتال بين المسلمين قبل صفين – كما أن قراء البصرة وغيرهم من القراء سيتولون بأنفسهم محاربة الخوارج فيما بعد، وفي أواخر العصر الأموي نجد أبا حمزة الخارجي يحمل بعنف على قراء المدينة، وذلك حين يتهمهم بتضليل المسلمين وخداعهم)[1].

ويمكن القول بأن هؤلاء القراء هم ممن سار في ركاب الخوارج وكثّر سوادهم في بداياتهم وكانوا أهل زهد وعبادة غير أنهم كما قال أبن حجر رحمه الله [ت ٨٥٢هـ] (كانوا يتأولون القرآن على غير المراد منه، ويستبدون برأيهم ويتنطعون في الزهد والخشوع)[2]. فكانوا بذلك موضع استغلال الخوارج مستثيرين عواطفهم وحماستهم وغفلتهم.

الرأي الخامس: المطالبة بدم عثمان رضي الله عنه:

ومن الأقوال البعيدة في بيان أصل نشأتهم ما عزاه ابن حجر–رحمه الله – [ت ٨٥٢هـ] إلى الرافعي في الشرح الكبير[3] من أن أصل بدعتهم أنهم خرجوا على علي رضي الله عنه حيث اعتقدوا أنه يعرف قتلة عثمان رضي الله عنه، ويقدر عليهم ولا يقتص منهم لرضاه بقتله أو مواطأته إياهم، قال ابن حجر رحمه الله: (كذا قال وهو خلاف ما أطبق عليه أهل الأخبار فإنه لا نزاع عندهم أن الخوارج لم يطلبوا بدم عثمان بل كانوا ينكرون عليه أشياء ويتبرءون منه)[4].

(١) الخوارج في العصر الأموي ٣٣ ـ ٣٤.
(٢) فتح الباري ٢٨٣،١٢.
(٣) وهو المعروف بفتح العزيز شرح الوجيز للرافعي، ولم أقف على هذا الكلام المنسوب إليه في المطبوع حيث لم يتجاوز ما طبع منه أبواب الإجارة.
(٤) فتح الباري ٢٨٣،١٢.

الرأي السادس: المختار:

والذي يترجح القول به هو أن أصل هذه الطائفة حدث على عهد النبي ﷺ علـي يـد ذي الخويـصرة (حرقـوص بـن زهـير الـسعدي) غـير أن الخـوارج لم يظهروا كجماعة إلا بعد حادثة التحكيم حيث فارقوا الجماعة وانحازوا إلى حروراء وعينوا شبث بن ربعي التميمي ليكون أميراً عليهم للقتال، وجعلوا عبدالله بن الكواء اليشكري أميراً للصلاة.... وكان الذي نقموا على علي رضي الله عنه أموراً ثلاثة:

أولها: أنه بقبوله التحكيم قد حكم الرجال في أمر الله والله تعالى يقول: ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ [يوسف ٤٠] وكان عليه أن يستمر في القتال حتى يظهر حكم الله.

وثانيها: أنه قاتل أصحاب " الجمل " وقتلهم غير أنه لم يسبهم ولم يأخذ غنائمهم، بل نهى عن قتل مدبرهم، والإجهاز على جريحهم وغنيمة أموالهم وذراريهم، قالوا: وليس في كتاب الله إلا مؤمن أو كافر فإن كان هؤلاء مؤمنين لم يحل قتالهم، وإن كانوا كفاراً أبيحت أموالهم.

والثالث: أن علياً بقبوله التحكيم قد محا نفسه من إمرة المؤمنين، وعندهم أنه إن لم يكن أميراً للمؤمنين فإنه أمير للكافرين... والله أعلم[1].

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد، حديث رقم ٣٢٤٣، ج٧، ٢٦٩، ومصنف عبد الرزاق برقم ١٨٦٧٨ ج ١٠، ١٥٧ ـ ١٦٠، والمستدرك للحاكم ٢٦٣، ٦ وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وانظر: تاريخ الإسلام ٤٧٦، ١، ومنهاج السنة النبوية ٥٣٣، ٨.

المطلب الثاني

قولهم بالتكفير

منشأ التكفير عند الخوارج راجع إلى تصورهم لمفهوم الإيمان (فالإيمان عند الخوارج كلٌّ لا يتبعض، فمن ترك ركناً من أركانه فقد سلب منه كله.... هذا المفهوم للإيمان عند الخوارج دفعهم إلى القول بان الذي يرتكب مخالفة شرعية أو معصية كبيرة يخرج من الإيمان، فالفرد إما مؤمن وإما كافر ولا منزلة بينهما)[1].

وهذا المفهوم يكاد أن يكون موضع الاتفاق عند الخوارج ولم يخالف في ذلك إلا بعض طائفة البيهسية حيث يرى أبو بيهس رأس الطائفة (أن الإيمان هو أن يعلم كل حق وباطل، وأن الإيمان هو العلم بالقلب دون القول والعمل، ويحكى عنه أنه قال: الإيمان هو الإقرار والعلم. وليس هو أحد الأمرين دون الآخر)[2]. وعامة البيهسية يخالفونه في ذلك، قال الشهرستاني [ت ٥٤٨هـ] (وعامة البيهسية على أن العلم والإقرار والعمل كله إيمان)[3].

وقد وافقه طائفة من الشبيبية (زعموا أن الرجل يكون مسلماً إذا شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وتولى أولياء الله وتبرأ من أعدائه وأقرّ بما جاء من عند الله جملة وإن لم يعلم سائر ما افترض الله سبحانه عليه مما سوى ذلك أفرض هو أم لا فهو مسلم حتى يبتلى بالعمل به فيسأل)[4].

---

(١) آراء الخوارج ١٣٩..

(٢) الملل والنحل ١٢٦،١.

(٣) الملل والنحل ١٢٦،١.

(٤) مقالات الإسلاميين ١١٥.

ومن هذا المنطلق لمفهوم الإيمان لدى عامة الخوارج جاءت أقوالهم صارمة في حق من ارتكب كبيرة من الذنوب على الفهم الذي تصوروه فأكفروا لذلك عثمان وعلي ومعاوية وأصحاب الجمل والحكمين، ومن رضي بالتحكيم، وأكفر بعضهم الرعية إذا كفر الإمام، وأوجب بعضهم البراءة من الأطفال حتى يُدعوا إلى الإسلام، وعدّ بعضهم من ترك شيئاً مما أوجبه اللّه عليه – وهو لا يعلم – كافراً، وأوجبوا الخروج والهجرة من دار المخالفين لأنها دار كفر، كما كفر بعضهم بعضاً وتفرقوا لأجل ذلك كله شيعاً وأحزاباً. وإليك شواهد على ذلك مما ذكره المؤرخون وعلماء الفرق من أقوالهم.

أولاً: إكفارهم لغيرهم:

ومن ذلك ما ذكره أبو الحسن الأشعري [ت ٣٢٤هـ] حيث قال: (أجمعت الخوارج على إكفار علي بن أبي طالب رضوان اللّه عليه أن حكمّ، وهم مختلفون هل كفره شرك أم لا ؟ وأجمعوا على أن كل كبيرة كفر، إلا النجدات فإنها لا تقول ذلك، واجمعوا على أن اللّه يعذّب أصحاب الكبائر عذاباً دائماً إلا النجدات، أصحاب نجدة)[(١)].

وقال البغدادي [ت ٤٢٩هـ] عن المحكمة الأولى: (وكان دينهم إكفار علي وعثمان وأصحاب الجمل ومعاوية وأصحاب الحكمين، ومن رضي بالتحكيم، وإكفار كل ذي ذنب ومعصية)[(٢)].

ومن ذلك أيضاً قول عبداللّه بن وهب الراسبي من المحكمة وكان أول من بويع من الخوارج بالإمامة وكان يوصف برأي ونجدة وكان من رأيه البراءة من الحكمين، وممن رضي بقولهما وصوب أمرهما، وأكفروا أمير المؤمنين علياً

(١) مقالات الإسلاميين ٨٦.

(٢) الفرق بين الفرق ٦١.

رضي الله عنه وقالوا: إنه ترك حكم الله وحكّم الرجال[1].

قال الشهرستاتي [ت ٥٤٨هـ] : (وقيل إن أول من تلفظ بهذا رجل من بني سعد بن زيد بن مناة بن تميم، يقال له الحجاج بن عبيد الله، يلقب بالبرك، وهو الذي ضرب معاوية علي إليته، لما سمع بذكر الحكمين؛ وقال: أتحكم في دين الله ؟ لا حكم إلا لله، فلنحكم بما حكم الله في القرآن. فسمعها رجل فقال: طعن والله فأنفذ ! فسموا المحكمة بذلك، ولما سمع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه هذه الكلمة قال: " كلمة عدل أريد بها جور، إنما يقولون: لا إمارة ولا بد من إمارة برٍ أو فاجر)[2].

ومن ذلك ما أثر من رأي الإباضية التي تعدّ في أوائل فرق الخوارج وقد افترقت إلى فرق إلا أن جمهورهم كما قال الأشعري [ت ٣٢٤هـ]: (يتولى المحكمة إلا من خرج ويزعمون أن مخالفيهم من أهل الصلاة كفار وليسوا بمشركين، حلال مناكحتهم وموارثتهم، حلال غنيمة أموالهم من السلاح والكراع عن الحرب، حرام ما وراء ذلك... وزعموا أن الدار يعنون دار مخالفيهم دار توحيد إلا عسكر السلطان فإنه دار كفر)[3].

وتتفق الإباضية مع بقية الخوارج والمعتزلة، في تخليد العصاة في جهنم لكن الإباضية تحكم عليه في الدنيا بأنه كافر كفر نعمة، أو كفر نفاق. ومن الأمور التي يتفقون عليها إنكار الشفاعة لعصاة الموحدين لأن العصاة مخلدون في النار فلا شفاعة لهم[4].

ويعترض الإباضية المعاصرون على قول الإباضية: وأن المخالفين كفار،

---

(١) الملل والنحل ١١٧،١.

(٢) الملل والنحل ١١٧،١.

(٣) مقالات الإسلاميين ١٠٤

(٤) الإباضية بحث للدكتور عبد العزيز عبد اللطيف ١٤ ـ ١٥، وانظر مشارق أنوار العقول ١٣٢،٢..

وقالوا: إن المقصود كفر نعمة، لا كفر اعتقاد، وان كلمة كفر بهذا المعنى لا يطلقها الإباضية على من خالفهم فحسب، بل هي مصطلح يستخدمونه حتى بالنسبة للعصاة منهم[1].

ومن ذلك أن الأزارقة أجمعت على أن من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر كفر ملة خرج به عن الإسلام جملة، ويكون مخلداً في النار مع سائر الكفار، واستدلوا بكفر إبليس لعنه الله، وقالوا: ما ارتكب إلا كبيرة، حيث أمر بالسجود لآدم فامتنع وإلا فهو عارف بوحدانية الله تعالى[2].

ونقل الأشعري [ت ٣٢٤هـ] قولهم: (إن كل كبيرة كفر وأن الدار دار كفر يعنون دار مخالفيهم، وأن كل مرتكب معصية كبيرة ففي النار خالداً مخلداً، ويكفرون علياً رضوان الله عليه في التحكيم، ويكفرون الحكمين: أبا موسى وعمرو بن العاص، ويرون قتل الأطفال)[3].

ومن بدع الأزارقة المتعلقة بالتكفير ما قال به زعيمهم نافع بن الأزرق من إكفار علي رضي الله عنه وزعم أن الله أنزل في شأنه ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ [٢٠٤ سورة البقرة]، وصوّب قتل عبد الرحمن بن ملجم لعلي رضي الله عنه وقال: إن الله أنزل في شأنه ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [٢٠٧ سورة البقرة])[4].

ومن أجل هذا كان عمران بن حطان وهو مفتي الخوارج وزاهدها وشاعرها يفاخر بقتل علي رضي الله عنه على يد عبد الرحمن بن ملجم فيقول:

---

(١) انظر الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٨٩ - ٩١، الإباضية في مركب التاريخ ١،٨٩، أثر الخوارج في الفكر الإسلامي المعاصر ٩٥.

(٢) الملل والنحل ١٢٢،١.

(٣) مقالات الإسلاميين ١٠٢، الملل والنحل ١٢٠،١..

(٤) مقالات الإسلاميين ١٠٤.

يا ضربة من منيب ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

قال الشهرستاني [ت ٥٤٨هـ]: (وعلى هذه البدعة مضت الأزارقة، وزادوا عليه تكفير عثمان وطلحة، والزبير، وعائشة، وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم وسائر المسلمين وتخليدهم في النار جميعاً)[١].

ومن ذلك ما أورده الشهرستاني [ت ٥٤٨هـ] في الملل والنحل أن عروة بن حدير (أتي إلى زياد بن أبيه ومعه مولى له، فسأله زياد عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال فيهما خيراً، وسأله عن عثمان، فقال: كنت أوالي عثمان على أحواله في خلافته ست سنين، ثم تبرأت منه بعد ذلك للأحداث التي أحدثها، وشهد عليه بالكفر، وسأله عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، فقال: كنت أتولاه إلى أن حكّم الحكمين، ثم تبرأت منه بعد ذلك، وشهد عليه بالكفر، وسأله عن معاوية فسبه سباً قبيحاً..)[٢]

ومن ذلك قو نجدة بن عامر وإليه تنسب النجدات من الخوارج: (ومن نظر نظرة أو كذب كذبة صغيرة أو كبيرة وأصر عليها فهو مشرك)[٣].

ومن ذلك أن طائفة من البيهسية يرون أن من واقع شيئاً من الحرام مما جاء فيه الوعيد وهو لا يعلم أنه حرام فقد كفر، ومن واقع شيئاً من كبير ما افترضه الله سبحانه عليه وهو لا يعلم فقد كفر)[٤].

ومن ذلك ما نقل عن طائفة من البيهسية يقال لهم العوفية[٥]. وهم فريقان، قال الأشعري: (وكلا الفريقين من العوفية يقولون: إذا كفر الإمام فقد

(١) الملل والنحل ١٠٣، ١.
(٢) الكامل في اللغة والأدب ١٣٤، ٣، الملل واللنحل ١١٨، ١.
(٣) الملل والنحل ١٢٤، ١.
(٤) مقالات الإسلاميين ١١٤ ٢.
(٥) ذكرهم الشهرستاني في الملل والنحل ١٢٦، ١ باسم العونية بالنون .

كفرت الرعية، الغائب منهم والشاهد)[١].

وقالوا أيضاً: (السكر كفر، ولا يشهدون أنه كفر ما لم ينضم إليه كبيرة أخرى من ترك الصلاة، أو قذف المحصن)[٢].

ومن ذلك أيضاً قول عبد الكريم بن عجرد وإليه تنسب العجاردة من الخوارج من أنه تجب البراءة من الطفل حتى يدعى إلى الإسلام، ويجب دعاؤه إذا بلغ[٣].

ثانياً تكفير بعضهم بعضاً:

بسبب الجهل بأحكام الشريعة ودلالات النصوص سواء كان ذلك من جهة عدم الوقوف عليها، أو جهلاً بمنزلتها من الدين أو جهلاً بمقاصد الشريعة وقواعد العلوم وأصولها، ولأن القوم قرأوا القرآن ولم يتفقهوا في السنن الثابتة بل لم يكن فيهم كما قال ابن حزم رحمه الله [ت ٤٥٦هـ]: (أحدٌ من الفقهاء لا من أصحاب ابن مسعود، ولا أصحاب عمر، ولا أصحاب معاذ بن جبل، ولا أصحاب أبي الدرداء، ولا أصحاب سلمان، ولا أصحاب زيد وابن عباس، وابن عمر، ولهذا تجدهم يكفر بعضهم بعضاً عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا وصغارها)[٤].

ويدل على ذلك: أن نافع بن الأزرق وإليه تنسب الأزارقة كفر القعدة، وهو أول من أظهر البراءة من القعدة عن القتال، وإن كان موافقاً له له على دينه، وأكفر من لم يهاجر إليه[٥].

ويؤكد نافع بن الأزرق أن دار مخالفيهم دار كفر إلا من أظهر إيمانه ولا يحل أكل ذبائحهم، ولا تناكحهم، ولا توارثهم، ومتى جاء منهم من جاء إلينا

(١) انظر مقالات الإسلاميين ١١٥، والفرق بين الفرق ٨٨ .

(٢) الملل والنحل ١٢٧،١، الفرق بين الفرق ٨٨ .

(٣) الملل والنحل ١٢٨،١، ونظر الفرق بين الفرق ٧٣، ومقالات الإسلاميين ٩٧ .

(٤) الفصل بهامشه الملل ١٢١،٤.

(٥) الملل والنحل ١٢١،١.

فعلينا أن نمتحنه، وهم ككفار العرب، لا نقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقعدة بمنزلتهم[1].

ومنها أن طائفة من أتباع نجدة بن عامر الحنفي الذي تنسب إليه النجدات بايعوه، وسموه أمير المؤمنين ثم اختلفوا عليه فأكفره قوم منهم لأمور نقموها عليه، كما أنهم أكفروا من قال: بإكفار القعدة منهم، وأكفروا من قال بإمامة نافع[2].

ومن ذلك أن الحارثية وهم أتباع حارث بن مزيد الإباضي وهم الذين قالوا في باب القدر بمثل قول المعتزلة وزعموا أن الاستطاعة قبل الفعل أكفرهم سائر الإباضية في ذلك[3].

ومن ذلك أن ثعلبة بن مشكال الذي تدعى الثعالبة إمامته بعد عبد الكريم بن عجرد اختلف معه في حكم الأطفال فكفر ثعلبة ابن عجرد والسبب في اختلافهما كما ذكر البغدادي [ت ٤٢٩هـ]: أن رجلاً من العجاردة خطب إلى ثعلبة بنته فقال له بيّن مهرها فأرسل الخاطب امرأة إلى أم البنت يسألها هل بلغت البنت، فإن كانت قد بلغت ووصفت الإسلام على الشرط الذي تعتبره العجاردة لم يبال كم كان مهرها. فقالت أمها: هي مسلمة في الولاية بلغت أم لم تبلغ ولا تحتاج أن تدعى إذا بلغت – فأخبر بذلك عبد الكريم بن عجرد وثعلبة بن مشكال فاختار عبد الكريم البراءة من الأطفال قبل البلوغ، وقال ثعلبة نحن على ولايتهم صغاراً أو كباراً إلى أن يبين منهم إنكار للحق. فلما اختلفا في ذلك برئ كل واحد منهما من صاحبه وصار أتباع كل منهما فرقاً[4].

ومن ذلك أن معبدا الذي تنسب إليه المعبدية من الثعالبة خالف جمهور

(١) الكامل في اللغة والأدب ٣، ٢٠٧..
(٢) الملل والنحل ١٢٣،١، الفرق بين الفرق ٦٧ .
(٣) الفرق بين الفرق ٨٤.
(٤) انظر الفرق بين الفرق ص ٨٠، ومقالات الإسلاميين ١١٢.

الثعالبة في أخذ الزكاة من العبيد، وفي إعطائهم منها وأكفر من يقول بذلك، وأكفره سائر الثعالبة في قوله[1].

من ذلك أن حمزة بن الأكرك وإليه تنسب الحمزية من العجاردة الخازمية خالف الخازمية في باب القدر والاستطاعة فقال فيها بقول القدرية، فأكفرته الخازمية في ذلك، ثم زعم أن أطفال المشركين في النار فأكفرته القدرية في ذلك، ثم إنه والى القعدة من الخوارج مع قوله بتكفير من لا يوافقه على قتال مخالفيه من فرق هذه الأمة[2].

ومنها ان أبا بيهس الهيصم بن جابر رأس البيهسية، كفر إبراهيم وميمون من الخوارج في اختلافهما في بيع الأمة، وكذلك كفر الواقفية وبرئ منهم لقولهم: إنا نقف فيمن واقع الحرام وهولا يعلم أحلالاً واقع أم حراماً [3].

ومنها أن الخازمية من فرق العجاردة أكفروا الميمونية الذين قالوا في القدر والاستطاعة بقول القدرية المعتزلة[4] كما أن المجهولية كفروا المعلومية في باب المعرفة بالله وهما طائفتان من الخازمية[5].

ومن مواقفهم المترتبة على القول بالتكفير ما أوجبوه من الهجرة والفرار بدينهم وتظهر هذه النزعة بصورة واضحة في أول اجتماع للخوارج لما انتخبوا عبدالله بن وهب الراسبي أميراً عليهم فخطبهم وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم دعاهم إلى الخروج قائلاً (فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال، أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة)[6].

---

(١) الفرق بين الفرق ٨١، مقالات الإسلاميين ٩٨.

(٢) الفرق بين الفرق ٧٦ ـ ٧٧ .

(٣) الملل والنحل ١٢٥،١ ـ ١٢٦.

(٤) الفرق بين الفرق ٧٣.

(٥) الفرق بين الفرق ٧٦.

(٦) تاريخ الأمم والملوك ١١٥،٣، البداية والنهاية ٣١٦،٧ .

المبحث الثاني
التكفير لدى بعض طوائف الشيعة

المطلب الأول
نشأة الشيعة

أولاً: آراء الشيعة في نشأة التشيع

الرأي الأول:

أن التشيع كان قبل بعثة النبي ﷺ ورسالته وأنه ما من نبي إلا وقد عُهد إليه بولاية علي والأئمة من بعده، فقد روى الكليني (ت ٣٢٩هـ) في أصول الكافي عن أبي الحسن أنه قال: (ولاية علي مكتوبة في جميع صحف الأنبياء ولن يبعث الله رسولاً إلا بنبوة محمد ﷺ ووصيه علي عليه السلام)[١].

وجاء في البحار أن رسول الله ﷺ: قال: (يا علي ما بعث الله نبياً إلا وقد دعاه إلى ولايتك طائعاً أو كارهاً)[٢] وعقد البحراني [ت ١٠١٧هـ] باباً بعنوان " باب الأنبياء بعثوا علي ولاية الأئمة[٣]".

ورواياتهم في هذه المعنى كثيرة حتى قال الحر العاملي [ت١١٠٤ هـ] بأن رواياتهم التي تقول: بأن الله حين خلق الخلق أخذ الميثاق على الأنبياء تزيد على ألف حديث[٤].

---

(١) أصول الكافي ١،٤٣٧ .
(٢) البحار ٦٠،١١ .
(٣) المعالم الزلفى ٣٠٣.
(٤) الفصول المهمة ١٥٩ .

قلت: وتصور هذا كاف في الحكم ببطلانه إذ كيف يؤخذ على من سبق من الأنبياء والأمم العهد على طاعة علي وإمامته فإن هذا كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [ت ٧٢٨ هـ] (كلام المجانين فإن أولئك ماتوا قبل أن يخلق الله عليا فكيف يكون أميراً عليهم ؟! وغاية ما يمكن أن يكون أميراً على أهل زمانه أما الإمارة على من يخلق قبله، وعلى من يخلق بعده فهذا من كذب من لا يعقل ما يقول، ولا يستحي فيما يقول..وكذلك كون علي أميراً على ذرية آدم كلهم وإنما ولد بعد موت آدم بألوف من السنين، وأن يكون أميراً على الأنبياء الذين هم متقدمون عليه في الزمان والمرتبة، وهذا من جنس قول ابن عربي الطائي وأمثاله من ملاحدة المتصوفة الذي يقولون إن الأنبياء كان يستفيدون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء الذي وجد بعد محمد بنحو ستمائة سنة، فدعوى هؤلاء الإمامة من جنس دعوى هؤلاء الولاية، وكلاهما يبني أمره على الكذب والغلو والشرك والدعاوى الباطلة ومناقضة الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة)[(١)].

الرأي الثاني:

ويذهب إلى هذا القول طائفة من الروافض في القديم والحديث حيث يزعمون أن الرسول ﷺ هو من وضع بذرة التشيع، وأن الشيعة نشأت في عهده، يقول شيخهم سعد بن عبدالله القمي (ت ٣٠١): (فأول فرق الشيعة، وهي فرقة علي بن أبي طالب المسمون شيعة علي في زمان النبي ﷺ وبعده، معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته، ومنهم المقداد بن الأسود الكندي، وسلمان الفارسي، وأبو ذر جندب بن جنادة الغفاري، وعمار بن ياسر المذحجي.. وهم أول من سموا باسم التشيع من هذه الأمة)[(٢)].

---

(١) منهاج السنة النبوية ٢٩٠،٧-٢٩١ .

(٢) المقالات والفرق ص ١٥.

ويوافقه على هذا القول النوبختي (ت بعد ٣٠٠هـ)[1]، ويقول محمد حسين آل كاشف الغطا (ت سنة ١٣٧٣هـ)

(إن أول من وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام هو نفس صاحب الشريعة؛ يعني أن بذرة التشيع وضعت مع بذرة الإسلام جنباً إلى جنب وسواء بسواء، ولم يزل غارسها يتعاهدها بالسقي والري حتى نمت وازدهرت في حياته، ثم أثمرت بعد وفاته)[2] وعلى هذا القول سار طائفة من الشيعة المعاصرين[3]. ويؤيد هذا الرأي آية الله الخميني (ت١٩٨٩م) حيث يرى أن مذهب الشيعة بدأ من نقطة الصفر وحين وضع الرسول ﷺ أسس الخلافة قوبل بالاستهزاء والسخرية وذلك حين جمع قومه وأولم لهم، وقال لهم فيما قال: من يكون خليفتي ووصيي ووزيري على هذا الأمر، فلم ينهض إلا علي عليه السلام ولم يبلغ الحلم حينذاك. وعندئذ قال أحدهم لأبي طالب محرضاً: إن ابن أخيك يريد أن تسمع لابنك وتطيع، وفي غديرخم وفي حجة الوداع عينه النبي ﷺ حاكماً بعده[4].

الرأي الثالث:

ويذهب إلى القول بأن ظهور الشيعة كان يوم الجمل سنة (٣٦هـ) ولعل هذا مما انفرد به النديم وهو شيعي (ت٤٣٨) وعزاه إلى ابن إسحاق ولم أقف عليه عنه حيث قال (قال محمد بن إسحاق لما خالف طلحة والزبير على علي عليه السلام، وأبيا إلا الطلب بدم عثمان بن عفان، وقصدهما علي عليه السلام ليقاتلهما حتى يفيئا إلى أمر الله جل اسمه؛ تسمى من اتبعه على ذلك: الشيعة، فكان يقول: شيعتي، وسماهم علي عليه السلام الأصفياء، الأولياء،

---

(١) انظر فرق الشيعة ص١٧.
(٢) أصل الشيعة ص٤٣.
(٣) انظر في ذلك ما عزاه الدكتور ناصر القفاري في أصول مذاهب الشيعة الأمامية ٧٩، ١.
(٤) الحكومة الإسلامية ص١٣١.

شرطة الخميس، الأصحاب)[1].

ثانيا: آراء غير الشيعة في نشأة التشيع:

القول الأول:

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى القول بأن التشيع ظهر بعد وفاة النبي ﷺ مرتبطاً بمسألة الإمامة، حيث يرى أصحابه أن عليا أحق بها لقرابته من النبي ﷺ وممن ذهب إلى ذلك ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) حيث عنون لذلك بقوله " مبدأ دولة الشيعة " ثم قال: (اعلم أن مبدأ هذه الدولة أن أهل البيت لما توفى رسول الله ﷺ كانوا يرون أنهم أحق بالأمر، وأن الخلافة لرجالهم دون من سواهم من قريش[2]).

ويتفق معه على هذا الرأي أحمد أمين (ت ١٣٧٣ هـ) حيث يقول: (كانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي ﷺ أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه[3]).

وإلى هذا الرأي ذهب بعض المستشرقين[4].

القول الثاني:

أن التشيع بدأ بمقتل عثمان ﷺ وأرضاه الذي استشهد في ذي الحجة بعد عيد الأضحى سنة خمس وثلاثين من الهجرة[5] وفي ذلك يقول ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) (ثم ولي عثمان....، وبقي كذلك اثني عشر عاماً، وبموته حصل الاختلاف، وابتدأ أمر الروافض)[6].

(١) الفهرست ٢٢٣.

(٢) تاريخ ابن خلدون " العبر وديوان المبتدأ والخبر " جـ١٧٠،٣.

(٣) فجر الإسلام ٢٦٦.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٥٨،١٤.

(٥) انظر الإصابة بهامشه الاستيعاب ٢،٤٦٢ ـ ٤٦٣، وتقريب التهذيب ١٢،٢.

(٦) الفصل بهامشه الملل ٦٧،٢.

القول الثالث:

ويذهب أصحاب هذا القول إلى أن نشأة التشيع كان سنة (٣٧هـ) ومن أشهر القائلين بهذا الرأي صاحب مختصر التحفة الاثني عشرية حيث يقول (إن ظهور اسم الشيعة كان عام ٣٧هـ)[(١)] كما يقول بذلك بعض المستشرقين حيث يذكر:(إن بداية الشيعة هي أحد أيام سنة ٦٥٨م = ٣٧هـ)[(٢)] ويبدو أن أصحاب هذا الرأي يربطون بداية التشيع بحادثة التحكيم في الحرب التي دارت بين علي ومعاية والتشيع في نظر هؤلاء كما يقول بعض الباحثين(كان رد فعل لآراء الخوارج المتطرفة حول مشكلة الإمامة، فأمام إصرار الخوارج على أن تكون الإمامة عامة، ذهب الشيعة إلى جعل الإمامة من حق آل البيت وذرية علي... والشيعة بهذا المفهوم في نظر هؤلاء هم الذين ناصروا علياً وأيدوه في حرب الجمل وصفين حينما تفرقت من حوله طوائف من المسلمين)[(٣)].

القول الرابع:

يرى أصحاب هذا القول أن بداية التشيع مرتبط بمقتل الحسين رضي الله عنه (ت سنة ٦١هـ) وممن يرى ذلك المستشرق (رودلف شتروتمان) حيث يقول: (وكان مقتل الحسين الذي لقي مصرعه بسيوف جند الدولة، أكثر مما كان دم علي الذي اغتاله فرد من الخوارج: هو بذرة مذهب الشيعة)[(٤)].

وإلى هذا ذهب أيضاً صاحب كتاب: " تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي" حيث يقول (إن الحركة الشيعية بدأ ظهورها في العاشر من المحرم وصبغت مبادئ الشيعة بصبغة دينية، فاتجهت الشيعة بعد مقتل الحسين

(١) مختصر التحفة، محمود شكري الألوسي ص٥٠.
(٢) نقلاً عن أصول مذهب الشيعة الإمامية٩٤، ١.
(٣) دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين (الخوارج والشيعة) ١٥٨.
(٤) دائر ة المعارف الإسلامية ٥٩، ١٤.

اتجاها دينياً بل غلب الجانب الديني على الجانب السياسي)[1].

القول الخامس:

يرى أصحاب هذا القول أن التشيع وثيق الصلة في نشأته بالفرس. ولعل الحامل لهم على ذلك ما وقفوا عليه في كتب التاريخ والمقالات التي صورت حركات الفرس والشيعة الغلاة على أنها محاولات أحتمت بآل البيت لهدم الإسلام ومن ذلك ما ذكره ابن حزم (ت٤٥٦هـ) في كتابه الفصل حيث قال: (الأصل في أكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسهم حتى إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار.. وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى...... فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله ﷺ واستشناع ظلم علي رضي الله عنه ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام)[2]، وبيسير من التصرف ذكر هذا القول المقريزي (ت ٨٤٥هـ) في كتابه الخطط[3].

وإلى هذا القول ذهب لفيف من المستشرقين وانتقدهم آخرون من أمثال ولهوزن، وكولدزيهر، وكيب ونيكلسون، وفريد لندر[4].

---

(١) تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي. للخربطولي ص١٢٣ .
(٢) الفصل بهامشه الملل والنحل ٢،٩١.
(٣) خطط المقريزي (المواعظ والاعتبار) ٣٦٢،١..
(٤) انظر دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ٣٤–٣٨ .

القول السادس:

وهو المختار أن الشيعة مرّت بمراحل في نشأتها وتطورها غير أن الأقرب إلى الصواب هو ما يراه بعض مؤرخي الفرق وفريق من العلماء الذين عنوا بدراسة الفرق والطوائف من القول بإرجاع بداية التشيع المنحرف إلى أو آخر عهد عثمان رضي الله عنه أو إلى حركة السبئية بتعبير أدق ومن ذلك ما ذكره أبو الحسين الملطي (ت ٣٧٧هـ) حيث جعل السبئية على رأس فرقة الإمامية ونسب إليهم نشأة التشيع[١]، ويقول المقريزي (ت ٨٤٥) في خططه (وحدث أيضاً في زمن الصحابة رضي الله عنهم مذهب التشيع لعلي رضي الله عنه والغلو فيه، فلما بلغه ذلك أنكره وحرق بالنار جماعة ممن غلا فيه وأنشد.

لما رأيت الأمر أمراً منكرا أججت ناري ودعوت قنبرا

وقام في زمنه رضي الله عنه، عبدالله بن وهب بن سبأ المعروف بابن السوداء السبأي، وأحدث القول بوصية رسول الله ﷺ لعلي بالإمامة من بعده بالنص، وأحدث القول برجعه علي بعد موته إلى الدنيا، وبرجعة رسول الله ﷺ أيضاً، وزعم أن علياً لم يقتل وأن فيه الجزء الإلهي، وأنه هو الذي يجيء في السحاب، وأن الرعد صوته والبرق سوطه وأنه لابد أن ينزل إلى الأرض فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً)[٢].

ويستند الذين يرجعون أصل التشيع إلى عبدالله بن سبأ إلى ما يأتي:

- أن ابن سبأ كان أول من هاجم الخلفاء الثلاثة واعتبرهم مغتصبين للخلافة.
- أنه أول من نادى بقداسة علي رضي الله عنه وبفكرة وصايته عن النبي ﷺ.

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص١٨.

(٢) خطط المقريزي (المواعظ والاعتبار) ج٢، ٢٥٦، ٢٥٧.

- أنه قال بالرجعة[1].

وقد نص ابن تيمية رحمه الله [ت ٧٢٨هـ] على هذه العلاقة في أكثر من موضع من كتبه وذكر أن (أول من ابتدع الرفض عبدالله بن سبأ وكان منافقاً زنديقاً أراد بذلك فساد دين المسلمين كما فعل بولص صاحب الرسائل التي بأيدي النصارى، حيث ابتدع لهم بدعاً أفسد بها دينهم، وكان يهودياً فأظهر النصرانية نفاقاً لقصد إفساد ملتهم، وكذلك كان ابن سبأ يهودياً فقصد بذلك، وسعى في الفتنة لقصد إفساد الملة)[2].

وقد اعترف بهذه العلاقة بين السبئية والتشيع المنحرف بعض أعلام الشيعة ومؤرخي فرقهم فهذا شيخ الطائفة وفقيهها سعد بن عبدالله القمي [ت ٣٠١هـ] يقرّ بوجود ابن سبأ ويلقب فرقته بالسبئية و يرى أنها أول فرقة قالت بالغلو ويذكر أن ابن سبأ (أول من أظهر الطعن على أبي بكر، وعمر وعثمان، والصحابة، وتبرأ منهم، وأدعى أن علياً أمره بذلك)[3] ويتفق معه حتى في اللفظ ثقتهم المعتمد أبو الحسن بن موسى النونجتي [ت بعد ٣٠٠هـ][4].

ورغم أن هذا القول قد أثار حفيظة بعض علماء الشيعة وباحثيهم الذين حرصوا على إبعاد هذه التهمة عنهم وشنوا هجوما على السبئية محاولين إخراجها عن فرق الشيعة بل ذهب بعضهم إلى القول بأن شخصية عبدالله بن سبأ شخصية موهومة من اختلاق خصوم الشيعة لا أثر لها ولا وجود حتى إن أحد الشيعة المعاصرين وهو مرتضى العسكري ألف كتاباً بعنوان " عبدالله بن سبأ " أنكر فيه حقيقة عبدالله بن سبأ.

---

(١) نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثنى عشرية ص٣٦.
(٢) الفتاوى الكبرى ١،٧٠، مجموع الفتاوى ٢٧،١٦١، ١٨٤، ٣٥.
(٣) المقالات والفرق ص٢٠.
(٤) فرق الشيعة ٢٢-٢٣ وانظر ما نقله عن غيرهما، القفاري في أصول مذهب الشيعة الإمامية ١،٩٠-٩٣.

كما شكك بعض الباحثين غير الشيعة من صحة ربط التشيع بالسبئية[1].

وردد طه حسين (ت ١٣٩٣هـ) ما يذكره الشيعة من أن ابن سبأ كان متكلفاً حين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الإسلامية أراد خصوم الشيعة أن يدخلوا في أصول هذا المذهب عنصراً يهودياً إمعاناً في الكيد لهم والنيل منهم[2] غير أنه كما يقول بعض الباحثين: (في ضوء الدراسات الحديثة لهذه الفترة الغامضة من التاريخ الإسلامي لم تعد آراء طه حسين وأمثاله عن ابن سبأ والسبئية مقبولة لدى كثير من الباحثين الذين محصوا الأخبار وحققوا الوقائع المحيطة بحركة السبئية وأثبتوا بما لا يدع مجالاً للشك حقيقة وجود عبدالله بن سبأ والدور الذي قام به في تحريك الفتن وتدبير المؤامرات وهو دور لم يضطلع به ابن سبأ وحده بل إنه كان يمثل حلقة في مخطط يهودي خطير لم يقف طموحه عند إثارة الفتنة فحسب، بل بذر وأثار كثيراً من المشكلات العقائدية والفكرية التي كان لها خطرها في البيئة الإسلامية)[3].

ومما يسند القول بعلاقة الرافضة بعدالله بن سبأ اليهودي ما ورد في الأثر المنقول عن الشعبي (ت ١٠٣هـ) أنه قال (أحذركم هذه الأهواء المضلة وشرها الرافضة لم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة، ولكن مقتاً لأهل الإسلام وبغياً عليهم قد حرقهم عليّ رضي الله عنه بالنار، ونفاهم إلى البلدان، منهم عبدالله بن سبأ: يهودي من يهود صنعاء نفاه إلى ساباط، وعبدالله بن يسار نفاه إلى خازر، وآية ذلك أن محنة الرافضة محنة اليهود.

قالت اليهود: لا يصلح الملك إلا في آل داود، وقالت الرافضة: لا تصلح

---

(١) انظر الفتنة الكبرى (١٣١ ـ ١٣٤)، وانظر ما ذكره في ذلك صاحب دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين (الخوارج والشيعة) ١٥٧.

(٢) الفتنة الكبرى (علي وبنوه) ص ٩٠، ٩١.

(٣) دراسات عن الفرق في تاريخ المسلمين " الخوارج والشيعة "١٥٧.

الإمامة إلا في ولد علي، وقالت اليهود: لا جهاد في سبيل اللّه حتى يخرج المسيح الدجال وينزل سيف من السماء، وقالت الرافضة لا جهاد في سبيل اللّه حتى يخرج المهدي وينادي مناد من السماء، واليهود يؤخرون الصلاة إلى اشتباك النجوم وكذلك الرافضة يؤخرون المغرب إلى اشتباك النجوم... واليهود تزول عن القبلة شيئاً، وكذلك الرافضة واليهود تنود في الصلاة وكذلك الرافضة.... ألخ)[1]، قلت: ومن الشواهد الدالة على أن انتحال الرفض كان مطّية من مطايا الكيد للإسلام ما أفصح عنه بعض من انتحله كما ذكر ذلك أبو إسماعيل الهروي [٤٨١هـ] في كتابه " ذم الكلام " فقد روى بإسناده إلى أبي الربيع الزهراني [ت ٢٣٤ هـ] وهو من رواة البخاري ومسلم قال: (كان من هؤلاء الجهمية عندنا رجل يظهر من رأيه الترفض وانتحال حب علي رضي اللّه عنه فقال له رجل ممن يخالطه ويعرف مذهبه: قد علمت أنكم لا ترجعون إلى دين الإسلام ولا تعتقدونه؛ فما الذي صبكم على الترفض وحب علي قال: إذاً أصدقك: إنا إذا أظهرنا الذي نعتقده رمينا بالكفر والزندقة؛ وقد وجدنا أقواماً ينتحلون حب علي ويظهرونه، ويقعون بمن شاؤوا، وانتسبوا بذلك إلى الرفض والتشيع ويعتقدون ما شاؤوا، ويقولون ما شاؤوا، وقد حبس الخليفة رجلاً في الزندقة فدخل عليه رجل فقال له: قد كنا نعرفك بسب الصحابة والرفض، فما خرج بك إلى الزندقة ؟ فقال: [نا يغمائي][2]، وما جنى عليّ أبوبكر وعمر لولا بغض صاحبهما)[3].

(١) رواه الخلال في السنة برقم ٧٩١ج٤٩٦، ٣. ٤٩٨، وانظر العقد الفريد ٢٢٢، ١ ـ ٢٢٣ والفرق بين الفرق ٢٢٣ـ ٢٢٦ ومنهاج في السنة النبوية ٢٣، ١ـ٢٨

(٢) يظهر أنها كلمة فارسية تعني " ما سلبني " فيكون المراد: ما سلبني وما جنى علي أبو بكر وعمر

(٣) يعني رسول اللّه ﷺ، وانظر ذم الكلام للهروي، مخطوط ص ٤٤٠ هـ والدرامي في الرد على الجهمية ص٩٧ وبيان تلبيس الجهمية ٢٣٥، ٢ ـ ٢٣٧.

المطلب الثاني

قول بعض طوائفهم بالتكفير

يجدر بنا أن ننبه بادئ ذي بدء إلى أن الذي يغلب على الظن أن عامة الشيعة وأتباع الطائفة مغيبّون عن حقيقة المعتقد الذي يدين به أئمتهم ومرجعياتهم الدينية، وأنهم لا يملكون من أمرهم سوى التبعية والتقليد الأعمى ونحسب أنه إذا تكشف لهم مخبوء المراجع الرئيسة، من كتبهم المعتمدة وأعلامهم، وتجردوا عن التبعية المفرطة، والتقليد الأعمى للمرجعيات، وأعملوا عقولهم، وما تمليه الفطر السليمة فستتبين لهم حقائق الأمور، وسيعودون بإذن الله إلى جادة الحق وطريق الصواب.

ونحن – والله الحمد – نرى بوادر إفاقة من سبات، وتحرير للعقل، واستعادة للوعي المغيب على مدى قرون، نلمس ذلك واضحاً، لدى كثير من أتباع هذه الطائفة، غير أنهم يحجمون عن الإفصاح عن ذلك خشية ما قد يتعرضون له من النبذ أولما لا يطيقونه من الأذى.

وسنعرض فيما يأتي جملة من مواقف التشيع المنحرف في قضية التكفير مؤيدة بما هو مأثور في مراجعهم، أو مما تناقلته عنهم كتب الفرق ومصنفات الردود عليهم.

١ ـ تكفير الصحابة رضوان الله عليهم.

يقف المتأمل في كتب الشيعة ومصادرهم المعتمدة على الحشد الهائل من النصوص التي تنضح باللعن والتكفير وشناعة السباب والشتائم لصحابة رسول ﷺ من المهاجرين والأنصار وأهل بدر وبيعة الرضوان وسائر الصحابة أجمعين ولا يستثنون منهم إلا النزر اليسير فهم كما يقول ابن تيمية رحمه الله

[ت ٧٢٨هـ] (لفرط جهلهم وضلالهم يقولون: إنهم ومن اتبعهم كانوا كفاراً مرتدين، وأن اليهود والنصارى خير منهم؛ لأن الكافر الأصلي خير من المرتد، وقد رأيت هذا في عدة من كتبهم، وهذا القول أعظم الأقوال افتراءً على أولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وجند الله الغالبين)(١).

كما أنهم جعلوا آيات الكفر والكافرين في سائر الصحابة، وقد بوب لذلك الكليني [ت ٣٢٩هـ] بقوله " باب فيه نكت من التنزيل في الولاية " وساق فيه ٩٢ رواية تتضح بالتشنيع والسب والتكفير لمن أنكرها(٢).

ومن ذلك ما أورده في الأثر رقم ٤٤ : (عن أبي عبدالله في قوله عز وجل ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ [الحج ٢٥] قال: نزلت فيهم حيث دخلوا الكعبة فتعاهدوا وتعاقدوا على كفرهم، وجحودهم بما نزل في أمير المؤمنين عليه السلام، فألحدوا في البيت بظلمهم الرسول ووليه فبعداً للقوم الظالمين) (٣) وجاء في رجال الكشي [ت ٣٤٠هـ] (عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان الناس أهل الردة بعد النبي ﷺ إلا ثلاثة، فقلت ومن الثلاثة ؟ فقال: المقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي)(٤).

وعلة الكفر أنهم كتموا النص وغيروا وبدلوا وظلموا واعتدوا وفي ذلك يقول ابن تيمية رحمه الله (ت ٧٢٨هـ) (وأصل قول الرافضة: أن النبي ﷺ نص على علي نصاً قاطعاً للعذر وأنه إمام معصوم ومن خالفه كفر؛ وأن المهاجرين والأنصار كتموا النص وكفروا بالإمام المعصوم، واتبعوا أهواءهم، وبدلوا وغيروا الشريعة وظلموا واعتدوا بل كفروا إلا نفراً قليلاً، إما بضعة عشر أو

(١) منهاج السنة النبوية ج٥، ٤٧٥، ٧.
(٢) أصول الكافي ج١، ٤١٢، ١ - ٤٣٦.
(٣) أصول الكافي ٤٢٢، ١.
(٤) رجال الكشي ص٦.

أكثر)[1].

ثم هم يخصون خلفاء الرسول ﷺ الثلاثة أبا بكر وعمر وعثمان ووزراءه وأصهاره بالنصيب الأوفى من التكفير وقد عقد شيخهم المجلسي(ت ١١١١هـ) في كتابه " بحار الأنوار " وهو من أمهات مصادرهم باباً بعنوان: " باب كفر الثلاثة ونفاقهم وفضائح أعمالهم[2] وعقد شيخهم البحراني [ت ١٠١٧هـ] باباً آخر ذكر فيه " أن إبليس أرفع مكاناً في النار من عمر، وأن إبليس شرف عليه في النار)[3].

وروى الكليني [ت٣٢٩هـ] بسنده (عن ابن أبي يعفور عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: من ادعى إمامة من الله. ليست له، ومن جحد إماماً من الله ومن زعم أن لهما في الإسلام نصيباً)[4] يعني أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وروى أيضاً عن أبي عبدالله في قوله تعالى (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى) [محمد ٢٥] فلان وفلان وفلان ارتدوا عن الإيمان في ترك ولاية أمير المؤمنين عليه السلام. قلت قوله تعالى (ذلك بأنهم قالوا للذين كفروا سنطيعكم في بعض الأمر) [محمد ٢٨] قال: نزلت فيهما وأتباعهما)[5].

وقال شيخهم المجلسي [ت ١١١١هـ] (ومما عُدّ من ضروريات دين الإمامية استحلال المتعة، وحج التمتع، والبراءة من أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية)[6].

ومما يلحظ ما نبه عليه بعض الباحثين حيث يقول: (إن ما كتبه شيوخ

(١) مجموع الفتاوي ٣٥٦،٣.
(٢) بحار الأنوار ٢٠٨،٨.
(٣) المعالم الزلفى ٣٢٥.
(٤) أصول الكافي ٣٧٤،١.
(٥) أصول الكافي الأثر رقم ٤٣ج٤٢١،١.
(٦) الاعتقادات ص٩٠. ٩١

الشيعة في ظل الدولة الصفوية[1]. كان فيه التكفير لأفضل أصحاب محمد ﷺ صريحا ومكشوفا، وما كتبه أوائل الشيعة في عصر الكليني وما بعده كان بلغة الرمز والإشارة وقد كشف أقنعة هذه الرموز شيوخ الشيعة المتأخرون حينما ارتفعت التقية إلى حد ما وظهرت الاثنا عشرية على حقيقتها)[2]، وهو يشير بذلك إلى بعض المصطلحات الخاصة التي يرمزون بها إلى أعيان الصحابة كالفصيل، ورمع، ونعثل، كما ورد في تفسير العياشي [ت ٣٢٠هـ] حيث قال (الأوثان أربعة... أبو الفصيل ورمع، ونعثل، ومعاوية ومن دان دينهم)[3].

قال المجلسي [ت ١١١١هـ] في بيانه لهذه المصطلحات (أبو الفصيل: أبو بكر لأن الفصيل والبكر متقاربان في المعنى، ورمع: مقلوب عمر، ونعثل هو: عثمان)[4].

٢ ـ تكفير من أنكر إمامة الأئمة الاثني عشر أو أحدهم.

لما كانت الإمامة أصلاً من أصول الدين عند الاثني عشرية وهي صنو النبوة إن لم تكن أعظم كان حكم من أنكر هذا الأصل عندهم إنه كافر مستوجب للخلود في النار.

فهذا ابن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ) يقول: (واعتقادنا فيمن جحد إمامة أمير المؤمنين والأئمة من بعده أنه بمنزلة من جحد نبوة الأنبياء.

واعتقادنا فيمن أقرّ بأمير المؤمنين وأنكر واحداً من بعده من الأئمة أنه

(١) وهي الدولة التي كانت في الفترة من ٩٠٦ـ ١١٣٥هـ = ١٥٠٠ ـ ١٧٢٢م

(٢) القفاري في أصول مذهب الشيعة الإمامية ٢،٨٧٩.

(٣) تفسير العياشي ٢،١١٦

(٤) بحار الأنوار ٢٧،٥٨.

بمنزلة من آمن بجميع الأنبياء ثم أنكر نبوة محمد ﷺ وآله)[1].

ويقول شيخهم الطوسي [ت ٤٦٠هـ] (ودفع الإمامة كفر، كما أن دفع النبوة كفر لأن الجهل بهما على حد واحد)[2].

ويقول شيخهم المفيد [ت ٤١٢هـ] (اتفقت الإمامية على أن من أنكر إمامة أحد من الأئمة وجحد ما أوجبه الله تعالى له من فرض الطاعة فهو كافر ضال مستحق للخلود في النار)[3].

ويعلن بعضهم المفاصلة بينهم وبين مخالفيهم بسبب قضية الإمامة ويصور ذلك في صورة غاية في المبالغة في البراءة من مخالفيهم وفي ذلك يقول شيخهم نعمة الله الجزائري [ت١١١٢هـ] (لم نجتمع معهم على إله ولا نبي ولا إمام، وذلك أنهم يقولون: إن ربهم هو الذي كان محمد ﷺ نبيه، وخليفته بعده أبو بكر، ونحن لا نقول بهذا الرب ولا بذلك النبي، بل نقول: إن الرب الذي خليفة نبيه أبو بكر ليس ربنا ولا ذلك النبي نبينا)[4] نسأل الله العافية.

٣ ـ تكفير خلفاء المسلمين وسلاطينهم وقضاتهم:

يقول شيخهم المجلسي [ت ١١١١هـ] عن الخلفاء الذين كانوا قبل سنة ٢٦٠هـ (إنهم لم يكونوا إلا غاصبين جائرين مرتدين عن الدين لعنة الله عليهم وعلى من اتبعهم في ظلم أهل البيت الأولين والآخرين)[5] ويقولون أيضاً (كل راية ترفع قبل راية القائم ﷺ صاحبها طاغوت)[6].

وبوب الكليني [ت ٣٢٩هـ] أيضاً لهذا المعنى عدة أبواب مثل: (باب من

(١) الاعتقادات ص١١١.
(٢) تلخيص الشافي في ١٣١،٤هـ
(٣) بحار الأنوار ٨،٣٦٦ نقلاً عن المسائل للمفيد.
(٤) الأنوار النعمانية ٢،٢٧٩.
(٥) بحار الأنوار ٤،٣٥٨.
(٦) أصول الكافي بشرح المازنداني ١٢،٣٧١ .

ادعى الإمامة وليس لها بأهل، ومن حجد الأئمة أو بعضهم، ومن أثبت الإمامة لمن ليس لها بأهل) وذكر فيه اثنى عشر حديثاً عن أئمتهم(١).

ولهذا فهم يرون أن التحاكم إلى سلاطين المسلمين وقضاتهم ضرب من التحاكم إلى الطاغوت، وأن أحكامهم باطلة، ومن يأخذ حقه عن طريقهم آكل للسحت وإن كان حقاً ثابتاً له، وفي ذلك يروي الكليني [ت٣٢٩] عن عمر بن حنظلة قال: (سألت أبا عبدالله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث، فتحاكما إلى السلطان وإلى القضاة أيحل ذلك ؟ قال من تحاكم إليهم في حق أوباطل فإنما تحاكم إلى الطاغوت، وما يحكم له فإنما يأخذ سحتا، وإن كان حقا ثابتاً له، لأنه أخذ بحكم الطاغوت، وقد أمر الله أن يكفر به، قال تعالى (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) [النساء: ٦٠](٢).

٤ ـ تكفير علماء الأمة وأئمتها:

تصف بعض مصادرهم أعلام الأمة وعلماءها الأخيار بأنهم من الصادين عن سبيل الله، ويحذرون الأتباع من التلقي عنهم، أو السير على منوالهم، بل يرون أنهم ملة الشرك ـ والعياذ بالله وقد جاء في أصول الكافي عن سدير عن أبي جعفر قال: (... يا سدير فأريك الصادين عن دين الله، ثم نظر إلى أبي حنيفة وسفيان الثوري في ذلك الزمان، وهم حلق في المسجد، فقال: هؤلاء الصادون عن دين الله بلا هدى من الله ولا كتاب مبين)(٣).

(وعن هارون بن خارجة قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنا نأتي هؤلاء المخالفين فنسمع منهم الحديث يكون حجة لناعليهم ؟

(١) أصول الكافي ١، ٣٧٢ ـ ٣٧٤. ب.
(٢) أصول الكافي ١، ٦٧.
(٣) أصول الكافي ١، ٣٩٢.

قال: لا تأتهم ولا تسمع منهم ـ لعنهم الله، ولعن مللهم المشركة)[1].

٥ ـ تكفير أهل البيت:

يدرك المتأمل أن النصوص الواردة عنهم في تكفير مجتمع الرعيل الأول لا تستثنى أحداً من أهل بيت رسول الله ﷺ إلا ما ورد في بعض رواياتهم من استثناء علي رضي الله عنه ففي تفسير العياشي [ت ٣٢٠هـ] من رواية الفضيل بن يسار عن أبي جعفر قال: (صار الناس كلهم أهل الجاهلية إلا أربعة: علي، والمقداد، وسلمان، وأبو ذر قلت فعمار ؟

فقال: إن كنت تريد الذين لم يدخلهم شيء فهؤلاء الثلاثة)[2].

وعلى هذا فالحكم بالردة شامل لآل بيته ﷺ وقراباته من أمثال العباس وابنه عبدالله وبنات النبي ﷺ، بل نفى بعضهم أن يكنّ بنات للنبي ﷺ ما عدا فاطمة، وقد نص الكليني [ت ٣٢٩هـ] (على أن من لم يؤمن بالإثني عشر فهو كافر وإن كان علوياً فاطمياً)[3].

كما أن التكفير يشمل أزواج النبي ﷺ فلم يستثنوا منهن واحدة في نصوصهم، وإن كانوا يخصون عائشة وحفصة بمزيد من اللعن والسب والتكفير. وقد عقد لذلك شيخهم المجلسي [ت١١١١هـ] باباً بعنوان " باب أحوال عائشة وحفصة " ساق فيه سبع عشرة رواية، وأحال في بقية الروايات على أبواب أخرى، فيها أبلغ الأذى لرسول الله ﷺ وآل بيته[4]. ومن ذلك ما نص فيه نقلا عن القمي [ت ٣٠١ هـ] على أن المقصود بمن ضرب الله مثلاً في قوله ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ

(١) بحار الأنوار ٢١٦،٢.
(٢) تفسير العياشي ١٩٩،١.
(٣) أصول الكافي ١،٣٧٢ ـ ٣٧٤.
(٤) انظر بحار الأنوار ٢٢٧،٢٢ـ ٢٤٧ ،

عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [التحريم ١٠] أنهما حفصة وعائشة زوجتي رسول الله، قال: والله ما عنى بقوله (فخانتاهما) إلا الفاحشة[١].

ويستظهر بعض الباحثين[٢] أنهم لا يستثنون حتى الحسن بن علي ﷺ الذي تعده الاثنا عشرية من أئمتها، ويبدو – كما قال – (أنها لا تستثنيه لأنها عليه ساخطة لقيامه بمصالحة معاوية، حتى خاطبه بعض الشيعة بقوله " يا مذل المؤمنين، ووثب عليه أهل عسكره فانتهبوا فسطاطه وأخذوا متاعه وطعنه ابن بشير ألأسدي في خاصرته فردوه جريحاً إلى المدائن)[٣].

٦ ـ تكفير الأمصار الإسلامية:

ومن ذلك أنهم صرحوا بكفر أهل مكة والمدينة في القرون المفضلة، ففي عصر الصادق [ت ١٤٨هـ] يقولون: (أهل الشام شر من أهل الروم، وأهل المدينة شر من أهل مكة، وأهل مكة يكفرون بالله جهرة)[٤].

وروى الكليني [ت ٣٢٩هـ] (عن أبي بصير، عن أحدهما عليهما السلام قال: إن أهل مكة ليكفرون بالله جهرة، وإن أهل المدينة أخبث من أهل مكة، أخبث منهم سبعين ضعفا)[٥].

وقالوا عن مصر وأهلها (أبناء مصر لعنوا على لسان داود عليه السلام، فجعل الله منهم القردة والخنازير)[٦]. قالوا (وما غضب الله على بني اسرائيل إلا أدخلهم مصر، ولا رضي عنهم إلا أخرجهم منها إلى غيرها)[٧]. وقالوا:

---

(١) بحار الأنوار ٢٢،٢٤٠ .

(٢) هو الدكتور: ناصر القفاري.

(٣) أصول مذهب الشيعة الإمامية ٢،٨٩٥، وانظر رجال الكشي ١١٣ والسيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون ٢،٣٥٩.

(٤) أصور الكافي ٢،٤٠٩.

(٥) أصول الكافي ٢،٤١٠ ،

(٦) بحار الأنوار ٦٠،٢٠٨.

(٧) بحار الأنوار ٦٠،٣٠٤، تفسير العياشي ١،٣٠٤.

(بئس البلاد مصر أما إنها سجن من سخط الله عليه من بني إسرائيل)[1].
وقالو (انتحوا مصر ولا تطلبوا المكث فيها لأنه يورث الدياثة)[2].

كما جاء عندهم ذم كثير من البلدان الإسلامية وأهلها[3]. ولم يستثنوا إلا من يقول بمذهبهم وهم قلة قليلة ـ في تلك الأزمان ومن ذلك.

قولهم: (إن الله عرض ولايتنا على أهل الأمصار فلم يقبلها إلا أهل الكوفة)[4].

بل أفتى شيوخهم أن من الدلالة على الكفر ما يظهر في المصر من المسح على الخفين، وتحريم المتعة ونحو ذلك مما هو متقرر في الفروع عند جماهير المسلمين وفي هذا يقول ابن تيميه رحمه الله [ت ٧٢٨هـ] (أفتى غير واحد من شيوخهم بأن الدار إذا كان الظاهر فيها مذهب النصب، مثل المسح على الخفين، وحل شرب الفقاع وتحريم المتعة: كانت دار كفر، وحكم بنجاسة ما فيها من المائعات، وإن كان الظاهر مذهب الطائفة المحقة ـ يعني الإمامية ـ حكم بطهارة ما فيها من المائعات، وإن كان كلا الأمرين ظاهراً كانت دار وقف فينظر: فمن كان فيها من طائفتهم كان ما عنده من المائعات طاهرا ،ومن كان من غيرهم حكم بنجاسة ما عنده من المائعات)[5].

٧ ـ تكفير الفرق والطوائف:

تطلق الرافضة على مخالفيهم من أهل السنة: النواصب، أو المرجئة، وقد يطلقون لفظ الناصب على مطلق المخالف غير المستضعف[6]، ويرون أنه لا

(١) بحار الأنوار ٦٠،٢١٠، تفسير العياشي ١،٣٠٥.
(٢) بحار الأنوار ٦٠،٢١١.
(٣) الخصال ٥٠٦ ـــ ٥٠٧، بحار الأنوار ٦٠،٢٠٦.
(٤) بحار الأنوار ٦٠،٢٠٩.
(٥) منهاج السنة النبوية ٣،٤٦٥.
(٦) الأنوار النعمانية ٢،٣٠٧.

تجوز الصلاة على المخالف إلا للتقيه، وفي هذا يقول المجلسي [ت١١١١هـ] (قد يطلق الناصب على مطلق المخالف غير المستضعف كما هو ظاهر من كثير من الأخبار)[(١)]، وقال أيضاً (لا تجوز الصلاة على المخالف لجبر أو تشبيه، أو اعتزال، أو خارجية، أو إنكار إمامة إلا للتقية، فإن فعل " يعني صلى عليه تقية " لعنه بعد الرابعه)[(٢)]، وعقد في بحار الأنوار باباً بعنوان (باب كفر المخالفين والنصاب)[(٣)] وقال أيضاً (كتب أخبارنا مشحونة بالأخبار الدالة على كفر الزيدية وأمثالهم من الفطحية والواقفة)[(٤)].

ومن نصوصهم في ذلك أيضاً ما أورده الكليني [ت ٣٢٩] (عن أبي مسروق قال: سألني أبو عبدالله عن أهل البصرة ما هم ؟ فقلت: مرجئة وقدرية، وحرورية، فقال: لعن الله تلك الملل الكافرة المشركة التي لا تعبد الله على شيء)[(٥)] بل جوزوا قتلهم واستباحة أموالهم كما نص على ذلك الجزائري [ت ١١١٢هـ] في الأنوار النعمانية[(٦)]، ولم يشفع للزيدية كونهم في عداد الشيعة وذلك لأنهم خلطوها بولاية أبي بكر وعمر، وهذا عندهم كفر، فقد جاء في بحار الأنوار (عن أبي علي الخراساني عن مولى لعلي بن الحسين عليه السلام قال: كنت معه عليه السلام في بعض خلواته فقلت: إن لي عليك حقا ألا تخبرني عن هذين الرجلين: عن أبي بكر وعمر ؟ فقال: كافران كافر من أحبهما)[(٧)]، وجاء في أصول الكافي (عن عبدالله بن المغيرة قال:

(١) مرآة العقول ٧٢، ٤.
(٢) مرآة العقول ٧٢، ٤ـ ٧٣.
(٣) بحار الأنوار ١٣١، ٧٢.
(٤) بحار الأنوار ٣٤، ٣٧.
(٥) أصول الكافي ٣٨٧، ٢، ٤٠٩.
(٦) الأنوار النعمانية ٣٠٧، ٢.
(٧) بحار الأنوار ١٣٧، ٧٢ ـ ١٣٨.

قلت لأبي الحسن ﷺ: إن لي جارين أحدهما ناصب والآخر زيدي ولابد من معاشرتهما فمن أعاشر ؟ فقال: هما سيان، من كذب بآية من كتاب الله فقد نبذ الإسلام وراء ظهره، وهو المكذب بجميع القرآن والأنبياء والمرسلين، ثم قال: إن هذا نصب لك وهذا الزيدي نصب لنا)[1].

٨ ـ تكفير الأمة كلها:

تلهج الرافضة الإمامية بأنواع من أقذع السباب والشتائم واللعن للأمة بأسرها عدا من وافقهم، حيث يزعمون أنهم خانوا، وغدروا، وارتدوا، وبأنهم خلق منكوس ليسوا من البشر، بل هم قردة، وكلاب وخنازير، ومن شواهد ذلك ما أورده المجلسي [ت ١١١١هـ] (عن أبي بصير قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أنا مولاك ومن شيعتك، ضعيف البصر، اضمن لي الجنة قال: أولا أعطيك علامة الأئمة ؟ قلت: وما عليك أن تجمعها ؟ قال: وتحب ذلك ؟ قلت: كيف لا أحب ؟ فما زاد أن مسح على بصري فأبصرت جميع ما في السقيفة التي كان فيها جالساً، قال: يا أبا محمد هذا بصرك، فانظر ما ترى بعينك، قال: فوالله ما أبصرت إلا كلباً وخنزيراً وقرداً: قلت ما هذا الخلق الممسوخ ؟ قال: هذا الذي ترى، هذا السواد الأعظم، ولو كشف الغطاء للناس ما نظر الشيعة إلى من خالفهم إلا في هذه الصورة، ثم قال: يا محمد، إن أحببت تركتك على حالك هكذا وحسابك على الله، وإن أحببت ضمنت لك الجنة ورددتك على حالك الأول قلت: لا حاجة في النظر إلى هذا الخلق المنكوس، ردني فما للجنة عوض، فمسح يده على عيني فرجعت كما كنت)[2].

ولهذا كان من فرط مقتهم لمن خالفهم أن جعلوا من نسك الزيارة لمشهد علي ﷺ قولهم (لعن الله من خالفك، ولعن الله من افترى عليك وظلمك، ولعن

(١) أصول الكافي بشرح المازندراني ١٢،٣٠٤.
(٢) بحار الأنوار ٢٧،٣٠.

اللّه من غصبك، ولعن اللّه من بلغه ذلك فرضي به، أنا إلى اللّه بريء، لعن اللّه أمة خالفتك، وأمة جحدتك، وجحدت ولايتك، وأمة تظاهرت عليك، وأمة حادت عنك، وخذلتك، الحمد للّه الذي جعل النار مثواهم وبئس الورد المورود وبئس ورد الواردين.... اللهم العن الجوابيت والطواغيت والفراعنة، واللات والعزى، وكل ندّ يدعى دون اللّه، وكل مفتر، اللهم العنهم وأشياعهم وأتباعهم، وأولياءهم وأعوانهم، ومحبيهم لعناً كثيراً)[1].

٩ ـ تكفير بعضهم بعضا:

لم يقتصر الأمر كما أسلفنا على تكفير سائر المخالفين لهم بل تعدى ذلك إلى تكفير بعضهم بعضا وفي ذلك يروي الكشي [ت٣٥٠هـ] أنه في سنة ١٩٠هـ اجتمع ستة عشر رجلاً في باب أبي الحسن الثاني، فقال له أحدهم ويدعى جعفر بن عيسى: (يا سيدي: نشكو إلى اللّه وإليك[2] ما نحن فيه من أصحابنا، فقال: وما أنتم منهم ؟ فقال جعفر: هم يزندقونا، ويكفرونا، ويتبرؤون منا، فقال: هكذا كان أصحاب علي بن الحسين، ومحمد بن علي، وأصحاب جعفر، وموسى: صلوات اللّه عليهم، ولقد كان أصحاب زرارة يكفرون غيرهم، وكذلك غيرهم كانوا يكفرونهم... وقال يونس: جعلت فداك إنهم يزعمون أنا زنادقة)[3].

قلت: ولا عجب أن تقف على مثل هذه عند الطائفة على وجه الخصوص وعند سائر الفرق المخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة من أهل البدع والأهواء الذين ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة أنهم مذمومون ومن المعلوم أنه كلما غلت طائفة في مفارقة أهل السنة والجماعة كانت في نفسها أعظم تفرقاً واختلافاً وأولى بالذم من غيرها، والإمامية كما يقول ابن تيمية رحمه اللّه

(١) من لا يحضره الفقيه ٢،٣٥٤ .

(٢) هكذا بالعطف بالواو الذي يقتضي التسوية وهو من الألفاظ الشركية.

(٣) رجال الكشي ٤٩٨ ـ ٤٩٩.

[ت٧٢٨] (أولى بمفارقة سائر طوائف الأمة فهم أبعد عن الحق، ولا سيما وهم في أنفسهم أكثر اختلافا من جميع فرق الأمة... وأما أهل الجماعة فهم أقل اختلافا في أصول دينهم من سائر الطوائف، وهم أقرب إلى كل طائفة من كل طائفة إلى ضدها، فهم الوسط في أهل الإسلام، كما أن أهل الإسلام هم الوسط في أهل الملل)[1]. وإذا علم هذا فمن يا ترى تستثنى الرافضة من استحقاق اللعن والوعيد ومن تراهم يزكون ويمجدون، إنهم طائفة من الزنادقة كالمختار بن عبيد الثقفي الهالك سنة ٦٧هـ ذلكم الكذاب ومدعي النبوة وعلم الغيب[2]، أو نصير الطوسي الهالك سنة ٦٧٢هـ[3] والأثير عند هولاكو التتري، أو المتهمين بالكذب والرفض من أمثال جابر الجعفي [ت١٦٧هـ][4]وزرارة بن أعين المفرط في تشيعه[5]، أو المجوسي الأصل الرومي الدار أبو لؤلؤة فيروز قاتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يصلي في المحراب[6]، حتى إنه ليسمى عندهم (بابا شجاع الدين) ويعدون يوم مقتل عمر رضي الله عنه من أعظم أعيادهم[7]، ومن تأمل وقف على كثير مما سودوا به صحائف مصنفاتهم المعتمدة لديهم من الفضائع والأكاذيب التي تسلطوا بها على الطعن في الإسلام وأهله نسأل الله العافية.

---

(١) منهاج السنة النبوية ٣،٤٦٨.

(٢) الملل والنحل ١،١٤٧ـ ١٥٠، ميزان الاعتدال ٤،٨٠ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١٣،٢٣٤، الأعلام ٧،٣٠–٣١ .

(٤) ميزان الاعتدال ١،٣٧٩ـ ٣٨٤.

(٥) الكامل الضعفاء ٤،٢١٥، ميزان الاعتدال ٢،٦٩–٧٠.

(٦) البداية والنهاية ٧،١٥٤.

(٧) انظر أخبارهم في ذلك في الأنوار النعمانية ١،١٠٨ .

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.. أما بعد:

فإني أحمد الله على ما يسّر وأعان على إنجاز هذا البحث المتواضع على ما فيه من جهد المقل، ويحسن أن أشير في خاتمته إلى جملة من النتائج التي خلصت إليها من خلاله.

فأقول ومن الله أستمد العون والتوفيق:

- إن ظاهرة التكفير غير المنضبط بضوابط الشرع الحنيف ظهرت أول ما ظهرت في الإسلام على يد الخوارج الذين كفروا أهل القبلة بالذنوب، واستحلوا لذلك دماء المسلمين وأموالهم، ثم أعقبهم على ذلك الرافضة الذين كفروا أبا بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة بل كفروا سائر من خالفهم فيما أصلوه واعتقدوه ولم يستثنوا إلا النزر اليسير.
- إن أراء الباحثين والمؤرخين للفرق قد تعددت حول نشأة الخوارج والذي يترجح القول به أن أصل هذه الفرقة حدث على عهد النبي ﷺ على يد ذي الخويصرة (حرقوص بن زهير السعدي) غير أن الخوارج لم يظهروا في صورة جماعة واضحة المعالم إلا بعد حادثة التحكيم لأسباب نقموها افتراءاً على علي رضي الله عنه.
- تبين من خلال هذا البحث أن منشأ التكفير لدى الخوارج ناشئ عن تصورهم لمفهوم الإيمان حيث يرون أن الإيمان كلٌ لا يتجزأ ، وأن من ترك ركناً من أركانه فقد سلب منه كله ومن هذا المنطلق جاءت أقوالهم صارمة في حق من ارتكب كبيرة من الذنوب على الفهم الذي تصوروه، فاكفروا عثمان و علي ومعاوية وأصحاب الجمل والحكمين ومن رضي

بالتحكيم، وأوجب بعضهم البراءة من الأطفال حتى يُدعوا إلى الإسلام، وأوجب آخرون الهجرة من دار المخالفين لأنها دار كفر، كما كفر بعضهم بعضاً، وصاروا لأجل ذلك شيعاً وأحزاباً.

- تعددت الأقوال في نشأة التشيع لدى الشيعة ولدى مخالفيهم إلا أن الذي يترجح القول به هو أن التشيع مرّ بمراحل في نشأته وتطوره وأن الأقرب إلى الصواب أن المنحرف منه إنما نشأ في أواخر عهد عثمان رضي الله عنه وعلى وجه أدق بسبب ما أحدثه عبدالله بن سبأ اليهودي حيث كان أول من أظهر الطعن على الخلفاء الثلاثة، وعدّهم مغتصبين للخلافة وأول من نادى بقداسة علي رضي الله عنه، وقال بفكرة الوصاية وأول من قال بالرجعة.
- تبين أن الشيعة الحائدين عن جادة الصواب تبعاً لما أصلوه من مبادئ ولفرط جهلهم وغلوهم أتوا بما تشيب له الرؤوس من الأوابد في حق خيار الأمة وأئمتها ويكفي للوقوف على ذلك تأمل ما حشدته مصادرهم المعتمدة من النصوص الصارخة التي تلهج باللعن والتكفير والسباب والقذف والبراءة من خيرة صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم، ونصوصهم في ذلك أظهر من أن تخفى وأكثر من أن تحصى.
- إن من الأنصاف أن نشير إلى أن بعض الشيعة مغببون عن حقيقة المذهب، ونحسب أنه متى ما ظهرت لهم حقيقة ما يدين به أئمتهم ومرجعياتهم، وتجردوا عن التبعية المفرطة والتقليد الأعمى وأعملوا عقولهم، وما تمليه الفطر السليمة فستتبين لهم حقائق الأمور وسيعودون بإذن الله إلى جادة الحق والصواب.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإباضية " بحث "، عبدالعزيز العبداللطيف، ط. الأولى ١٤١٢هـ.
- الإباضية بين الفرق الإسلامية، علي بن يحى يعمر، مكتبة وهبه.
- الإباضية في موكب التاريخ، علي بن يحى يعمر، مكتبة وهبه.
- أثر الخوارج في الفكر الإسلامي، عبدالتواب محمد عثمان، المحدثين للتحقيقات العلمية والنشر القاهرة.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، وبذيله المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، للحافظ العراقي، دار المعرفة بيروت.
- الأخبار الطوال، الدينوري، تحقيق عبدالمنعم عامر وجمال الدين الشيال، ط. الأولى ١٩٦٠م، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، بهامشه الاستيعاب لابن عبدالبر، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، دار الفكر - بيروت.
- أصل الشيعة وأصولها، محمد الحسين آل كاشف الغطا، ط، الثالثة، ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م
- أصول الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، تصحيح وتعليق، علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، ط. الثالثة، طهران ١٣٨٨هـ.
- أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية عرض ونقد، د ناصر القفاري، ط. الثالثة ١٤١٨هـ - ١٩٨٨م، دار الرضا للنشر والتوزيع - الجيزة.
- الاعتقادات وتسمى (عقائد الصدوق، أو دين الإمامية) ابن بابويه القمي، ط. إيران ١٣٢٠هـ.
- الاعتقادات، المجلسي، مطبوع في حاشية الاعتقادات للصدوق.
- الأعلام، خير الدين الزركلي ط. السابعة ١٩٨٦م، دار العلم للملايين - بيروت.
- الأنوار النعمانية، نعمة الله الجزائري، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

- أوائل المقالات في المذاهب المختارات، محمد بن محمد العكبري الملقب بالمفيد، مكتبة الداوري، إيران، قم.
- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسي ط. الثالثة ١٤٠٣هـ إحياء التراث العربي - بيروت.
- البداية والنهاية، ابن كثير، حققه ودقق أصوله، علي شيري، ط. الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م
- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، ابن تيمية، تحقيق مجموعة من الباحثين، نشر وزارة الشؤون الإسلامية بالسعودية ١٤٢٦هـ
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، الحافظ الذهبي، مكتبة القدس، القاهرة ١٣٦٧هـ
- تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة، عبدالله فياض، ط. الثانية ١٣٩٥هـ مؤسسة الأعلمي، بيروت.
- تاريخ الأمم والملوك، الطبري، ط. الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، علي حسني الخرطبولي، دار المعارف مصر ١٩٥٩م
- تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي، تصحيح وتدقيق هاشم الرسولي، المكتبة العلمية، طهران.
- تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني: حقق وعلق حواشيه، عبدالوهاب عبداللطيف، ط الثانية ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- تلبيس إبليس، عبدالرحمن بن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٨هـ
- تلخيص الشافي، محمد بن الحسن الطوسي، تعليق: حسين بحر العلوم، دار الكتب الإسلامية. ط. الثانية ١٣٩٤هـ قم.
- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، أبو الحسن الملطي، قدمه وعلق عليه محمد زاهد الكوثري، مكتبة المثنى، بغداد ١٣٨٨هـ / ١٩٨٦ م.

▪ تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط الأولى، دار إحياء التراث العربي - بيروت ٢٠٠١ م.
▪ الحكومة الإسلامية، آية الله الخميني، دروس ألقيت في النجف تحت عنوان " ولاية الفقيه " ١٣٨٩هـ.
▪ الخصال، ابن بابويه القمي، تصحيح: علي أكبر الغفاري، مكتبة الصدوق، طهران ١٣٨٩هـ
▪ الخطط، المقريزي، ط. بولاق ١٢٧٠هـ - ١٨٥٣. مصر.
▪ الخوارج في العصر الأموي، د. نايف معروف، ط. ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م دار الطليعة بيروت.
▪ الخوارج والشيعة، فلهوزن، ترجمة عبدالرحمن بدوي، ط. النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٨م
▪ دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين، نقلها إلى العربية محمد ثابت وآخرون، ط. طهران.
▪ دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، د. عرفان عبدالحميد، ط. الأولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م مؤسسة الرسالة بيروت.
▪ دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين " الخوراج والشيعة "، د. أحمد جلي ط. الثانية ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م - مركز الملك فيصل للبحوث الإسلامية.
▪ ذم الكلام وأهله، أبو إسماعيل الهروي، مصورة عن المجلد ٤٨ من الكواكب الدراري بالمكتبة الظاهرية بدمشق، مخطوطات جامعة الإمام محمد بن سعود برقم ٥٩٩٢.
▪ رجال الكشي " اختيار معرفة الرجال " الاختيار لمحمد بن الحسن الطوسي، والأصل لمحمد بن عمر الكشي، تصحيح وتعليق: حسن المصطفوي، ط طهران.
▪ الرد عل الجهمية، عثمان الدرامي قدم له وخرج أحاديثه وعلق عليه، بدر البدر، ط. الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، نشر الدار السلفية - الكويت.
▪ السنة، أبو بكر الخلال، دراسة وتحقيق د. عطية الزهراني، ط. الأولى ١٤١٠هـ

- ١٩٨٩ م، دار الراية - الرياض.

- السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون، علي بن برهان الحلبي، نشر دار المعرفة - بيروت ١٤٠٠هـ
- شرح جامع، محمد صالح المازنداني، المكتبة الإسلامية، طهران ١٣٨٤هـ
- الصحاح، إسماعيل الجوهري، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ط الثانية ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م دار العلم للملايين ت بيروت.
- صحيح البخاري بشرحه فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه محمد فؤاد عبدالباقي، قام بإخراجه وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية.
- صحيح مسلم بترتيب وتبويب محمد فؤاد عبدالباقي، ط. الثانية ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م - دار الفكر - بيروت.
- صحيح مسلم بشرح النووي، ط. الثانية، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م دار الفكر - بيروت.
- العقد الفريد، ابن عبدربه الأندلسي تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الفكر
- العواصم من القواصم، أبو بكر بن العربي، ط الأولى. نشر وزارة الشؤون الإسلامية، السعودية.
- الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، تحقيق محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، ط. الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م نشر دار الكتب العلمية.
- الفتنة الكبرى، طه حسين، جـ١ " عثمان " دار المعارف مصر ١٩٦٨م.
- الفتنة الكبرى، طه حسين، جـ٢ " علي وبنوه " دار المعارف مصر ١٩٦٩م
- فجر الإسلام، أحمد أمين، ط. العاشرة ١٩٦٩م بيروت.
- فرق الشيعة، الحسن بن موسى النوبختي، دار الأضواء، بيرو، ط. الثالثة ١٤٠٤هـ
- الفرق بين الفرق، عبدالقاهر البغدادي، ط. الرابعة، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الظاهري، وبهامشه الملل والنحل

للشهرستاني، مكتبة السلام العالمية.

- الفصول المهمة في أصول الأئمة، محمد بن الحسن الحر العاملي، ط. الثالثة، مكتبة بصيرتي، قم.
- الفهرست، النديم، تحقيق رضا تجدد ط. الثالثة ١٩٨٨م دار المسيرة.
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ بيروت.
- الكامل في الضعفاء، الجرجاني، ط. الأولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م. دار الكتب العلمية
- الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس المبرد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. الثالثة ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م دار الفكر العربي، القاهرة.
- لسان العرب، ابن منظور، ط. الثالثة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، دار صادر، بيروت.
- لسان الميزان، ابن حجر، ط. الثانية ١٣٩٠هـ ١٩٧١م منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد تصوير عن ط. الأولى ١٣٩٨هـ.
- مرآة العقول، محمد باقر المجلسي، ط. إيران، ١٣٢٥هـ
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب.
- مسند الإمام أحمد م بهامشه منتخب كنز العمال، فهرس الرواة محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ دار صادر.
- مسند الإمام أحمد، تحقيق عدد من الباحثين، إشراف د. عبدالله التركي، ط. الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م مؤسسة الرسالة، بيروت.
- المصنف، عبدالرزاق الصنعاني، عنى بتحقيق نصوصه، حبيب الرحمن الأعظمي، ط. الأولى ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
- المعالم الزلفى في بيان أحوال النشأة الأولى والأخرى، هاشم بن سليمان البحراني، ط. إيران ١٢٨٨هـ.

- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إخراج د. إبراهيم أنيس وآخرون ط. الثانية.
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن الأشعري، عني بتصحيحه هلموت ريتر، ط. الثالثة.دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- المقالات والفرق، سعد بن عبدالله القمي، تصحيح وتعليق، محمد جواد، مطبعة حيدري، طهران ١٩٦٣م.
- الملل والنحل، محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت
- من لا يحضره الفقيه، ابن بابويه القمي، دار صعب، دار التعارف، بيروت ١٤٠١هـ.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، ابن تيمية، تحقيق، د. محمد رشاد سالم، ط. الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الحافظ الذهبي، تحقيق على البجاوي ط. الأولى ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م، دار المعرفة - بيروت.
- نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثنى عشرية، أحمد محمود صبحي، دار المعارف، مصر ١٩٦٩م.

ظاهرة التكفير .. الأسباب والعلاج والآثار

جذور التكفير والعنف عند اليهود والنصارى

د. علاء محمد سعيد

مقدمة

الحمد لله رب العالمين نحمده ونستعين به ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له من دون الله وليا مرشدا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

أما بعد فإن فتنة التكفير التي ابتليت بها أمة الإسلام حتى أصبحت عند نفر ممن لا علم لهم بأصول الدين ولا فروعه شيئا يسيرا أن يرمي غيره فردا أو جماعة أو شعبا بأسره بالفسق أو الكفر أو الابتداع، أو المروق من الدين.

بل وصل الأمر مداه حينما نجد بعض الذين لا يحسنون القراءة والكتابة ممن فهموا الدين فهما خاطئا، وأعطوا لأنفسهم سلطانا على رقاب العباد في دنياهم وأخراهم، أن يكفروا العلماء والدعاة إلى الله تعالى بلا ذنب ولا جريرة، أو لخلاف فقهي، أو أمر دنيوي.

كل هذا يستوجب أن تكون هناك وقفة جادة تقوم على الفهم الصحيح لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والتأصيل العلمي، والاستدلال الشرعي.

لمواجهة الفهم الأعوج، والجهل الأعمى، والهوى الذي ساد عند هؤلاء التكفيريين.

ويأتي هذا المؤتمر ليتصدى لهذه الظاهرة التي فُتنت بها فئة من أبناء أمتنا، ومن بني جلدتنا، لنعيدهم إلى رحاب الكتابة والسنة وهدي سلف هذه الأمة الصالح، بالدليل الشرعي الواضح، والنظر العلمي الثاقب، على أساس من الاتباع الصحيح، والقصد السليم والإخلاص لله تعالى، والمحبة والأخوة بين المؤمنين والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

وتأتي هذه المشاركة المتواضعة في هذا المؤتمر المبارك، في إطار الوقوف على جذور التكفير عند غير المسلمين وكيف تسرب إلى المسلمين من عند غيرهم، لنعرف أن أمة الإسلام إنما هي أمة التوحيد والأخوة والرحمة، وأن هذه الظاهرة البغيضة وغيرها ليست ناشئة من الاتباع لكتاب الله ولا لسنة رسول الله – ﷺ –.

إنما هي ناشئة من اتباع سَنَن الأمم السابقة التي خالفت أمر الله تعالى واتبعت أهواءها وهذا ما حذرنا منه رسول الله – ﷺ – حينما قال (لَتَتَّبِعُن سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اَلْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ: فَمَنْ ؟ !.)[1].

أهمية هذا الموضوع:

يأتي موضوع هذا المؤتمر الكريم في التصدي لهذه الظاهرة التي فرقت الأمة، وشتت شملها، وأوجدت العداوة والبغضاء بين نفر من أبنائها، ليحاول أن يضع حدا لهذا النزيف في جسد الأمة وفي فكرها وجهدها.

ويأتي موضوع دراسة جذور هذه الظاهرة عند اليهود والنصارى لندرك حجم الخطأ الكبير الذي وقعت فيه الأمم السابقة، والمآل الخطير الذي انزلقوا إليه بعد ولوجهم في هذه الفتنة وعدم استطاعتهم الخروج منها.

وما ترتب على ذلك من ذهاب حقيقة الدين بأصوله وأركانه وثوابته التي بعث الله بها الأنبياء والرسل.

ثم بعد ذلك ما ورثوه من عداوة وبغضاء وشحناء، جعلتهم فرقا متناحرة متباغضة.

ثم ما تأثرت به بعد ذلك الحياة العامة نظرة لاستشراء ظاهرة التكفير التي تعدت حدودها وتسلطوا بها على رقاب بعضهم، حتى جمدوا الحياة

(١) أخرجه أحمد ٣/٨٤(١١٨٢٢) و٣/٨٩(١١٨٦٥) و"البُخَارِي" ٤/٢٠٦(٣٤٥٦). و"مسلم" ٨/٥٧(٦٨٧٥).

وجففوا منابع العلم والبحث والنظر والتجريب.

فأدى ذلك إلى تمرد المجتمع بعد ذلك الدين وظهور ما عرف بالعلمانية المتطرفة التي أقصت الدين عن الحياة ورفضته رفضا تاما أو ركنته في زاوية ضيقة من زوايا الحياة.

كما هو مشاهد في المجتمعات الأوربية بل في أغلب دول العالم التي تأخذ بالنظام الغربي ليبراليا أو اشتراكيا.

وبعد هذه الدراسة المتواضعة التي قمت بها على عجالة لما كان عليه وضع اليهود والنصارى في أمر التكفير وأن هذا الأمر لا زال شائعا بينهم.

وبعد عدة لقاءات ومجادلات أو مقابلات مع بعض من يتبنون منهج التكفير خاصة بعد انتقالي لأسبانيا للعمل في ميدان الدعوة.

أجد شبها كبيرا بين الفريقين أعني ما كان عليه اليهود والنصارى في أمر التكفير لبعضهم، وما أصبح عليه من يتبنون هذا النهج من بين المسلمين في أيامنا هذا.

١ – من ناحية الأسباب والبواعث التي انطلقوا منها لتكفير غيرهم.

٢ – ومن ناحية الطريقة والأسلوب الذي يقومون به.

٣ – من ناحية النتيجة والأثر الذي ينتج عن ذلك.

وهذا ما سيلحظه كل قارئ من خلال قراءته للبحث في مواطن أشرت إليها بصريح العبارة عن أوجه الشبه بين الفريقين، منبها ومحذرا لكل مسلم ألا ينساق إلى هذا المرتع الوخيم، وهذه الهوة المهلكة.

أو يكفي ما ذكر ليتنبه العاقل اللبيب إلى ذلك.

سائلا الله تعالى أن يقبل العمل ويغفر الزلل ويجنبنا المراء والجدل.

وأن يوفقني وجميع المسلمين إلى ما يرضيه سبحانه وتعالى.

إنه ولي ذلك والقادر عليه . .

المبحث الأول
ما ورد في الكتاب والسنة
من تكفير اليهود والنصارى وخلافهم لبعضهم

إن القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز، الخالد المحفوظ بحفظ الله تعالى الذي أنزله على رسوله محمدٍ – ﷺ – وبين فيه الحق والهدى والرحمة للعباد، وما يحتاجه العباد لدينهم ودنياهم وأخراهم، وجعله مهيمنا على ما سبقه من الكتب.

ومما كثر ذكره في القرآن الكريم أحوال الأمم السابقة، وما كان من أمرها لنأخذ العبرة والعظة ممن كان قبلنا.

كذلك بينت لنا آيات القرآن الكريم أحوال من سبقنا من بني إسرائيل خاصة اختلافهم وتفرقهم في دين واجترائهم على الله تعالى وغلوهم وانحرافهم عن المنهاج القويم قال الله تعالى ﴿ إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل: ٧٦].

قال الإمام القرطبي رحمه الله:(وذلك أنهم اختلفوا في كثير من الأشياء حتى لعن بعضهم بعضا فنزلت.

والمعنى: إن هذا القرآن يبين لهم ما اختلفوا فيه لو أخذوا به وذلك ما حرفوه من التوراة والإنجيل وما سقط من كتبهم من الأحكام) (١).

ومن ضمن مابينه الله تعالى في شأنهم هو غلوهم في دينهم وتكفيرهم لبعضهم سواء أكان بين طائفة واحدة منهم أو بين الطائفتين.

(١) الجامع لأحكام القرآن الإمام القرطبي ١٣ / ٢٠٧.

وكذلك كانت السنــة المطهرة مبينة لأحوال أهل الكتاب بإخبار النبي – ﷺ – بما أطلعه الله عليه، أو بما كان من مواقف حدثت بين رسول الله تعالى وبين اليهود والنصارى.

ومن هذا ما يلي:

- **اختلافهم وتفرقهم بعد علمهم بالحق**:

بين الله تعالى في القرآن الكريم أن بني إسرائيل من اليهود اختلفوا في دينهم وتفرقوا بعدما جاءتهم الآيات البينات من ربهم، وهذا مدعاة لأن يكفر بعضهم بعضا.

قال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس: ٩٣]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: (أي: ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي: ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس)[١].

وقال الله تعالى ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [الشورى: ١٤].

ولذلك حذرنا الله تعالى من هذا الاختلاف ونهانا عن هذه الفرقة التي وقع فيها اليهود والنصارى من قبلنا قال الله تعالى: ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

(١) تفسير القرآن العظيم الإمام بن كثير. ٤/ ٢٩٥. دار طيبة للنشر.

قال العلامة السعدي رحمه الله تعالى:" ثم نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال: ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ ومن العجائب أن اختلافهم ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ الموجبة لعدم التفرق والاختلاف، فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين، فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله، فاستحقوا العقاب البليغ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

- **وجود العداوة والبغضاء بينهم إلى يوم القيامة:**

بين الله تعالى أنهم بسبب جرأتهم وافترائهم على الله تعالى وعدم اتباعهم للحق جعل الله تعالى بينهم العداوة والبغضاء باقية إلى يوم القيامة، حتى ولو بدت لنا فيما بينهم بعض صور المودة والتعاون فهم أبدا لا يتعاونون على الخير والحق إنما على ما يمليه عليهم الشيطان ويزينه لهم في مواجهة الحق وأهله.

لكن حقيقة الأمر أن عداوتهم لبعضهم كبيرة وبغضهم شديد

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الارْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة: ٦٤].

قال الإمام بن كثير رحمه الله(وقوله: ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ يعني: أنه لا تجتمع قلوبهم، بل العداوة واقعة بين فِرقهم بعضهم في بعض دائمًا لأنهم لا يجتمعون على حق، وقد خالفوك وكذبوك.

وقال إبراهيم النَّخَعي: ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾ قال:

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. عبد الرحمن بن ناصر السعدي.١٤٢/١.

الخصومات والجدال في الدين(١).

- **زعمهم أنهم المقربون من الله عما سواهم:**

فقد زعم اليهود والنصارى على الرغم من كل الافتراء الذي افتروه على الله تعالى وعلى أنبيائه ورسله أنهم المقربون إلى الله تعالى، وأنهم مفضلون على من سواهم من الخلق والناس، وهذا في تحقير للأمم الأخرى واستهانة بشأنها، ولكن الله تعالى رد عليهم قولهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [المائدة: ١٨].

قال الإمام الألوسي رحمه الله: " ﴿ وَقَالَتِ اليهود والنصارى نَحْنُ أَبْنَاء الله ﴾ حكاية لما صدر من الفريقين من الدعوى الباطلة لأنفسهم، وبيان لبطلانها إثر ذكر ما صدر عن أحدهما من الدعوى الباطلة لغيره وبيان بطلانها أي قال كل من الطائفتين هذا القول الباطل، ومرادهم بالأبناء المقربون أي نحن مقربون عند الله تعالى قرب الأولاد من والدهم، و بالأحباء جمع حبيب بمعنى محب أو محبوب"(٢).

قال السعدي رحمه الله: " ومن مقالات اليهود والنصارى أن كلا منهما ادعى دعوى باطلة، يزكون بها أنفسهم، بأن قال كل منهما: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾.

والابن في لغتهم هو الحبيب، ولم يريدوا البنوة الحقيقية، فإن هذا ليس من مذهبهم إلا مذهب النصارى في المسيح.

قال الله ردا عليهم حيث ادعوا بلا برهان: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣ / ١٤٧ دار طيبة للنشر.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.الإمام شهاب الدين الألوسي. ٤/ ٤٣٤.

بِذُنُوبِكُمْ ﴾ ؟

فلو كنتم أحبابه ما عذبكم [لكون الله لا يحب إلا من قام بمراضيه]

﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ تجري عليكم أحكام العدل والفضل ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾[(1)].

- **تفضيلهم لأنفسهم على سائر الناس:**

ادعى اليهود والنصارى أنهم خير من الناس جميعا وبالتالي فلا حق للناس عليهم، خاصة اليهود الذين استحلوا دماء الناس وأموالهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:" وقوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ أي: إنَّمَا حَمَلَهم على جُحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حَرَج في أكل أموال الأميين، وهم العرب؛ فإن الله قد أحلها لنا. قال الله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: وقد اختلقوا هذه المقالة، وائتفكوا بهذه الضلالة، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها، وإنما هم قوم بُهْت."[(2)].

- **غلوهم في دينهم**

غالى أهل الكتاب في دينهم وبعدوا عن الحق، فضلوا عن سبيل الله وصراطه المستقيم، وظهر فيهم الاعوجاج عن المنهج الصحيح الذي بعث الله به أنبياءه ورسله.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٢٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٦١.

قال الله تعالى:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

قال الإمام البغوي:" ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ أي: لا تتجاوزوا الحد، والغلو والتقصير كل واحد منهما مذموم في الدين، وقوله: ﴿ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ أي: في دينكم المخالف للحق، وذلك أنهم خالفوا الحق في دينهم، ثم غلوا فيه بالإصرار عليه، ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ ﴾ والأهواء جمع الهوى وهو ما تدعو إليه شهوة النفس ﴿ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ ﴾ يعني: رؤساء الضلالة من فريقي اليهود والنصارى، والخطاب للذين في عصر النبي ﷺ نهوا عن اتباع أسلافهم فيما ابتدعوه بأهوائهم ﴿ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ يعني: من اتبعهم على أهوائهم ﴿ وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ عن قصد الطريق، أي: بالإضلال، فالضلال الأول من الضلالة، والثاني بإضلال من اتبعهم.

وقال الله تعالى:﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا ﴾ [النساء: ١٧١].

- **تكفير اليهود والنصارى لبعضهم**.

الصراع بين اليهود والنصارى قديم في تكفير بعضهم لبعض، ونعت بعضهم بأقبح الأوصاف في البعد عن الحق، والانحراف عن هدي الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله تعالى لهم.

قال الله تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [البقرة: ١١٣].

قال ابن كثير رحمه الله:" يبين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم. كما قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله – ﷺ –، أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله – ﷺ –، فقال رافع بن حُرَيْملة ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل. وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء. وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة. فأنزل الله في ذلك من قولهما"[١].

قال السعدي رحمه الله:" وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد، إلى أن بعضهم ضلل بعضا، وكفر بعضهم بعضا، كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم.

فكل فرقة تضلل الفرقة الأخرى، ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل، الذي أخبر به عباده، فإنه لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدق جميع الأنبياء والمرسلين، وامتثل أوامر ربه، واجتنب نواهيه، ومن عداهم، فهو هالك[٢].

- **قولهم مثل أقوال أهل الكفر:**

كذلك لم يتورع اليهود والنصارى أن يقولوا مثل أقوال أهل الكفر والضلال من الأمم الأخرى ومن عباد الأصنام والأوثان، فوقعوا في مثل ما

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٨٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٦٣.

وقعوا فيه وقالوا بأقوال أهل الكفر والضلال، وهذا كان أيضا مدعاة لأن يكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا.

قال الله تعالى:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

قال ابن كثير رحمه الله:" فقال: ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي: لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم، ﴿ يضاهئون ﴾ أي: يشابهون ﴿ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي: من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضل هؤلاء، ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ وقال ابن عباس: لعنهم الله، ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ؟ أي: كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل؟"[1].

- **عدم حبهم الخير لغيرهم**:

طبع أهل الضلال في كثير من الأحوال أنهم لا يحبون لغيرهم الهداية والرشاد وهذا ما كان من اليهود والنصارى مع المسلمين لما بعث الله تعالى محمدا وأرسله بالحق وأنزل الخير على يديه، فحسد اليهود والنصارى المسلمين على الخير الذي أنزله الله تعالى عليهم.

وكان الأولى بهم اتباعه والعمل به وتصديقه لا أن يحسدوا المسلمين عليه.

قال الله تعالى:﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

قال القرطبي رحمه الله: "فتأويل الكلام: ما يحب الكافرون من أهل

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٣٤.

الكتاب ولا المشركين بالله من عبدة الأوثان، أن ينزل عليكم من الخير الذي كان عند الله فنزله عليكم. فتمنى المشركون وأهل الكتاب أن لا ينزل الله عليهم الفرقان وما أوحاه إلى محمد – ﷺ – من حكمه وآياته، وإنما أحبت اليهود واتباعهم من المشركين ذلك، حسدا وبغيا منهم على المؤمنين.

وفي هذه الآية دلالة بينة على أن الله تبارك وتعالى نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين، والاستماع من قولهم، وقبول شيء مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم، بإطلاعه جل ثناؤه إياهم على ما يستبطنه لهم أهل الكتاب والمشركون من الضغن والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون." (1).

قال السعدي رحمه الله: "وأخبر عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين، أنهم ما يودون ﴿ أَنْ يُنزلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ أي: لا قليلا ولا كثيرا ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ حسدا منهم، وبغضا لكم أن يختصكم بفضله فإنه ﴿ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾"(2).

- **تمنيهم كفر الناس وضلالهم:**

كان الأجدر باليهود والنصارى الدعوة إلى الدين الصحيح الذي أرسل الله به نبيه موسى وعيسى عليهما السلام، ثم أرسل به محمدا – ﷺ –.

لكن لكفرهم وضلالهم يحبون الكفر على الإيمان والفسق والفجور على الهداية والرشاد، حقدا على أهل الإيمان وحسدا لهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن الإمام الطبري. ٢/ ٤٧٠ مؤسسة الرسالة.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٦١.

قال الطبري رحمه الله: "ويعني جل ثناؤه بقوله:(حسدا من عند أنفسهم)، أن كثيرا من أهل الكتاب يودون للمؤمنين ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم يودونه لهم، من الردة عن إيمانهم إلى الكفر، حسدا منهم وبغيا عليهم."[1].

و قال الله تعالى:﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٩]

قال السعدي رحمه الله: "يحذر تعالى عباده المؤمنين عن مكر هذه الطائفة الخبيثة من أهل الكتاب، وأنهم يودون أن يضلوكم، كما قال تعالى ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً ﴾ ومن المعلوم أن من ود شيئا سعى بجهده على تحصيل مراده، فهذه الطائفة تسعى وتبذل جهدها في رد المؤمنين وإدخال الشبه عليهم بكل طريق يقدرون عليه، ولكن من لطف الله أنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله"[2].

- **عدم استجابتهم لدعوة الحق ودين الله الصحيح**

من سمات أهل الباطل الإعراض عن الحق وعدم الاستجابة لأهله.

وهذا مما حدث ولا زال من كثير من اليهود والنصارى قديما وحديثا.

فمع وضوح الأدلة والبراهين على صدق محمد – ﷺ – فيما جاء به من عند ربه.

ومع أن دعوة الإسلام تدعوهم إلى التمسك بأصول شرائعهم الصحيحة التي جاء به الأنبياء من قبل، وأنزلها الله في التوراة والإنجيل إلا أنهم يصدون ويعرضون.

قال الله تعالى:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

---

(١) جامع البيان ٢/ ٥٠٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/١٣٤.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

قال الطبري رحمه الله: "واختلف أهل التأويل فيمن نزلت فيه هذه الآية.

فقال بعضهم: نزلت في يهود بني إسرائيل الذين كانوا حَوالي مدينة رسول الله – ﷺ –.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا بشر قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبيّ الله – ﷺ – دعا يهودَ أهل المدينة إلى الكلمة السواء، وهم الذين حاجوا في إبراهيم.

ـ حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال، حدثني حجاج، عن ابن جريج قال: بلغنا أن نبي الله – ﷺ – دعا يهودَ أهل المدينة إلى ذلك، فأبوا عليه، فجاهدهم = قال: دعاهم إلى قول الله عز وجل:"قل يا أهل الكتاب تَعالوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم"، الآية.

وقال آخرون: بل نزلت في الوفد من نصارى نجران.

ذكر من قال ذلك:

ـ حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير:"قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم" الآية، إلى قوله: ﴿ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، قال: فدعاهم إلى النَّصَف، وقطع عنهم الحجةَ – يعني وفد نجران.

– حدثنا موسى قال، حدثنا عمرو قال، حدثنا أسباط، عن السدي قال: ثم دعاهم رسُول الله – ﷺ –. – يعني الوفدَ من نصارى نجران – فقال:"يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم"، الآية.

– حدثني يونس قال، أخبرني ابن وهب قال، حدثنا ابن زيد قال قال: يعني جل ثناؤه:"إنّ هذا لهو القصص الحقّ"، في عيسى = على ما قد بيناه فيما مضى

قال: فأبوا – يعني الوفدَ من نجران – فقال: ادعهم إلى أيسر من هذا، "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم"،

فقرأ حتى بلغ:"أربابًا من دون الله"، فأبوا أن يقبلوا هذا ولا الآخر"[١].

- **قولهم في دين الله بلا علم ومجادلتهم بلا بينة:**

يظهر الكفر والتكفير في الأمم التي تتجرأ على دين الله تعالى وتقول على الله تعالى بلا علم ولا بينة، وتفترى على رسل الله، وتؤول كتبها بلا دراية ولا فهم.

وهذا ما حدث بين اليهود والنصارى.

قال الله تعالى:﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالانْجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٥، ٦٦].

قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه:"ها أنتم"، القومَ الذين [قالوا في إبراهيم ما قالوا "حاججتم"، خاصمتم وجادلتم "فيما لكم به علم"، من أمر دينكم الذي وجدتموه في كتبكم، وأتتكم به رسل الله من عنده، وفي غير ذلك مما أوتيتموه وثبتت عندكم صحته"فلم تحاجون"، يقول: فلم تجادلون وتخاصمون"فيما ليس لكم به علم"، يعني: في الذي لا علم لكم به من أمر إبراهيم ودينه، ولم تجدوه في كتب الله، ولا أتتكم به أنبياؤكم، ولا شاهدتموه فتعلموه؟"[٢].

- **كفرهم بدين الله الحق بعد وضوح الأدلة لهم.**

حين يطمس الله على قلب الإنسان وبصيرته، تظهر له الأدلة الواضحة

(١) جامع البيان. الطبري. ٦/ ٤٨٥.
(٢) جامع البيان ٦/ ٤٩٣.

الناصعة، والبراهين الصادقة القاطعة على الحق وطريقه، فيعرض ويستكبر، ويعمي قلبه وعينه الكبر والهوى واتباع الشهوات، وهذا ما عرف عن اليهود والنصارى بعد أن جاء النبي محمد – ﷺ –.

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٠].

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه:"يا أهل الكتاب"، من اليهود والنصارى "لم تكفرون"، يقول: لم تجحدون "بآيات الله"، يعني: بما في كتاب الله الذي أنزله إليكم على ألسن أنبيائكم، من آيه وأدلته"وأنتم تشهدون" أنه حق من عند ربكم(١).

قال السعدي رحمه الله:" أي: ما الذي دعاكم إلى الكفر بآيات الله مع علمكم بأن ما أنتم عليه باطل، وأن ما جاءكم به محمد – ﷺ – هو الحق الذي لا تشكون فيه، بل تشهدون به ويسر به بعضكم إلى بعض في بعض الأوقات، فهذا نهيهم عن ضلالهم.

ثم وبخهم على إضلالهم الخلق، فقال ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فوبخهم على لبس الحق بالباطل وعلى كتمان الحق، لأنهم بهذين الأمرين يضلون من انتسب إليهم، فإن العلماء إذا لبسوا الحق بالباطل فلم يميزوا بينهما، بل أبقوا الأمر مبهما وكتموا الحق الذي يجب عليهم إظهاره، ترتب على ذلك من خفاء الحق وظهور الباطل ما ترتب، ولم يهتد العوام الذين يريدون الحق لمعرفته حتى يؤثروه، والمقصود من أهل العلم أن يظهروا للناس الحق ويعلنوا به، ويميزوا الحق من الباطل، ويظهروا الخبيث من الطيب، والحلال والحرام، والعقائد الصحيحة

(١) السابق ٦/ ٥٨٠.

من العقائد الفاسدة، ليهتدي المهتدون"(١).

- **عدم عملهم بكتاب الله الذي أنزله عليهم.**

من الواضح البين لدى اليهود والنصارى منذ قديم الزمان استهانتهم بدين الله تعالى وإعراضهم عن الذي أنزله الله تعالى عليهم، وتركهم لأوامر الله تعالى وتعديهم على حدوده، وارتكابهم لما حرم الله تعالى.

ومما لاشك فيه أن الأمة التي تفعل ذلك يضرب الله قلوب بعضها ببعض فيكفر بعضها بعضا ويلعن بعضها بعضا

قال الله تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]

قال الطبري رحمه الله: "وأما الذين أوتوا الكتاب، من اليهود والنصارى ومن شابههم، فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم، فلم يعبأوا بها، فكتموا الحق، وأظهروا الباطل، تجرؤوا على محارم الله، وتهاونوا بحقوق الله، وحقوق الخلق، واشتروا بذلك الكتمان ثمنا قليلا وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات، والأموال الحقيرة، من سفلتهم المتبعين أهواءهم، المقدمين شهواتهم على الحق، ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ لأنه أخس العوض، والذي رغبوا عنه -وهو بيان الحق، الذي فيه السعادة الأبدية، والمصالح الدينية والدنيوية- أعظم المطالب وأجلها، فلم يختاروا الدنيء الخسيس ويتركوا العالي النفيس، إلا لسوء حظهم وهوانهم"(٢).

- **تحريفهم وتزيفيهم لكلام الله تعالى:**

تشهد الأدلة القاطعة التاريخية والعلمية على أن التوراة والإنجيل قد حدث

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١٣٤.
(٢) جامع البيان ١/ ١٦٠.

فيها تبديل وتغيير وتحريف وتزييف.

هذا التبديل والتحريف الذي حدث لم يتم بيد خارجية تآمرت على دينهم أو عن طريق الخطأ والسهو والنسيان.

إنما امتدت يدهم الآثمة لكلام الله تعالى الذي أنزل عليهم لتحرف وتزيف عن عمد ومعرفة بما تفعل.

ولا شك أن ذلك من أكبر الجرائم في دين الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥].

قال بن كثير رحمه الله:" يقول تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ أي: ينقادوا لكم بالطاعة، هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود، الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أي: فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله؟ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة: ١٣]"(١).

وقال الله تعالى: ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٤٦].

وقال الله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا

---

(١) تفسير القرآن العظيم ابن كثير. ١/ ٣٠٧.

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الادْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الاخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

- **كتمانهم للحق مع علمهم به**:

مما هو معروف جلي بين اليهود والنصارى أنهم يكتمون الحق ولا يظهرونه، ولا يقولون أو يعملون به.

إنما من طباعهم كتمان الحق، وإظهار الباطل لأوهى الأسباب وأقل العلل، وهذا السبب الأكبر في ضياع دينهم وتشتت أمرهم.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

قال ابن كثير رحمه الله" أي: تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد – ﷺ – وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه"[١].

وقال الله تعالى ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وقال الله تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

قال ابن كثير رحمه الله: يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه، وافتروا على الله

(١) السابق ٢/ ٥٩.

فيه، ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة في بيانه[1].

و قال الله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١].

قال الطبري: واختلف أهل التأويل في المعنيّ بقوله:"إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء"، وفي تأويل ذلك.

فقال بعضهم: كان قائل ذلك رجلا من اليهود.

ثم اختلفوا في اسم ذلك الرجل.

فقال بعضهم: كان اسمه: مالك بن الصيف.

وقال بعضهم: كان اسمه فنحاص.

واختلفوا أيضًا في السبب الذي من أجله قال ذلك.

ذكر من قال: كان قائل ذلك: مالك بن الصيف.

– حدثنا ابن حميد قال، حدثنا يعقوب القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبي – ﷺ –، فقال له النبي – ﷺ –: أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أما تجد في التوراة أن الله يُبْغِض الحَبْر السمين؟ وكان حبرًا سمينًا، فغضب فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء ! فقال له أصحابه الذين معه: ويحك! ولا موسى! فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء ! فأنزل الله:"وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى"، الآية.

(١) السابق ٣ / ٦٧.

وقال آخرون: بل عنى بذلك جماعة من اليهود، سألوا النبي – ﷺ – آيات مثل آيات موسى.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا هناد قال، حدثنا يونس قال، حدثنا أبو معشر المدني، عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء ناسٌ من يهودَ إلى النبيّ ﷺ وهو مُحْتَبٍ، فقالوا: يا أبا القاسم، ألا تأتينا بكتاب من السماء، كما جاء به موسى ألواحًا يحملها من عند الله؟ فأنزل الله: يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً، الآيةاسورة النساء: ١٥٣]. فجثا رجل من يهود فقال: ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيئًا! فأنزل الله:"وما قدروا الله حق قدره". = قال محمد بن كعب: ما علموا كيف الله "إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورًا"، فحلَّ رسول الله – ﷺ – حُبْوته، وجعل يقول:"ولا على أحَدٍ"[(١)].

- **استهانتهم بالإيمان والكفر:**

أهل الكفر والتكفير يستهينون بدين الله تعالى ولا يثبتون على حال من الأحوال، فتراهم يعيشون في ظلمات يتخبطون فيها، لا يتذوقون حلاوة الإيمان.

فيستهينون بالكفر وتكفير غيرهم، ولا يلقون بالا لأن يصفوا غيرهم بالكفر، أو يصفهم غيرهم به.

وهذا حال اليهود والنصارى في استهانتهم بالإيمان والكفر، ومحاولة اليهود لإضلال المسلمين بهذه الطريق الخبيثة.

قال الله تعالى ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى

(١) جامع البيان الطبري. ١١/ ٥٢٢.

الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٢].

قال ابن كثير رحمه الله: "هذه مكيدة أرادوها ليلْبسُوا على الضعفاء من الناس أمْر دينهم، وهو أنهم اشْتَوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويُصلّوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما رَدّهم إلى دينهم اطّلاعهُم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

قال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، في قوله تعالى إخبارًا عن اليهود بهذه الآية: يعني يهود، صَلَّت مع النبي – ﷺ – صلاة الفجر وكفروا آخر النهار، مكرًا منهم، ليُرُوا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة، بعد أن كانوا اتبعوه.

وقال العَوْفِي، عن ابن عباس: قالت طائفة من أهل الكتاب: إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا، وإذا كان آخره فَصلّوا صلاتكم، لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا. "(١).

- **تكذيبهم وقتلهم للأنبياء والرسل:**

تجرأ أهل الكتاب من قبل لا سيما اليهود على الأنبياء والرسل تجرأ عظيما وتطاولوا عليهم تطاولا كبيرا، كما يفعل كثير من التكفيريين الآن.

فنرى اليهود يكذبون الأنبياء ويؤذونهم ويعارضوهم ويعاندوهم، ويصل الحد بهم إلى قتل الأنبياء واستباحة دمهم.

قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧].

قال ابن كثير رحمه الله:" ينعت، تبارك وتعالى، بني إسرائيل بالعتو

(١) تفسير القرآن العظيم. ٢ / ٥٩.

والعناد والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب -وهو التوراة- فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها. وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ الآية [المائدة: ٤٤]، ولهذا قال: ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾ قال السدي، عن أبي مالك: أتبعنا. وقال غيره: أردفنا. والكل قريب، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ [المؤمنون: ٤٤] حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات، وهي: المعجزات. قال ابن عباس: من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، وإبرائه الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأييده بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام -ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به. فاشتد تكذيب بني إسرائيل له وحَسَدهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض، كما قال تعالى إخبارًا عن عيسى: ﴿ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ الآية [آل عمران: ٥٠]. فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليهم السلام أسوأ المعاملة، ففريقًا يكذبونه. وفريقًا يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبإلزامهم بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلهذا كان يشق ذلك عليهم، فيكذبونهم، وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾"(١).

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٢١.

- **تأييدهم لأهل الباطل ضد أهل الإيمان**:

وصف الله تعالى أهل الكتاب بأنهم يساندون أهل الباطل من عباد الأوثان وغيرهم ضد أهل الإيمان والإسلام.

والأصل أن المسلمين أقرب إلى دينهم وملتهم، ولكن طباعهم الخبيثة، وحقدهم على المسلمين تجدهم يساندون عباد الأحجار والأوثان، وهكذا من يعتدي على حرمات أهل الإيمان فتجده يصف إخوانه المسلمين بأنهم شر من اليهود والنصارى وعباد الأوثان.

قال الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا ﴾ [النساء: ٥١].

قال ابن كثير رحمه الله: "أي: يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم، وقلة دينهم، وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم.

وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقري، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة قال: جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد. فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العناة، ونسقي الحجيج -ومحمد صنبور، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج بنو غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً"[1].

(١) السابق ٢ / ٣٣٤.

المبحث الثاني

جذور التكفير والعنف في كتب اليهود والنصارى

ففي كتب اليهود والنصارى التي حرفت وبدلت بأيدي القوم ما يدل على القسوة في التعامل مع الآخرين وعدم استعمال الرحمة والرفق بهم مما ينتج عنه في كثير من الأحوال التكفير والاعتداء على الحرمات من الدم والمال والعرض.

خاصة إذا لم يكن من بني جنسهم.

ومن هذا مما جاء في كتب اليهود والنصارى:

- **أولا: جذور التكفير والعنف في كتب اليهود:**

يعتمد اليهود على التوراة المحرفة وهي في أصلها قبل تحريفها كتاب الله المنزل على موسى عليه السلام والتلمود الذي هو المعروف بالشريعة الشفوية المنقولة عن الأنبياء وعن الحاخامات أيضا.

وهذه الكتب المقدسة عندهم تطفح بالغلو والتكفير والعنف في حق بعضهم البعض وفي حق الإنسانية كلها.

- **التوارة:**

ما جاء من النصوص في أسفار التوراة من القسوة والعنف وتكفير الآخرين ولعنهم:

- "واخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرّهم في أتون الآجرّ وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون. ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم"(١).

(١) صموئيل الثاني ١٢:٣١.

- "وقال لأولئك في سمعي اعبروا في المدينة وراءه واضربوا. لا تشفق أعينكم ولا تعفوا"(١).
- "الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء اقتلوا للهلاك. ولا تقربوا من إنسان عليه السمة وابتدئوا من مقدسي. فابتدأوا بالرجال الشيوخ الذين أمام البيت"(٢).
- "وقال لهم نجسوا البيت واملأوا الدور قتلى. اخرجوا. فخرجوا وقتلوا في المدينة"(٣).
- "فالآن اذهب واضرب عماليق وحرموا كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل رجلا وامرأة. طفلا و رضيعا.بقرا وغنما. جملا وحمار"(٤).
- "واحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار"(٥).
- "وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف"(٦).
- "وتحطم أطفالهم أمام عيونهم وتنهب بيوتهم وتفضح نسائهم"(٧).
- "تجازى السامرة لأنها قد تمردت على إلهها السيف يسقطون. تحطم أطفالهم والحوامل تشقّ"(٨).

طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة"(٩).

---

(١) حزقيال ٥:٩.
(٢) حزقيال ٦:٩.
(٣) حزقيال ٧:٩.
(٤) صموئيل الأول ٣:١٥.
(٥) العدد ١٠:٣١.
(٦) يشوع ٢١:٦.
(٧) أشعياء ١٦:١٣.
(٨) هوشع ١٦:١٣.
(٩) مزامير" ٩:١٣٧.

- **التلمود:**

ما جاء في التلمود:

- يسمّي التلمود(عيسى عليه السلام) بيسوع بالنوصري، وإنّ الصلاة اليهوديّة والتي تسمّى "التفيلة" والتي تُردّد ثلاث مرّات يوميّا في الكنيس تذكر النصارى وتلعنهم وجاء فيها:" ليكنْ كلّ الكافرين بلا أمل، ولتجتثّهم مملكة التغطرس من جذورهم في أيّامنا.

ولیندثر النصارى والهراطقة في غمضة عين، وليمحَوا من كتاب الحياة ولا تكتب أسماؤهم مع الأتقياء، بورك يهوه مذلّ المتغطرسين.

- (أن يسوع الناصري موجود في لجات الجحيم بين الزفت والنار، وأن أمه أتت به من العسكري (باندارا) بمباشرة الزنى، وأن الكنائس النصرانية بمقام قاذورات، وأن الواعظين فيها أشبه بالكلاب النابحة، وأن قتل المسيحي من الأمور المأمور بها، وأن العهد مع مسيحي لا يكون عهداً صحيحاً يلتزم اليهودي القيام به، وأنه من الواجب ديناً أن يلعن ثلاث مرات رؤساء المذهب النصراني وجميع الملوك الذين يتظاهرون بالعداوة ضد بني إسرائيل) [1].
- وفى التلمود"ولا يدخل الجنة إلا اليهود. أما الجحيم فهو مأوى الكفار ولا نصيب لهم فيه سوى البكاء لما فيه من الظلام والعفونة والطين. ويوجد في كل محل منه زيادة على ذلك: ستة آلاف صندوق، في كل صندوق منها ستة آلاف برميل ملأى من الصبر.
- والجحيم أوسع من النعيم ستين مرة لأن الذين لا يغسلون سوى أيديهم وأرجلهم كالمسلمين، والذين لا يختتون كالمسيحيين الذين يحركون

(١) انظر الكنز المرصود في قواعد التلمود ز مصطفى الزرقا.ص ١٥.

أصابعهم (يفعلون إشارة الصليب) يبقون هناك خالدين." [1].

- (أيها اليهود إنكم من بني البشر لأن أرواحكم مصدرها روح الله. وأما باقي الأمم فليست كذلك، لأن أرواحهم مصدرها الروح النجسة) [2].

هذا غير ما في التلمود عندهم من أمور أخرى يندي جبين الإنسانية لها والتلمود عندهم يعتبرونه وحيا من الله ـ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ـ للأنبياء والحاخامات وهو مقدم عندهم على التوراة، وفيه:

- حرمة الدم اليهودي وإهدار دم الأغيار وإبادتهم.
- لا يجب إخراج غير اليهودي من بئر.
- علاج المريض اليهودي وتحريم علاج غير اليهودي.
- العفة مع المرأة اليهودية والزنا بنساء الأغيار.
- تحريم سرقة اليهودي واستحلال سرقة الأغيار:
- تحريم النصب والخداع لليهودي وإباحة ذلك مع الأغيار.
- خداع الرب من جانب الحاخامات.
- تحريم الربا مع اليهود ووجوبه عند إقراض الأغيار.
- تحريم بيع العقارات في أرض إسرائيل لغير اليهود.
- تحريم ولاية الأغيار على اليهود.
- تحريم أهلية الأغيار.
- تحريم مهاداة الأغيار.
- لعن الأغيار لأنهم كلاب والدعاء عليهم بالدمار.
- تعميم اللعن حتى على الأنبياء.
- تعميم اللعن على أموات الأغيار وأمهاتهم.

(١) السابق ٤٤.
(٢) السبق ٤٦.

- استعباد الأغيار.
- إنكار إنسانية الأغيار واعتبارهم شياطين وكلابا وخنازير وحميرا[1].

هذه هي اليهودية التلمودية وتعاليمها الشيطانية التي تعتبر بما في كتبها وتعاليمها ليست مسألة دينية تجمع بين الكفر والتكفير فقط إنما عملية إجرام وإبادة للإنسانية كلها منذ قديم الزمن وفي واقعنا المعاصر.

فهم كما وصفهم الله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الارْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

- **ثانيا: جذور التكفير والعنف في كتب النصارى:**
- **الإنجيل:**

ففي نصوص الإنجيل أيضا ما يدعو للعنف والتكفير

فمن ذلك:

مما يدل على استخدام العنف والقسوة في التعامل مع الآخرين على عكس ما هو معروف ومشهور مما يدعيه النصارى من الرأفة والرحمة مما يتظاهر به النصارى:

- "أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي"[2].

---

(١) انظر الكنز المرصود في قواعد التلمود. مصطفي الزرقا ص ٢٣ ، الإسلام والآخر من يعترف بمن ومن ينكر من د. محمد عمارة ص ٣٢، الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود. إسرائيل شاحاك ص ١٣٣ ، موسوعة اليهود واليهودية والهيونية د. عبد الوهاب المسيري. جـ ٣ ص ٣٦٨.

(٢) لوقا ١٩:٢٧.

- "لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما على الأرض. ما جئت لألقي سلاما بل سيفا"[1].

والسباب والشتم والتكفير واللعن كما جاء - زورا وبهتانا وافتراءا - على لسان المسيح في الإنجيل:

هذا بعض ما نطق به في حقهم، جاء في إحدى بعض النصوص في الإنجيل:

- قوله لهم (أنتم أولاد أبيكم إبليس)[2].
- وفي أخرى (الويل لكم يا معلّمي الشّريعة والفَرّيسيّون المراؤون)[3].
- وأخرى (الويل لكم أيّها القادة العميان!)[4].
- وأخرى (أيّها الجهّال العميان)[5].

وفي مواقف عدّة كان يصف المسيح اليهود من الكتبة وعلماء الشّريعة بأولاد الأفاعي، منها قوله:

- (أيّها الحيّات أولاد الأفاعي كيف ستهربون من عقاب جهنّم)[6].
- وفي أخرى (يا أولاد الأفاعي، كيف يمكنكم أن تقولوا كلامًا صالحًا وأنتم أشرار)[7].
- ويتوالى السّباب فلا يترك أحدًا إلاّ ووصفه بكلمات شديدة لا توحي بالرّحمة أو الشّفقة أو الأدب مع المخاصم، يقول الإنجيل إنّ المسيح وبّخ جموعًا من النّاس عندما جاءته تطلب منه آية على صدق دعوته فردّ عليهم

---

(١) متى ٣٤:١٠.
(٢) يوحنّا ٨: ٤٤.
(٣) متّى ٢٣: ١٣.
(٤) متّى ٢٣: ١٦.
(٥) متّى ٢٣: ١٧.
(٦) متّى ٢٣: ٣٣.
(٧) متّى ١٢: ٣٤.

(جيل شرّير فاسق يلتمس آية) [1].

- ويقول المسيح في أحد أمثاله لأعدائه (ابتعدوا عنّي يا ملاعين إلى النّار الأبديّة المهيّأة لإبليس وأعوانه) [2].
- وجاءت طائفة الصّدوقيّين، وهم يهود يسألون ويستفتون المسيح في امرأة تزوّجت سبعة رجال واحدًا تلو الآخر، فلمن تكون يوم القيامة فردّ عليهم (أنتم في ضلال... فما أعظم ضلالكم) [3].
- ويخاطب المسيح بعض المجهولين في طريق أورشليم ويخبرهم بأنّه سينكرهم يوم القيامة ويقول (ابتعدوا عنّي كلّكم يا أشرار) [4](أنتم الأشرار) [5].
- فكان المسيح يدعو جيله بالجيل الشرّير كما في إنجيل متّى[6].
- لم يترك إهانة إلاّ وألصقها بأعدائه اليهود، فالعلماء عنده (عميان قادة عميان، وإذا كان الأعمى يقود أعمى كلاهما يسقط في حفرة) [7].
- وهم فسّاق وفاسدون، لأنّهم يطلبون منه آيات محكمات على صدق نبوّته وصحّة ما ينسبه لنفسه، (جيل فاسد فاسق يطلب آية) [8].
- (ولمّا رجعوا إلى الجموع، أقبل إليه رجل وسجد، وقال له ارحم ابني يا سيّدي، لأنّه يصاب بالصّرع ويتألّم ألمًا شديدًا، وكثيرًا ما يقع في النّار والماء، وجئت به إلى تلاميذك فما قدروا أن يشفوه فأجاب يسوع –مخاطبًا

(١) متّى ١٦: ٤.
(٢) متّى ٢٥: ٤١.
(٣) مرقس ١٢: ٢٤ – ٢٧.
(٤) لوقا ١٣: ٢٧ ومتّى ٧: ٢٣.
(٥) متّى ٧: ١١.
(٦) متّى ١٢: ٤٥. ومتّى ١٢: ٣٨.
(٧) متّى ١٥: ١٤.
(٨) متّى ١٦: ٤.

تلاميذه-: أيّها الجيل الكافر الفاسد إلى متى أبقى معكم؟ وإلى متى أحتملكم؟ قدّموا الصّبيّ إلى هنا!) [(1)].

- وقوله لبطرس الذي يدعي النصارى أنه الحواري المقدم لدى المسيح والتي تنسب كنيسة بطرس بالفاتيكان له.

(قال المسيح لبطرس أنت الصّخرة وعليك تُبنى كنيستي... فالتفت المسيح وقال لبطرس: ابتعد عنّي يا شيطان! أنت عقبة في طريقي) [(2)].

- **المجامع النصرانية:**

المجامع النصرانية التي عقدها النصارى للبحث في مسائلهم ومشكلاتهم، كانت كلها تكفيرا ولعنا لبعضهم البعض.

فمجامعهم كما وصفها ابن القيم: " كانت تجتمع على الضلال، وتفترق على اللعن، فلا ينفض مجمع إلا وهم ما بين لاعن وملعون "

- في عهد الإمبراطور قسطنطين، أصدر مرسوما ملكيا باعتبار الدين النصراني دينا مسموحا به في الدولة الرومانية، وأرجع أملاك النصارى المصادرة، ورد لهم هيبتهم بين الناس.

غير أن فترة الرخاء تلك قد أظهرت ما كان مستترا فترة الاضطهاد من التفرق والاختلاف في المذاهب والآراء حول قضايا جوهرية من العقيدة النصرانية، الأمر الذي أقلق الإمبراطور قسطنطين فما كان منه أمام هذه المعضلة إلا أن عقد مجمعاً – مجمع نيقية سنة ٣٢٥م – دعا إليه علماء النصارى ليتباحثوا فيما آل إليه أمر النصرانية من التفرق والشتات في المذاهب والآراء، فحضر المجمع – حسب تقدير بعض مؤرخيهم – (٢٠٤٨) أسقفاً، وكانت آراؤهم متباينة أشدَّ التباين، فمنهم من يقول: إن المسيح وأمه إلهان، وهم

(١) متّى ١٧: ١٤ – ١٧، ولوقا ٩: ٤١.
(٢) متّى ١٦: ١٣ – ٢٣

البربرانية

ومنهم من يقول: إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها.

ومنهم من كان يقول: لم تحبل مريم بعيسى تسعة أشهر، وإنما مرَّ في بطنها كما يمرُّ الماء في الميزاب، ومنهم من كان يقول: إن المسيح إنسان مخلوق من اللاهوت، ويرون الله جوهراً قديماً واحداً، وأقنوماً واحداً، ولا يؤمنون بالكلمة، ولا بالروح القدس، إلى آراء كثيرة متعارضة متناقضة، فاجتمع الأساقفة لمناقشة تلك الآراء، فاختلفوا اختلافا شديداً.

ورأى (٣١٨) أسقفاً القول بألوهية المسيح، وأنه ابن الله – في زعمهم – أي من ذات الله، وأنه مساو لله جل وعلا، وأنه مولود منه غير مخلوق، كما رأوا أن هذا الإله تجسد في صورة البشر لخلاص الناس ثم ارتفع إلى السماء بعد قيامته من الموت، فاستهوى هذا الرأي الإمبراطور الروماني، فقرره، وفرضه على بقية الأساقفة،

وقرروا لعن رأي آريوس الذي كان يعتقد أن المسيح عبد مخلوق محدث بعد أن لم يكن، ولم يكن المخالف هو أريوس واتباعه وحدهم، بل إن جل المجتمعين لم يوافقوا على قرارات المجمع، وإن لم تتفق آراؤهم فيما بينهم.

غير أن قوة السيف كانت هي الحكم في نهاية المطاف فاختتم مجمع نيقية جلساته بتلك القرارات، وأصبح من يخالف تلك الآراء متهماً بالهرطقة – الكفر – معرضا نفسه للمحاسبة والعقاب الشديد، فعاشت النصرانية طورا آخر من أطوار الاضطهاد ولكنه بسيف النصرانية هذه المرة.

- نظرا لأن قرارات مجمع نيقية لم تتخذ بناء على دلائل وبراهين يسلم بها المخالف، ويقتنع بها الموافق، فقد طرأ للإمبراطور الروماني ما جعله يغير رأيه ويرجع إلى رأي أريوس، فعقد مجمعا آخر – مجمع صور سنة ٣٣٤م –

رجع فيه عن القول بألوهية المسيح، وقرر فيه إعادة أريوس إلى الكنيسة وخلع " أثنا سيوس " وكان من أشدِّ أنصار قرارات مجمع نيقية.

نشأة الكنيسة الأرثوذكسية:

نادى الأسقف (دسقورس) بطريرك الإسكندرية بأن المسيح –عليه السلام– ذو طبيعة واحدة ومشيئة واحدة يتلاقى فيها اللاهوت بالناسوت، وفيها يظهر الله غير المنظور في صورة منظورة، أو كما يعبر الأرثوذكس (الله المتأنس) – تعالى الله عن ظلمهم وإفكهم– فنادت طائفة الملكانية إلى عقد مجمع مسكوني لصد بدعة اليعقوبية القائلين بأن المسيح ذو طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، فعقد مجمع خلقيدونية (٤٥١م)، وقرر تكفير (دسقورس) ولعنه ونفيه عن الإسكندرية، غير أن المصريين لم يرضوا بغيره بديلاً، الأمر الذي دفعهم إلى الانسلاخ عن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وإنشاء الكنيسة المصرية الأرثوذكسية.

نشأة الكنيسة المارونية:

ظهرت المارونية عام (٦٦٧م) على يد (يوحنا مارون)، الذي انشق باتباعه عن الكنيسة الكاثوليكية، بسبب اعتقاده بأن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة فقط؛ لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد أو شخصية واحدة، فدعت الكنائس الكاثوليكية الشرقية عام (٦٨٠م) إلى عقد مجمع حضره (٢٨٦) أسقفاً، وهو (مجمع القسطنطينية الثالث)، حيث تقرر فيه ما عليه الكاثوليك من أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، وعلى ذلك تم تكفير ولعن المارون، وتمت مطاردتهم حتى استقروا في جبال لبنان، إذ ترأسهم بطريرك لبنان، وظلوا مستقلين بمذهبهم إلى أن أعلنوا الولاء لكنيسة روما عام (١١٨٢م) مع بقائهم على مذهبهم.

المبحث الثالث

وقائع التاريخ في التكفير والعنف

بين اليهود والنصارى

أولا: وقائع من التاريخ في تعامل فرق اليهود مع بعضها:

على مدار التاريخ اليهودي كان بين الجماعات والفرق اليهودية ظاهرة التكفير واللعن لبعضهم البعض، وإن كان الأمر بالنسبة لليهود غير ظاهر للعيان كما كان بين النصارى نظرا لعدة أمور أهمها:

١ – قلة عدد اليهود ومعتنقي الديانة اليهودية فلذلك كانت هذه الحوادث قليلة.

٢ – حرص اليهود أنفسهم كما يقول: (إسرائيل شاحاك) على إخفاء ذلك عن غيرهم في كتاباتهم وتدويناتهم لأمورهم فهم لا يظهرون ذلك بل أيضا يعملون جاهدين على ألا يظهرهم أحد بهذه الصورة وألا يتعرف الناس على أمورهم الداخلية وشئونهم الدينية.

٣ – الصورة التي يظهرون بها للعالم دائما أنهم تعرضوا لظلم غيرهم من الأمم على مدار التاريخ، وما حدث لهم من مذابح ومحارق، فلا يظهر ما حدث بينهم بشكل واضح.

ومع ذلك فمما هو معروف أنه كان للطوائف اليهودية منذ عهد الإمبراطورية الرومانية المتأخرة سلطة قضائية كبرى على أفرادها. سلطة تستخدم كل نفوذها في فرض سلطانها على اليهود بل بمساندة كثير من الدول التى عاشوا فيها.

(على سبيل المثال:

- رفض التعامل بأي شكل من الأشكال مع يهودي محروم دينيا أو حتى دفن جثته)
- بل ومن القمع السافر أيضا سلطة تجلد ، وتسجن , وتطرد.

وقد كان من الممكن إيقاع كل تلك العقوبات ، بصفة شرعية تماما ، بحق اليهودي الفرد ، من جانب المحاكم الحاخامية المختصة بكل أنواع الجنايات.

- وفي بلدان كثيرة أسبانيا وبولندا مثلان بارزان) كان من الممكن الحكم حتى بعقوبة الإعدام ، وقد صدر الحكم بها ، أحيانا ، باستخدام طرق وحشية مثل الجلد حتى الموت.
- في الحقوقيات الأسبانية العائد تاريخها إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، سجلات لعديد من الأوامر التفصيلية الصادرة عن ملوك قشتالة وأراغون الكاثوليك الورعين تعلم موظفيهم ، الذين لا يقلون عنهم ورعاً ، بالتعاون مع الحاخامات في مراعاة احترام السبت من جانب اليهود.

لماذا ؟ لأن الحاخامات عندما يغرمون يهودياً انتهك حرمة السبت ، عليهم تسليم تسعة أعشار الغرامة للملك.

- بالقدر نفسه يمكننا الاستشهاد بفتوى دينية كتبها الحاخام الذائع الصيت موشى سوفير ، حاخام مدينة برسبرغ " تدعى الآن براتسلاف" الموجودة فيما كان يعرف وقتئذ بالمملكة المجرية ذات الحكم الذاتي في الإمبراطورية النمساوية ، وقد كتبها قبيل العام ١٨٤٨ ووجهها إلى يهود فيينا على نحو خاص ، حيث نال اليهود هناك بعض الحقوق الفردية التي يعتد بها نعى سوفير حقيقة أن اليهود في فيينا أصبحوا متساهلين في تطبيق التعاليم الدينية منذ فقدان الطائفة اليهودية هناك السلطة عقاب

المذنبين وأضاف " هنا ، في برسبرغ ، عندما يقال لي إن بقالا يهوديا تجرأ وفتح دكانه في الأعياد أرسل على الفور شرطيا لاعتقاله ."

هذه أهم حقيقة اجتماعية للوجود اليهودي قبل حلول عصر الدولة الحديثة:

مراعاة التعاليم الدينية اليهودية ، وغرسها في الأذهان يتمان بالإكراه المادي الذي لا يجد الإنسان مهربا منه إلا باعتناق ديانة الأغلبية، أو الإقدام على قطيعة اجتماعية كاملة، وتم كتابة التاريخ اليهودي بطريقة مخادعة وعاطفية وبالغة الرومانسية حذفت منها الحقائق.

- **لذلك لن يجد الإنسان في كتابات حنا أرندت الغزيرة سواء حول الاستبداد ، أو اليهود أو كليهما أدنى إشارة إلى ما كان عليه المجتمع اليهودي في القرن الثامن عشر:**

إحراق كتب ، اضطهاد كتاب ، نزاعات حول القوى السحرية للتمائم ، حظر معظم التعليم الابتدائى " غير اليهودي " مثل كتابة اللغة الألمانية دون أخطاء أو حتى الألمانية المكتوبة بالأبجدية اللاتينية.

يقول إسرائيل شاحاك عن واقع اليهود: للمرة الأولى منذ القرن الثاني للميلاد ، أن يفعل ما يشاء في حدود القانون المدني لبلده ، دون الاضطرار لدفع ثمن هذه الحرية باعتناق ديانة أخرى، أتيحت لليهود حرية معرفة وقراءة الكتب باللغات الحديثة ، حرية القراءة والكتابة بعبرية لم تحظ بموافقة مسبقة من الحاخامات (كما كان الحال بالنسبة لأي كتاب بالعبرية أو اليديشية من قبل).

حرية تناول طعام غير مباح ، حرية تجاهل المحرمات العبثية العديدة المنظمة للحياة الجنسية ، وحتى حرية التفكير ، لأن " الأفكار المحظورة " كانت من بين أبشع المعاصي. أتيحت كل تلك الحريات ليهود أوروبا (وبالتالي

ليهـود البلـدان الأخـرى) مـن جانـب الأنظمـة الأوروبيـة الحديثـة، وحتـى الاستبدادية ، رغم أن الأخيرة كانت في نفس الوقت قمعية ومعادية للسامية.

- كـان نيقـولا الأول، قيـصر روسـيا، ضـد اليهـود ذائـع الـصيت، وقـد أصدر الكثير من القوانين المعادية لليهود، لكنه عزز أيضا عناصر "الأمن والنظـام " في روسـيا، لـيس مـن خـلال الـشرطة الـسرية وحسب ، ولكـن مـن خلال الشرطة النظامية والحرس والوطني أيضا ، حتى أصبح قتل اليهود بـأمر من حاخاماتهم أمرا صعبا ، بينما كان من السهل القيام بذلك في بولندا ما قبـل العـام ١٨٩٠ ، إن التـاريخ " الرسمـي" اليهـودي يـدين نيقـولا الأول بـسبب تعزيزه للنظام.
- حـدث مـثلاً، في أواخـر ثلاثينيـات القـرن التاسـع عـشر أن أمـر حاخـام مقـدس" "(تساديك) في بلـدة يهوديـة صـغيرة بأوكرانيـا بقتـل يهـودي مهرطـق ، وذلـك بإلقائـه في المـاء المغلـي لحمامـات البلـدة ، وبهـذا الـصدد تبـدي المـصادر اليهودية المعاصرة ذعرا ودهشة بالغة ليس لأن الرشوة "لم تعد مـؤثرة" وحسب، بل لأن الفاعلين وكذلك الرجل المقدس عوقبوا بقسوة أيضا.
- كما كـان نظـام ميترنيخ في النمسا مـا قبـل العـام ١٨٤٨ رجعيـا سـيء الـسمعة، ولا يكـن أدنـى مـشاعر وديـة لليهـود ، لكنـه لم يـسمح بقتـل النـاس بالسم، بما في ذلك حاخامات يهود لسيبراليين.

وخلال عام ١٨٤٨. عندما وهنت قوة النظـام ، مؤقتـا ، كـان أول مـا فعلـه زعماء الطائفة اليهودية في مدينة لمبرغ الغاليسية (تدعى الآن لفوف) بحر يتهم المكتسبة حديثا قتـل حاخـام المدينـة الليبرالـي بالـسم ، ذلـك الحاخـام الـذي استوردته مجموعة صغيرة كمن اليهود غير الأرثوذكس من ألمانيا ليشرف علـى شـؤونها الدينيـة. وبالمناسـبة ، كانـت إحـدى هرطقاتـه إجـراء احتفـال الميتسفاه ، المبتدع حديثا في ذلك الوقت.

- حاخامات اليهود الذين أصدروا فتوى أو بيان «الحرم» في القرن السابع عشر، للفيلسوف الهولندي اليهودي سبينوزا، وحكموا بكفره وخروجه عن حيز الجماعة لأنه تجرأ وقدم تصورا عن الوجود والطبيعة الإلهية تختلف عن تعاليم مؤسسة الكنيس اليهودي، وقالوا في نص فتواهم تلك، ويا للعجب في تكرار الصياغات رغم اختلاف الديانات! قالوا: «بقرار الملائكة وحكم القديسين نحرم ونلعن وننبذ ونصب دعاءنا على باروخ سبينوزا بموافقة الطائفة كلها.

وبوجود الكتب المقدسة ذات الستمائة وثلاثة عشر ناموساً المكتوبة بها، نصب عليه اللعنة وجميع اللعنات المدونة في سفر الشريعة. وليكن ملعونا نهاراً وليلاً، وفي نومه وصبحه، ملعوناً في ذهابه وإيابه، وخروجه ودخوله، ونرجو اللّه أن ينزل عليه غضبه وألا يتحدث إليه أحدٌ بكلمة أو يتصل به كتابه، وألا يقدم له أحد مساعدة أو معروفاً وألا يعيش أحد معه تحت سقف واحد، وألا يقترب منه أحد على مسافة أربعة أذرع»[1].

ثانيا: وقائع من التاريخ في تعامل فرق النصارى مع بعضها.

- بمجرد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمي للامبراطورية الرومانية عام ٣١٥، دمرت العصابات المسيحية الكثير من المعابد الوثنية و قتلوا الكهنة الوثنيين.
- بين عام ٣١٥ و القرن السادس تم ذبح الكثير من الوثنيين.
- اشتهر كثير من القساوسة مثل مارك إريثوسا و سايرل من هليوبوليس بلقب " مدمرو المعابد".
- في عام ٣٥٦ صدر قرار بأن يعاقب بالإعدام كل من يقيم طقوس وثنية.

(١) الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود. إسرائيل شاحاك، لإسلام والآخر من يعترف بمن ومن ينكر من د. محمد عمارة.

وكان الإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس (٤٠٨–٤٥٠) يقوم بإعدام الأطفال إذا لعبوا ببقايا التماثيل الوثنية (و هو بذلك – حسب المؤرخين النصارى – فإنه "كان ينفذ التعاليم المسيحية بكل دقة...").

- في أوائل القرن الرابع الميلادي تم إعدام الفيلسوف سوباتروس بناءا على طلب الكنيسة.
- في عام ٤١٥ مزق جسد الفيلسوفة الشهيرة هيباتيا إرباً بشكل هستيري داخل كنيسة في الإسكندرية باستخدام شظايا الزجاج بواسطة عصابة نصرانية برئاسة كاهن نصراني يدعى بيتر.
- في عام ٧٨٢ أمر الإمبراطور كارل شارلمان بقطع رأس ٤٥٠٠ شخص لأنهم رفضوا اعتناق المسيحية.
- البيجنزيانس (أول حملة صليبية تهدف إلى ذبح مسيحيين): البيجنزيانس أو الكاثار اعتبروا أنفسهم مسيحيين حقيقيين و لكنهم لم يقبلوا حكم الكاثوليك والضرائب التي فرضوها ومنعهم لتحديد النسل. و قد بدأت حملة العنف ضدهم في يوليو ١٢٠٩ بقيادة البابا أنوسنت الثالث (و يعتبر أكبر مجرم حرب وإبادة و قتل جماعي حتى ظهور النازية). فقد دمر مدينة بيزربيه بفرنسا بمن فيها و ذبح كل سكانها. و قد بلغ عدد الضحايا ٢٠ إلى ٧٠ ألفا (منهم كاثوليك رفضوا تسليم من اتهموا بالزندقة من الجيران والأصدقاء).
- ثم لحقهم الآلاف في كاركاسون و مدن أخرى. و بعد ٢٠ عاما من الحرب أبيد جميع الكاتار (ما يوازي نصف سكان أورليان بجنوب غرب فرنسا). وبعد انتهاء الحرب عام ١٢٢٩ تم إنشاء محاكم تفتيش للبحث عن و القضاء على الفارين من الكاتار أو من تبقى منهم على قيد الحياة. و قد تم إعدام آخرهم حرقا عام ١٣٢٤. و قد قدر العدد الإجمالي للضحايا

مليون قتيل من الكاتار فقط.

- و قد ظهرت هرطقات أخرى كثيرة و تم إبادة معظم اتباع هذه الهرطقات بواسطة الكنيسة و يقدر عددهم بحوالي مائة ألف قتيل (لا يشمل مذابح العالم الجديد).
- القاضي الاسباني توركيمادا و هو قاضي بمحاكم التفتيش كان مسئولا بمفرده عن إعدام ١٠٢٢٠ فرد حرقا.
- جون هاس الذي كان معارضا لعصمة البابا و صكوك الغفران تم حرقه في عام ١٤١٥.
- أعدم البروفيسور هوبماير حرقا عام ١٥٣٨ بفيينا.
- الراهب الدومينيكي جيوردانو برونو سجن لمدة سبع سنوات ثم حرق بتهمة الهرطقة في روما عام ١٦٠٠.
- في عام ١٢٣٤ فرضت الكنيسة ضرائب مجحفة علي الفلاحين في ستيدينج بألمانيا و لم يكونوا قادرين على دفعها، فتم ذبح ما بين ٥ آلاف و ١١ ألف رجل و امرأة و طفل.
- في معركة بلجراد عام ١٤٥٦ تم ذبح ٨٠ ألف من الأتراك.
- في القرن الخامس عشر في بولندا تم نهب ١٨ ألف قرية بأوامر من الكنيسة – عدد الضحايا غير معروف.
- من أبرز الشخصيات الإصلاحية التي ظهرت؛ الطبيب والمصلح الأسباني ميخائيل سيرفيتوس والذي تأثر بحركة الإصلاح البروتستانتية وإنخرط فيها .ولكنه قطع شوطاً أبعد في طريق الإصلاح؛ حيث أعلن بطلان عقيدة التثليث ورفض ألوهية المسيح بشدة، وألّف كتابه "خطأ التثليث" في عام ١٥٣١م وفيه شبّه الرب الذي تدعو الكنيسة لعبادته بالوثن الخرافي "سربيروس" ذو الثلاثة رؤوس، وأطلق على الثالوث إسم "الوحش الشيطاني

ذي الرؤوس الثلاثة"، و قام بالدعوة إلى التوحيد ونبذ التثليث.

فاتهمته الكنيسة والبروتستانت على السواء بالهرطقة والتجديف. ثم لم يلبث سيرفيتوس إلا وكتب كتاباً سماه "إعادة المسيحية" أظهر فيه شيئاً من التراجع عن أفكاره، لكنه لم ينقذه من العقوبة، حيث أمر المصلح البروتستانتي كالفن بإحراقه حياً على نار هادئة، وتم تنفيذ الحكم في جنيف سنة ١٥٥٣م.

كما ظهر في بولونيا وفي نفس تلك الحقبة الراهب واللاهوتي الإيطالي فاوستو باولو سوزيني (١٥٣٩ـ ١٦٠٤م): الذي إشتهر أيضاً باسم "سوسيان" أو "سوسيانوس". قام سوسيان بنشر كتاب إصلاحي انتقد فيه عقائد الكنيسة الكاثوليكية بشدة، وهاجم عقائد التثليث والتجسد والكفارة والصلب والفداء وسائر المعتقدات الكاثوليكية، ودعا إلى التوحيد الخالص ؟، وامتدت تعاليمه إلى نواح عدة، حيث انتشرت في هنغاريا (المجر) ثم بولندا و ترانسلفانيا (إقليم في رومانيا) ثم انتشرت منها إلى هولندا ثم بريطانيا و أخيرا إلى للولايات المتحدة الأمريكية. وعرف مذهبه اللاهوتي بإسم "السوسيانية" واتباعه بالسوسينيانيين، كما سماهم أعداؤهم بالآريوسيين الجدد؛ نسبة لآريوس ومذهبه القديم .وبعد وفاته جمعت كتابات سوسيان في كتاب واحد ونشرت في مدينة "روكوف" البولندية، عرفت باسم "العقيدة الروكوفية".

تعرض اتباع السوسيانية للاضطهاد بداية من سنة ١٦٣٨م، حيث أحرق الكثير منهم أحياء مع كتبهم، و حرموا من سائر حقوقهم المدنية .و في سنة ١٦٥٨ خُيّروا بين قبول الكاثوليكية أو النفي، فتوزّعوا في أطراف أوروبا، وظلوا فئات منفصلة لفترات طويلة، حتى بدأت هجرتهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث شكلوا الفرقة الشهيرة المعروفة الآن باسم التوحيديين.(The Unitarians)

جرائم الكنيسة في حق العلماء

تاريخ رجال الكنيسة الكاثوليكية مع العلم والعلماء في القرون الوسطى طويل وحافل بالجرائم والإبادة الجماعية في حق الإنسانية، وحينما كانت الكنيسة تمسك بيدها سلطة القرار فرضت سيطرة شبه كاملة على أوروبا لمدة ألف عام وفرض رجال الدين قيودا شاملة على العلماء وحرموهم من مزاولة أي نشاط خارج ما تسمح به مبادئ الكنيسة المسيحية:

- وكانت نتيجة ذلك اتهام الكثير من العلماء بالهرطقة والكفر وممارسة السحر، وقامت الكنيسة بمعاقبتهم بأبشع العقوبات.
- في زمن حكم رجال الكنيسة كانت تعتبر لديهم الأوبئة مثل الطاعون والكوليرا والجدري... إرادة إلهية لا يمكن مواجهتها.
- ولذلك لما ابتكر التطعيم ضد هذه الأمراض لقي معارضة شديدة من قبل الكنيسة، وألقت جماعة نصرانية قنبلة في منزل الطبيب (بولستون) الذي كان مركزه يقوم بتطعيم مرضى الجدري.
- كان الاعتقاد السائد لدى رجال الكنيسة أن العالم بدأ يوم الأحد ٢٣ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد، ولما تبين لرجال الكنيسة أن العالم المتوفى (وكليف) يقول بأن عمر الأرض أكثر بمئات السنين، أخرجوا رفاة عظامه وطحنوها ثم نثروها في البحر حتى لا تنجس الأرض.
- في سنة ١٥٤٣م عندما أمر (كوبرنيق) بنشر كتاب له وهو في أيامه الأخيرة على فراش الموت. كتب فيه أن الأرض ليست هي مركز الكون، وأنه بإمكان الإنسان إذا نظر من نقطة من الفضاء إلى الأجرام السماوية بدت له تدور حول الشمس، ولوجدنا كذلك تفسيرا لضوء النجوم وحركة الكواكب، وبالتالي فإن الكواكب والنجوم هي من تدور حول الشمس وليست الأرض هي مركز الكون كما يسود الاعتقاد. وكل

هذه الحركة (نجوم وكواكب) بفعل دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس. هذا الكلام أغضب رجال الكنيسة وقوبل بسخرية واستهجان واتهم بضعف إيمانه بمسيحيته، وكان جزاءه أن حرم من الشهرة ومن ثمار اكتشافاته العلمية، ووضع مؤلفه في أدراج النسيان، وأضاف إليه رجال الدين عبارة " هذه ما هي إلا مجرد نظرية ,لا يجب أخذها في الحسبان".

- قبل أن ينتهي القرن ١٦ ظهر العالم (جيرانو برونو) ليكتشف في أبحاثه معطيات جديدة تضاف إلى أبحاث (كوبرنيق) وتؤكد نظرياته. ومن ثم أخذ على عاتقه بنشرها في أنحاء أوروبا متنقلا من مدينة إلى أخرى، كما أضاف إلى نظرية (كوبرنيق) قراءات فلكية تثبت صحتها وتدعمها، وطبق مبادئها على جميع الأجرام السماوية. وأضاف في نظريته الجديدة كون الأرض لا تدور حول نفسها فقط بل تدور حول الشمس التي تعد نجما صغيرا مقارنة بالنجوم الأخرى المنتشرة في المجرات، وقال باحتمال وجود كائنات أخرى تسكن الفضاء الخارجي.
- جرأة هذا العالم أدت إلى القبض عليه سنة ١٥٩٤م، وسجنه لمدة ستة أعوام في انتظار تقديمه إلى المحاكمة. وفي سنة ١٦٠٠م قدم إلى المحاكمة فأدانته بتهمة ما كان يعرف وقتذاك بالهرطقة والزندقة. رفض مبدأيا أمام المحكمة نوع الخطيئة الموجهة إليه.

ثم حكم عليه بالإعدام حرقا، ربط لسانه وجرد من ملابسه وقيدت يداه ورجلاه بقضيب من حديد ثم جيء به إلى ميدان الزهور وسط روما، ثم بدأ منفذو الإعدامات بحرقه حيا وسط حشود كثيرة من اتباع الكنيسة الذين كانوا يهتفون بالموت للكفار مثل (برونو).

- بعد انقضاء ٣٢ سنة من حرق (برونو) ظهر العالم الفلكي (جاليليو) في إيطاليا، يؤكد حقيقة ما ذهب إليه العلماء الذين أتهمتهم بالهرطقة بالأدلة

والبراهين القاطعة، غير أن اختراع جاليليو للتلسكوب وتجاربه الفلكية كانت أخبارها عمت أوروبا، وكان محل تقدير واحترام بين الناس، لذلك لما سمع بأخباره رجال الكنيسة تملكهم الخوف ولم يستطيعوا القيام بأي شيء مسئ ضده، ولا أن يجرؤ أحد على تقديمه للمحاكمة وقتله نظرا لآرائه المؤيدة للذين أعدموا من قبله. غير أنه لم ينج من المضايقات والتهديدات بالقتل وهو في سن السبعين من عمره، وأجبرته الكنيسة بالاعتراف علنا بخطيئته أمام الناس وعدم دقة أبحاثه العلمية نظرا لكبر سنه، لكي تبقى الحقيقة الثابتة ما يقوله رجال الكنيسة من كون الأرض هي مركز الكون وكل الكواكب والنجوم تدور حولها .

- من أغرب الظواهر التي كانت تقع في عدة أماكن في العالم تحول الماء إلى لون من الألوان، وفي سنة ١٧٧٠م حدث ذلك في أوروبا. عندما تلقت الأكاديمية الملكية للعلوم بتحويل الماء إلى لون أحمر أرجع رجال الكنيسة ذلك إلى غضب الله، ولما تكرر وقوع هذه الظاهرة في السويد قام أحد العلماء بدراستها وانتهى إلى نتيجة مفادها أن احمرار الماء تعود أسبابه إلى وجود حشرات ذات أحجام صغيرة تطلق مادة حمراء، ولما علم كبير الأساقفة بنتائج الدراسة وصفها بالعمل الشيطاني ورفض نتائجها جملة وأصر على أن هذه الظاهرة غير طبيعية، ثم مورست على هذا العالم ضغوطات وتهديدات بالقتل، ليتراجع في الأخير عن نتائج تقريره ويسند ذلك إلى أمر مجهول تتجاوز مستواه العلمي(١).

(١) انظر الإسلام والآخر د. محمد عمارة ٩٢ وما بعدها.

الخــاتـــــمة

وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات المستخلصة من البحث.

أهم النتائج من البحث:

- افتراق اليهود والنصارى واختلافهم في دينهم كان نذير شؤم عليهم في دنياهم وفي أخراهم.
- جرأة أهل الكتاب على الله تعالى وقولهم على الله تعالى قولا عظيما وافتراؤهم في دين الله كان سببا لضلالهم وذهاب الخير من بين أيديهم.
- كتمان الحق والسكوت على الباطل من أسباب سخط الله ونقمته.
- عدم العمل بدين الله تعالى واتباع شرعه ومخالفة أمره يؤدي إلى ذهاب الدين الصحيح، وانتشار الباطل كما حدث بين اليهود والنصارى.
- اليهود والنصارى حرفوا كتبهم وبدلوا كلام الله تعالى فألقى الله بينهم العداوة والبغضاء، وجعلهم فرقا متناحرة متخاصمة.
- قلوب الأحبار والرهبان من اليهود والنصارى امتلأت بالحقد والعداوة فيما بينهم، بل حتى على الإنسانية كلها، مما أذاق كثيرا من البلاد على أيديهم الدمار والهلاك والإذلال.
- حرف اليهود كتبهم وملأوها بالحقد والضغينة على الإنسانية كلها فكانوا سببا في كثير من الفتن والمؤامرات في كثير من البلدان.
- كانت بداية النصرانية بعد أن اعتنقتها الدولة الرومانية شقاقا بين أصحابها، وقتلا وتذبيحا بين طوائفها.
- عملت الكنيسة على التحكم في كل أمور العباد السياسية والاقتصادية والعلمية والاجتماعية بخرافاتها وباطلها، واستبدت بأحوال الناس فحولت حياتهم إلى جحيم وتخلف وجمود.

- كانت ردة فعل أوربا ضد الكنيسة ردة عن الكنيسة ودينها ومحاربة لكل مظاهر التدين في العالم وخوفا من انتشار الدين، وهذه من إحدى مظاهر التخوف من الإسلام في أوربا خاصة عند عامة الناس الذين ينظرون للإسلام نظرتهم للكنيسة ولدين الكنيسة، ولرجال الكنيسة.
- الارتباط بين التكفير والعنف والتدمير فاليهود والنصارى الذين كفروا بعضهم أو غيرهم لم يتورعوا عن سفك دمائهم والتنكيل بهم بأبشع الطرق كما ذكر في البحث.
- الارتباط بين التكفير والعنف والجهل بدين الله الصحيح والتكالب على الدنيا وحب الزعامة والرياسة كما عرف بين اليهود والنصارى.
- النفوس التي تنزع إلى التكفير والعنف هي في الأغلب التي ملأت بالحقد والضغينة وعدم حب الخير للناس.
- من أخطر الأمور التي أدت إلى التكفير والعنف فساد أهل الدين من الأحبار والرهبان ومن يتزيون بزيهم، فحينما يتقلد أمور الناس الدينية جهالهم وأصحاب الهوى فيهم وذوو النفوس المريضة والقلوب السقيمة فتلك من أخطر الأمور على الأمم كما حدث في تاريخ اليهود والنصارى.

أهم التوصيات:

- الاتباع السليم لدين الله تعالى والفهم الصحيح يحفظ الأمة من الانزلاق في تيارات الفتن والبعد عن دين الله تعالى.
- بيان أن حب الدنيا واتباع الهوى من أكبر المضلات عن دين الله تعالى وهذا ما وقع فيه اليهود والنصارى من قبل فأضلهم عن دين الله تعالى وأوقعهم فيما أوقعهم فيه من فتن ومحن.
- الحرص على وحدة الأمة على الحق والبعد عن الفرقة والاختلاف.
- سلامة الصدور وخلوها من الحقد والحسد والتنافس على زينة الدنيا من أهم عوامل الترابط والتماسك بين المسلمين

- العمل على إشاعة روح الأخوة والمحبة بين أهل الإسلام فذلك من عرى الإيمان ومن عوامل قوة الأمة ونهضتها.
- أهمية مناقشة أصحاب الفكر المنحرف البعيد عن المنهج الصحيح من أهل العلم وأصحاب الخبرة والحنكة حتى يردوهم عن غيهم ولا يتركوهم للمنحرفين المضلين عن سواء السبيل.
- العمل على نشر العلم الشرعي المتعلق بمعرفة دين الله تعالى الصحيح بكافة الأساليب والوسائل الممكنة حتى لا يترك الناس لا سيما الشباب فريسة للجهل والجهلاء بدين الله تعالى.
- أهمية إشاعة جو من الحوار والود خاصة بين العلماء العاملين وبين جميع فئات الأمة لاسيما الشباب.
- التأكيد على منهج الإسلام في الدعوة وبيان الحق وأنه يقوم على الحكمة والموعظة الحسنة وبالتي هي أحسن.
- التأكيد على مبدأ الإسلام في الرفق والرحمة وأنه مما ميز الله به رسوله محمد – ﷺ –.
- أهمية دفع الشبه التي تلصق بالإسلام والمسلمين والإسلام براء منها.
- التعرف على تاريخ الملل والفرق السابقة التي تدعى لنفسها ما ليس لها وتتهم الإسلام والمسلمين جزافا ببيان حقيقتها وتاريخها.
- أهمية معرفة تاريخ الأمم السابقة والحذر مما وقعت فيه من فتن وضلالات كما كان حال اليهود والنصارى من قبل.
- الحذر من الغلو بكل اشكاله وصوره والاستمساك بالتوسط والاعتدال في الأمور كلها.

أهم المراجع

- القرآن الكريم.
- الإسلام والآخر من يعترف بمن ومن ينكر من د. محمد عمارة.
- تفسير القرآن العظيم الإمام بن كثير.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي.
- جامع البيان في تأويل القرآن الإمام الطبري.
- الجامع لأحكام القرآن الإمام القرطبي.
- الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود. إسرائيل شاحاك.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.الإمام شهاب الدين الألوسي.
- صحيح الإمام البُخَارِي.
- صحيح الإمام مسلم.
- الكتاب المقدس.
- الكنز المرصود في قواعد التلمود. مصطفى الزرقا.
- محاسن التأويل. الإمام البغوي.
- مسند الإمام أحمد.
- موسوعة اليهود واليهودية والهيونية د. عبد الوهاب المسيري.

ظاهرة التكفير .. الأسباب والعلاج والآثار

الجذور التاريخية لظاهرة التكفير عند المسلمين

ناصر محمدي محمد جاد

باحث دكتوراه

كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

مقدمة

الحمد لله فاتحة كل خير وتمام كل نعمة، أحمده –سبحانه وتعالى– حمدًا كثيرًا طيبًا مباركا فيه، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، والصلاة والسلام على نبينا الهادي الأمين، الذي جمع الله به القلوب المتنافرة، وألف به بين النفوس المتباينة، وعلى آله وصحبه وكل من اهتدى بهديه إلى يوم الدين.. وبعد:

الحديث عن ظاهرة التكفير وما يتعلق بها من قضايا يقتضي جمع الوثائق الخاصة بالبدايات الأولى لنشأة فكرة تكفير المسلمين؛ وذلك للوقوف على صدى هذه الظاهرة والتعرف على مدى أثرها فى آراء الفرق الإسلامية بعد ذلك، وتطورها فى حياة المسلمين؛ طلبا للإحاطة بتاريخ الظاهرة موضوع الدراسة، أو على الأقل الإلمام بالعصر الذى نشأت فيه، إذ لا يمكن عزل أي موضوع عن الظروف التى أفرزته.

وقد نشأ فكر التكفير قبل انقراض عصر الصحابة، بل عمم المكفّرون أحكامهم على بعضهم، مما حملَنا هذا الارتباط أن نمهد لهذا البحث بمناقشة فكرة الحكم على الصحابة من خلال روايات التاريخ، على اعتبار أن ظاهرة التكفير قد نشأت في كنف صفين بين علي ومعاوية رضي الله عنهما.

وسوف يتم تناول هذا الموضوع وفق الخطة الآتية:

مقدمة: وهي التي بين أيدينا الآن.

تمهيد: الحكم على الصحابة – رضي الله عنهم – بين قواعد السنة وأحكام التاريخ.

وقد رأيت أن هذه قضية خطيرة جدًا، ينبغي الوقوف عندها قبل الوقوف

على الجذور التاريخية لنشأة ظاهرة التكفير عند المسلمين، وذلك للأسباب الآتية:

١ – الصحابة هم خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ .

٢ – نشأة التكفير وبروز الظاهرة كان في وجود بعضهم.

٣ – إطلاق الخوارج الكفر على بعضهم.

٤ – قد يربط بعض منحرفي التفكير وسوء الظن بالصحابة بين بروز الظاهرة، وما حدث بين جيش الشام والعراق في صفين.

٥ – للأسف أوردتْ بعض المصادر التاريخية بعض الروايات التي تُظهر بعضَ الصحابة، وكأنهم مخادعون، وأظهرتْ البعض في صورة الغافل.

٦ – وللأسف أيضًا يأتي من يعتمد على هذه الروايات وكأنها مسلمات، فيسيء الظن ببعض الصحابة، ويبني عليها أمورًا عقائدية.

الفصل الأول: ظروف نشأة ظاهرة التكفير في التاريخ الإسلامي.

الفصل الثاني: تطور ظاهرة التكفير، وأهم الآراء التكفيرية.

الفصل الثالث: التكفير في العصر الحاضر وصلته بالتكفير الماضي.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ظروف نشأة الظاهرة.

المبحث الثاني: مراحل النشأة.

المبحث الثالث: صلة الظاهرة الحديثة بالظاهرة القديمة.

الخاتمة.

المصادر والمراجع.

والله ولي التوفيق

تمهيد

الحكم على الصحابة

بين قواعد السنة وأحكام التاريخ

من أصح ما ورد فى تعريف الصحابي أنه: من لقي رسولَ الله ﷺ مؤمنًا، ومات على الإسلام، فيدخل فيمن لقيه مَن طالت مجالسته له أو قصرت، أو مَن روى عنه أولم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى[1]

فالصحابة الكرام مصطلح يطلق على جماعة فاضلة لها مكانتها، وهي ليست كبقية أفراد الأمة بما اختصها الله لتكون الواسطة بين رسول الله -ﷺ- والأمة الإسلامية، وهذا المقام وهذا الامتياز ورد ذكرهما فى القرآن الكريم وتصريحات السنة المطهرة؛ فقد سعى الصحابة - رضوان الله عليهم جميعًا - فى إظهار الدين وإقامة عموده، وهذا واضح لا شك فيه، فما آلوا جهدًا ولا قصروا فى زمن الرسول - ﷺ- بالإعانة له والدعاء إليه والمعاضدة له على ما رام وطلب، وخاضوا غمرات الموت فى إعزاز دين الله وعلو كلمته، وما كَلّوا ولا فتروا عن ذلك، وأما بعد وفاة الرسول -ﷺ- فقد شمروا عن ساعد الجد، ولم يقصروا فى الدعاء إلى الإسلام والذب عن حوزته.

هكذا كان صحابة رسول الله ﷺ، ولم لا وقد زكاهم الله تبارك وتعالى فى كتابه الكريم وزكاهم نبيه ﷺ، ومن هنا قرر علماء المسلمين الإثبات أن الواجب على المسلم حبهم وموالاتهم والترضي عليهم وذكرهم

(١) ابن حجر الإصابة في تمييز الصحابة ٥/١.

بالخير.

قال ابن بطة: وتشهد لجميع المهاجرين والأنصار بالجنة والرضوان والتوبة والرحمة من الله، ويستقر علمك وتوقن بقلبك أن رجلا رأى النبي -ﷺ- وشاهده، وآمن به، واتبعه -ولو ساعة من نهار- أفضل ممن لم يره ولم يشاهده، ولو أتى بأعمال الجنة أجمعين، ثم الترحم على أصحاب رسول الله -ﷺ- صغيرهم وكبيرهم، وأولهم وآخرهم، وذكر محاسنهم، ونشر فضائلهم، والاقتداء بهديهم، والاقتفاء لآثارهم(١).

وقال الإمام الطحاوي موضحًا عقيدة أهل السنة فى هذه المسألة: ونحب أصحاب رسول الله -ﷺ- ولا نفرط فى حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير(٢).

وذكر العلماء أن من السنة الترحم عليهم؛ فالله -تعالى- قد قال فى كتابه الكريم ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلاخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالايمَانِ ﴾[الحشر: ١٠]. فلم نؤمر إلا بالاستغفار لهم، فمن سبّهم أو تنقصهم، أو أحدًا منهم فليس على السنة، وهذا مذكور عن مالك بن أنس(٣).

ومن أهم خصائص الصحابة أنه لا يُسئل عن عدالة أحد منهم، بل ذلك أمر مفروغ منه؛ لكونهم على الإطلاق معدّلين بنصوص الكتاب والسنة وإجماع من يعتد به فى الإجماع من الأمة، قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. قيل: اتفق المفسرون على أنه وارد فى أصحاب رسول الله ﷺ(٤).

(١) ابن بطة الحنبلي: الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانية الفرق المذمومة، ص ٢٦٣.
(٢) ابن أبى العز: شرح العقدة الطحاوية ٦٨٩/٢.
(٣) الحميدي: أصول السنة (بذيل مسند الحميدي) ٥٤٦/٢.
(٤) ابن الصلاح: علوم الحديث ص ٢٤٦.

فهم خير القرون وخير أمة أخرجت للناس، ثبتت عدالتهم بثناء الله عز وجل، وثناء رسوله ﷺ، ولا أعدل ممن ارتضاه الله لصحبة نبيه ﷺ، ونصرته، ولا تزكية أفضل من ذلك ولا تعديل أكمل منها(١).

ومما يثير العجب والأسف أن يقوم البعض بانتقاص حق هؤلاء الصحب الكرام، بالسب والتجريح والتقليل من شأنهم، فيغمضون أعينهم عن كل حسن وجميل قاموا به، ويمضون فيختلقوا التهم وينسبوها إلى شخصيات الصحابة وذواتهم من خلال روايات التاريخ المليئة بالأخبار المختلط بعضها ببعض، ولا يستغفرون لمن غفر الله لهم، ولا يرضون عمن رضي الله ورسوله عنهم.

ولابد من أن أشير إلى نقطة مهمة جداً في هذا الصدد، وهي توضيح الفرق الشاسع بين روايات أحاديث رسول الله ﷺ وبين روايات التاريخ، فلقد حظيت سنة رسول الله – ﷺ– باهتمام بالغ بحكم أنها مصدر من مصادر التشريع الإسلامي لها حجيتها الشرعية.

ومن ثم قامت علوم كثيرة لخدمة حديث رسول الله ﷺ، مثل علم طبقات الرجال، وعلم الجرح والتعديل وقواعد التحديث والعلل...

ولقد بين الرسول الكريم ﷺ أن أقواله وأفعاله مصدر من مصادر التشريع، وندب صحابته الكرام إلى نقلها، فقال ﷺ : (بلغوا عنى ولو آية)(٢). وقال ﷺ في حجة الوداع: (فليبلغ الشاهد الغائب)(٣).

ومن ناحية أخرى وضع النبي –ﷺ– الضوابط التى تقف أمام أي خطأ فى

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه – كتاب بدء الخلق – باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٢٠٧/٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه – كتاب العلم – باب قول النبي ﷺ (رب مبلغ أوعى من سامع)٢٦/١، ومسلم – كتاب القسامة – باب تغليظ حرمة الدماء والأعراض والأموال ١٣٠٦/٣ (١٦٧٩/٣٠).

وضع تشريع ما وتعميمه على المسلمين، وهو ما ينتج من جراء النقل والرواية، فقال ﷺ: (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[1].

وهذا الوعيد الشديد جعل الصحابة الكرام ومن جاء بعدهم من علماء الحديث يحتاطون تماما فى نقل الرواية لدرجة أنهم كانوا يتحرزون من نسبة الحديث إليهم ما لم يثبت هذا الحديث بالبحث وما لم تحقق سلسلته بصورة دقيقة جدًّا.

أما المحدّثون الذين جاءوا بعد ذلك، وصنفوا هذه الأحاديث، وقاموا بتدوينها، فلم يثبتوا فى كتبهم ما رووه إلا بعد تحقيق سلاسل الأسانيد.

وهكذا فى ظل الأسباب الإلهية والاحتياطات التى اتخذها النبي ﷺ، تم جمع روايات أحاديث رسول الله -ﷺ- بدقة شديدة لتصبح حجة شرعية بعد كتاب الله عز وجل .

أما التاريخ العام فلم ينل مثل هذا الاهتمام، فلقد أفسح الأخباريون المجال للرواية، فجمعوا روايات جميع الناس الثقات وغير الثقات منهم؛ وذلك لأن هذه الأخبار لا ينبني عليها عقائد وأحكام شرعية. ومن هنا قال ابن الصلاح: (وغالب على الأخباريين الإكثار والتخليط فيما يروونه)[2]. أي أن كثيرًا من المؤرخين جمعوا الكثير من الروايات التى يختلط فيها الصحيح بالسقيم، ويفسر ذلك ما يطالعنا من روايات منكرة لكثير من الوقائع والأقوال فى كتب التواريخ؛ كـ (تاريخ الطبري)، و(الكامل لابن الأثير)، و(المنتظم لابن الجوزي)، و(البداية والنهاية لابن كثير) وغيرهم.

فابن كثير مثلا عالم مشهور وناقد معروف يتميز بقدرة فائقة فى نقد وتحقيق الروايات، إلا أنه حين كتب فى التاريخ، فإن قضية النقد والتحقيق

(١) تابع للحديث السابق.
(٢) ابن الصلاح: علوم الحديث، ص ٢٦٣.

التي يتميز بها فى الحديث لم تعد كما هي فى (البداية والنهاية)، لذلك يقول: (إن صحة هذه الروايات مشكوك فيها عندي إلا أن ابن جرير وغيره قد نقلوا هذه الروايات قبلي؛ ولهذا نقلتها أنا أيضا، ولو لم يذكروها لما أدرجتها فى كتابي)[1].

ومثل هذا ذكره الإمام الطبري فى تاريخه حيث قال: (وليعلم الناظر في كتابنا أن اعتمادي فى كل ما أحضرت ذكره فيما سطرت أني راسمه فيه، وإنما هو على ما رُوِّيت من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه، والآثار التى أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول... فما يكن فى كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهًا فى الصحة ولا معنى فى الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤتَ في ذلك من قِبَلنا، وإنما أتى من قِبَل بعض ناقليه إلينا؛ وأنَّا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدي إلينا)[2].

فهذا الكلام لا يمكن أن يقال فيما يتعلق بتحقيق الحديث النبوي، لذا رأى هؤلاء العلماء حين كتبوا فى التاريخ أن يتم جمع الروايات المتعلقة بحادثة معينة، ويتركوا أمر نقدها، وتحليلها، وإجراء قاعدة الجرح والتعديل عليها لمن يريد أن يبني حكمًا عقائديًّا، فهم قد رأوا أن عقائد الدين والأحكام الشرعية لا تثبت من هذه الروايات؛ بل يستفاد منها العبرة والعظة والنصيحة وتجارب الأمم.

ومن هنا فإن من يحاول إثبات قضية –كقضية الخلافات التي وقعت بين الصحابة من خلال هذه الروايات فإن عليه وحده تقع مسؤولية نقد الرواية وبحثها ونقد الرواة بنفس الأسلوب المتبع فى علم الحديث من إجراء قواعد

(١) محمد شفيع: مقام الصحابة وعلم التاريخ، ص ٦٧.
(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٧/١، ٨.

الجرح والتعديل، فبدون هذا لا يكون استدلاله مشروعا أو جائزا، ولن يعفيه من المسؤولية أن يقول: إن هذه الروايات قد وردت فى كتاب تاريخ لعالم ثقة أو محدث مشهور.

ومن هنا اتفق مترجمو الصحابة على أن معرفة الصحابة الكرام ومعرفة درجاتهم والحكم فى قضية الخلافات والمشاجرات التى حدثت بينهم ليست قضية تدخل ضمن التاريخ العام، بل هى فرع مهم من فروع الحديث[1].

ولذلك عابوا على ابن عبد البر الأندلسي ما اعتمده من روايات الأخباريين فى اختلافات الصحابة، قال النووي: (... معرفة الصحابة رضي الله عنهم، وهذا علم كبير عظيم الفائدة، فيه يعرف المتصل من المرسل وفيه كتب كثيرة، ومن أحسنها وأكثرها فوائد الاستيعاب لابن عبد البر، لولا ما شانه بذكر ما شجر بين الصحابة وحكايته عن الأخباريين)[2].

ولعله قد اتضح مما سبق أن الاعتماد على الروايات المختلطة فى كتب التواريخ، واتباع هذا المنهج في تاريخ الصحابة ليس علميًّا ولا يهدي إلى نتائج صحيحة، وأنه يجب على من يريد أن يدرس تاريخ الصحابة أن يحقق هذه الروايات تحقيقا علميا قبل أن يصدر ما يصدره من أحكام فى حق هؤلاء الصحب الكرام.

ولا ينبغي أن نستمع لمثل الذى يقال فى معاوية – أو فى أحد من الصحابة – فهو رضي الله عنه من كتبة الوحي بين يدي رسول الله ﷺ، وكان له جهاد مشكور فى نشر دعوة الإسلام وتوسيع فتوحاته، ولم يعرف عنه دخلة فى إيمانه، ولا ريبة فى إخلاصه[3].

ولاينبغي كذلك أن نقرأ ما شجر بين الصحابة فى ضوء روايات التاريخ،

(١) ابن حجر: الإصابة ٣/١.
(٢) السيوطي: تدريب الراوي شرح تقريب النواوي ٢٠٧/٢.
(٣) د. محمد أبو شهبة: دفاع عن السنة، ص ٦٥.

وقد أكد علماء السنة أن ما وقع من الصحابة من قتال كان عن اجتهاد؛ فإنه – أي التخاصم والنزاع الذي جرى بينهم – كان عن اجتهاد قد صدر من كل واحد من رؤوس الفريقين ومقصد سائغ لكل فرقة من الطائفتين، وإن كان المصيب فى ذلك للصواب واحدًا وهو علي ومن والاه، والمخطئ هو من نازعه وعاداه غير أن للمخطئ فى الاجتهاد أجرا وثوابا خلافا لأهل الجفاء والعناد، فكل ما صح مما جرى بين الصحابة الكرام وجب حمله على وجه ينفي عنهم الذنوب.[1].

وسبب تلك الحروب التي وقعت بين الفريقين اشتباه القضايا، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم، وصاروا ثلاثة أقسام:

قسم ظهر له أن الحق مع علي رضي الله عنه.

وقسم ظهر له أن الحق مع معاوية رضي الله عنه.

وقسم ثالث اعتزل الفريقين.

ولذلك كان منهج أهل السنة هو السكوت عما شجر بينهم وترك التحامل عليهم[2].

فعلي –رضي الله عنه– سمع شخصا يقول كلاما فيه غلو فى حق المحاربين من الفريق المخالف، فقال له علي: (لا تقولوا إلا خيرًا؛ إنما هم قوم زعموا أنا بغينا عليهم، وزعمنا أنهم بغوا علينا)[3].

بل إن عليًّا –رضي الله عنه– يندم على ذلك ويقول لابنه: (يا حسن، يا حسن، ما ظن أبوك أن الأمر يبلغ إلى هذا، ود أبوك لو مات قبل هذا بعشرين سنة)[4].

(١) السفاريني: لوامع الأنوار ٢/٣٨٥، ٣٨٦.

(٢) السابق: ٢/٣٨٧.

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ٥/٢٤٥.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/٤٢٧.

وحين وصل خبر شهادة علي -رضي الله عنه- إلى معاوية -رضي الله عنه- بكى، فسألته زوجته: كنت تقاتله فى حياته وتبكي الآن ؟! فقال معاوية رضي الله عنه: (أنتِ لا تعلمين كم من الفقه، وكم من العلم فارق الدنيا بوفاته)[1].

بل إن قيصر ملك الروم انتهز الحرب الأهلية الدائرة بين المسلمين، وأراد تجهيز حملة للهجوم عليهم، فعلم بذلك معاوية رضي الله عنه، فكتب رسالة إلى قيصر جاء فيها: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين، لأصطلحن أنا وابن عمي عليك، ولأخرجنك من جميع بلادك، ولأضيقنَّ عليك الأرض بما رحبت)[2].

ونقل عدد من المؤرخين أنه فى وقعة صفين وغيرها كان الفريقان يتحاربان فى النهار، وفى الليل كان الجند من الفريقين يشتركون فى تجهيز وتكفين القتلى[3].

أردت من ذكر هذه الروايات أن أبين أن الصحابة -رضوان الله عليهم- كان قتالهم فيما بينهم على أساس من الاجتهاد الذي جعل كل فريق منهم يعتقد أنه على حق، وأن هؤلاء الصحابة لم يتجاوزوا أبدا الحدود الشرعية فى وقت القتال، وبعد هدوء الفتنة تغير سلوك كل من الفريقين تجاه بعضهما، فأعلن كل منهم أسفه وندمه على ما أصاب أهل الفريق الآخر من أضرار، والله -جلت قدرته- كان على علم بتلك الأحداث قبل وقوعها، ويعلم - وهو علام الغيوب - ما فى قلوب الجماعة، ومدى إخلاصهم لله، وما سيحدث من ندمهم على تقصيرهم وتوبتهم، والله العالم بكل هذا قد أنزل آياته الكريمة

(١) مقام الصحابة وعلم التاريخ، ص ٨٩.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/٤٠٠.
(٣) السابق: ١١/٥٨٧.

معلنا رضاه عنهم ومحددا مقامهم فى الجنة الخالدة. والحقيقة أن الإعلان الإلهى يعني أنه إذا كان صدر عن أحدهم أي ذنب أو خطأ، فإنه لم يستمر عليه، بل تاب عنه فمحا الله هذا الذنب من كتاب أعماله(١).

ولا داعي بعد كل هذا أن يعتمد أحد على بعض الروايات التاريخية المزيفة؛ ليبني عليها حكما عقائديا فيما يخص أي صحابي من صحابة رسول الله ﷺ .

وخلاصة الأمر: أن ما جاء من آيات وأحاديث فى فضلهم تؤكد على أن المسلمين أمام حكم شرعي يقضي باحترام الصحابة وتقديرهم والاقتداء بهم، وأننا أمام وعيد شديد لمن يسبهم، أو يسب أحدا منهم، وأننا مطالبون بمحبة هؤلاء الصحابة؛ لأن محبتهم من محبة رسول الله ﷺ، وبغضهم من بغض رسول الله ﷺ(٢).

كما أنه لا ينبغي أن نستثني أحدًا منهم؛ فنخرجه من تزكية الله ورسوله؛ إذ لا دليل قاطع ولا برهان بيِّن يستثني أحدًا منهم – رضي الله عنهم – من التعديل والتزكية، فالصحابة كلهم أثنى الله – عز وجل – عليهم بدون استثناء وأثنى عليهم رسوله ﷺلم، فقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[الفتح:٢٩]. وقال: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ﴾[التوبة:١٠٠].وقوله: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾[الفتح:١٨]. حتى سُمِّيَتْ هذه البيعة بيعة الرضوان؛ لأنَّ الله رَضِيَ ما

(١) محمد شفيع: مقام الصحابة وعلم التاريخ، ص ١١٤، ١١٥.
(٢) السابق: ص ٦٤.

عملوه، ومنها أيضا قول النبي ﷺ (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم..)[1].
وقوله: (لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِى، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ)[2]. والنصوص في فضل الصحابة بمُجملهم في أنواعٍ من الدلالات والأحاديث كثيرة جدًّا، وصُنفت مصنفات في ذلك. وهذه الآيات والأحاديث تفيد في شأن الصحابة أموراً منها: أنَّ الصحابة كلهم عدول لتعديل اللّه – عز وجل – لهم وثنائه عليهم.

ومعنى العدالة هنا أنَّهم عُدولٌ في دينهم وفيما يروون وينقلون من الشريعة، وأنَّ ما حَصَلَ من بعضهم من اجتهاد، فإنَّهُ لا يقدح عدالتهم ولا يُنْقِصُهَا، لِمُضِيِّ ثناء اللّه – عز وجل – عليهم مطلقا[3].

(١) البخاري (٢٦٥٢)/ مسلم (٦٦٣٥).
(٢) البخاري (٣٦٧٣)/ مسلم (٦٦٥١).
(٣) ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ٦٩٠/٢.

الفصل الأول

ظروف نشأة ظاهرة التكفير في التاريخ الإسلامي

إن المسلمين الأوائل فهموا روح هذا الدين الحنيف، واختلفوا في فهم المقصود من بعض نصوص الكتاب والسنة، ولكنهم – مع هذا الخلاف – كانوا متحدين في المبادئ والغايات، ولم يكفر بعضهم بعضا، بل كانوا يدا على من عاداهم.

والحديث عن نشأة التكفير فى حياة المسلمين، يعنى الحديث عن الأصول التاريخية لفرق الخوارج، الذين خرجوا على خليفة المسلمين وقتذاك، وهو علي بن أبى طالب –رضي الله عنه– فى حرب صفين المشهورة فى التاريخ الإسلامي، والتي كانت سنة ست وثلاثين من الهجرة النبوية المباركة.

وقد سجل التاريخ أن أمر المسلمين كان مجتمعًا في أصول الدين إلى زمن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي زمنه ظهر الخوارج بصورة كبيرة، وعلى أيديهم ظهر الخلاف.

وإذا تجاوزنا أحداث مقتل عثمان بن عفان –رضي الله عنه– سنة خمس وثلاثين من الهجرة، وتجاوزنا كذلك أحداث حرب الجمل سنة ست وثلاثين، فإننا لا نستطيع أن نتجاوز أحداث حرب صفين التى نشبت بين أهل الشام وأهل الكوفة بعد فشل مساعي الصلح بين الطرفين؛ فقد كانت هذه الحرب فتنة للمسلمين كادت تعصف بهم، ولكن الله سلَّم، وتتمثل فيها نقطة البداية فى نشأة الخوارج وبروز ظاهرة التكفير بعد حرب صفين.

وقد دارت الحرب بين جيش علي ومعاوية رضي الله عنهما؛ فأهل الشام يطالبون بالتمكين من قتلة عثمان، ويرفضون مبايعة مَن يأوي القتلَة، وأهل

العراق يدعون إلى علي بالبيعة وتأليف الكلمة على الإمام(١).

والتقى الجمعان بعُدةٍ هائلة من كلا الطرفين، وقتل من الفريقين خلق كثير، حتى خُشي اندثار الإسلام وذهاب مجده، فملَّ الفريقان القتال، ومالوا إلى الصلح حتى علَت الأصوات من داخل الجيشين يطالبون بوقف القتال؛ فجعل أهل العراق يصيحون فى أهل الشام ويقولون: من لثغور العراق إن فني أهل العراق. ويقول أهل الشام: من لثغور الشام إن فني أهل الشام(٢).

وحين حمي الوطيس، واستحرّ القتل بجند أهل الشام، رفعوا المصاحف فوق أسنة الرماح داعين أهل الكوفة إلى الاحتكام لكتاب الله، فنادوا: بيننا وبينكم كتاب الله(٣)، وقرؤوا قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣].

وتصور كتب التاريخ أحداثا جرت فيما يتعلق بنشوب القتال بين الفريقين، ورفع جند الشام للمصاحف، وحادثة التحكيم، كما تصور لنا بعض كتب التواريخ أن عمرو بن العاص قد خدع أبا موسى الأشعري، حيث اتفق الاثنان على خلعهما، فقام أبو موسى فخلع عليا، وقام بعده عمرو فخلع عليا وثبَّت معاوية(٤).

وقد تفطن ابن العربي المالكي لهذا الكذب، فقام بجمع هذه الروايات وانتهى في بحثه قائلا: (هذا كله كذب صراح، ما جرى منه قط حرف، وإنما هو شيء اخترعته المبتدعة ووضعته التاريخية للملوك، فتوارثه أهل

(١) ابن العربي المالكي: العواصم من القواصم (النص الكامل للكتاب بتحقيق الدكتور: عمار الطالبي، مكتبة التراث، القاهرة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م) ص ٣٠٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل ١٩٢/٣.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٤٨/٢٥ (١٥٩٧٥).
(٤) نصر بن مزاحم: وقعة صفين ص ٥٠٨، وابن كثير: البداية والنهاية: ٥٥٥/١.

المجانة والجهارة بمعاصي الله والبدع، وإنما الذي روى الأئمة الثقاة الأثبات أنهما لما اجتمعا للنظر فى الأمر – فى عصبة كريمة من الناس منهم عبد الله بن عمر ونحوه – عَزَلَ عمروٌ معاويةَ)[1].

وقال أيضا: (وزعمت الطائفة التاريخية الركيكة أنه – أي أبا موسى – كان أبله ضعيف الرأي مخدوعًا فى القول وأن ابن العاص كان ذا دهاء)[2].

فهذه الأقوال والأحداث المتعلقة بقضية الخلاف بين جند العراق، وجند الشام قد نُقلت بروايات ضعيفة الأسانيد مضطربة المتون لا يمكن الاعتماد عليها في مثل هذه القضايا على نحو ما أوضحته في تمهيد هذا البحث من أن معرفة الصحابة الكرام والحكم فى قضية الخلافات التي نشبت بينهم ليست قضية تدخل ضمن التاريخ العام، بل هى فرع مهم من فروع الحديث[3].

وإذا حاولنا دراسة هذه الروايات وإخضاعها لمنهج علماء الحديث الشريف– من إجراء قواعد الجرح والتعديل حتى يتسنى لنا الوقوف على حكم شرعي من خلالها – فإنها لا تثبت وفق قواعد المحدثين في قبول الروايات وردها، إذ إن غالب هذه الروايات إنما هي من مرويات أبي مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف[4]. وهذا الراوي قد أجمع نقاد الحديث على تضعيفه، بل وتركه[5].

قال أبو حاتم: (أبو مخنف متروك الحديث)[6]. وقال الآجري: (سألت أبا

(١) السابق ص ٣١٠.
(٢) ابن العربي المالكي: العواصم من القواصم ص ٣٠٩.
(٣) يمكن الرجوع إلى تمهيد هذا البحث.
(٤) ترجمته في: طبقات ابن سعد ٣٥/٦، وطبقات خليفة، ص ١٣٣.
(٥) يحيى بن إبراهيم اليحيى: مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري (عصر الخلافة الراشدة دراسة نقدية)، دار العاصمة الرياض، ص ٤٣.
(٦) الجرح والتعديل ١٨٢/٧.

حاتم عنه، فنفض يده: وقال: أحد يسأل عن هذا؟!)[1]. وقال ابن معين: (ليس بثقة). وقال أيضا: (ليس بشيء)[2]. وقال ابن عدي: (حدث بأخبار من تقدم من السلف الصالحين، ولا يبعد من أن يتناولهم، وهو شيعي محترق صاحب أخبارهم، وإنما وصفته للاستغناء عن ذكره)[3]. وقال عنه الدارقطني: (أخباري ضعيف)[4]. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية متحدثا عن الشيعة: (وعلماؤهم يعتمدون على نقل مثل أبي مخنف لوط بن يحيى، وهشام بن محمد بن السائب، وأمثالهما من المعروفين بالكذب عند أهل العلم)[5].

فهذه بعض أقوال علماء الجرح والتعديل في ناقل هذه الروايات. وبذلك تسقط هذه الروايات أمام البحث العلمي لدراسة الأسانيد، فلا يصلح الاحتجاج بها. هذا من ناحية سند هذه الروايات.

أما من ناحية متونها، والتي نُقلت من خلالها أقوال وأفعال من جانب كلا الطرفين في حق الآخر، فهي مضطربة، وبها من الكذب الذي كشف عنه ابن العربي المالكي في كلامه السابق، كما أن هذه الروايات – بالإضافة إلى ضعف أسانيدها – غير مقبولة لأهمية هذه القضية في جانب الاعتقاد والتشريع، ومع ذلك لم تنقل بسند صحيح، ومحال أن يطبق العلماء على إهمالها مع شدة الحاجة لها.

وقد قامت بعض الدراسات المعاصرة بتفنيد هذه الروايات الخاصة بهذه القضية وغيرها في كتب التاريخ، وقد بررت هذه الدراسات بالأدلة العلمية

(١) لسان الميزان ٤/٤٩٢.
(٢) تاريخ ابن معين ٢/٥٠٠.
(٣) الكامل لابن عدي ٦/٢١١٠.
(٤) كتاب الضعفاء والمتروكين، ص ٣٣٣.
(٥) منهاج السنة النبوية ١/١٦.

عدم قبول مثل هذه الروايات سواء من ناحية المتون أو الأسانيد[1].

وتنبغي الإشارة هنا إلى أربعة أمور:

الأمر الأول: أن معاوية – رضي الله عنه – كان مقرا بفضل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – بل كان يراه أحق بالخلافة، فلم ينازعه فيها، ولا طلبها لنفسه في حياة علي بن أبي طالب. قال ابن حجر: وقد ذكر يحيى بن سليمان الجعفي أحد شيوخ البخاري في " كتاب صفين " في تأليفه بسند جيد عن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية: أنت تنازع عليا في الخلافة أَوَ أنت مثله؟ قال: لا، وإني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما وأنا ابن عمه ووليه أطلب بدمه؟ فأتوا عليا، فقولوا له: يدفع لنا قتلة عثمان. فأتوه فكلموه فقال: يدخل في البيعة ويحاكمهم إليّ.

فهذا أصل النزاع، فالتحكيم كان من أجل حل هذه القضية المتنازع عليها، لا لاختيار خليفة أوعزله[2].

وقد استفاض ابن حزم في ذكر ذلك، وبيان حقيقة الخلاف، ومهمة الحكمين في ذلك[3]، لذا فالصحيح: أن أمر الخلاف الذي رده الحكمان إلى أهل الشورى هو الموقف من إنفاذ الحكم في قتلة عثمان لا في الخلافة، ومن هو أحق بها[4].

الأمر الثاني: أن نسبة أبي موسى إلى قلة الكياسة ينافي ما ثبت من فطنته

---

(١) من هذه الدراسات: (مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري (عصر الخلافة الراشدة دراسة نقدية) للدكتور / يحيى بن إبراهيم اليحيى و دراسة أخرى بعنوان: (دراسة نقدية لروايات المؤرخين عن عصر الصحابة في تاريخ الطبري) للدكتور محمد أمحزون، دار طيبة، ودراسة بعنوان: (تهذيب البداية والنهاية) للدكتور محمد السلمي.

(٢) يحيى بن إبراهيم اليحيى: مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري (عصر الخلافة الراشدة دراسة نقدية)، ص ٤٠٩.

(٣) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٦٠/٤.

(٤) ابن دحية الكلبي: أعلام النصر المبين بين أهلي صفين، تحقيق دكتور / محمد أمحزون، ، ص ١٣٦، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط الأولى، ١٩٩٨م.

وعلمه وفضله، وقد كان النبي – ﷺ– أعلم بأصحابه ورجاله، فكان يعتذر عن تولية بعضهم ويولي الآخرين، وممن ولى أبو موسى على عدن، كما استعمله عمر على البصرة، وأقره من بعده عثمان، وقد شهد له الصحابة بالعلم والفضل والحكمة، حتى شهد له عمر بن الخطاب حين سأل أنسا: كيف تركت الأشعري ؟ قال: تركته يعلم الناس القرآن. فقال عمر: أما إنه كَيِّسٌ ولا تُسْمِعْه إياها[1].

الأمر الثالث: أن في نسبة المكر والخداع وتضييع الحقوق إلى عمرو بن العاص تجاوزا للحدود وقدحا في صحابي جليل له فضائل، فهو ممن هاجر إلى المدينة طوعا لا كرها ولم يكن في المهاجريم منافقون، وقد بعثه النبي –ﷺ– إلى ذات السلاسل وأمده بجيش فيه كبار الصحابة، وولاه عمر الجيش الذي فتح مصر[2].

الأمر الرابع: أن مبايعة أهل الشام لمعاوية، لم تتم إلا بعد مقتل علي بن أبي طالب، وهو ما ذهب إليه الطبري حيث قال في أواخر حوادث سنة أربعين: (وفي هذه السنة بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء)[3]. وقد علق ابن كثير على هذا بقوله: (يعني لما مات علي قام أهل الشام فبايعوا معاوية على إمرة المؤمنين؛ لأنه لم يبق عندهم منازع)[4].

وهكذا نجد أن التحكيم كان يهدف إلى حقن دماء المسلمين، وإقامة القصاص على قتلة عثمان، ومنتهكي حرمة المدينة، إلا أن الأمور قد سارت باتجاه آخر قد قدره الله وأمضاه؛ إذ نبغت الخوارج من جيش علي رافضين التحكيم.

(١) طبقات ابن سعد ١٠٨/٤، والعواصم لابن العربي، ص ٣٠٩.
(٢) ابن دحية الكلبي: أعلام النصر المبين بين أهلي صفين، تحقيق دكتور / محمد أمحزون، ، ص ١٣٦.
(٣) تاريخ الطبري ١٦١/٥.
(٤) البداية والنهاية ١٣٤/١١، ومرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري (عصر الخلافة الراشدة دراسة نقدية)، ص ٤١٢.

وعلى أية حال فالثابت أنه لما جاء موعد التحكيم التقى عمرو بأبي موسى. فقال له: (ما ترى فى هذا الأمر ؟ قال: أرى أنه فى النفر الذين توفي رسول الله -ﷺ- وهو عنهم راض. فقال عمرو: فأين تجعلني أنا ومعاوية ؟ قال: إن يُستعن بكما ففيكما المعونة، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما)[(1)].

ولم يكن ثمة خديعة ولا مكر من أحد كما ورد في بعض الروايات التاريخية، بل لما سمع عمرو بن العاص ما تُقوِّل عليه من أمر الخديعة أوضح الأمر للناس، وقال: (والله لئن كان أبو بكر وعمر تركا هذا المال وهو يحل لهما منه شيء لقد غُبنًا ونقص رأيهما، وأيم الله ما كانا مغبونين، ولا ناقصي الرأي، ولئن كان امرأين يحرم عليهما من هذا المال الذى أصبناه بعدهما، لقد هلكنا، وأيم الله ما جاء الوهم إلا من قِبَلنا)[(2)].

ويؤكد بعض المحققين أن عليا -رضي الله عنه- قَبِل التحكيم دون أي ضغط تماشيا مع أحكام الإسلام التي تحث على إصلاح ذات البين والرحمة والرأفة، وامتثالا لقوله تعالى:﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩] وبذلك انتهت الحرب بين الجيشين بقبول التحكيم[(3)].

وأيّا ما كان الأمر فقد ثار الخوارج على عليٍّ بعد قبوله التحكيم، وبالغوا فى النكير عليه، ورفضوا إيقاف الحرب، ونادوا من كل ناحية وقالوا:) لا حكم إلا لله، ولا نرضى بأن نُحَكِّم الرجال فى دين الله، قد أمضى الله حكمه فى معاوية وأصحابه؛ أن يُقتلوا أو يدخلوا معنا فى حكمنا عليهم، وقد كانت منا خطيئة وزلة حين رضينا بالحكمين، وقد تبنا إلى ربنا

---

(١) ابن العربى المالكى: العواصم من القواصم ص ٣٠٩. والحادثة في تاريخ دمشق ١٤/ ١٧٥.
(٢) السابق ص ٣١٢.
(٣) دكتور محمد أمحزون: تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة من روايات الإمام الطبري والمحدثين، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، ١/٢٥٠.

ورجعنا عن ذلك فارجع كما رجعنا ، وإلا فنحن منك براء). فقال علي: (ويحكم بعد الرضا والعهد والميثاق). فخرجوا عليه بسبب قبوله التحكيم، وبرئوا منه وشهدوا عليه بالشرك وتبرأ عليٌّ منهم[1].

وهكذا نبتت أول بدعة فى تكفير المسلمين[2]، فقد صرحوا بكفر علي بن أبى طالب أول من أسلم من الصبيان مع رسول الله ﷺ، بل وعارضوه فى خطبه وسلقوه بألسنة حداد شداد ، وامتنعوا من النزول إلى الكوفة مع الجيش وانفصلوا إلى حروراء[3]، مرددين قولتهم: (لا حكم إلا لله). فقال علي: (كلمة حق أريدَ بها باطل، ونحن ننتظر حكم الله فيكم، إن لكم علينا ألا نمنعكم مساجدنا ما لم تخرجوا علينا ، ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتكلم حتى تقاتلونا)[4].

على هذا النحو سارت الأمور مما يؤكد على أهمية حادثة التحكيم في تاريخ الفكر السياسي الإسلامي، كما يتبين أثرها في بروز نزعة الخروج التي نجمت بعدها ، وأخذت شكلا مغايرا لما كانت عليه أيام حصار عثمان –رضي الله عنه–، كما أن الأخباريين ممن اعتمد عليهم المؤرخون نسبوا إلى شخصية الحكمين –رضي الله عنهما– ما لا يليق، فوصفت عمرا بالمكر والدهاء والخداع، وأبا موسى بالسذاجة وقلة الفطنة ، وبرغم أهمية هذه الحادثة إلا أن أكثر ما ورد فيها كان عن طريق أبي مخنف الذي توبع في كثير من رواياته، بالنقد وتبين أنه قد زوّر في كثير من الروايات نصرة لمذهبه الشيعي[5].

(١) نصر بن مزاحم: وقعة صفين ص ٥١٧، ٥١٨.

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٣١/١٣.

(٣) قرية بظاهر الكوفة، وقيل: موضع على ميلين بها. مراصد الاطلاع ٣٩٤/١.

(٤) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٥٩/٤، وابن كثير: البداية والنهاية ٥٧٨/١٠.

(٥) يمكن الرجوع إلى شواهد ذلك عند دكتور محمد أمحزون: تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة من روايات الإمام الطبري والمحدثين، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، ٢٥١/١.

الفصل الثاني
تطور ظاهرة التكفير وأهم الآراء التكفيرية

أصبح عقب هذه الوقعة لهؤلاء الفتية المعتزلين مجموعة من الآراء والشبه الجديدة في حياة المسلمين، وقد اتبع علي بن أبي طالب مع هؤلاء طريقة الحوار والمناظرة لحل شبههم، وردهم إلى الصواب، فأرسل إليهم حبر الأمة عبد الله بن عباس –رضي الله عنه– ونصحه بأن يجادلهم بالسنة، فإن القرآن حمّال وجوه، وقد طرحوا فى هذه المناظرة الأمور التى نقموها وجعلتهم يكفرون المسلمين.

يقول ابن عباس: (لما اعتزلت الحرورية فكانوا فى دار على حدتهم، قلت لعليٍّ: يا أمير المؤمنين، أبرد[1] عن الصلاة لعلّى آتي هؤلاء القوم فأكلمهم، فأتيتهم، ولبست أحسن ما يكون من الحلل، فقالوا: مرحبا بك يا ابن عباس، ما جاء بك ؟ قال: جئتكم من عند أصحاب رسول الله –ﷺ– وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول الله –ﷺ– وعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بتأويله؛ جئت لأبلغكم عنهم وأبلغهم عنكم، فقالوا: فما هذه الحلة؟ قلت: ما تعيبون عليَّ ؟ لقد رأيت على رسول الله –ﷺ– أحسن الحلل، ونزل:﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[الأعراف: ٣٢] قلت: أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأول من آمن به؟ قالوا: ننقم عليه ثلاثًا. قلت: ما هن؟ قالوا: أولهن أنه حكّم الرجالَ فى دين الله، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ ﴾[الأنعام: ٥٧]. قلتُ: وماذا؟ قالوا: وقاتل

(١) الإبراد: انكسار الوهج والحر، وهو من الإبراد: الدخول في البرد. وقيل معناه: الصلاة في أول الوقت من برد النهار، وهو أوله. النهاية في غريب الحديث والأثر ١١٤/١.

ولم يسب ولم يغنم، لئن كانوا كفارًا لقد حلَّت له أموالهم، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم. قلت: وماذا؟ قالوا: ومحا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين. قلت: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم وحدثتكم من سنة نبيه ﷺ ما لا تشكُّون، أترجعون ؟ قالوا: نعم.

قلت: أما قولكم: إنه حكَّم الرجال في دين الله، فإن الله -تعالى- يقول:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ إلى قوله ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾[المائدة: ٩٥] وقال في المرأة ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾[النساء: ٣٥] أنشدكم الله أفحكم الرجال فى حقن دمائهم وأنفسهم وصلاح ذات بينهم أحق أم فى أرنب ثمنها ربع درهم ؟ قالوا: اللهم فى حقن دمائهم وصلاح ذات بينهم. قال: أخرجتُ من هذه ؟ قالوا: اللهم نعم.

وأما قولكم: إنه قاتل ولم يسب ولم يغنم. أتسبون أمكم[1]، أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها ليست بأمكم فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام؛ إن الله -تعالى- يقول:﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾[الأحزاب: ٦] فأنتم تترددون بين ضلالتين فاختاروا أيهما شئتم. أخرجتُ من هذه ؟ قالوا: اللهم نعم.

وأما قولكم: محا اسمه من أمير المؤمنين، فإن رسول الله -ﷺ- دعا قريشا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابا، فقال:)اكتب: هذا ما

(١) يقصد السيدة عائشة -رضي الله عنها- في خروجها يوم الجمل للمطالبة بدم قتلة عثمان، ولما فرغ على من هذا الأمر سأله ناس أن يقسم فيهم أموال أصحاب الجمل فرفض، فطعن فيه السبئية، وقالوا: كيف تحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا أموالهم ؟ فبلغ ذلك علي فقال: أيكم يحب أن تصير أم المؤمنين في سهمه ؟ انظر البداية والنهاية ٤٧٠/١٠.

قاضى عليه محمد رسول الله) فقالوا: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال: (والله إني لرسول الله وإن كذبتمونى، اكتب يا علي: محمد بن عبد الله)[1] ورسول الله كان أفضل من علي، أخرجتُ من هذه ؟ قالوا: اللهم نعم.

فرجع منهم عشرون ألفا وبقي منهم أربعة آلاف، فقاتلهم علي في النهروان فقُتلوا)[2].

ويتضح من هذه المناظرة أنها ليست مناظرة بين طرفين متكافئين، بل كان المبرَّز فيها هو ابن عباس، أو هو الطرف الإيجابي المليء بالعلم القائم على الاستدلال بآيات القرآن والسنة المطهرة، مما يبين ضحالة علم هؤلاء القوم وعدم تعمقهم فى الدين، واتباعهم للشعارات الزائفة.

ولم يكن منهم من له سابقة فى الدين، أو من صحابة النبي -ﷺ- حيث قال لهم ابن عباس: جئتكم من عند أصحاب رسول الله -ﷺ- وليس فيكم منهم أحد. بل (ولم يكن فيهم أحد من الفقهاء؛ لا من أصحاب ابن مسعود ولا أصحاب ابن عمر ولا أصحاب علي، ولا أصحاب عائشة، ولا أصحاب أبي موسى، ولا أصحاب معاذ بن جبل، ولا أصحاب أبي الدرداء، ولا أصحاب سلمان، ولا أصحاب زيد وابن عباس وابن عمر)[3].

وهذه البدعة الجديدة فى حياة المسلمين والتي نبتت فى هذا الوقت على يد هذه الطائفة، كانت شرارتها الأولى فى أيام النبي -ﷺ- حين بعث علي بن

---

(١) أخرج البخاري حديث الحديبية مطولا في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ٢٥٢/٣، ٢٥٣.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ١٥٧/١٠ (١٨٦٧٨)، والطبراني في الكبير ٣١٢/١٠ (١٠٥٩٨)، والحاكم في المستدرك ١٥٠/٢، وأبو نعيم في الحلية ٣١٨/١، والبيهقي في سننه ١٧٩/٨، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٦٣/٤٢، ٤٦٤.

(٣) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٥٦/٤.

أبى طالب وهو باليمن إلى رسول الله -ﷺ- بذُهَيْبَة، فقسَمها رسول الله -ﷺ- بين الأقرع بن حابس الحنظلي وعيينة الفزاري وعلقمة العامري وزيد الطائي، فتغضبت قريش والأنصار، فقالوا: يُعطي صناديد أهل نجد ويدعنا؟ فقال لهم النبيّ ﷺ: (إنما أتألفهم) فأقبل رجل غائر العينين، ناتئ الجبين، كث اللحية، مُشْرِف الوجنتين، محلوق الرأس، فقال: يا محمد، اتق الله واعدل. فقال: (ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل لقد خبت وخسرت إن لم أعدل). وفى رواية قال: (فمن يطيع الله إذا عصيته! يأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني) فسأله خالدبن الوليد أن يقتله فقال: (إن من ضِئْضِئِ[1] هذا قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة، يَقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد)[2].

وقد كان الأمر كما أخبر عنهم النبي ﷺ، فهؤلاء الخوارج سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على المسلمين حتى قال الراجز[3]:

وقدِم الخوارجُ الضُّلالُ
إلى عبادِ ربِّهم وقالوا
إن دماءكم لنا حلالُ

وقد خشى عليٌّ غائلتهم، فاضطر للخروج إليهم فى النهروان فسار إليهم

(١) الضئضئ: الأصل. أى: من نسله وعقبه. قال ابن كثير: (وليس المراد أن يخرج من صلبه ونسله؛ لأن الخوارج الذين ذكرنا لم يكونوا من سلالة هذا، بل لا أعلم أحدا من نسله، وإنما المراد: (من ضئضئ هذا). أى من شكله وعلى صفته فعلا وقولا، والله أعلم. وهذا الشكل وهذه الصفة كثيرة جدًّا في كل زمان وكل مكان، من قراء القرآن وغيرهم، لمن تأملها، والله أعلم. وهذا الرجل المذكور هو ذو الخويصرة التميمي، وسماه بعضهم: حرقوصا. والله أعلم". ابن كثير: البداية والنهاية ٦١٨/١٠، وابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ٦٩/٣.

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه – كتاب التوحيد – باب قوله تعالى: ُص ض ط ظِ ١٥٥/٩.

(٣) انظره في مجاز القرآن لأبى عبيدة ٧٤/٢، وتفسير الطبرى ٣/١٩، وتفسير القرطبى ٢١/١٣.

فى جنده وقاتلهم، وتحول عن أهل الشام[1].

وحين ثارت الخوارج وخرجوا على المسلمين قال علي بن أبى طالب: (يا أيها الناس، إني سمعت رسولَ الله -ﷺ- يقول: (يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية)[2] لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضى لهم على لسان نبيهم لاتكلوا على العمل، وآية ذلك أن فيهم رجلا له عضد ليس له ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي، عليه شعرات بيض، فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام، وتتركون هؤلاء يخلفونكم فى ذراريكم وأموالكم، والله إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم؛ فإنهم قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا فى سرح الناس فسيروا على اسم الله) [3].

وقُتل من الخوارج خلق كثير. فقال على: التمسوا فيهم المُخْدَج[4]. فالتمسوه فلم يجدوه، فقام علي بنفسه حتى أتى ناسا قد قتل بعضهم على بعض فوجدوه مما يلي الأرض، فكبر وقال: صدق الله وبلَّغ رسولُه، وفي رواية: ما كُذِبْتُ وما كَذَبْتُ. فقام إليه عبيدة السلماني فقال: يا أمير المؤمنين، آللّه الذى لا إله إلا هو[5]، لسمعتَ هذا من رسول الله ؟ فقال: إي والله الذي لا إله إلا

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٦٣٤/١٠.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٩٥/١٨، ٢٩٦ (١١٧٧٣)، وانظر البداية والنهاية ٦٣١/١٠.
(٣) البداية والنهاية ٥٩٢/١٠.
(٤) المخدج: ناقص اليد. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ١٣/٢.
(٥) إنما استحلفه ليسمع الحاضرين ويؤكد ذلك عندهم، ويظهر لهم المعجزة التى أخبر بها رسول الله ﷺ ويظهر لهم أن عليا وأصحابه أولى الطائفتين بالحق، وأنهم محقون في قتالهم. النووى: شرح صحيح مسلم ١٧٣/٧.

هو، فاستحلفه ثلاثا وهو يحلف له[1].

ويعلّق أبو سعيد الخدري على أقوال النبي -ﷺ- فى الخوارج وأوصافهم فيقول: (فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وأشهد أن عليًّا حين قتلهم وأنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ، وكان رجلا أسود فى إحدى يديه مثل ثدي المرأة)[2].

وقد أخبر النبي- ﷺ- أنهم (شر الخلق تقتلهم أدنى الطائفتين من الحق)[3].

ويتبين من ذلك أن هؤلاء الذين خرجوا على المسلمين وكفروهم هم الذين أخبر عنهم النبى ﷺ، وهم مع صلاتهم وقراءتهم للقرآن، لا يفقهونه.

كما يظهر أيضًا أن الحق كان فى جانب علي بن أبى طالب؛ لأنه هو الذي قاتلهم.

فأسلاف الخوارج كانوا أعرابا، قرؤوا القرآن قبل أن يتفقهوا فى السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ، ولم يكن فيهم أحد من الفقهاء؛ ولهذا تجدهم يكفر بعضهم بعضا عند أقل نازلة تنزل بهم فى دقائق الفتيا وصغارها[4].

هكذا خرج الخوارج على المسلمين، وكفروهم بالذنوب، وقد نجم عن ذلك فتح باب الصراعات السياسية والاختلافات الفكرية، التى أدت فيما بعد إلى ظهور أحزاب وحركات سياسية.

ثم تطورت فكرة التكفير عند الخوارج، بعد أن انقسموا إلى فرق كثيرة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه – كتاب الزكاة – باب التحريض على قتل الخوارج ٧٤٦/٢ (١٠٦٦/١٥٦)، وأبو داود في سننه – كتاب السنة – باب في قتال الخوارج ٢٤٥/٤ (٤٧٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه – كتاب استتابة المرتدين والمعاندين – باب من ترك قتال الخوارج للتأليف وأن لا ينفر الناس عنه ٢١/٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه – كتاب الزكاة – باب ذكر الخوارج وصفاتهم ٧٤٥/٢ (١٠٦٥/١٤٩)، وأحمد في المسند ١٦٢/١٧ (١١٠١٨).

(٤) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٥٦/٤.

يجمعها إكفار علي وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين ومن رضي بالتحكيم وصوّب الحكمين أو أحدهما، ثم يجمعها الخروج على السلطان الجائر[1].

كما كفروا بكل ذنب وكبيرة بعد أن توالت فرقهم فى الخروج حتى اتسع نطاق التكفير عندهم على يد الأزارقة، فشمل التكفير عندهم كل مخالف.

فالأزارقة – أتباع نافع بن الأزرق – من الخوارج كفَّروا القعدة عن الهجرة إليهم فجعلوهم مشركين وإن كانوا يوافقون الأزارقة فى سائر الآراء، كما اختلفت النجدات – أتباع نجدة بن عامر الحنفي – مع الأزارقة فأكفروا مَن كفَّر القعدة عن الهجرة إليهم، بل أكفروا من قال بإمامة نافع بن الأزرق[2].

كما كفر بعضهم بعضًا فى مسائل كثيرة، فالحازمية[3] والشعيبية[4] منهم كفروا الميمونية[5] الذين تابعوا القدرية فى قولهم فى باب القدر والاستطاعة، كما كفّرت الحمزية[6] منهم الحازمية؛ لاختلافهم فى باب القدر[7].

---

(١) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ١/١٦٧، والبغدادي: الفرق بين الفرق ص ٧٣، والإسفرائيني: التبصير في الدين ص ٢٩.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق ٧٣، ٧٨، وابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/١٨٩.

(٣) أصحاب حازم بن عاصم من الفرق التى انشقت عن العجاردة سماها الأشعرى الخازمية بالخاء المعجمة – يحكى عنهم أنهم توقفوا في أمر علي ولا يصرحون بالبراءة منه. انظر عنهم الأشعري مقالات الإسلاميين ١/٩٦، والشهرستاني: الملل والنحل ١/١٣١، والآمدي: أبكار الأفكار ٥/٨١.

(٤) من جملة العجاردة أصحاب شعيب بن محمد. انظر عنهم الشهرستاني: الملل والنحل ١/١٣١، والبغدادي: الفرق بين الفرق ص٩٥، والآمدي: أبكار الأفكار ٥/٨١.

(٥) أصحاب ميمون بن خالد، وقيل: ميمون بن خالد كان من جملة العجاردة إلا أنه تفرد عنهم بإثبات القدر. انظر عنهم: الشهرستاني: الملل والنحل ١/١٢٩، والآمدي: أبكار الأفكار ٥/٨٠.

(٦) أصحاب حمزة بن أدرك، من العجاردة، انظر عنهم الشهرستاني: الملل والنحل ١/١٢٩، والآمدي: أبكار الأفكار ٥/٨١.

(٧) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٩٤.

وهكذا دأب الخوارج على تكفير بعضهم بعضا فى أقل نازلة، وهذا عيب كبير من عيوب أهل البدع[1].

ويُستثنى منهم الإباضية – أتباع عبد الله بن إباض – فإنهم أكثر اعتدالا فى الحكم على مخالفيهم، بل إن الإباضيين ينكرون نسبتهم إلى الخوارج[2]، وقد أنكروا الكثير من أقوال الأزارقة والصفرية الذين كفروا القعدة.

وقد أعلن الإباضيون أن مخالفيهم من أهل القبلة كفار نعمة تجوز مناكحتهم وموارثتهم، وأن من زنى أو سرق أو قذف، فإنه يقام عليه الحد ثم يستتاب مما فعل، فإن تاب تُرك، وإن أبى التوبة قتل ردة[3].

أما أهل الحديث فلا يشهدون على أحد بكفر ولا بشرك ولابنفاق ما لم يظهر منه شىء من ذلك، ويذرون السرائر إلى الله تعالى[4].

كما ظهر هذا الفكر فى فرق الشيعة أيضًا؛ فالزيدية والإمامية – مثلا – منهم من يكفر بعضهم بعضا، والعداوة بينهم – كما يقول مؤرخو الفرق – قائمة دائمة[5].

ومثل ذلك يقال عن البترية والسليمانية والجارودية والكيسانية.

وقد امتدت نزعة التكفير كذلك إلى منهج المعتزلة، فقد اهتموا بمسألة مرتكب الكبيرة اهتماما كبيرا، بل إن نشأتهم ترجع إلى هذه المسألة[6].

---

(١) ابن أبى العز: شرح العقيدة الطحاوية ٤٣٩/٢.

(٢) علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ ص٢٨، وحميد السالمى: شرح الجامع الصحيح (مكتبة الاستقامة، عمان، تحقيق: عز الدين التنوخى – ط٢) ٥٩/١، السابعي: الخوارج الحقيقة الغائبة (مطبعة النهضة – عمان – ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ص١٥٦.

(٣) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٨٩/٤، والشهرستاني: الملل والنحل ٢٤٤/١، وانظر: السالمي: شرح الجامع ص ١٦١.

(٤) ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ٥٣٩/٢.

(٥) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٧١، والإسفرائينى: التبصير في الدين ص ٤١.

(٦) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ١١٧، والإسفرائينى: التبصير في الدين ص ٦٧.

ولأهمية هذه القضية عندهم خصصوا لها أصلا من أصولهم، وهو الأصل الرابع: المنزلة بين المنزلتين، وتناولوها كذلك في الأصل الثالث، وهو: الوعد والوعيد، فقد ذهبوا إلى أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين المنزلتين فهو خارج عن الإيمان غير داخل فى الكفر[١].

فالمعتزلة يوافقون الخوارج فى حكم الآخرة؛ فإنهم وافقوهم على أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار، لكن الخوارج سمته كافرًا، والمعتزلة جعلته فى منزلة بين المنزلتين[٢].

وما ذهب إليه الخوارج والمعتزلة يجافي طبيعة النفس البشرية التى جُبلت على أن تصيب وتخطئ، فليس أحد من البشر غير الأنبياء إلا وقد أخطأ أو هَمَّ بخطيئة، وقد قال النبي ﷺ : (والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب اللّه بكم ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون، فيغفر لهم)[٣]. فمن هذا الذي لا يخطئ ؟ وقد قال الشاعر[٤] :

إن تغفرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا   وأيُّ عبدٍ لكَ لا ألَمَّا

وتأكيدًا على هذه الجبلة يؤكد لنا القدماء هذا المعنى، فيقول الشاعر[٥]:

من الذي ما ساء قط   ومن له الحسنى فقط

كذلك منح المعتزلة لعقولهم الحرية الكاملة في الحكم بالتضليل والتفسيق على بعض الصحابة، فظهرت عبارات على ألسنة رؤسائهم تجرح

(١) أحمد بن الحسين: شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص ٧٠٧، وابن المرتضى: طبقات المعتزلة ص ٤، وابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٨٨/٣، والآمدي: أبكار الافكار ٨/١، وابن تيمية: الفتاوى ٢٢٣/٧، والسفاريني: لوامع الأنوار ٤٠٥/١.

(٢) ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ٤٤٤/٢.

(٣) اخرجه مسلم في صحيحه – كتاب التوبة – باب سقوط الذنوب بالاستغفار ٢١٠٦/٤(٢٦٤٩).

(٤) هو أمية بن أبي الصلت، ديوانه، ص ٥٦.

(٥) البيت للحريري صاحب المقامات. وفيات الأعيان ٤٥٥/٣.

بعض الصحابة وبغير الخير تذكرهم، وهم وإن لم يكفروا الصحابة تكفيرا صريحا، إلا أن التجريح فيهم يلزم منه التكفير على أصل مذهبهم الذي يقضي بأن الفاسق مخلد في النار كما يرون.

فروي عن عمرو بن عبيد أنه قال: لو شهد عندي علي وعثمان وطلحة والزبير على شراك نعل ما أجزت شهادتهم.

وعن معاذ بن معاذ قال: قلت لعمرو بن عبيد: كيف حدث الحسن عن عثمان أنه ورث امرأة عبد الرحمن بعد انقضاء عدتها ؟ فقال: إن فعل عثمان لم يكن سنة. وقيل له: كيف حدث الحسن عن سمرة في السكتتين ؟ فقال: ما تصنع بسمرة ! قبح الله سمرة[1].

وقد وجد واصل بن عطاء أن أهل عصره مختلفين في علي وأصحابه، وفي طلحة، والزبير، وأم المؤمنين عائشة، وسائر أصحاب الجمل، فقالت الخوارج برأي، والشيعة برأي، وأهل السنة برأي، فخرج واصل برأي زعم فيه أن فرقة من الفرقتين فسقة لا بأعيانهم، وأنه لا يعرف الفسقة منهم، وأجاز كون الفسقة من الفريقين، ثم قال: لو شهد علي وطلحة، أو علي والزبير، أو رجل من أصحاب علي ورجل من أصحاب الجمل على باقة بقل لم أحكم بشهادتهما؛ لعلمي بأن أحدهما فاسق لا بعينه، كما لا أحكم بشهادة المتلاعنين؛ لعلمي بأن أحدهما فاسق لا بعينه[2].

كما طعن النظّام في الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وزعم أنه شك يوم الحديبية، وأنه كتم النص على بيعة علي، كما وقع في عثمان، وعاب على علي –رضي الله عنه– أنه سُئل عن مسألة فقال: (أقول فيها برأي) فقال النظّام: (ومن هو حتى يقضي رأيه) كما زعم أن أبا هريرة أكذب

---

(١) الشاطبي: الاعتصام، ص ٨٨.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ١١٩، ١٢٠، والشهرستاني: الملل والنحل، ص ٤٩.

الناس، وأسقط عدالة ابن مسعود ونسبه إلى الضلال، بل أجاز اجتماع الأمة على ضلالة[1].

فهكذا أهل الضلال يسبون السلف الصالح لعل بضاعتهم تنفق ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ [التوبة: ٣٢].

بل إن المعتزلة أنفسهم قد انقسموا إلى فرق يكفر بعضهم بعضا ويكفرون مخالفيهم، فالمعمرية – أتباع معمر بن عباد السلمي – قالوا بتكفير من لم ينف صفات الله عز وجل [2].

والمردارية – أتباع عيسى بن صبيح الملقب بمردار– كفّروا مخالفيهم، وقد انفرد المردار عن أصحابه بمسائل منها أن الناس قادرون على مثل فصاحة القرآن نظما وبلاغة، وكفّر من قال: إن الله تعالى يُرى

بالأبصار، بل غالى فقال: هم كافرون في قولهم: لا إله إلا الله[3].

وقد شهد العصر العباسي قيام رؤوس المعتزلة الكبار بمحاولة فرض آرائهم واجتهاداتهم على سائر المسلمين– علمائهم وعامّتهم – بالقوّة، مستغلّين النفوذ الذي تمتّعوا به منذ عهد الخليفة المأمون، فأقنعوا المأمون بآرائهم وامتحان العلماء عليها، وفتنوا كل من لم يجبهم إلى القول بخلق القرآن، ومنعوه من تولي الوظائف، ولم يفكوا أسره، وغير ذلك من العداء الشديد على المسلمين حتى وصل الأمر لدرجة الإفتاء بكفر كثير من فضلاء الأمة وقتله، كالإمام أحمد بن حنبل وغيره[4].

---

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ١٤٧، ١٢٠، والشهرستاني: الملل والنحل، ص ٥٨، ٥٧.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل، ص ٦٥، ٦٦.

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ١٦٥، والشهرستاني: الملل والنحل، ص ٦٩.

(٤) ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ص ٣٠٨. دار الآفاق الحديثة ط ٣، ١٤٠٢، ١٩٨٢م.

ومؤخرا طلت علينا هذه الفتنة بوجهها القبيح، فظهرت (جماعة التكفير والهجرة)، فأطلقت على نفسها اسم:)جماعة المسلمين) ونزعت إلى فكر التكفير على النحو الآتي:

- إطلاق الكفر على عصور التاريخ الإسلامى منذ القرن الرابع الهجري.
- اعتبروا جماعتهم هى الجماعة الوحيدة المسلمة فى العالم وما عداها فعلى ضلال.
- تكفير الإخوان المسلمين كشخص معنوي من شخصيات الحركة الإسلامية.
- عدم الاعتداد بالتاريخ الإسلامى باعتبار أن وقائعه غير ثابتة[1].

الأمر الذي استدعى أن يقوم العلماء بدراسة المسألة، وتحديد مفاهيم الإيمان والكفر، كما يمكن استخلاصها من القرآن والسنة، مع وضع الضوابط الشرعية للاحتراز من الخوض فى هذا الباب دون بصيرة كما سبق القول.

وسوف نقوم برصد عودة الظاهرة مرة أخرى في العصر الحديث، وظروف نشأتها، ومعرفة أفكار أهم الجماعات للوصول إلى حقيقة الظاهرة.

(١) عبد الرحمن أبو الخير: ذكرياتي مع جماعة المسلمين (التكفير والهجرة) ص٣٤، ومحمد سرور نايف: الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو ١/٢٥٤.

الفصل الثالث
التكفير في العصر الحاضر وصلته بالتكفير الماضي

المبحث الأول : ظروف نشأة الظاهرة

من أشد الأزمات التي تعرضت لها جماعة الإخوان المسلمين في مصر هي اعتقالات سنة ١٩٦٥م والتي قاسى أعضاؤها فيها السجن والتنكيل والاعتداء على حقوق الإنسان، الأمر الذي يدفع البعض إلى اعتبار ذلك هو السبب الرئيس الذي أدى إلى ظهور الفكر التكفيري[١].

وتؤكد مصادر أخرى أن ظروف النشأة في العصر الحديث تعود إلى عام ١٩٦٩م حين جرى حوار بين مسؤول أمني في أحد السجون المصرية، وأحد أفراد الجماعات الإسلامية، فرفض السجين الحوار مع هذا المسؤول وقال له: أرفض الحوار معك؛ لأنك كافر، وحكومتك كافرة[٢].

وتعزو روايات أخرى النشأة إلى عام ١٩٦٧ م حين رفضت طائفة طلب رجال الأمن من بعض المعتقلين كتابة خطاب تأييد للنظام، غير أن فئة من هذه الطائفة عللت هذا الرفض بكفر النظام، ثم لم تلبث أن كفّرت من خالفهم من إخوانهم المعتقلين[٣].

وجميع من تعرض لرصد النشأة وظروفها في العصر الحديث يجمع أنها نشأت في ظل الكبت والتعذيب ومصادرة الرأي، والتعدي على حقوق الإنسان وكرامات الأمم، مما يؤكد أن السجن ومطارق التعذيب، كان وعاء مناسبا لنشأة هذه الآراء.

---

(١) البهنساوي: الحكم وقضية تكفير المسلم، ص ٢١، نعمان السامرائي: التكفير جذوره وأسبابه ومبرراته، ص ٣٨، أحمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين، ص ١٠٨.

(٢) د. رفعت سعيد: النبي المسلح ٧٧/٢.

(٣) محمد سرور: الحكم بما أنزل الله وأهل الغلو ٣٠٧/١.

المبحث الثاني

مراحل النشأة

في هذا الجو المشحون بالتعذيب، والمفعم بالمحن نشأ هذا الفكر الذي يمكن تبلوره في مرحلتين:

الأولى: أثناء محنة ١٩٥٤م في مذبحة ليمان طره، فقد أدى التعذيب إلى اندهاش هؤلاء الشباب متسائلين: ما الذي فعلناه حتى يفعل بنا هذا ؟! وما حكم الإسلام في هؤلاء الحكام الذين يصدروا الأوامر بتعذيبنا ؟! وما حكم الإسلام في الجلادين والمنفذين ؟!

وقد كانت الإجابة أن هؤلاء كفرة ومن يعاونهم، والمجتمع جاهلي، ولا عذر للمحكومين، ومنهم الذين يتولون أمر التعذيب والاضطهاد؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾[القصص: ٨].

الثانية: أثناء محنة ١٩٦٥ م التي أشرنا إليها في المبحث السابق، وبداية من هذا التاريخ أعلن عن فكر التكفير صراحة، ورفعت رايته، وأصبح له أنصار انتشروا بعد أكتوبر ١٩٧١ م يتزعمهم شكري مصطفى زعيم جماعة التكفير والهجرة.

وبعد ظهور هذه الجماعة على الساحة الفكرية والعملية، وانتشار آرائها لقيت معارضات شديدة من الجماعات الأخرى القائمة لغلوها وشذوذ أفكارها.

ظهرت جماعات أخرى تنتهج نهج شكري وإن كانت أقل غلوا، فتبنت فكر التكفير والجاهلية، وذلك على يد الدكتور صالح سرية الذي أسس تنظيما عرف باسم جماعة الفنية العسكرية.

ثم يتتابع ظهور جماعات أخرى بين الحين والآخر تتبنى هذه الأفكار، ولكن بصور مختلفة، مثل جماعة الجهاد، وجماعة الشوقيين، والناجون من النار.

وكل هؤلاء وإن لم ينسبوا أنفسهم إلى فكر الخوارج إلا أننا نجد أنها توافقهم في الأصول التي عرفوا بها وسبق الحديث عنها، فهل هؤلاء امتداد فكري وعقدي للخوارج الأُول، هذا ما سنناقشه في المبحث الآتي إن شاء الله.

المبحث الثالث
صلة الظاهرة الحديثة بالظاهرة القديمة

عند الحديث عن ظاهرة الخروج وفرقة الخوارج في الآونة الأخيرة، للكشف عن الصلة بين الظاهرة الجديدة والقديمة، يدعونا الحديث عن الفرقة التي ينطبق عليها معنى الخروج الفرقي المذموم لا مطلق الخروج، فالخروج يطلق على عدة أحوال، غير أن الاصطلاح الشرعي أو العرفي يخصص من هذه الألفاظ معنى محددا يكون بمثابة العلة للحكم.

وعند الحديث عن الخروج كفرقة نجد أن النصوص الشرعية المتمثلة في الأحاديث النبوية الواردة في الخوارج وأقوال الصحابة ومواقفهم وسيرة الخوارج كفرقة وكأعلام تحدد العلل والمعاني التي استحق بها الخوارج هذا الوصف والحكم، ويمكن إيجازها فيما يأتي:

١ – الأمر بالمنكر باعتباره معروفا: وهو ما فعله ذو الخويصرة أول خارجي في التاريخ الإسلامي حين قال للنبي –ﷺ– حين كان يقسم الغنائم: اتق الله واعدل. فقال: (ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل، لقد خبت وخسرت إن لم أعدل).

وقد ظلت هذه العلة ملازمة للخوارج في كثير من مواقفهم التي هي أثر لفهم خاطئ دفعهم إلى إنكار المعروف والأمر بالمنكر، كما حدث حين اتفق علي ومعاوية على الصلح حقنا لدماء المسلمين، فعدّ الخوارج هذا منكرا وكفرا مخرجا من الملة على نحو ما مر بيانه من قولهم: (لا حكم إلا لله) الأمر الذي دفع علي بن أبي طالب أن يقول: (كلمة حق أريد بها باطل) وهي كلمة تبين بوضوح هذه العلة، وهي إلباس المنكر لباس النص الشرعي.

٢ – التكفير بكل كبيرة: وهذه العلة وإن كانت دون العلة السابقة إلا أن آثارها خطيرة في حكمهم على المخالفين، واعتبار دارهم دار حرب مما دفعهم إلى القيام بثورات متكررة عادت على المسلمين في القرن الأول بكثير من الخسائر.

وتبعا لذلك ظهر مفهوم الولاء والبراء تبعا لتعريف الإيمان، فمن استكمل أركان الإيمان فهو مؤمن يجب ولاؤه، ومن ارتكب ما يوجب نقصانه فهو كافر يجب البراءة منه، لذلك فقد أنزلوا عليه أحكام الكفار من وجوب القتال واستحلال الدم والمال مصداق قول ابن عمر: (إنهم انطلقوا في الآيات النازلة في الكفار فجعلوها في المؤمنين)[1] لسوء تأويل وفهم لمراد الله تعالى، ولبعدهم التام عن معرفة أحكام الشرع.

أما الخروج المسلح مجردا عن المنطلقات الاعتقادية السابقة للخوارج، فلا يستوجب الحكم على مرتكبيه بأحكام الخوارج الاعتقادية، وتبعا لذلك يمكن تقسيم الخروج في العصر الحديث إلى اتجاهين:

الأول: ما كان امتدادا للخوارج، وهو المتحقق في الفرقة الباقية من فرق الخوارج، وهم الإباضية.

الثاني: هو ما تحققت فيه علل الخروج الأول دون ارتباط تاريخي ومذهبي متصل بالخوارج الأوائل، وهو ما تحقق جانب منه في جماعة التكفير والهجرة ومن شابهها.

وسوف نتناول الحديث عن الاتجاهين بشيء من الإيجاز:

١ – فرقة الإباضية كامتداد اعتقادي لفرق الخوارج:

الإباضية هي الفرقة التي تبقت من فرق الخوارج، وقد خالفوا عامة

(١) صحيح البخاري – كتاب استتابة المرتدين – باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم– فتح الباري ١٢ / ٢٨٢.

الخوارج في تعريف الإيمان وأثره في الحكم على مرتكب المعصية، فقد قالوا بما قالت به الخوارج من أن الإيمان يشمل جميع الطاعات ومن ترك شيئا منها يكفر، ولكنهم يقولون: إنه كفر نعمة لا كفر شرك، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨] فمن بدل: كفر كفر نعمة، وكذلك العاصي مؤكدين أن هذا الإطلاق هو إطلاق شرعي[١].

وإن كان هؤلاء أحسن حالا من أسلافهم في مرتكب الكبيرة إلا أنه عندهم إذا مات ولم يتب فهو مخلد في النار، وهذا الحكم قائم على استدلالات وردت في أهم كتب الحديث لديهم وأقدمها، وهو مسند الربيع بن حبيب، فقد ورد فيه مجموعة من الأحاديث تعتبر مرتكزا لمعظم استدلالاتهم، من ذلك قوله ﷺ: (الجنة حرام على من قتل ذميا أو ظلمه أو حمله ما لا يطيق)[٢]، ومنها: (من مات وعليه دين لم يدخل الجنة..)[٣]. ثم يوردون من الآيات القرآنية ما يعتبرونه دليلا على تخليد مرتكب الكبيرة في النار، كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾[الجن: ٢٣] ويعللون الحكمة من تخليده في النار بأن العاصي إذا عصى فقد عصى ربا عظيما لا نهاية لعظمته، فكذلك يكون الخلود في العذاب لا نهاية له[٤]، ويعللون أيضا بأن ذلك أزجر للعبد[٥].

---

(١) أبو محمد اليمني: عقائد الثلاث والسبعين فرقة، تحقيق / محمد بن عبد الله الغامدي ٢٩٦/١، مكتبة العلوم والحكم، ط ١، ١٤١٤هـ، وعلي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ ٩٠/١.

(٢) مسند الإمام الربيع بن حبيب، ص ٢٩٢.

(٣) السابق، ص ٢٩٣.

(٤) السالمي: مشارق أنوار العقول، تحقيق / عبد المنعم العاني، ص ٣٧٩، دار الحكمة، ط ١، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥م.

(٥) علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ ١٢٦/١.

كما يرون الخروج على مرتكب الكبيرة ومحاربته، وفي ذلك يقول الجناوني: (وقالت الإباضية: من أتى بالقول وضيع العمل فهو كافر منافق فاسق عاص ليس بمؤمن ولا بمسلم ولا بمشرك، وأحكامه أحكام الملة الإسلامية) [1]. كما يرون أن من عمل كبيرة من المسلمين فالواجب أن يدعوهم المسلمون فإن استجابوا للطاعة فلهم ما للمسلمين، وإن أبوا وباينوا المسلمين ناصبهم إمام المسلمين الحرب حتى يرجعوا إلى أمر الله[2].

كما رأى معاصروهم أن خروج الثوار على عثمان وقتله، وخروج أهل النهروان على علي هي فتن وقعت بين الصحابة، فهو كقتال يوم الجمل بين علي وطلحة والزبير، فينبغي التوقف وعدم الخوض فيها[3].

والحق أن ثمة فرقا كبيرا بين الفتن الواقعة بين الصحابة الذين كانون يترضون على بعضهم ولا يرمون بعضهم البعض بالكفر، ويصلي كل منهم على قتلى الآخر، كما مر بيانه، وبين قتال أهل النهروان الذين كفروا عليا وعثمان – رضي الله عنهما – وكان قتالهم لهم لأجل تكفيرهم إياهم.

٢ – جماعة التكفير والهجرة وأمثالها من أصحاب الخروج المسلح:

رأينا في الآونة الأخيرة شبابًا يعتنق هذه الأفكار مرة أخرى، حتى أصبح المجتمع يموج بأفكار الخوارج الأوائل، فوجدنا من يعتقد كفر من ارتكب المعصية وأصر عليها، بل كفّر جميع المسلمين وإن صلوا وصاموا، يضيفون إلى ذلك بدعة المفاصلة الشعورية، والتي تعني مجاراة المسلمين في عباداتهم ومعاملاتهم مع الاعتقاد بكفرهم، إلى غير ذلك من الآراء التي تدور في

(١) الجناوني:كتاب الوضع – مختصر في الأصول والفقه، ص ١٦، تعليق / إبراهيم أطفيش، مطبعة الفجالة، مصر، بدون تاريخ.
(٢) السابق، ص ١٧.
(٣) علي يحيى معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية ٢/١٦٩.

مجملها حول تكفير المسلمين[1].

وتتفق الآراء على أن صاحب بدعة التكفير في العصر الحديث هو شكري مصطفي الذي أسس جماعة المسلمين[2] في أواخر الستينيات من القرن المنصرم، وسميت باسم جماعة التكفير والهجرة[3].

وقد تبلورت لدى شكري مجموعة من الأفكار التي مثلت أساس منهجه في التكفير ومنهج من جاء بعده، ونسج على منواله، وكان أبرزهذه الأفكار:

- فكرة الحد الأدنى للإسلام.
- التوقف والتبيين.
- الإصرار على المعصية.

كما كان لجماعة الفنية العسكرية –بقيادة زعيمها صالح– سرية أفكار أخرى، كان أبرزها:

١ – عدم صحة إيمان المقلد.

(١) د. مصطفي حلمي: الخوارج الأصول التاريخية لمسألة تكفير المسلم، ص ٣٠ – ٣٢.

(٢) يطلق على هذه الجماعة ثلاثة أسماء، هي:

١ – جماعة المسلمين: وهذا هو الاسم الذي سمت به الجماعة نفسها؛ لاعتقادها أن الإسلام الحق في دعوتهم وحدهم، وأنهم هم الجماعة الوحيدة على الحق والهدى، وما عداها من الجماعات على باطل وضلال.

٢ – جماعة التكفير والهجرة: وهذا هو الاسم الذي اشتهرت به إعلاميا، وبتأثير الإعلام أصبح هذا الاسم هو الشائع بين الناس، وسبب هذه التسمية هو تبني هذه الجماعة لفكر التكفير والغلو فيه، ودعوتهم إلى هجر المجتمع؛ لأنه جاهلي كافر، وتكون الهجرة إلى مكان يأمن فيه المرء على دينه، ويقيم فيه شرع الله تعالى.

٣ – جماعة شكري مصطفي: وهذا الاسم نسبة إلى زعيم الجماعة ومؤسسها.

عبد الرحمن أبو الخير: ذكرياتي مع جماعة المسلمين، ص ٣٤.

(٣) رجب مدكور: التكفير والهجرة وجها لوجه، ص ٥، ومحمد نايف سرور: الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو، ص ١١، وأبو العينين: إعلان النكير على غلاة التكفير، ص ١١٥.

٢ – العمل شرط لصحة الإيمان.

٣ – التكفير بالتأويل.

وقد كفروا بهذه الشبه غالبية المسلمين.

ويجمع هذه التيارات التكفيرية القديم منها والحديث، أنهم شباب ليس فيهم فقيه ولا عالم، بل هم أهل عاطفة وحماس، وهذا يذكرنا بما نقلنا فيما تقدم عن الخوارج (ولم يكن فيهم أحد من الفقهاء؛ لا من أصحاب ابن مسعود ولا أصحاب ابن عمر ولا أصحاب علي، ولا أصحاب عائشة، ولا أصحاب أبي موسى، ولا أصحاب معاذ بن جبل، ولا أصحاب أبى الدرداء، ولا أصحاب سلمان، ولا أصحاب زيد وابن عباس وابن عمر) [(١)].

بل لما ناقش ابن عباس خوارج عصره رجع منهم عشرون ألفا، كما تقدم[(٢)].

كذلك أيضا حينما كتب الأستاذ حسن الهضيبي بحوثه التي صدرت في كتاب (دعاة لا قضاة) وردّ فيه على شبهاتهم رجع كثير من هؤلاء الشباب عن هذا الفكر، وأصيبت جبهتهم بالتصدع والانقسام نتيجة للحوار الهادف البناء. فهم ينقسمون على أنفسهم لأقل نازلة فيكفر بعضهم بعضا.

ومن ينظر إلى أفكار هؤلاء الجدد يجد تشابها كبيرا بينها وبين أفكار أسلافهم من الخوارج، مثل:

١ – التكفير بالذنوب والكبائر.

٢ – الحكم على ديار المسلمين بأنها ديار كفر، والمجتمعات جاهلية.

---

(١) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/١٥٦.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ١٠/١٥٧ (١٨٦٧٨)، والطبراني في الكبير ١٠/٣١٢ (١٠٥٩٨)، والحاكم في المستدرك ٢/١٥٠، وأبو نعيم في الحلية ١/٣١٨، والبيهقي في سننه ٨/١٧٩، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/٤٦٣، ٤٦٤.

٣ – تكفير القاعد غير المهاجر

٤ – التوقف في الحكم على المجتمع بالإسلام. إلى غيرذلك من الآراء

وهكذا نظر شكري وأتباعه إلى المعاصى على أنها كفر وخروج من الملة كما صنعت الخوارج من قبل، كما كان لهذه الجماعة أفكار وآراء أخرى بعيدة كل البعد عن الدين الإسلامى الحنيف، وليس لها سند شرعى تقوم عليه، مثل فكرة الهجرة، والانفصال عن المجتمع والانعزال عنه، وترك الوظائف، وقد بدؤوا التحرك لتحقيق غرضهم باللجوء إلى الجبال والمغارات[(١)].

كما نبتت أيضا جماعة الجهاد برئاسة صالح سرية الفلسطينى الجنسية، وقد عرفت هذه الجماعة بجماعة الفنية العسكرية لمحاولتها الاستيلاء على الكلية الفنية العسكرية.

وقد حاول هؤلاء قيام دولة إسلامية مستخدمين فى ذلك طرق العنف وإباحة الدماء للوصول إلى هدفهم، وقد دعت هذه الجماعة إلى تكفير المجتمع بالكامل، وأنه لا سبيل إلى الخلاص إلا بالقتل والعنف[(٢)].

وما زالت هذه الفتنة تطل علينا بوجهها القبيح بين الحين والآخر، ومعظم معتنقى هذه الأفكار من الشباب الجاهل بالعقيدة الصحيحة وحدود الإيمان والكفر، وقد كثرت هذه الجماعات فى هذه الأيام مثل جماعة الشوقيين، وجماعة الناجين من النار (هكذا يطلقون على أنفسهم) وعمدة مذاهبهم في تكفير المجتمع لا سيما العصاة.

والحق أن هذه الأفكار إذا قيست بحقائق الإسلام المقررة وأسسه

(١) المستشار سالم البهنساوي: الحكم وقضية تكفير المسلم (دار الأنصار القاهرة) ص ٣٠٠، حسن صادق: جذور الفكر الإسلامى في الفرق الإسلامية بين التطرف والإرهاب ص ٢٨٦، د. عمر عبد العزيز: شبهات التكفير ص ٤٢٠.

(٢) د. عبد العظيم رمضان، جماعات التكفير في مصر ص٥٣، ٩٥، حسن صادق: جذور الفكر الإسلامى في الفرق الإسلامية بين التطرف والإرهاب ص ٣٣٩.

المعتمدة، وتعاليمه التى توطدت واستقرت فى كتاب اللّه وسنة رسول اللّه ﷺ تبين أنها أفكار خاطئة تافهة لا وزن لها.

ولو كان هؤلاء على شيء من العلم لاقتدوا برسول اللّه -ﷺ- الذي قال: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) وفى رواية: (اللهم اهد قومي........)[1] ولاقتدوا بالمؤمنين الأوائل الذين قالوا: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلاخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالايمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[الحشر: ١٠].

ولم يكن هدى النبى -ﷺ- مع أصحاب المعاصى أنه كان يكفرهم كما يفعل هؤلاء، فقد أتى في عهده -ﷺ- برجل شرب الخمر، وكان رسول اللّه ﷺ قد جلده فى الخمر قبل ذلك، فقال رجل من القوم بحضرته ﷺ: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال ﷺ: (لا تلعنوه فإنه يحب اللّه ورسوله)[2].

وجاء فى رواية أخرى لهذا الحديث أن النبي ﷺ قال: (لا تقولوا هذا، ولكن قولوا اللهم ارحمه، اللهم تب عليه)[3].

فهذا هو أدب الإسلام فيمن وقع فى معصية من معاصي اللّه، أو فى حد من حدوده، وهذا هو أدب النبوة فيمن اقترف معصية، فإنه -ﷺ- لا يُقَنِّطُ أحدًا من رحمة اللّه؛ علما منه -ﷺ- بسعة الرحمة الإلهية وكرم اللّه.

ولذلك فالحكم على الشخص أو الجماعة بكفر أو فسق هو حكم شرعي، يحتاج إلى علم شرعي قائم على الدليل القطعي؛ لأن التكفير حكم شرعي تترتب عليه أحكام شرعية هي في غاية الخطورة بالنسبة للأفراد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار ١٤/٤، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد ١٤١٧/٣ (١٧٩٢).

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة ١٩٧/٨.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب الحد في الخمر ١٦١/٤ (٤٤٧٨).

والجماعات وقد وضح الفقهاء ضوابط تضبط فروع التكفير، وتمنع من إطلاق حكم التكفير بالاحتمال والظن والشك، وقد حفلت المصنفات الفقهية بهذه التحذيرات.

وفي ذلك يقول ابن حجر الهيتمي: (ينبغي للمفتي أن يحتاط في التكفير ما أمكنه؛ لعظيم خطره وغلبة عدم قصده، سيما من العوام، وما زال أئمتنا على ذلك قديمًا وحديثًا)[1].

بل إن كتب فقه المذاهب الأربعة لم تغفل التحذير من هذا الأمر؛ فعند الحنفية يقول ابن نجيم المصري:)والذي تحرر أنه لا يفتى بتكفير مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن، أو كان في كفره اختلاف، ولو في رواية ضعيفة)[2].

ويقول الحصكفي: (لا يفتى بالكفر بشيء إلا فيما اتفق عليه المشايخ)[3]. وعند المالكية يقول القرافي: (فليس إراقة الدماء بسهل ولا القضاء بالتكفير)[4].

وقال الشربيني : (والحكم بالردة شيء عظيم فيحتاط له)[5].

ويقول ابن تيمية: (ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله، ولا بخطأ أخطأ فيه؛ كالمسائل التي يتنازع فيها أهل القبلة)[6].

ويقول أيضا: (إني من أعظم الناس نهيًا عن أن ينسب معين إلى تكفير أو

(١) ابن حجر الهيتمي: تحفة المحتاج ٤/٨٤.
(٢) ابن نجيم: البحر الرائق شرح كنز الدقائق ٥/١٢٥، وابن عابدين: رد المحتار ٤/٢٢٤.
(٣) الحصكفي: الدر المختار ٤/٢٣٣.
(٤) القرافي: الذخيرة ١٢/٣٧.
(٥) الشربيني: مغني المحتاج ٤/١٣٨.
(٦) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٣/٢٨٢.

تفسيق أو معصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية)[1].

ومن هنا اشتهر أهل البدع بتكفير بعضهم بعضا، (وأما أهل العلم فإنهم يُخَطِّئون، ولا يُكَفِّرون)[2].

فهل هذا يعني أن الجماعات المعاصرة امتداد فكري وعقدي للخوارج؟

أما بالنسبة للإباضية فالامتداد الفكري والعقدي واضح كل الوضوح من كلامهم ومؤلفاتهم، بالرغم من اعتدالهم النسبي في بعض القضايا.

أما فيما يتعلق بشباب الجماعات التكفيرية فالصلة موجودة بأدلتها، فمن يقارن بين آراء هؤلاء الشباب، وآراء الخوارج يجد نفس القضايا التي دندن عليها الخوارج، واستدلوا لها بأدلة مبتورة عن سياقها هي هي نفس الأفكار ونفس الحيثيات المستدل بها، وإن اختلفت صور التعبير عن الآراء، فهي نزعات خروجية مذمومة، وإن لم تنسب نفسها إلى فكر الخوارج الأُوَل.

وهذا يدعونا للكشف عن الصلة بين أهل التكفير في الحاضر والماضي من حيث الجوانب الفكرية والعقدية والمنهجية:

١ – فيما يتعلق بالجوانب الفكرية والعقدية:

وقع تشابه واختلاف بين الظاهرة قديما وحديثا، ولكن الاختلاف أكثر، فأصحاب الظاهرة قديما كان أعظم اهتمامهم بمسألة تكفير أصحاب الكبائر والذنوب، وتكفير الصحابة، ثم تناول التكفير ميدان الخلاف حول الأسماء والصفات، والخلاف حول القدر، والخلاف حول الإمامة الذي تفرع عنه تكفير الصحابة.

أما أصحاب الظاهرة حديثا فكان أعظم اهتمامهم: بمسألة الحاكمية، وقد تفرع عن ذلك وصف المجتمعات بالجاهلية والديار بالكفر. كما اهتم

(١) السابق: نفس الموضع.

(٢) ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ٤٣٩/٢.

البعض منهم بمسألة التكفير بالذنوب والمعاصي، ولم تكن المسائل القديمة في بؤرة اهتمام أصحاب الظاهرة حديثا، وإن لم تختف تماما، لكن لم تبلغ حد الظاهرة.

ويلاحظ أيضا التطابق بين أصحاب الظاهرة قديما وحديثا في عدم وجود علماء وأدلاء مرشدين، فالخوارج -كما تقدم- لم يكن فيهم أحد من الصحابة ولا من أهل العلم كما سبقت الإشارة، وكذلك أصحاب الظاهرة حديثا لم تكن قياداتهم من أصحاب التخصصات في العلوم الشرعية.

٢ - من ناحية المنهج:

تتشابه طرق التفكير والاستنباط بين أصحاب الظاهرة قديما وحديثا إلى حد بعيد، ويتمثل هذا التشابه فيما يأتي:

- اتباع المتشابهات وترك المحكمات من آيات الكتاب العزيز.
- بتر النصوص عن سياقها التي وردت فيه، الأمر الذي أحدث خللا في تناولهم لكثير من القضايا عندهم.
- الاستشهاد بالنصوص في غير موضعها، والجهل بالناسخ والمنسوخ وغيره من علوم القرآن والسنة؛ مما أدى إلى إنزال النصوص الشرعية في غير مواضعها.
- تقديم الظنون العقلية على النصوص الشرعية.
- محاولة صبغ أفكارهم بصبغة شرعية عن طريق الاستشهاد بالآيات والأحاديث النبوية.

الخاتمة

من خلال معايشتي لهذا الموضوع، أستطيع أن أقرر:

١ – أن قضية الخلاف بين الصحابة قضية عقائدية وليست تاريخية، ومن هنا ينبغي فحص الروايات التاريخية عند بحث ما حدث بين الصحابة من خلاف، ومن أراد ذلك تقع عليه مسؤولية نقد الرواية وبحثها ونقد الرواة بنفس الأسلوب المتبع فى علم الحديث من إجراء قواعد الجرح والتعديل، فبدون هذا لا يكون استدلاله مشروعا أو جائزا ولن يعفيه من المسؤولية أن يقول: إن هذه الروايات قد وردت فى كتاب تاريخ لعالم ثقة أو محدث مشهور.

٢ – أن ما وقع من خلاف بين الصحابة كان عن اجتهاد سائغ من كلا الطرفين.

٣ – أن الخوارج أول من فتحوا باب التكفير، وشقوا عصا الطاعة، وبذور التكفير قد بدأت في عهد النبي ﷺ، ثم تستسرت حتى وجدت البيئة المناسبة للظهور مرة أخرى على هؤلاء الخوارج الذين كفّروا بالذنوب.

٤ – امتداد نزعة التكفير إلى كثير من الفرق كالشيعة والمعتزلة.

٥ – أهمية حادثة التحكيم في تاريخ الفكر السياسي الإسلامي، كما يتبن أثرها في بروز نزعة الخروج التي نجمت بعدها، وأخذت شكلا مغايرا لما كانت عليه أيام حصار عثمان رضي الله عنه.

٦ – أن الأخباريين ممن اعتمد عليهم المؤرخون نسبوا إلى شخصية الحكمين –رضي الله عنهما – ما لا يليق.

٧ – أن برغم أهمية حادثة التحكيم إلا أن أكثر ما ورد فيها كان عن طريق أبي مخنف الذي توبع في كثير من رواياته بالنقد، وتبين أنه قد زوّر في

كثير من الروايات نصرة لمذهبه الشيعي.

٨ – أن فرقة الإباضية امتداد فكري للخوارج الأول.

٩ – أن الجماعات التكفيرية المعاصرة قالوا بالتكفير مع عدم اتصالهم الفكري أو العقدي بالخوارج الأوائل، وإن وافقوهم في التكفير بغير علم، من غير تحقق شروط وانتفاء موانع، مع نقص في الاجتهاد والعلم الشرعي، فهم يكفرون، لكنهم ليسوا خوارج من كل وجه.

١٠ – أن التعذيب والقهر من عوامل ظهور هذا الفكر الشاذ.

١١ – أن الحوار والمناقشة واستيعاب هؤلاء الشباب هو الطريق الأمثل لاحتوائهم وتلقينهم الفكر السليم قديما وحديثا.

١٢– أن تكمن خطورة التكفير في كونه تترتب عليه أحكام شرعية كثيرة، أهمها نفي الموالاة لمن صدر في شأنه هذا الحكم.

١٣– أن صاحب بدعة التكفير في العصر الحديث هو شكري مصطفي الذي أسس جماعة التكفير والهجرة.

١٤– أن ما ذهب إليه شكري مصطفي وجماعته، وسبقه الخوارج من قبل في التكفير بالمعاصي، لا يلتقي مع تعاليم الإسلام التي توطدت ومبادئه التي استقرت، فإن استقراء النصوص الشرعية تُثبت للمكلَّف اسم الإيمان مع ارتكابه المعاصي.

١٥– أن هؤلاء المكفرين لا يحملون علما يستطيعون به فهم مناطات الأدلة، وعلام تدل، وكيف تقع موقعها، وما ذاك إلا لجهلهم وعدم تعلمهم على أيدي المشايخ والعلماء الثقاة، وعدم تخصصهم في العلوم الشرعية.

المصادر والمراجع

- الإباضية فى موكب التاريخ: علي يحيى معمر (مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٣م)
- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، لابن بطة الحنبلي، تحقيق: رضا بن نعسان، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٩هـ.
- أبكار الأفكار فى أصول الدين، للآمدي، تحقيق: د. أحمد محمد المهدى، مطبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد، للجويني تحقيق: د.محمد يوسف، وعلى عبد المنعم، مكتبة الخانجي، ومكتبة المثنى ببغداد سنة ١٣٦٩هـ»١٩٥٠م.
- اعتقاد الإمام المنبل أبى عبد الله أحمد بن حنبل، لعبد الواحد بن عبد الوارث التميمي، تحقيق: ناصر محمدي محمد جاد، تقديم الأستاذ الدكتور محمد السيد الجليند، دار إيلاف الدولية، الكويت ٢٠٠٤م.
- أعلام النصر المبين بين أهلي صفين، لابن دحية الكلبي: تحقيق دكتور / محمد أمحزون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط الأولى، ١٩٩٨م
- الاقتصاد فى الاعتقاد، للغزالي، اعتنى به مصطفى القباني، المطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم بمصر، الطبعة الأولى.
- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية، قدم له أحمد حمدي إمام، مكتبة المدني ومطبعتها.
- تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة من روايات الإمام الطبري والمحدثين، دكتور محمد أمحزون، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، ١٩٨٢م.
- التكفير والهجرة وجها لوجه، تأليف: رجب مدكور، مراجعة وتحقيق: د. علي جريشة، مكتبة الدين القيم، مصر الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٥هـ»١٩٨٥م.
- جذور الفكر الإسلامي فى الفرق الإسلامية بين التطرف والإرهاب، تأليف:

حسن صادق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٧م.
- الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو، تأليف: محمد سرور بن نايف زين العابدين، دار الأرقم، برمنجهام، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٨هـ»١٩٨٨م.
- الحكم وقضية تكفير المسلم، تأليف: المستشار سالم البهنساوى، دار الأنصار، القاهرة.
- الخوارج الأصول التاريخية لمسألة تكفير المسلم، للدكتور مصطفى حلمى، دار الأنصار، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧هـ»١٩٧٧م.
- درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق الدكتور: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٣هـ»١٩٨٣م.
- دراسات فى العقيدة الإسلامية، للدكتور: عبد الحميد مدكور، دار الثقافة العربية، سنة ٢٠٠٠م.
- دعاة لا قضاة، للأستاذ حسن الهضيبي، دار الطباعة والنشر الإسلامية، سنة ١٩٧٧م.
- شبهات التكفير، للدكتور: عمر عبد العزيز قريش، مكتبة التوعية الإسلامية، سنة ١٤١٢هـ»١٩٩٢م.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، لأبى القاسم اللالكائي، خرج أحاديثه وعلق عليه: نشأت ابن كمال المصرى، دار البصيرة، الإسكندرية، بدون تاريخ.
- شرح السنة، للبغوي، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط، ومحمد بن زهير الشاويش، المكتب الإسلامى، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٠هـ/١٩٧١م.
- شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبى العز الحنفي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة، سنة ١٤٠٨هـ»١٩٨٧م.
- شرح صحيح مسلم، للنووي، دار الفكر، بيروت، سنة ١٤٠١هـ»١٩٨١م.

- صحيح البخاري، طبعة دار الشعب، القاهرة، سنة ١٣٧٨هـ.
- صحيح مسلم، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، بمصر، سنة ١٩٥٥م.
- ظاهرة الغلو فى التكفير، للدكتور: يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة ١٤١١هـ»١٩٩٠م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية، القاهرة، سنة ١٣٨٠هـ.
- فتح الباري، شرح صحيح البخاري، لابن رجب الحنبلي، تحقيق: محمود شعبان وآخرون، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٧هـ»١٩٩٦م.
- الفرق بين الفرق، للبغدادي، تحقيق:محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعروفة، بيروت لبنان بدون تاريخ.
- الفصل فى الملل والأهواء والنحل، لابن حزم، بهامشه الملل والنحل، للشهرستانى، مكتبة المثنى، بغداد، بدون تاريخ.
- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضيئة فى عقيدة الفرقة المرضية، للسفاريني، المكتب الإسلامى بيروت، مكتبة أسامة الرياض، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٥هـ» ١٩٨٥م.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مطابع الرياض، سنة ١٣٨١هـ.
- مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري (عصر الخلافة الراشدة دراسة نقدية)، يحيى بن إبراهيم اليحيى، دار العاصمة الرياض
- المستدرك على الصحيحين فى الحديث، للحاكم النيسابوري، وملحق به تلخيص المستدرك للذهبى، مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض (مصور من طبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن الهند).
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبى الحسن الأشعري، تحقيق: محمد

محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، سنة ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

- الملل والنحل، للشهرستانى، تحقيق محمد بن فتح الله بدران، مطبعة الأزهر، القاهرة، سنة ١٤٠٧هـ» ١٩٨٧م.
- مناقب الإمام أحمد بن حنبل، لابن الجوزي: دار الآفاق الحديثة ط ٣، ١٤٠٢، ١٩٨٢م.
- النبي المسلح، دكتور رفعت سيد، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
- النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق: طاهر الزاوى، ود. محمود الطناحى، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٣م.
- وقعة صفين، لنصر بن مزاحم المنقري، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، سنة ١٤٠١هـ» ١٩٨١م.

الارتـداد والتكفير في الديانة اليهودية

د. نيقولاس روزير نبوت
جامعة مالقة بأسبانيا

إن الديانة اليهودية على ما كانت وعلى ما زالت أن تكون فهي حجة دامغة على صدق رسالة الإسلام وخطاب القرآن عنها فكل ما جاء في الذكر الحكيم من ملاحظات وانتقادات عما عمل بعض أئمة اليهود من تغييرات وتعديلات في الوحى الأول المنزل عليهم جاء في صواب ودقة.

إن اليهودية في ملامحها الحالية والقديمة من بعد تحريف مبادئها السماوية هي نتاج عمل أئمة اليهود وأحبارهم وليس الأمر متعلق بالشعب الذي هو مجرد تابع لما يراه ويقرره قادته. وعلى ذلك فإن القرأن يميز بين أئمة اليهود والمسحيين ورهبانهم وأحبارهم وقسيسيهم من ناحية والأميين منهم عندما يقول:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ (البقرة، ٧٨).

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ ﴾(القصص، ٥).

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة، ٢٤).

﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المائدة، ٨٢).

ويفصل القرآن بين الأئمة المهديين والربانيين من أهل الكتاب ومن فسق منهم:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ ﴾ (المائدة، ٤٤).

﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ ﴾ (آل عمران، ١١٠).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (الحديد، ٢٦).

ومع ذلك يقول القرآن أن أكثرية أهل الكتاب بالغوا في دينهم عندما اتخذوا قادتهم الدينيين أربابا من دون الله:

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (سورة آل عمران، ٦٤).

ولكل ما سبق ولأسباب وظروف اخرى، خص القرآن القتال المعنوي والمادي على أئمة الكفر: ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ (التوبة، ١٢).

فبالنسبة لليهود فمعظمهم جهالا بدينهم وفي اعتقادهم لا يجوز لأحدهم القيادة الدينية بينهم إلا إذا ألم تمام الإلمام بالتلمود الذي جمع ما تسمى التوراة الشفهية، وهو مكتوب باللغة العبرية القديمة واللغة الآرمية القديمة وكلتاهما غير مفهومة عند الجمع السواد من اليهود بما في ذلك الكثير من الأحبار.

و يدعي حخامات اليهود أن التلمود هو التوراة الشفهية (أو التوراة التي على الفم = "تورا شي بعل بيه" بالعبرية) وهي مقابلة توراة موسى –عليه السلام– المسماة بالتوراة المكتوبة (أو التوراة على الكتابة = "تورا شي بكيتاف" بالعبرية). وقد ادعى اليهود أن هذه التوراة الشفهية هي منزلة في تزامن مع التوراة المكتوبة على موسى –عليه السلام– في طور سيناء. ولذا يسمون تلك التوراة الشفهية كذلك ب"شريعة موسى –عليه السلام– التي من سناء". وكان من الممكن لنا أن نشير إليها على أنها سنة موسى لولا الخلاف والتناقضات الموجودة بين كلا التوراتين. ولا غرو في هذا فالكل يعلم عند

اليهود أن التلموذ إنما هو حصاد الحخامات اليهود من تجربة منفى اليهود وتشتيتهم بين الشعوب والثقافات الأخرى، ومحاولة توفيق ما عندهم من أوامر ونواه مع الظروف التي عاشوا في تلك الأمم الأجنبية، على أساس إبقاء اليهود جماعة متميزة عن سائر الجماعات الإنسانية، من أجل الهيمنة على السلطة والنفوذ بين اليهود أنفسهم وحتى على غيرهم من الشعوب الأخرى إن أمكن الأمر.

وعلى هذا المنوال فإن مسألة التكفير عند اليهود لها أصولها في التوراة وفي التلموذ وفي كلتا الحالتين فإن الحكم في ذلك هو الإعدام لأن المرتد عند اليهود أو الشخص الذي تمت إدانته بالكفر فإنه يعتبر خطرا على الجماعة اليهودية دينا وسلوكا وأخلاقا وإجتماعا وسياسة. فكان ذلك طوال العصور بالقدر المتفاوت حتى اندلاع الثورة الفرنسية وفتح الميدان لليهود في أوربا للإندماج إلى المجتمع الأوربي بالتحرر من سلطة الأحبار عليهم. وهو الأمر الذي جعل حكم الإعدام عالقا إلى أيامنا هذه لتعذز تطبيقه على اليهود الذين فضلوا الإنضمام إلى الحضارة الأوربية الحديثة. وكذلك لأن الإنخفاض المستمر في عدد اليهود من ثلاثة قرون مضت جعل الأمر صعب التنفيذ لترك المجال مفتوحا لإعادة وعودة اليهود الذين انسلخوا من اليهودية أو أبناءهم وكل من ينحدر منهم لأجل تكثيف سواد اليهود مهما كانت الوسيلة.

وعلى كل فإن حكم التكفير عند اليهودية ما فتئ في سريان المفعول وفي تطبيق في الحالات التي تعتبر أن هناك خطرا جسيما للجماعة اليهودية وهو خطر سياسي على الأغلب.

الكفر والارتداد في إصطلاح شريعة اليهود:

هناك ثمانية مصطلحات رئيسة للدلالة على الكفر والإرتداد تبنتها اليهود في تشريعهم، أي فيما قد ابتدعه حخامات اليهود أثناء تأويلهم شريعة موسى

عليه السلام وتطبيقها اللذين انصبا في الكثير من التحريفات لأحكام التوراة والتلفيقات حولها وحول بعثة الأنبياء أجمع. وقبل الإشارة إلي تلك المصطلحات، لا بد من فهم أن في الإصطلاح اليهودي الكفر والإرتداد هما بمعنى واحد فإن اليهودية تعتبر دين عرق موروث منذ نزول التوراة على موسى عليه السلام في سناء. ويعني ذلك أن الكافر ليس الإنسان غير اليهودي أصلا لأنه لا يقدر إلا بصعوبة بالغة الالتحاق بدين اليهود فإذا ما تمكن من ذلك فإنه يهودي من مرتبة ثانية ولن يعتبر نسله يهوديا تماما إلا بعد خمسة قرون من التوارث ولا من الزمان.

وعلى ذلك فإن الحالتين الوحيدتين في ارتكاب الكفر والارتداد هما ترك اليهودي الأصلي بعض دينه أو كله من ناحية، أو التدين بدين آخر. وحتى في هذه الحالة الأخيرة يقع التمييز بين اليهودي الذي تدين بديانة غير اليهودية إكراها والذي دخل تلك الديانة إيمانا بها ورغبة فيها. وعلى أساس أن اليهودية كما جاء في تطورها في الفترة ما بين آخر أنبياء بني إسرائيل وبين عيسى عليهم السلام هو دين قومي، فالكفر والإرتداد لا ياتيان إلا من جانب واحد وهو اليهودي التارك لدينه المفارق للجماعة في لون من الألوان المذكورة في ذلك.

والتسميات الثمانية الآتية هي أهم الأسماء الموضوعة لمن مال من اليهود عن الطريق السوية في دينهم كلا أو جزءا ولكنه هناك سرد طويل من هذه التسميات لا تكاد تحصى في المؤلفات اليهودية على اختلاف الأمكنة والأزمنة والمواضيع المصنف فيها. والإكثار في تسمية المارق من اليهود دليل قاطع على وفور هذه الحالات في الحياة اليومية للجماعات اليهودية أينما قطنت ومهما كانت أوضاعها السياسية والإقتصادية والثقافية. وتلك الأوضاع لا تزال ماثلة في كنائس اليهود، بما في ذلك دولة إسرائيل التي لها تاريخ طويل ومعقد

مع هذه القضية الشائكة عند اليهود.

و من بعد هذا التوضيح فإن اليهودي الذي ينحرف عن أحكام اليودية عملا أو اعتقادا فهو يسمى" ميشوماد" أي "مرتد" أو"معتنق" دينا آخر. والمعنى الأول هو الفاني الذي يفني لأنه ترك الدين الصحيح الذي هو الحياة بعينها. وحسب السياق من الممكن فهم المصطلح على أنه يهودي عاص أو منحرف عن الدين في بعض مبادئ هذا الأخير. ولكن هو قريب من الخروج عن الملة تماما إن استمر في ذلك الاتجاه فلأجل ذلك سمي المنحرف مثل المرتد لتبيين خطورة الموقف لديه.

وفي الحقيقة يوجد نوعان من ال"ميشوماد":

١- "ميشوماد ليتيابون" أي "العاصي أو المنحرف لأجل الهوى" الذي يرفض الامتثال بأوامر ونواهي الديانة اليهودية التي هي ٦١٣ حسب التلموذ، الذي هو، كما أنفت الإشارة إليه، نتاج تأويلات علماء اليهود على التوراة المكتوبة والأعراف المحصودة عبر التاريخ اليهودي التي تسمى التوراة الشفهية. وهي حالة معظم اليهود ولو من غير البوح بذلك عندهم، لأنه من المستحيل أداء جميع أوامر ونواهي الدين اليهودي في حياة واحدة لشخص واحد.

٢- "ميشوماد ليهاكيعيص" أي "العاصي والمنحر بنية إغاظة الله". وتجعل هذه النية اليهودي الذي يحتضنها في مكان المجرم الكافر لدينه الخارج عن الملة عمليا. لكنه من الممكن والواجب انتظار توبته والرجوع من ذلك الإجرام.

وغالبا ما تنطبق هذه التسمية على اليهودي الذي يتنصر. وفي هذا الحين يتخذ ذلك المصطلح معنى المعمد، أي الذي تم تعميده لإلقاحه بالدين النصراني. وهذا الالتحاق بالدين النصراني هو أكبر خيانة في الدين اليهودي

لأن الديانة المسيحية عند اليهود أكبر ديانة وثنية بقيت على الأرض وأحسن نموذج للشرك بالله. ووقع هذا التطبيق لمصطلح "ميشوماد" للمتنصر من اليهود على كثرة تكرار الحادث، وعلى وجه الخصوص في تاريخ أسبانيا، في العصر الوسيط الأوروبي من بعد استيلاء النصارى على الأندلس. وعلى كل حال فإن ال"ميشوماد" يتضمن وعي الإنحراف أو الفسق الذي هو فيه أو الارتداد الذي يقوم به إذا ما تحول إلى دين غير اليهودية وليس جاهلا عما هو فاعله.

وظهر هذه التسمية في أيام انطيوخوس الرابع الظاهر(Ἀντίοχος Ἐπιφανὴς) (ولد نحو ٢١٥ وتوفي سنة ١٦٤ ق.م.) أحد الملوك السلوقيين. وهو إحدى الاسر الملكية التي تقاسمات إرث الإسكندر الأكبر، ذي القرنين، بعد وفاته حينما حاول أنطيوخوس إحلال الدين الإغريقي القديم محل الدين اليهودي. وشن حملة على ذلك بنشر الوثنية الإغريقية ومنع الطقوس اليهودية وتطبيق أحكام الدين اليهودي وتحريم تعلمه ودراسته. وهو الأمر الذي لقي رواجا لدى بعض اليهود الذين بدلوا بعض العقائد الإغريقية وعباداتها ببعض العقائد والعبادات للدين اليهودي آنذاك. وكان هذا الفريق من اليهود وكل من ينتمي إليه يسمى ب"ميشوماد" أي الفاني والملاحق والمطارد على انحرافه عن بعض أحكام العقيدة اليهودية أو كلها وترك البعض من عباداتها وأوامرها ونواهيها أوكلها من غير حق ولا بصيرة ولكن على اعتماد.

ولما غلب اليهود على سياسة انطيوخوس الظاهر بانتفاضة أطاحت بحكم السليوقيين في فلسطين، سنوا سنة الإحتفال بعيد "خانوكا" أي عيد التطهير حينما طهروا هيكل القدس من الأصنام التي أدخلها الإغريق ومن كان معهم ممن ارتد عن اليهودية وقتئذ أي ال"ميشوماديم"، جمع ميشوماد بالعبرية. ويقع عيد "خانوكا" كل عام ما بين أوخر شهر تشرين الثاني/ نوفمبر و أواخر شهر

كانون الأول/ ديسمبر. وعيد "خانوكا" ذكرى لانتصار التوحيد على الشرك وللوحي على نطق الهوى عند العقل وللأنبياء على الفلاسفة. لكن القومية اليهودية شوهت هذا المعنى وألبسته مغزى عرقي وطني، يجعل من ذلك العيد تحريرا سياسيا للشعب اليهودي وليس انتصار الموحدين على المشركين.

والملحوظ أن كلمة "ميشوماد" منطبقة، على الأغلب، على من يعتنق من اليهود كلا أو جزءا من دين وثني يحتوي على شرك ألهة أخرى بالله الواحد القهار. ولا تنطبق على من يعتنق دين توحيد مثل الإسلام (وهو دين التوحيد الوحيد حسب اعتراف اليهود بذلك وقتما يميزون بين انتقال اليهودي إلى هذه الديانة السمحاء والدخول إلى ديانة أخرى).

وهناك ملاحظة أخرى في مفرد "ميشوماد" وهي أن هذا إسم لا يخلو من حدوث شيء من إكراه على اليهودي الذي ينحرف عن دينه انحرافا ما وبالرغم من وعيه للموضوع فكأنه مقهور بالظروف والأقدار. وعلى ذلك، ففي الإمكان تفهم تصرفه ولو على خطأ بدون إلغاء مسؤوليته في الإثم الذي هو فيه. ومن الممكن وضع مصطلح "ميشوماد" بالعبرية بمقابل إسم "العاصي أو الفاسق" بالعربية.

إن المصطلح الثاني للمفارق للدين اليهودي هو "مومار" أي "الذي بدل الدين أو المبدل الدين بدين أخر". ويدل هذا المصطلح على من ألقى على ظهره دينه اليهودي واعتنق دينا اخرعلى تمام المعرفة بذلك. ويتضمن المصطلح معنى الخائن لدينه الرافض له بشحنة أكثر سلبية من كلمة "ميشوماد". فإن ال"مومار" ليس منحرفا عن الدين في جميعه أو قسط منه، بل هو مغادر كل المغادرة الدين الأصلي اليهودي ومنتقل إلى غيره من الأديان والملات. ومن ذا، تسمية "مومار" أي "الذي انتقل إلى دين أخر نهائيا". وهو بمعنى المهاجر أي التارك تعاليم الدين اليهودي المباعد إياها. وعلى ذلك، سمى اليهود المغاربة من

يسلم من بينهم بالمهاجرين باللغة العربية. وقرنوا بين هذا المقابل اللغوي العربي وذلك البعد المعنوي في اللكمة العبربية "مومار". و لقب "المهاجر" عند اليهود المغاربة له دلالة سلبية للغاية، على عكس ما يحدث له في تاريخ الإ|سلام. ولربما كان مقصد إطلاق هذه الإسم على معتنق الإسلام من اليهود قلب الأمر لدلالته الإسلامية من أجل زيادة تقبيح الفعل من زاوية نظرتهم.

وضمن المعاني المترتبة في مفرد ال"مومار" بالعبرية، نجد معنى المارق عن الحق والجحود له والمتعند لقبول الحق و، على صعيد آخر، المنغص حياته بفتح الغين المشددة والمتضايق بعيشه. وكلها معان تدل على الموقف السلبي من الدين اليهودي (الذي هو الدين الحنيف في اعتقاد اليهود) بالمروق عنه والجحود له ورفض قبول صحته. وهي أمور تنبثق منها مرارة الحياة وسقم الإدراك. وال "مومار" هو المصحلح اليهودي المقابل للمرتد بالعربية والإسلام.

والمصطلح الثالث لليهودي الخارج من دينه هو "بوشيع يسرائيل" أي الآثم بإسرائيل" أو "المخالف لإسرائيل" بمعنى مخالف شريعة إسرائيل وهي شريعة موسى لولا التحريفات التي عرفتها هذه الشريعة على طول وعرض تاريخ اليهود. وهي إشارة إلى ان الدين اليهودي دين قومي، دين شعب من الشعوب وهو إسرائيل، الشعب المختار عند الله على إدعاء اليهود. ويتعلق استخدام هذا المصطلح "بوشيع يسرائيل" (المجرم في حق إسرائيل) بتصور تغيير الدين بخيانة الوطن والقوم المنتمي إليهما وتبديل الجنسية الأصلية بجنسية مغاير لها ومعادية عليها.

ويدخل ضمن معاني "بوشيع يسرائيل" (المرتكب ذنبا ضد إسرائيل) معنى المؤامرة ضد دينه الأصيل وشعبه العريق والتمرد عليهما والتعدي على حرماتهما والإخلال بمصالحهما. فهو مجرم يتصرف تصرف الصعلوك بقومه وبتعاليم دينه. وهو في موقف الخائن إبان الحرب بين قومه وعدو قومه. وجميع

هذه الدلالات واردة في هذه التسمية "بوشيع يسرائيل". ويتسبب ذلك في إدانته والنظر إليه على أنه مدان بجريمة واقعة في حق دينه وشعبه. ويكون جزاؤه على جنس العمل الذي جعله يخل بأمن ذويه ومحارم دينه. واستنادا إلى جملة هذه الدلالات فإن مصطلح "بوشيع يسرائيل" هو المقابل اللغوي، مبنى ومعنى، للمصطلح الإغريقي الذي انتقل إلى معظم اللغات الأوروبية الحديثة والذي يشير إلى المرتد، وهو كلمة "أبوستاتيس" التي تعني المتمرد السياسي الذي خرج على السلطان.

والإسم الرابع للمرتد عن الدين اليهودي هو "كوفير" أي الكافر فالمعنى والبعد نفسهما في العربية وفي الإسلام. أي الذي يغطي الحقيقة ويخفيها لكيلا يعترف بها ويسهل له رفضها. فالمعنى العبري لكلمة "كوفير"، وكما هو الشأن في العربية، له صلة بالإنكار. و"كوفير" هو المنكر لحقائق الدين وفضائله ولتسني هذا الإنكار لا بد من الالتجاء إلى كذب والافتراء والتزييف والتحريف وكلها معان يشملها إسم "كوفير" العبري مثلما هو الأمر بالعربية.

والفرق الوحيد في ذلك بين العبرية والعربية، أن في العبرية، وهي لغة الديانة اليهودية، فاعل الكفر أو مرتكبه هو يهودي أصلا، ولا يجوز لغير اليهودي أصلا أن يكون كافرا لأنه لا يعتبر مؤمنا بالدين الصحيح من حيث المبدأ ولا يتوقع منه اعتناق الدين القيم لأنه لم يخلق من أجل ذلك، بل لخدمة المؤمن الحقيقي وهو اليهودي عرقا. فجميع ما نحن فيه من شرح عن كيفية الارتداد والكفر والتكفير بين اليهود، منطبق فقط على من يترك الديانة اليهودية من اليهود وليس من يترك أي دين آخر ويدينه به فجميع الأديان مبطلة عند اليهود ما عدا دينهم ولو اعترفوا بفضل الإسلام على أنه تصور خاطئ لليهودية.

وال"كوفير" كذلك وعلى منوال العربية يحمل معنى الإلحاد وإنكار وجود الخالق للخلق المدبر لشؤونه والهرطقة في العقائد بصدده.

أما التسمية الخامسة لمن يرتد من الدين اليهودي هو "مين" أي "نوع" أو "جنس" (من الكفر أو الفسق أو الإلحاد). ويتم استخدام هذا اللقب في من يجحد وجود إله خالق للكون مدبر له، ويلحد به. وذلك، كما هي الحالة في الإسلام، هو عين الكفر وجريمة لا تستغفر فإنه يقض أساس التوحيد والعبودية في الدين اليهودي ويخرج إثر قوله من الملة، إلا وأن الطبيعة العرقية الغالبة في الدين اليهودي، الناتجة من تلفيقات وافتراءات علماء اليهود (الأحبار أو الحخامات)، لا تقدر على طمس الهوية الدينية اليهودية من أحد من اليهود الأصليين، ولا إلغاء انتمائه إلى الأمة والدين اليهوديين، على ما وصلت إليه قرارات الأحبار في هذه القضية. وعلى ذلك، يبقى حكم الملحد، الذي هو الحكم بالإعدام، عالقا دون تنفيذ حتى موت من ادعى ذلك البهتان على الله. ويأتي الاستثناء الوحيد على ذلك في حالة تضرر الجماعة اليهودية بكفر الملحد بالله. وعندئذ يتم البحث عن طريقة للقضاء عليه والتخلص منه ولو بمكر. فإن حكم الإعدام وارد في التوراة ولكن لمن يأبى عبادة الله والتسليم لأوامره ونواهيه عز وجل أو لمن يوجه عبادته لغير الله من الأصنام والطواغيت. ويطلق إسم ال"مين" سواء كان على كافر بالله أو المشرك به عز وجل في عبادته للأوثان. وهو الإسم السائد في المؤلفات اليهودية المتخلفة والذي يقابل في الإسلام إسم الكافر أو المشرك، بالرغم من وجود مفرد "الكافر" في اللغة العبرية.

والإسم السادس المطلق على من ينكر العقيدة اليهودية والعمل بمقتضاها من بين اليهود فهو "أبيكوروس". وهو إسم أحد فلاسفة الإغريق (٣٤١–٢٧٠ ق.م.) الذي كان يدعو إلى اتخاذ التمتع برغائد الحياة طريقا إلى السعادة في

الدنيا بنسيان آلامها. ولكن من جاء وراءه أطلق العنان على التمتع الحر دون حدود ولا اتزان فأضحت التسمية مرادفة لمن لا يريد إلا السعي في ملذات الدنيا ملقيا على ظهره كل قيمة أو ورع في ذلك. وبهذا المعنى الآخير راج إلحاق الإسم بمن يرفض شريعة القيم الدينية أو الأخلاقية سواء كان في الديانة اليهودية أو المسيحية. وعلى هذا، فإن "أبيكوروس" يشارك كلمة "مين" في الإلحاد بوجود الخالق للكون عبر نكرانه الشرائع المنزلة من قبله تعالى على الإنسان، وهي شرائع نزلت أولا وآخيرا لضبط حياة بني آدم في جميع الميادين، بما في ذلك ترويض الهوى والنفس.

وينظر اليهود إلى هذا الموقف على أنه عين التمرد والمروق عن أمر الله ونهيه فإنه الإثم الذي وقع فيه في البداية أبينا آدم عليه السلام، الذي خالف ما نهاه عنه ربه عز وجل وقد وضع ذلك النهي لسعادة البشر، مثلما فعل تعالى حينما أوحى بمختلف الشرائع عبر التاريخ إلى الوصول إلى شرعة الإسلام الناسخة لما قبلها الشاملة لما بعدها. ويرى اليهود أن الشريعة، ولو محرفة وإن ثقلت عليهم، فمغزى مجيئها رفع مستوى الإنسان (أي اليهود بأنفسهم) فوق جميع المخلوقات. والدليل على هذا الرأي في مقولة الحخام الروسي "خافيتس خايم" (إسرائيل مبير كاغان –١٨٣٨–١٩٣٣ م.):

"لا أفهم تسمية " اليهود الأحرار" التي راج استخدامها اليوم. ما هذا؟ صحيح أنهم أحرار لكنهم ليسوا يهودا. كلا الأمرين متناقض للآخر، لأن اليهودي ليس حرا والحر ليس يهوديا.. {..} مثلهم (اليهود الأحرار) مثل الأعضاء الميتة في أمتنا التي تفسد سائر الجسم. ولو سمى هؤلاء أنفسهم يهودا فإن موقفهم المبني على مفهوم زائف يرمز إلى أن من الممكن كون الإنسان يهوديا دون التوراة وأحكامها لمعارض التوراة ويستأصل التوراة استئصالا جذريا".

والتسمية السابعة لمن يدع الدين اليهودي هي "أنوص" أي "المكره أو المقهر" (في ترك الديانة اليهودية). وذلك إسم مطبق على اليهودي الذي قد تم إرغامه في ترك اليهودية واعتناقه دينا مغايرا لها. فهذا اليهودي لا يزال يعتبر يهوديا لكنه يهودي من نوع خاص يحتاج إلى معاملة خاصة أيضا. والشرط الوحيد في بقاء اليهودي المكره لتغيير دينه في اعتباره يهوديا هو الاعتراف بصحة العقيدة اليهودية ولو لم يمارس طقوسها.

وذلك أشبه ما هو بحالة التقية عند المسلمين بنفس التقدير لها على أنها حالة مؤقتة في أقصى الخطورة، يجب الانتقال منها في أقرب وقت ممكن. ولكن، كما حدث مع ال"مورسكيين" في أسبانيا قد بقي إلى حد الآن، و منذ قرون، بعض من اليهود في هذه الحالة. وفي هذه الأزمنة الأخيرة، تحاول عدة مؤسسات يهودية، مثل "بيناي أنوصيم" (أي "أبناء المكرهين على هجرة الدين اليهودي") أو "تربوط سيفاراد" (نسل سيفاراد وهو إسم الجزيرة الإيبارية بالعبرية) استرداد هؤلاء المنحدرين من الأنوصيم إلى الدين اليهودي بإصدار فتاوى على صحة انتمائهم إلى العرق والدين اليهوديين والقيام بتربيتهم في عقائد وأحكام اليهودية. وبالرغم من ذلك فإن عددا لا بأس به من أحبار اليهود لا يضعون في سلك اليهودية حفدة الأنوصين الذين طال خروجهم من الديانة اليهودية إلا من شهدت حالته بذلك أو إذا حصل ذلك ال"أنوص" بشهادة يهودي آخر على انتمائه إلى العرق اليهودي والدين اليهودي أصلا.

وهذا الإعتبار للأنوص عند اليهود يأتي من أنهم يعيرون اهتماما بالغا للعرق الذي يبقى ماثلا فيمن تنصر أو أسلم من اليهود، رجاء منهم أن يكون الأمر وضعا مؤقتا سببه عارض عابر. ومن المعتاد، التسمية بأنوص غالبا لمن تنصر من اليهود، لأن أغلبية حالات الإكراه في ترك دينهم كانت في بلدان النصارى ولا تطبق إلا نادرا على من يسلم من اليهود فإن اعتناق الإسلام

عندهم وعند سائر الأديان يتم ضمن الاختيار الحر ولا مجال لتطبيق هذه التمسية عليه.

ومن الملفت للنظر أن التقية الإسلامية وحالة ال"أنوص" قد ظهرتا على سعة معانيهما غدوة استلاء النصارى على أراضي الأندلس في شبه الجزيرة الإيبارية. وكلتا الحالتين دامت مدة طويلة حتى وصلت إلى أيامنا هذه فيما يتعلق باليهود الأنوصيم، على وجه الخصوص في جزيرة ميورقة في أسبانيا وفي قرية بلمنتي في البرتغال. وفي شأن المسلمين لا نجد تلك المؤسسات التي تهتم باستعادة من انحدر من المسلمين الذين تنصروا كرها. ولربما يعود السبب في ذلك إلى أن الإسلام دين عقيدة وليس دين عرق، كما هي الحال في اليهودية على ما انتهى إليه علماء اليهود وليس على ما كان وقت بعثة موسى عليه السلام.

والتسمية الثامنة لمن وقع في الإرتداد من الدين اليهودي هي "سونيء" أي "الكاره " (لشعب إسرائيل) وهو اليهودي الذي ينتقد تصرفات اليهود جماعة أو العقائد اليهودية أو أحكام دينهم. وتحتوي هذه التسمية معنى "الكاره لنفسه لأنه يهودي" وهذه حالة تناقض عند اليهود، لأنهم لا يفهمون كيف أحد فضله الله باليهودية ويكره ذلك الفضل. فهم يرونه خطيرا عليهم بسبب تشكيكه في نظامهم الديني والجماعي والسياسي فإنه في الكثير من الأحيان يفضح بإنتقاداته الانعواجات الموجودة في النظر اليهودي للدين والعلاقات الإنسانية بين ذاتهم وبينهم وغيرهم.

ونجد أن هناك تدارجا تاريخيا في حدة التسميات المطبقة على اليهود الذين هجروا اليهودية في منوال يدل على التشدد التدريجي في معنى وبعد هذه التسميات وفي معادلة عكسية بالنسبة إلى إمكان سلطات اليهود المختلفة عبر التاريخ لتطبيق الأحكام المتعلقة بالارتداد عن الدين اليهودي. فكلما انخفض الإمكان في تطبيق الحدود المتبنية عليه، وهي حكم الإعدام في الحالات

البائن فيها الكفر عن ملة اليهود على الإطلاق، ازدادت شدة الدلالة على ذلك الفعل. وعلى نقيض ذلك فإن المصطلاحات كانت في أكثر خفة وقت تمتع اليهود بسلطة سياسية وقضائية فعالتين.

وتأتي التسميات على الترتيب التالي، نظرا إلى درجة الابتعاد عن معتقدات اليهود ومهنج الحياة المبني عليها وإلى الضرر المنعكس بذلك الابتعاد على الفرد المخطئ بذلك الفعل أولا وعلى جماعة اليهود ثانيا:

- سونيء
- أنوص
- ميشوماد
- مومار
- كوفير
- مين
- أبيكوروس
- بوشيع يسرائيل

وبجابب اعتبار الهوية اليهودية ماهية روحانية وجسمية إذا وقع الحكم التكفير بمعنى حكم نبذ الشخص عن الجماعة اليهودية فالحد لذلك هو الرجم حتى الموت وهو حد وارد في التوراة وفي التلموذ. وحكم التكفير والإدانة به وارد شرحه في التوراة الشفهية التي في هذه الحالة هي كذلك تفسير للتوراة المكتوبة، على ما ياتي في التملوذ في رسالة "أحكام عبادة الكواكب –والكواكب هنا بمعنى الأوثان والطواغيب– (هلحوت أفودات كوخافيم) في الباب الثاني والحكم الخامس:

"إن أي يهودي يعبد الأوثان فيعتبر أنه مشرك (عابد الأوثان) في جميع الأحكام وليس هناك وجه للمقارنة باليهودي الآثم بأي ذنب آخر والواجب

رجمه إلى الموت. وأي مرتد (مومار) يخدم الأوثان قد أنكر وارتد عن التوراة كلها.

ومثلهم مثل الأبيكوروسيم (جمع أبيكوروس أي المارقون الكفار من اليهود) الذين لا يتم اعتبارهم يهودا من أي وجه من الوجوه، وتوبتهم غير مقبولة حسبما يأتي في سفر الأمثال في الباب الثاني والأية التاسعة عشرة: لا أحد ذهب (في طريق الفسق) يعود للتوبة ولن يلتحق بسبيل الحياة".

"الأبيكوروسيم" هم الذين يسعون وراء ما تملي عليهم تفكير قلوبهم من الخزعبلات التي سبقت الإشارة إليها، حتى يمرقوا عما جاء في جسم التوراة علوا وازدراء بنية إغضاب الله وزعما أن ذلك ليس إثما.

وحديثهم حرام والجواب عن أسئلتهم حرام مطلق على ما يقول سفر الأمثال في الباب الخامس والآية الثامنة: "لا تقرب من بابه"

فإنه من الممكن تسليمه أن ما ينوي ال"أبيكوروس" بكلامه يشير إلى الطواغيت (ولا إلى الله)".

רמב"ם הלכות עבודת כוכבים פרק ב הלכה ה

ישראל שעבד עבודת כוכבים הרי הוא כעובד כוכבים לכל דבריו ואינו כישראל שעובר עבירה שיש בה סקילה, מומר לעבודת כוכבים הרי הוא מומר לכל התורה כולה, וכן האפיקורסים מישראל אינן כישראל לדבר מן הדברים ואין מקבלים אותם בתשובה לעולם שנאמר כל באיה לא ישובון ולא ישיגו ארחות חיים, והאפיקורסים הם התרים אחר מחשבות לבם בסכלות דברים שאמרנו עד שנמצאו עוברים על גופי תורה להכעיס בשאט בנפש ביד רמה ואומרים שאין בזה עון, ואסור לספר עמהן ולהשיב עליהן תשובה כלל שנאמר ואל תקרב אל פתח ביתה, ומחשבה של אפיקורוס לעבודת כוכבים.

+/השגת הראב"ד/ ישראל שעבד וכו' לכל דבריו. א"א אעפ"כ אסור לאבד ממונו בידים מידי דהוה אמסור אבל אם נשא עובדת כוכבים ואין לו זרע כשר ודאי מותר לאבדו בידים או ליטלו מעצמו.+

ويوجد في سفر أحكام المتمردين (هلحوت ممرين) من التلموذ في الباب الثالث والحكم الثاني الحكم التالي:

"إذا ما تبين جهرا أن أحدا قد كفر بالتوراة الشفهية وهو منكر لها فهو

مثل جميع المارقين (أبيكوروسيم) والذين يقولون إنه ليس هناك توراة منزلة من السماء والخونة الوشاة (موسيريم) والمرتدين (موماريم) لأنه لا أحد منهم ينتمي إلى إسرائيل ولا تقبل شهادته ولا وعظه ولاينصب حكما وعلى ذلك فإن كل من قتل أحدا من أولائك فإنه قد أدى فريضة عظيمة وأطاح بعرقلة"

רמב"ם הלכות ממרים פרק ג הלכה ב

מאחר שנתפרסם שהוא כופר בתורה שבעל פה [מורידין אותו] ולא מעלין והרי הוא כשאר כל האפיקורוסין והאומרין אין תורה מן השמים והמוסרין והמומרין, שכל אלו אינם בכלל ישראל ואין צריך לא לעדים ולא התראה ולא דיינים [אלא כל ההורג אחד מהן עשה מצוה גדולה והסיר המכשול].

ونلاحظ كذلك أنه، بناء على التسميات السابقة، لا يحدث التكفير إلا بالعمل خارج نطاق الدين اليهودي اعتقاديا وعاداته عمليا ومصالح اليهود اجتماعيا وسياسيا. ولكن طبيعة هذا العمل غير ثابتة في نوعها على أساس تقلب الظروف السياسية والإجتماعية. وبذلك نجد هذا التردد في المصطلحات وأبعادها الدلالية وفي النوعية اللغوية للتسميات. وكذلك نلاحظ كيف الكفر والإرتداد متعلقان غالبا بكفر وإنكار التوراة الشفهية، أي الأحكام الموضوعة من طرف حخامات اليهود، وقليلا ما تمس القضية التوراة المكتوبة، أي الوحي الإلهي ولو محرف، وإن أوقع إنكار هذه الأخيرة في الكفر بالطبع.

ومع كل ما جاء في التوراة والتلموذ بإدانات للمرتد عن الدين اليهودي فإن كل هذه التسميات، على ما تدل من أحوال متنوعة في البعد عن الدين اليهودي، لا تمحو هوية اليهودي العرقية. والتوبة على متناول جميع المرتدين إلى وقت الوفاة لأن اليهودية حالة خلقية بفتحة في الخاء واللام وخلقية بضمة في هاتين الحرفين وهي أبدية لمن ولد من أم يهودية لا تبطلها أية جريمة مهما عظمت. وحتى في الآخرة هناك تمييز بين اليهودي العاصي والمرتد وبين غير

اليهود فإن اليهودي ولو كان مرتدا فهو في مستوى فوق غير اليهودي دائما وأبدا.

فالإرتداد والكفر عند اليهود هي حالة عملية ومؤقتة ما دامت السماوات والأرض فلا يجوز للمرتد على تنوع مضامين تسمياته في اليهودية القيام ببعض الأعمال التي هي حكرة على اليهود الصالحين، إن صح ذلك التعبير، مثل حمل ومس كتاب التوراة والإشتراك في نصاب صلاة الجماعة اليهودية (وهو عشرة رجال) أو صناعة الخمر اليهودية التي لا تجوز لمسها من غير اليهودي في جميع مراحل صناعتها. ولكنه، وخارج هذه الأعمال القدسية حسب نظر الشريعة اليهودية، فالمرتد اليهودي يتراوح بين الإيمان والكفر على تفاوت احترامه لأحكام الدين اليهودي بما نص عليه آراء الحخامات اليهود في التلموذ. وذلك أشبه ما هو بمبدأ "المنزلة بني المنزلتين" في عقيدة المعتزلة في الإسلام.

ولذا فحكم الحرم أو المحرمة (الخيريم أو المخرمة بالعبرية أي الطرد من الديانة اليهودية) وهو التكفير، يشمل أحكام متباينة على حساب جسامة الإنحراف أو الإرتداد عن تعاليم الدين اليهودي في تصورات الحخامات اليهود. وأحكام التكفير عند اليهود لا تتضمن خلع اليهودي من يهوديته، لأن هذه الهوية اليهودية ليست، مثلما هو الشأن في الإسلام وفي المسيحية، هوية دينية، بل هي ماهية روحانية وجسمية على حد سواء، تأتي على أساس عرقي لمن ولد من أم يهودية. وهي ماهية غير قابلة للزوال مهما ارتكب اليهودي من ذنوب أو تعديات على حدود شريعة اليهود. ومن ذا، فإن حكم التكفير عندهم ليس مطلقا ولا كليا بل نسبي ومتفاوت على الحالات والأشخاص ولا يقدر على إزالة اليهودية ممن أطلق عليه ذلك الحكم بالتكفير والذي يرجى منه الرجوع من كفره أو ارتداده طول حياته إلى حصول الموت. وحتى من بعد الموت، تقام

عليه طقوس اليهود في الجنازة إن رغبت في ذلك عائلته أو أقاربه لأنه يهودي ولو كان كافرا باليهودية كما ينص عليه التلموذ:

"من يأثم من إسرئيل لا يزال من إسرائيل" (تلموذ، قسم الجيماراء – الترجمة والتفسير بالعبرية– في مبحث الأضرار – سيدير نزيكين– في رسالة المجلس – سنهدرين– ٤٤أ).

فهرس المصادر

- "بذل المجهود في إفحام اليهود" للحكيم السموءل بن يحيى بن عباس المغربي (ت. ٥٧٠ هـ)، قدم له وخرج نصوصه وعلق عليه: عبد الوهاب طويلة، دار القلم، دمشق، ١٤١٠–١٩٨٩م.
- "قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين" لمؤلف مجهول، دارسة وتحقيق: محمد فتحة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، المغرب، ٢٠٠٤م.
- "لا أميناثا إنيتريور" (الخطر الداخلي: تاريخ المعارضة اليهودية للصهيونية) باللغة الأسبانية وهي ترجمة من الأصل الفرنسي على قلم إيرينا سلسير، يعكوف ركبين، هيرو للطباعة والنشر، هونداروبيا، أسبانيا، ٢٠٠٦م.
- "لوس خوديوس دي أسبانيا" (يهود أسبانيا) بالأسبانية، جمع مقالاته ألي كادوريا، دراكونتوس للطباعة والنشر، برشيلونة، ١٩٩٢م.
- التلموذ بالعبرية والأرامية والإنجليزية.
- الكتاب المقدس بالعبرية والعربية والأسبانية.